

إليزابيث لايتفوت

# ميشيل أوباما

السيدة الأولى وبريق الأمل



ترجمة سمية ممدوح الشامي



# ميشيل أوباما

السيدة الأولى وبريق الأمل

تأليف

إليزابيث لايتفوت

ترجمة

سمية ممدوح الشامي

مراجعة

مجدي عبد الواحد عنبة



Michelle Obama

Elizabeth Lightfoot

ميشيل أوباما

إليزابيث لايتفوت

الناشر مؤسسة هنداوي

المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦/١/٢٠١٧

يورك هاوس، شيبث ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة

تليفون: ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢ (٠) ٤٤ +

البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org

الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إن مؤسسة هنداوي غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: إيهاب سالم

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٠٠٢٧ ٩

صدر الكتاب الأصلي باللغة الإنجليزية عام ٢٠٠٨.

صدرت هذه الترجمة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٠٩.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.  
جميع حقوق النشر الخاصة بالترجمة العربية لنص هذا الكتاب محفوظة لمؤسسة هنداوي.

## المحتويات

٩	شكر وتقدير
١١	تمهيد
١٩	مقدمة
٢٩	١- انتزاع المكانة المستحقة
٤٣	٢- سنوات الجامعة
٦٣	٣- العمل من أجل أن يصبح العالم على ما يجب أن يكون عليه
٧٩	٤- أنت وأنا (معاً نستطيع أن نواجه العالم)
١٠٧	٥- الأمومة الوظيفة الأولى للسيدة الأولى
١٢١	٦- قوية كالجبل
١٤١	٧- اللون الأرجواني
١٥٥	٨- قضايا العرق والجنس والعمر
١٧٩	٩- مشهد جديد
١٩٣	١٠- أينما تنظر، تر ميشيل
٢٠١	١١- نهاية السباق
٢١١	١٢- اجتياز خط النهاية
٢١٥	١٣- إنجازات السيدة الأولى
٢٢٩	١٤- إرث ميشيل أوباما
٢٣٩	١٥- ماذا بعد؟
٢٤٧	ملاحظات



إلى نيك وجرايم وإيزابيل وألاستير وأونر،  
بكل الحب والأمل



## شكر وتقدير

إن تأليف كتاب عن شخصية وطنية في غضون أشهر قليلة، ثم تحديثه بعد عشر سنوات ليعكس ما حدث في العَقد الذي تلا ذلك، مهمة شاقة، ولم تكن لتتحقق لولا مساعدة جهاتٍ عديدة.

أولاً: أتقدم بالشكر الجزيل لصديقتي العزيزة، جورجينا جودوين، التي رشَّحتني لكتابة سيرة ميشيل أوباما.

ثانياً: أتقدم بالشكر الجزيل لتوم مكارثي، كبير المحررين في جلوب بيكوت، الذي غامر بي. شكراً لك على إتاحة الفرصة لي من أجل سرد هذه القصة المؤثرة، وعلى توجيهاتك. شكراً أيضاً لمحرة الإنتاج ميريديث دياس، على حرصها وقراءتها الدقيقة.

شكراً لجميع الأصدقاء والمعارف الذين ساعدوني في البحث و/أو التعارف. شكراً لزملائي في المدرسة، الذين كانوا لطفاء بما يكفي لمنحي بعض المرونة. شكراً لوالديّ، ديك وجودي لايتفوت، اللذين، كما هو الحال مع ماريان وفريزر روبنسون، جعلنا أطفالهما يؤمنون بقدرتهم على تحقيق أي شيء يطمحون إليه.

شكراً لزوجي نيك، وأطفالي جرايم، وإيزابيل، وألاستير، وأونر، على دعمهم وتشجيعهم لي، ولأنهم، بحسب تعبير ميشيل أوباما في كتابها السنوي، «أعز ما أملك».

وأخيراً، شكراً لميشيل وباراك أوباما على هذه القصة الملهمة. عسى أن نواصل جميعاً قول «نعم، نستطيع» وأن نعمل من أجل الارتقاء بعالمنا إلى ما نطمح إليه.



## تمهيد

كيف خرج هذا الكتاب إلى النور؟

لا تزال ميشيل سيدة الأمل الأولى  
(ورغم انقضاء ١٠ سنوات، يبقى اللقب ملائمًا لها تمامًا)

من الصعب تصديق ذلك الآن، بعد عقْدٍ كامل، ولكن في أوائل عام ٢٠٠٨م، كان عددٌ قليل نسبيًا من الأمريكيين يعرفون اسم ميشيل أوباما. كنا نعرف عن باراك أوباما، زوجها، السيناتور الشاب من إلينوي، الذي برز بقوة بعد إلقائه خطابًا رئيسيًا مؤثرًا في المؤتمر الوطني الديمقراطي لعام ٢٠٠٤م؛ لأنه وجد نفسه الآن أحد المتنافسين النهائيين على ترشيح الحزب الديمقراطي لرئاسة الولايات المتحدة. كنا نعرف الخطوط العريضة لقصة حياته من خطابه عام ٢٠٠٤م وكتابَي سيرته الذاتية «أحلام من والدي» و«جراًة الأمل»، لكننا لم نعرف سوى القليل جدًّا عن قصة حياة شريكة حياته. من هي ميشيل لافون روبنسون أوباما، السيدة الأولى المحتملة؟

كان هذا هو السؤال الذي طرحه عليّ توم مكارثي، المحرّر في دار نشر ليونز برس، عندما اتصل بي في أواخر شتاء عام ٢٠٠٨م، مع احتدام السباق التمهيدي. كانت دار نشر في ولاية كونيتيكت تتطلع إلى نشر كتب عن السيدتين الأوليين المحتملتين، ميشيل أوباما وسيندي ماكين. (في ذلك الوقت، كانت هيلاري كلينتون لا تزال في سباق الترشيح الديمقراطي، لكنهم رأوا أنه لا أحد يحتاج حقًا إلى تعريف بزوجها، بيل، الرئيس السابق والمرشّح لمنصب الرجل الأول أو الرجل النبيل الأول، أو أيًّا ما كان سيطلق عليه لو فازت زوجته.) هل كنتُ سأهتم بالكتابة عن ميشيل؟

بالتأكيد كنت سأهتم. ميشيل وباراك أوباما كانا مرشّحين لأن يكونا أول رئيس وأول سيدة أولى أمريكيّين من أصلٍ أفريقي للولايات المتحدة. بغض النظر عن النتيجة النهائية، ستكون الانتخابات الرئاسية لعام ٢٠٠٨م تاريخية. بالنسبة إليّ، مُراسلة الصحف ووكالات الأنباء السابقة، ما هي القصة الأفضل التي يمكن أن أشهدها وأرويها؟

مثل معظم سكان العالم في تلك المرحلة، لم أكن أعرف سوى القليل عن السيدة الأولى المنتظرة. لمحتها أول مرة قبل أيام قليلة فقط، عندما شغلت التلفاز بالصدفة وشاهدت مقابلةً أجرتها مع لاري كينج. ومثل أي شخصٍ آخر كان يشاهد قناة «سي إن إن» تلك الليلة، رأيت امرأةً جذابةً، فصيحةً، تبدو مرتاحةً بوضوح أمام الكاميرا. كانت هادئةً ومرحةً، تُشارك مُضيفها في مزاحٍ سلس، لكنها لا تخلج من طرح الأسئلة المهمة. تحدّثت ببلاغة، وبشيءٍ من المزاح، عن زوجها، وكانت بوضوح أمًا ملتزمةً ومُخلصةً. باختصار، بدت هادفةً، مُثابرةً، لبقةً، جذابةً، مُثيرةً للاهتمام، تمامًا كزوجها الذي يزداد شهرةً يوميًا بعد يوم.

الجزء الذي أترّ في حقّها في المقابلة كان عندما سألتها لاري كينج عن مسألة العرق في انتخابات عام ٢٠٠٨م. مع أنها لم تُنكر أن العرق كان عاملاً مؤثراً، قالت ميشيل إن ما يفعله زوجها في الواقع هو جمعُ الناس، من مختلف الخلفيات ومن مختلف مناطق البلاد. وأضافت: «أعني، كما تعلمون، لقد تطرّق إلى كل جانبٍ من جوانب هذا البلد؛ كل عرق، وكل حزبٍ سياسي. وأعتقد أنه يوحدُ الناس ليس حول العرق، بل حول الأمل. وأقول إن هذا العرق هو ببساطة تجديد للأمل.»<sup>1</sup>

لقد أترّ أسلوبها ورسالتها فيّ، وألهمني البحث والتنقيب. اكتشفتُ أنني وميشيل أوباما في العمر نفسه، وأننا حاصلتان على شهادتي من الجامعة نفسها، وأننا نواجه بعض القضايا نفسها: كيفية الموازنة بين الأسرة والمهنة، وكيفية الموازنة بين أحلامنا الشخصية وأحلام أحبائنا، وكيفية صنع فرقٍ في العالم، مع الاهتمام في الوقت نفسه بمسئولياتنا اليومية الدنيوية التي لا تنتهي.

أثارت رسالة بريدٍ إلكتروني تلقّيتهُ فجأةً اهتمامي أكثر. فبعد أن اشتركتُ لتلقّي معلوماتٍ عن حملة أوباما عقب مشاهدة المرشّح الرئاسي يُلقي خطاباً في تجمّع انتخابي قبل عدة أسابيع، فتحتُ حاسوبِي في أواخر فبراير لأجد رسالة بريدٍ إلكتروني في صندوق الوارد. وقد كان نصّها: «إليزابيث. أرسل لي صديقٌ هذا الفيديو خلال عطلة نهاية الأسبوع. بعد قرابة عامٍ من الحملة الانتخابية، رأيتُ الكثير من الأمور التي أثرتُ فيّ بشدة، ولكن

كان لا بد لي من مشاركة هذا معكم.» شارك الكاتب رابطاً لفيديو «نعم نستطيع»، وهو فيديو من إنتاج will.i.am يعرض خطاباً لحملة باراك أوباما مصحوباً بلحنٍ موسيقيٍّ بمشاركة مجموعةٍ من الفنانين المشاهير، من سكارليت جوهانسون إلى كريم عبد الجبار. طلبتِ الرسالةُ الإلكترونية من المتسلِّمين مشاركة الفيديو مع أصدقائهم وعائلاتهم. كان التوقيع ببساطة «ميشيل».<sup>2</sup>

أبرزَ الفيديو، الذي انتشر على نطاق واسع، الطابعَ الشعري لكلمات المرشِّح، فضلاً عن الإيقاع الموسيقي لخطابه. ثم كانت هناك الرسالة نفسها. بدأ الفيديو قائلاً: «لقد كانت عقيدة، مكتوبةً في الوثائق التأسيسية التي أعلنت مصير أمة، نعم نستطيع. همسَ بها العبيد ودعاة إلغاء العبودية وهم يشقُّون طريقهم نحو الحرية عبر أحلك الليالي. نعم نستطيع.» ثم تحدث عن المهاجرين، والعمال الذين نظَّموا أنفسهم، والنساء اللواتي نلن حق التصويت، ورئيس «اختار القمر حدوداً، وملك أخذنا إلى قمة الجبل وأشار إلى الطريق إلى الأرض الموعودة». وانتهى بدعوةٍ حماسيةٍ لقول «نعم» للعدالة والمساواة والفرص والرخاء، مع ويليام ورفاقه، وهم يرددون طوال الوقت: «نعم، نستطيع».<sup>3</sup>

كيف لا يتأثر أحد؟ كيف لا يرغب أحدٌ في معرفة المزيد عن كاتبة البريد الإلكتروني، السيدة الأولى المحتملة؟ لذا، نعم، كنت متحمسةً لمشروع الكتاب، ولكن قبل توقيع العقد، شعرتُ أنني بحاجةٍ لعرض الفكرة على زوجي وأطفالي الأربعة، الذين كانت أعمارهم آنذاك تسع سنوات وثلاث عشرة وخمس عشرة وست عشرة سنة. سألتهم: «ما رأيكم؟ هل يجب عليّ — هل أستطيع — فعل هذا؟» فأجابوا: «هل أنت مجنونة؟ نعم، تستطيعين!» (لم يغب عني أن كلماتهم كانت صدئاً لرسالة الرئيس المحتمل).

وهكذا، بمباركتهم، قلتُ نعم. خلال الأشهر القليلة التالية، بينما كان أطفالي يتناولون الحبوب أو المكرونة أو زُبدة الفول السوداني والمُرَبَّى في كل وجبة، كنتُ منغمسةً في كل ما يخصُّ ميشيل. قضيتُ ساعات يقظتي في متابعة الصحف والمجلات والمواقع الإلكترونية والمدونات ووسائل التواصل الاجتماعي والكتب؛ ومشاهدة نشرات الأخبار التلفزيونية والبرامج الحوارية الإذاعية وتصفح «يوتيوب»؛ والتواصل مع أي شخص يستطيع إخباري المزيد عن ميشيل أوباما. كيف كانت طفولتها؟ ما هي مهنتها؟ كيف خصصت هي وباراك وقتاً لنفسيهما ولابنتيهما مع كل ما يشغلها؟ ما هي القضايا الأكثر أهميةً بالنسبة لها؟ كيف من المرجح أن تقضي وقتها كسيدةٍ أولى؟ وماذا يعني، بالنسبة لعائلة أوباما، وبلدنا، وللعالم، أن تستقر أول عائلةٍ أمريكية من أصلٍ أفريقي في البيت الأبيض؟

كان هناك الكثير مما يجبُ غربلته، ثم الكثير مما يجبُ جمعه في قصةٍ متماسكة. المثير للاهتمام هو أنه بعد أن جمعتُ الكثير من الملاحظات حول كل شيء، من مصممي الأزياء المفضلين لديها إلى أطروحتها النهائية في جامعة برينستون، عندما جلستُ للكتابة، انهمرت الكلمات. كان الأمر كما لو أنني وهذه القصة كنا على موعدٍ للقاء.

التزمتُ بالموعد النهائي، فجمعتُ أحد عشر فصلاً، وأجريتُ بعض المراجعات بحلول أوائل أغسطس لتكون المخطوطة جاهزةً للنشر بعد الانتخابات مباشرةً. ثم، في مساء الرابع من نوفمبر ٢٠٠٨م، جلستُ أمام التلفزيون مع حاسوبي المحمول، منتظرةً وصول النتائج لأكتب الفصل الأخير، «اجتياز خط النهاية».

حوالي الساعة الحادية عشرة مساءً، اتضح أن بلدنا سيحظى بعائلةٍ أولى جديدة وجميلة وشابة: باراك، وميشيل، وماليا، وساشا أوباما. سجّلتُ انطباعاتي، ولم تخلُ من دموعٍ تتساقط على لوحة مفاتيحي وأنا أشاهد رئيسنا الجديد وزوجته وطفليته، وذلك الحشد الرائع السعيد المفعم بالأمل في حديقة جرانث في شيكاغو. في صباح اليوم التالي، بينما كان العالم يستوعب الأخبار، كتبتُ ملاحظاتي وأرسلتُ الفصل الأخير إلى الناشر. انتهيتُ، أو هكذا ظننتُ.

بعد عشر سنوات، في مارس ٢٠١٨م، وصلّتي رسالة بريد إلكتروني من توم مكارثي، المحرر الذي تواصل معي قبل كل تلك السنوات. بعد عقْدٍ كامل من صدور الطبعة الأولى، كانت دار النشر تتطلع إلى إعادة إصدار كتاب «ميشيل أوباما: سيدة الأمل الأولى» بمقدمةٍ جديدة وفصولٍ جديدة عن المبادرات الرئيسية للسيدة الأولى أثناء وجودها في البيت الأبيض، وإرثها، وما قد نتوقّعه في المستقبل. هل يهمني ذلك؟

في الحقيقة، تردّدتُ. أصبحت حياتي حافلةً جدًّا، مستوحاةً جزئيًّا من الأحداث السياسية في بلدنا، وأيضًا، إذا فُكّرْتُ في الأمر مليًّا، من مثال ميشيل أوباما. فبالإضافة إلى عملي المستمر في المدرسة؛ حيث أروي قصصًا عن كيف غيّر التعليم حياة الناس، ازداد نشاطي في دعم الأشخاص والقضايا التي أهتم بها، والتي يتعلّق معظمها بتوسيع الفرص للمهمّشين. ليس لديّ الكثير من وقت الفراغ.

ولكن، بالإضافة إلى ذلك، كان لديّ سؤالٌ ذو طابعٍ فلسفي إلى حدٍّ كبير. من أنا لأروي قصة ميشيل أوباما؟ كان تأليف كتاب استكشافي في عام ٢٠٠٨م، عندما كنتُ واحدةً من ملايين الأمريكيين الذين أرادوا معرفة المزيد عن السيدة الأولى المستقبلية، شيئًا مختلفًا. لكن الوضع تغيّر الآن بعد أن عشنا معها، نراقبها، ونتعلّم منها، لما يقرب من عشر سنوات.

لقد أصبح عالمنا معقدًا للغاية في ذلك الوقت أيضًا. اتسعت الانقسامات السياسية. كيف يمكنني إضافة أي شيءٍ إلى ذلك النقاش؟

ومع ذلك، ربما كانت هذه هي النقطة. نحن جميعًا بحاجة إلى إجراء هذه النقاشات في جميع مجتمعاتنا. إذا كنتُ أعتقد، كما قالت ميشيل وباراك أوباما مرارًا وتكرارًا في بداية الحملة، أنه يمكننا معًا العمل على بناء «عالم كما ينبغي أن يكون»، فعليًا جميعًا المشاركة. جزءٌ من «اتخاذ المكان على الطاولة»، وهي عبارةٌ أخرى مفضّلة لميشيل أوباما، هو المشاركة.

وهكذا، قرّرتُ الجلوس، منغمسةً مجددًا في تأمل شخصية سيدتنا الأولى السابقة، محاولةً فهم ما كانت تعنيه لنا كمواطنين. وبينما كنتُ أبحث عن معلومات لطبعية جديدة، وجدتُ نفسي مستلهمةً وهائمةً مرةً أخرى بمثالها كامرأة وزوجة وأم؛ بزواجها، الذي حسب كل الروايات والظواهر، هو شراكةٌ حقيقية بين ندين، قائمة على الحب والاحترام المتبادل؛ بفضل العقد الذي قضاه آل أوباما خاليًا من الفضائح في دائرة الضوء العالمية (وهو أمرٌ ليس بالهين، في ظل المناخ الذي أكتب فيه اليوم). ألهمني وشجّعني التزامها بالخدمة والصالح العام، وقائمة إنجازاتها الرائعة خلال سنوات البيت الأبيض، بينما كان زوجها يتصدى للقضايا التي سمعنا عنها أكثر: إنعاش الاقتصاد المتعثر، وإصلاح الرعاية الصحية، ومكافحة الإرهاب، ومحاولة إنهاء الحروب في العراق وأفغانستان. أُعجبُ بإصرارها على أن نفعَل الصواب — «عندما ينحدرون، نرتفع» — وأنها لا تحيدُ أبدًا عن هذا المبدأ، مهما كان ما يحدث في العالم من حولها. الأهم من ذلك كله، ما زلتُ مستلهمةً من إيمانها الراسخ بأنه، في النهاية، بالعمل معًا، يمكننا بناء بلدٍ جديرٍ بأطفالنا.

كان من المدهش مشاهدة العالم يستجيب لميشيل أوباما، التي أصبح صوتها وصورتها الرمزية معروفين الآن في جميع أنحاء العالم. لقد تم تصويرها — وأظهرت ارتياحًا مماثلًا — على المسارح الدولية إلى جانب قادة العالم، والملوك، ونجوم البوب، وفي المواقف اليومية مع المواطنين العاديين. بالنسبة لي، هناك صورتان تعكسان جوهرها كسيدةٍ أولى. إحداهما، من عام ٢٠٠٩م، تُظهر ميشيل أوباما بقوامها المشوق تقف إلى جانب الملكة إليزابيث الصغيرة، وكلُّ منهما تضع ذراعها حول الأخرى. وُصفت هذه الصورة آنذاك بأنها «خرق للبروتوكول»؛ حيث تلامست الاثنتان، لكنها نقلت أيضًا صلةً إنسانيةً صادقة، ودفنًا، ومودةً. أما الصورة الأخرى، التي تحمل أيضًا طابع «الملكة»، فتأتي من حياة ما بعد الرئاسة. فبعد حوالي عام من مغادرة عائلة أوباما البيت الأبيض، كُشف النقاب عن صورتين رسميتين

الرئيس والسيدة الأولى، وعُرضتا في المعرض الوطني للصور في متحف سميثسونيان. وبعد بضعة أيام، زارت طفلةً صغيرةً من واشنطن العاصمة، تبلغ من العمر عامين، المعرض برفقة والدتها. لم تستطع باركر، الطفلة الصغيرة، التي كانت ترتدي معطفًا واقياً من المطر باللونين الأحمر والوردي، أن تصرفَ بصرها عن صورة السيدة ميشيل التي رسمتها إيمي شيرالد. وقفت أمام اللوحة، فاغرة الفم، بينما حاولت والدتها، دون جدوى، إجبارها على الالتفات والابتسام لالتقاط صورة لطفلتها، الأمريكية من أصل أفريقي، أمام صورة السيدة الأولى الأمريكية من أصل أفريقي. لكن باركر لم تتزحزح، بل ظلت تحدق في السيدة الأولى السابقة، التي وصفتها لاحقاً بـ «الملكة». شهد زائر آخر المشهد، والتقط صورة لباركر وهي تنظر إلى ميشيل، ونشرها، وانتشرت على نطاقٍ واسع، ووصلت في النهاية إلى السيدة ميشيل نفسها.

وفي النهاية، دُعيت باركر إلى زيارة «الملكة»، وانتشر أيضاً مقطع فيديو للطفلة الصغيرة ذات العامين وهي ترقص على أنغام أغنية «شيك إت أوف» مع السيدة الأولى السابقة. كتبت جيسكا كاري، والدة باركر، مقال رأي بعنوان «التطلع إلى السيدة ميشيل أوباما» لصحيفة «نيويورك تايمز» حول الصورة الأصلية وما ترمز إليه بالنسبة لها:

تُظهر الصورة فتاةً صغيرةً تنظر إلى أعلى لترى امرأةً مفعمةً بالحيوية، وهي، بالصدفة، سمراء مثلها تماماً. ربما يصبح اللون والجنس والعرق غير مهمين عندما تكبر باركر؛ سنكون مجرد أفراد. يعيش هذا الحلم ويبدو أقرب إلى التحقق في كل جيل. سواءً أُعجبت بعائلة أوباما أم لا، يصعب عليك إنكار أنها غيّرت مجرى التاريخ الأمريكي، وبفضلها، يُمكن لأطفالٍ مثل ابنتي أن يحلموا أحلاماً أكبر مما كانوا يتخيلون.<sup>4</sup>

تتحدث كلمات كاري ببلاغة — وصورة ابنتها تُعبّر مجازياً — عن المواضيع المتكررة التي عبّرت عنها (وعاشتها وتنفستها) ميشيل أوباما قبل وأثناء وبعد سنواتها في البيت الأبيض. في خطابها الأخير كسيدة أولى، خاطبت مجموعة من المعلمين الذين اجتمعوا في البيت الأبيض لتكريم مُرشدي المدارس. وبعينين دامتعتين وصوتٍ مُتألم، قالت لهم: «لقد كان كوني سيدتكم الأولى أعظم شرفٍ في حياتي. أمل أن أكون قد جعلتكم فخورين.» ثم حوّلت المرأة التي تُطلق على نفسها لقب «الأم الرئيسة» انتباهها إلى محور اهتمامها الحقيقي طوال هذا الوقت؛ الجيل القادم. قالت: «لجميع الشباب في هذه القاعة، ولن

يشاهد، اعلّموا أن هذا البلد ملكٌ لكم؛ لكم جميعاً، من جميع الخلفيات ومناحي الحياة. أريد أن يعرفَ شبابنا أنهم مهمون. أنهم ينتمون. لذا لا تخافوا. هل تسمعونني أيها الشباب؟ لا تخافوا. احتفظوا بتركيزكم. كونوا مصمّمين. كونوا متفائلين. كونوا متمكّنين. مكّنوا أنفسكم بتعليمٍ جيد. ثم انطلقوا، واستخدموا هذا التعليم لبناء بلدٍ جديرٍ بعودكم اللامحدودة. كونوا قدوة بالأمل. لا تخافوا أبداً. واعلموا أنني سأكون معكم، أدممكم وأعملُ على دعمكم، بقية حياتي.<sup>5</sup> بعد ثماني سنوات في البيت الأبيض، وربما لسنواتٍ عديدةٍ قادمة، تظل ميشيل أوباما، الأم الرئيسة، سيدة الأمل الأولى.



## مقدمة

ميشيل أوباما

تخيّل أي شيء لأنفسنا

في فبراير ٢٠٠٨م، ومع احتدام المنافسة على ترشيح الحزب الديمقراطي للرئاسة، أجرى لاري كينج مقابلةً مع السيدة الأولى المحتملة ميشيل أوباما في برنامج «لاري كينج لايف» على قناة «سي إن إن». تحدّثت ميشيل عن زوجها، والصفات الفريدة التي تعتقد أنها ستجعله أفضل رئيس، والقضايا التي تهتمُّها كأمراةٍ أمريكية، وأمّ عاملة، وربما أول سيدةٍ أولى سوداء.

قالت ردًّا على سؤالٍ حول ما يعنيه انتخاب زوجها لها شخصيًّا: «يا لها من فرصة! يا لها من منصةٍ سأحظى بها، على الأرجح، للحديث عن مجموعةٍ واسعةٍ من القضايا التي تؤثر على البلاد! يا له من شرفٍ أن تُتاح لي فرصة مخاطبة قلوب الناس، وأن أكون جزءًا من دفع هذا البلد نحو اتجاهٍ مختلف!»<sup>1</sup>

ارتدت ميشيل بلوزة سوداء بلا أكمام أبرزت جمال ذراعيها المشوَّقَتَيْن، مع عقد ثلاثي من اللؤلؤ حول رقبتهَا، وشعرٍ قصيرٍ أنيقٍ يُحيط بوجهها الشاب. أثار ظهورها في تلك الليلة، وفي مناسباتٍ أخرى عديدة، مقارناتٍ مع سيدةٍ أولىٍ أخرى، شهيرةٍ بأناقتهَا وشبابها، جاكلين كينيدي. ظهرت ميشيل في صفحاتٍ من مجلة «فوج»، وأدرجتهَا مجلة «فانيتي فير» في قائمتها لأفضل النساء أناقةً على مستوى العالم. لكن لم يكن مظهرها الخارجي في تلك الليلة هو ما أثار — صباحًا — حديث الناس. بل إن نكاءَ ميشيل وقدرتهَا اللفظية وهدوءها هو ما أذهلهم.

قال بول بيجالا، المحلل السياسي في شبكة «سي إن إن» الذي كان آنذاك مؤيداً لهيلاري كلينتون، بعد المقابلة: «يا لها من ضربة ناجحة! يجب على أحدهم أن يصمّم زراً يقول: «صوّتوا لزوج ميشيل. أنا أؤيد هيلاري، ولكن يا لها من نجمة! إنها متزنة للغاية.»»<sup>2</sup> وكان جمال سيمونز، الخبير الاستراتيجي الديمقراطي ومؤيد أوباما، متحمساً بالقدر نفسه، كما هو متوقّع. قال للاري كينج: «أعتقد أنها كانت مقابلة رائعة. ستكون سيدة أولى رائعة.»<sup>3</sup>

لعل أكبر إشادة جاءت من جهات لم تكن متوقّعة. مايكل ميدفيد، مقدم برنامج حوارى إذاعي وداعم للمرشح الجمهوري جون ماكين، وصف ميشيل بأنها «رائعة»، بل ذهب إلى حد القول إنها قد تكون «مرشحةً محتملة بعد سنوات من الآن. أتمنّى رؤيتها تناظر بيل كلينتون. ماذا عن مناظرة بين الزوجين الأوّلين؟»<sup>4</sup>

ووصف السيناتور السابق تيم هاتشينسون، الذي كان يدعم مايك هاكابي (الذي كان لا يزال في السباق آنذاك)، ميشيل بأنها «شخصيةٌ مثيرة للإعجاب للغاية. من الواضح أنه عندما تسمعها تتحدث، لا تُجيد التعبير عن نفسها فحسب، بل يُمكنك تخيلها في البيت الأبيض.»<sup>5</sup>

وكانت التعليقات التي نشرها المشاهدون على الإنترنت بعد بث البرنامج حماسية بالمثل. كتب أحد المشاهدين يقول: «أعتقد أنه لو ترشّحت ميشيل للرئاسة بعد ثماني سنوات من انتهاء ولايتي باراك، فإن فرصتها في الفوز أفضل من فرص هيلاري الآن.»<sup>6</sup> وقال آخر: «ستكون سيدة أولى عظيمة. إنها واثقةٌ بنفسها وقوية. أتمنّى حقاً أن يفوز باراك؛ لأنني لا أعتقد أن زوج هيلاري، بيل، سيصبح يوماً ما الرجل الأول!»<sup>7</sup>

من الصعب تذكر أن مثل هذا الثناء الواسع النطاق قد أُغِدق على سيدةٍ أخرى مرشّحة لأن تكون زوجةً أولى، لكن حقيقة أن عائلة أوباما ستكون أول زوجين أسودين يسكنان البيت الأبيض تجعل صعودهما — والخطاب المصاحب — تاريخياً.

وبالمثل، فإن الترويج لميشيل، حتى وإن كان بخفة ظل، كمرشّحة رئاسية محتملة بعد انتهاء عهد زوجها — هيلاري كلينتون الثانية، إن صح التعبير — يُظهر مدى التقدّم الذي أحرزته الولايات المتحدة، على الأقل في تصوّر من يمكنه أو ينبغي له شغل أعلى منصب في البلاد. (بعد أشهر، أثارت ردّ فعلٍ مماثلاً بعد خطابها القوي في المؤتمر الوطني الديمقراطي.) عادت الدعوة إلى ترشيح ميشيل أوباما — بصوتٍ عالٍ — في عام ٢٠١٦م بعد انتخاب دونالد ترامب غير المتوقع. (انظر الفصل ١٤، لمزيد من التفاصيل.) ولكن بعد

أسبوعٍ واحدٍ فقط من مقابلة لاري كينج المنتصرة في ١١ فبراير، حدث ما لا مفر منه: خَفَّت الحماس. في تجمُّعٍ انتخابيٍّ في ولاية ويسكونسن قبل الانتخابات التمهيدية في تلك الولاية، أدلت ميشيل أوباما، خريجة كلية الحقوق في برينستون وهارفارد، بتصريحها الشهير: «لأول مرة في حياتي، أشعر بفخر كبير ببلدي.» (ما قالتها في أحد التجمُّعِين كان: «لأول مرة في حياتي، أشعر بفخرٍ كبيرٍ ببلدي؛ لأنني أشعر وكأن الأمل يعود أخيراً.» ما قصدته في الواقع، ووفقاً لحملة أوباما، هو أنها فخورةٌ برؤية هذا العدد الكبير من الناس يشاركون في عملية التصويت.)

تعرضت ميشيل أيضاً لانتقادات بسبب تعليقٍ آخر أدلت به في ويسكونسن: «لقد ساءت حياة الناس العاديين على مدار حياتي، في ظل الإدارات الجمهورية والديمقراطية.» على الرغم من أنه من المرجح ألا يشك أحد في هذه التصريحات لو أدلت بها بعد بضعة أشهر، بعد التدهور الاقتصادي المروع، شعر الناس حينها أن هذه الكلمات جعلتها تبدو ممتعضة وغير ممتنة.

انقضَّ عليها المعارضون. على الفور تقريباً، التقت سيندي ماكين، زوجة المرشح الجمهوري جون ماكين، بالصحفيين، معلنةً: «لطالما كنتُ، وسأظل دائماً، فخورة ببلدي.» والكاتبة المحافظة ميشيل مالكين وصفت ميشيل أوباما بأنها «النصف المرير» لزوجها، بينما نشرت مجلة «ناشيونال ريفيو» المحافظة مقالاً عن «السيدة المظلومة»، مصحوباً بصورة لميشيل بوجهها «عابساً غاضباً».

بدأ الناس يتساءلون من أين جاءت تصريحات ميشيل. المرأة التي بدت هادئةً للغاية — أشبه بكاميلوت — في مقابلة لاري كينج كان لها جانبٌ آخر. هل كانت تعليقاتها نابغةً من نفس المشاعر التي عبَّرت عنها في أطروحتها التي كتبتها عام ١٩٨٥م، خلال سنتها الأخيرة في جامعة برينستون؟ ففي أطروحتها «السود المتعلمون في برينستون والمجتمع الأسود»، كتبت ميشيل، طالبة علم الاجتماع، عن تجاربها في برينستون تقول: «لقد جعلتني أكثر وعياً بـ «سواد لوني» من أي وقتٍ مضى. لقد وجدتُ أنه في برينستون، مهما حاول بعض أساتذتي وزملائي البيض التحلي بالليبرالية والانفتاح تجاهي، إلا أنني أحياناً أشعر وكأنني زائرةٌ في الحرم الجامعي؛ كما لو أنني لا أنتمي إليه حقاً. وبغض النظر عن الظروف التي أتعامل فيها مع البيض في برينستون، غالباً ما يبدو لهم أنني سأكون دائماً سوداء أولاً، وطالبة ثانياً.»<sup>8</sup>

بعد أن أدلت بتصريحها «لأول مرة أشعر بالفخر»، أصبحت الأسئلة: هل لا تزال ميشيل أوباما تشعر بأنها لا تنتمي؟ وهل هي جاحدة للفرص التي أُتيحت لها؟

تفاقت المشكلة بعد بضعة أسابيع عندما نُشرت عِظَاتٌ مثيرة للجدل ألقاها القس جيريمايا رايت، قسُّ عائلة أوباما آنذاك، مما دفع ببارك أوباما إلى إلقاء خطابه «اتحاد أكثر كمالاً» حول العرق وعدم المساواة والتوترات العرقية في أمريكا. وعندما وُضِحَ المرشح الرئاسي أنه لا يستطيع الانفصال عن الرجل الذي أشرف على حفل زفافه وعمد بناته إلا بقدر ما يستطيع الانفصال عن جدته البيضاء الحبيبة التي أدلت هي الأخرى بتعليقاتٍ عنصرية جعلته «يشعر بالحرَج»، أُشيد ببارك أوباما باعتباره الشخص الوحيد القادر على قيادة الأمريكيين عبر الانقسام العرقي.

ولكن في النهاية، لم يكن الأمر بهذه البساطة. فقد استمر القس رايت في الإدلاء بتصريحاتٍ شنيعة، منتقداً الحكومة علناً، ومشيراً إلى أنها ربما ساهمت في انتشار وباء الإيدز. وعندما عرض ادعاءاته على نادي الصحافة الوطني في أبريل، قرّر آل أوباما أن كفى. اتخذوا القرار الصعب بمغادرة كنيسة ترينيتي المتحدة للمسيح، الكنيسة التي كانوا يرتادونها ويدعمونها مالياً لسنوات. وكتب آل أوباما في رسالة موقّعة مشتركة إلى القس الحالي في كنيسة ترينيتي، القس أوتيس موس: «لقد توترت علاقتنا مع ترينيتي بسبب التصريحات الخلافية للقس رايت، والتي تتعارض تماماً مع آرائنا. لقد شكّلت هذه الخلافات مصدر إزعاجٍ مؤسف لأعضاء ترينيتي الآخرين الذين يسعون إلى العبادة بسلام، ووضعتم في موقفٍ لا تحسدون عليه.»<sup>9</sup>

قوبلت خطوة آل أوباما بالرضا من جهاتٍ عديدة، ولكن لم يُغفر لها كل شيء بالضرورة. ولسبب ما، بدا أن ميشيل تتحمل جزءاً كبيراً من اللوم. في مقالٍ كتبه لمجلة «سلايت» الإلكترونية، بدا أن الصحفي والكاتب كريستوفر هيتشنز يلمح إلى أن ميشيل كانت السبب وراء وقوف زوجها إلى جانب القس رايت، الذي وصفه هيتشنز بأنه «متعصب عجوز مغرور»، و«مرشد مجنون»، ولديه «غباء أخلاقي»، مما ألحق «ضرراً جسيماً» بحملة أوباما. في الواقع، حمل مقاله عنوان «هل نحصل على اثنين مقابل واحد؟ هل ميشيل أوباما مسؤولة عن كارثة جيريمايا رايت؟»<sup>10</sup>

في مايو — وباقتراب السباق الديمقراطي، الذي بدا بلا نهاية، من نهايته، مع براك أوباما المرشح المُفترض — قال لخصومه الشهيرين: «ابتعدوا عن زوجتي.» انطلقت شرارة توجيه أوباما من فيديو نشره الحزب الجمهوري في ولاية تينيسي عبر الإنترنت خلال الانتخابات التمهيدية في تلك الولاية. في المقطع، لقطات لميشيل وهي تُدلي بتصريحها

«لأول مرة في حياتي فخورة بأمريكا» تتخلَّلها صورٌ لمواطنين من تينيسي يتحدثون عن مدى فخرهم ببلدهم، وكيف كانوا دائماً كذلك.<sup>11</sup>

في منتصف يونيو، وبعد فوز أوباما بترشيح الحزب الديمقراطي، قرَّرت الحملة التصديُّ للشائعات التي انتشرت عبر الإنترنت بشكلٍ مباشر. بإطلاق موقع FightTheSmears.com، هاجمت الحملة سلسلةً من القصص والتلميحات غير المألوفة، بما في ذلك قصةً خبيثةً عن ميشيل. انتشرت عبر البريد الإلكتروني، ثم من خلال المدونات والتعليقات، أنباءً عن وجود شريط فيديو لميشيل وهي تُهاجم «البيض». لم يظهر الشريط قط، ونفى موقع FightTheSmears.com نفياً قاطعاً وجوده أو أنها تلفظت بهذه الكلمة. كما أعلنت حملة أوباما في يونيو عن تشكيل فريقٍ حول ميشيل للمساعدة في الرد على أي هجماتٍ إضافية من جانب المعارضين، وأسس مؤسسو مدونة WhatAboutOurDaughters.com موقعاً إلكترونياً منفصلاً، MichelleObamaWatch.com. ووفقاً لموقع Salon.com، أنشئ موقع MichelleObamaWatch.com «لتتبع أكثر الأمثلة فظاعةً على العنصرية والتمييز على أساس الجنس وما إلى ذلك».<sup>12</sup>

بالإضافة إلى الدعم القوي من زوجها وحملته الانتخابية وموقع WhatAboutOurDaughters.com، حظيت ميشيل أيضاً بدعمٍ من جهاتٍ غير متوقَّعة. خلال مقابلة مع قناة «إيه بي سي نيوز» في سلوفينيا؛ حيث كانت السيدة الأولى لورا بوش مسافرة مع زوجها، بدا أنها دافعت عن ميشيل، مشيرةً إلى أن ميشيل ربما لم تقصد القول إنها فخورة ببلدها «للمرة الأولى» عندما أدلت بتصريحاتها في ويسكونسن. وحذرت السيدة الأولى المخزومة لورا بوش من أن مَنْ يشغل منصبها ربما يحتاج إلى «توخي الحذر الشديد فيما يقوله»؛ لأن كل شيء يخضع للتدقيق، وغالباً ما يُساء فهمه في النهاية.<sup>13</sup>

كما بدا أن جون ماكين، خصم أوباما الجمهوري، يحذر الجمهور من تجاهل الزوجات الأوليات المحتملات. ففي اليوم التالي لإطلاق موقع FightTheSmears.com، صرَّح ماكين في مقابلة مع دانا باش من شبكة «سي إن إن» بأنه يعتقد أن زوجة المرشح «يجب أن تُعامل باحترام، وإذا كان هناك أي سلوكٍ غير محترم من جانب أي شخص، فيجب رفضه.» وأضاف ماكين أنه «يُكن احتراماً كبيراً لكل من السيناتور وميشيل أوباما»، مضيفاً أنه لم يلتق بميشيل قط، لكنها «شخصيةٌ موهوبة وفعالة للغاية. وأنا معجبٌ بهما».<sup>14</sup>

في غضون ذلك، بدأت سلسلة من مقالات الرأي والمنشورات على المدونات بالظهور نيابةً عن ميشيل وحملة أوباما، يندد الكثير منها بالتشويه المُخجل لسمعة ميشيل أوباما،

كما جاء في مقال رأي بقلم رولاند إس مارتن. في حال نسي أحدٌ ما، عندما يتوجه الناخبون إلى صناديق الاقتراع في نوفمبر، سيصوّتون إما للسيناتور جون ماكين أو للسيناتور باراك أوباما. لن تكون سيندي ماكين على قائمة المرشحين، ولن يُصوّت أحدٌ على سياسات ميشيل أوباما، بحسب ما كتب مارتن.<sup>15</sup>

يبقى أن نرى ما إذا كانت الصحافة والجمهور، كما طلب زوج ميشيل، سيتجاهلون الزوجات الأوليات المحتملات. وما إذا كان ينبغي عليهم فعل ذلك أصلاً، فهذه مسألة أخرى قابلة للنقاش. هل الزوجات مستحقات للنقد والهجوم، خاصةً عندما يشاركن في الحملات الانتخابية علناً لصالح المرشح الذي تزوجن منه؟ هل يتعلق الأمر بقرار اختيار المرشح للزواج من سيدةٍ معيّنة؟ وهل ينبغي أن تكون هذه السيدة صديقةً مقربةً أو كاتمةً الأسرار أو على الأقل المتلقية/المرسلة للحديث في فراش الزوجية؟

بغض النظر عن كيفية اختيار أمريكا للإجابة عن هذه الأسئلة في هذه الحملات الانتخابية والحملات المستقبلية، فإن ما بدأ يتضح مع بداية صيف عام ٢٠٠٨م هو أنه بينما بدت معظم البلاد مستعدةً لقبول أوباما كمرشح رئاسي ديمقراطي مُعَيّن، كان هناك قطاعٌ آخر مترددٌ بالقدر نفسه. وسواء كان ذلك مدفوعاً بتعليق الفخر، أو الأخبار حول أطروحتها في جامعة برينستون، أو الشائعات حول أي أشرطة فيديو مزعومة، أو ببساطة لأنها امرأة ذكية وصریحة و متمكّنة تُسبب انزعاجاً للبعض، بدا أن ميشيل كانت محوراً لكثيرٍ من هذا التردد.

مع استمرار الحملة الانتخابية، بدا أن ميشيل قد كبحت بعضاً من صراحتها المعهودة، وبدا أن خطابها البارع في المؤتمر الديمقراطي قد ساعد في محو بعض — وإن لم يكن كل — الانتقادات السابقة. حتى قبل الانتخابات، كان لا يزال بإمكانك العثور على مقالات وافتتاحيات ومدونات تتحدث عن ميشيل أوباما «المتعصبة» و«الغاضبة».

ماذا عن ميشيل؟ بالنظر إلى تصريحاتها في أطروحتها الجامعية، هل ستشعر دائماً «كزائرة»؟ حتى وهي مقبمة في البيت الأبيض، هل ستشعر وكأنها «لا تنتمي حقاً»؟ هل يمكنها أن تحتضن دورها كسيدةٍ أولى بالكامل، أم إنها لا تزال امرأةً سوداءً؟ هل ستتمكّن من إثبات فخرها الحقيقي ببلدها؟

وماذا عن بلدها؟ هل كانت أمريكا مستعدة لاحتضان أول زوجين أسودين من رؤساء الولايات المتحدة؟ وماذا يعني كل ذلك، داخل الولايات المتحدة وخارجها؛ أن تعيش هذه العائلة الأولى من أصلٍ أفريقي في البيت الأبيض؟

خارج حدود الولايات المتحدة، بدت الإجابة واضحة نسبياً. في الأيام التي تلت فوز أوباما بترشيح الحزب الديمقراطي، رحّبت وسائل الإعلام العالمية بالخبر، مُدركةً الطابع التاريخي لترشحه.

«أوباما أعاد إحياء إيمان أمريكا بقدراتها الهائلة على إعادة الاختراع، وإعجاب العالم بأمريكا» هكذا جاء في افتتاحية صحيفة «تايمز» اللندنية. «لقد كانت رحلة مُرهقة، لكن يبدو أن تيار التاريخ اليوم على الأقل معه. سواء فاز أو خسر في نوفمبر، فسيكون قد ذهب أبعد من أي شخص في التاريخ لدفن العداوة السامة التي أجمت الحرب الأهلية الأمريكية وطاردتها منذ ذلك الحين ... تكمن أهمية هذه اللحظة في دليلها المُدوي على حقيقة أن أمريكا أرض الفرص؛ فرصة أوباما للتخرج من جامعة هارفارد واجتياح واشنطن؛ الفرصة التي يُتيحها النظام الديمقراطي الأكثر استجابةً في العالم لناخبيه للاستلهاهم من مجهول؛ الفرصة التي تُتاح الآن للغرباء لإعادة تقييم القوة العظمى التي يكرهها الكثيرون منهم»<sup>16</sup>

في صحيفة «هآرتس» الإسرائيلية، كتب شموئيل روزنر: «حان الوقت لاستقبال النصر السياسي المذهل لأوباما، إن كان لا يزال بإمكان المرء أن يشعر بالرهبة من أي شيء في هذا العصر. على الرغم من كل الصعاب، كسرت الحملة حدود التحيز والعرق، وحثّت الناخبين على الإدلاء بأصواتهم»<sup>17</sup>

من كينيا، موطن والد باراك أوباما، كتب ألفايو أوتينتو في صحيفة «ديلي نيشن»: «لطالما كان الأمل والإلهام عنصرين أساسيين في رسالة أوباما. هذه هي الرسالة السياسية الوحيدة التي تُقنع الناخبين المترددين وتُحفّز الناخبين القابلين للحشد الذين نادراً ما يذهبون إلى صناديق الاقتراع ... الآن، على كل ديمقراطي، وكل تقديمي، أن ينتهز هذه الفرصة التاريخية لجعل أوباما الرئيس الأمريكي الذي يقود العالم إلى حقبة تقدمية جديدة ذات إمكانيات غير مسبوقة»<sup>18</sup>

ولم يُعزز الإعجاب الواسع الذي حظي به أوباما خلال رحلته الصيفية عام ٢٠٠٨م إلى أوروبا ومنطقتي حرب هذا الانطباع في الخارج. بل إن فرانك ريتش كتب مقالاً في صحيفة «نيويورك تايمز» عن رحلة أوباما الخارجية بعنوان «كيف أصبح أوباما رئيساً بالوكالة»<sup>19</sup>.

قد لا نعرف ما يعنيه كل هذا للولايات المتحدة لبعض الوقت، لكن قصة حياة ميشيل قد تُقدم إجابةً واحدة. نعلم أن ميشيل لافون روبنسون أوباما نشأت في حي شيكاغو

للطبقة العاملة، ذي الأغلبية الأمريكية من أصل أفريقي، حيث عاشت عائلتها المكوّنة من أربعة أفراد في شقة مستأجرة مكوّنة من غرفة نوم واحدة. نعلم أنها، بدعم من والديها المجتهدين، ماريان وفريزر روبنسون، تفوّقت في المدرسة وتخطّت الصف الثاني. نعلم أنها كانت رياضية موهوبة، لكنها ابتعدت عن الرياضات التنافسية لأنها، وفقاً لشقيقها كريج، كانت تكره الخسارة.

نعلم أنها لحقت بكريج، الذي أصبح مدرب كرة السلة الرئيسي في جامعة ولاية أوريجون، وعمل لاحقاً مع فريق نيويورك نيكس، إلى برينستون، ثم التحقت بكلية الحقوق بجامعة هارفارد. نعلم أيضاً أنها تركت وظيفة براتب مرتفع في شركة حمامة مرموقة في شيكاغو (حيث التقت بزوجها المستقبلي) لتلتحق بالخدمة العامة، وأنها عندما أصبح باراك عضواً في مجلس الشيوخ الأمريكي، رفضت الانتقال إلى واشنطن معه، واختارت البقاء في شيكاغو حيث كانت تعمل، وحيث كانت ابنتاهما الصغيرتان تستقرّان بارتياح، وحيث كان باستطاعة زوجها السفر إلى المنزل في عطلات نهاية الأسبوع لرؤية العائلة. كما أنها بقيت إلى جانب والدتها الأرملة آنذاك، التي كانت ترعى الفتاتين أثناء عمل ميشيل أو خلال حملتها الانتخابية. (على عكس العديد من الأزواج السياسيين العاملين، وظّف آل أوباما مدبرة منزل، وليس مربية أطفال، مفضّلين أن يعتني الأصدقاء والعائلة بطفليهما عندما لا يستطيعان ذلك بنفسيهما. خلال الحملة الانتخابية، كرّرت مراراً أن إحدى أولويات زوجها هي «التأكد من أن النساء والعائلات لديهم نظام دعم جيد يساعدهم على الاستقرار».)<sup>20</sup>

نعلم أن ميشيل، كزوجة وأم، قد تكون سيدة أعمال صعبة المراس. في الفترة التي سبقت الانتخابات، أخبرتنا أن قائمة مهام باراك تتضمن ترتيب الفراش وإخراج القمامة عندما يكون في المنزل، وأنه يجب عليه الانضمام إلى عائلته في المناسبات المهمة، مثل اجتماعات أولياء الأمور والمعلمين، وأعياد الميلاد، والأعياد. وبالمثل، يُتوقع من ابنتيها المساعدة في الأعمال المنزلية. نعلم أن عائلتها تأتي في المقام الأول بالنسبة لها، وأنها درست بجدية خطة زوجها للترشح للرئاسة وتأثيرها على حياتهما الأسرية قبل أن تُقرّها. (يبدو أن ميشيل عقدت صفقة صعبة: ستدعم ترشيح زوجها بكل إخلاص، بما في ذلك مساعدته في الحملة الانتخابية، شريطة أن يقلع عن التدخين.)<sup>21</sup>

نعلم أن ميشيل ذكية وجذابة ومتعلمة تعليماً جيداً. نعلم أنها قادرة على جذب الناس من مختلف الأطياف السياسية — كما فعلت عندما ظهرت في برنامج «لاري كينج لايف»

— لكنها بحاجة إلى ضبط لسانها، وهو أمرٌ ليس سهلاً دائماً على محامية سريعة البديهة وفصيحة اللسان، معتادة على التعبير عن رأيها.

ونعلم أيضاً أنه في ٢٠ يناير ٢٠٠٩م، عندما أدّى باراك حسين أوباما اليمين الدستورية رئيساً رابعاً وأربعين للولايات المتحدة، وبجانبه ميشيل لافون روبنسون أوباما، كان ذلك حدثاً ملحمياً. لحظة فارقة في تاريخ الولايات المتحدة. ستشهد البلاد أول رئيس أسود وأول سيدة أولى سوداء، مما يُمثل علامة فارقة في النضال من أجل المساواة العرقية.

لم تُكتب كتب التاريخ كاملةً بعد، لكن قصة روتها ميشيل أوباما خلال حملتها الانتخابية عن فتاة صغيرة في صالون تجميل بولاية ساوث كارولينا خلال الحملة قد تُقدم أفضل تفسير لما يعنيه كل هذا حقاً، سواء بالنسبة لها شخصياً أو للبلد بأكمله. الفتاة البالغة من العمر عشر سنوات أُخبرت ميشيل أنه إذا انتُخب زوجها رئيساً «فهذا يعني أنني أستطيع تخيل أي شيء لنفسي».

قالت ميشيل إن هذه القصة تعكس قصتها. وأوضحت: «كان من الممكن أن أكون أنا؛ لأن الحقيقة هي أنه ليس من المفترض أن أكون واقفة هنا. أنا حالة شاذة إحصائياً. فتاة سوداء، نشأت في المنطقة الجنوبية من شيكاغو. هل كان من المفترض أن أذهب إلى برينستون؟ قالوا إن كلية الحقوق في هارفارد ربما كانت فوق طاقتي. لكنني ذهبت. ونجحت. ومن المؤكد أنه ليس من المفترض أن أقف هنا.»<sup>22</sup>

لكنها كانت هناك، رغم كل الصعاب. في النهاية، تُعتبر ميشيل أوباما، السيدة الأولى، قصة أمريكية بامتياز. في الواقع، إذا نظرنا إلى الأمر في سياقه الأوسع، فإن مجرد وجود السيد أوباما والسيدة ميشيل؛ باعتبارهما الرئيس الرابع والأربعين والسيدة الأولى للولايات المتحدة، يعني أن الفتاة ذات العشر سنوات في صالون التجميل قد تُمثلنا جميعاً. قصة أوباما وعدٌ لنا كأمركيين بأنه يمكن لأي منا أن يتخيل أي شيء لنفسه.



## الفصل الأول

# انتزاع المكانة المستحقة

كيف تشكّلت شخصيتها؟

أثناء الانتخابات التمهيدية المهمة التي عُقدت في أبريل ٢٠٠٨م بولاية بنسلفانيا لاختيار مرشح الحزب الديمقراطي لرئاسة الجمهورية، ظهرت ميشيل أوباما في برنامج «ذا كولبرت ريبورت» الذي يُبث على قناة «كوميدي سنترال». وقد جاء ظهورها في هذا البرنامج بعد أيام من الحادثة التي يُطلق عليها «بيتريجيت» Bittergate، والتي نشير بها — في حال ما إذا كان أحدٌ في حاجة لتذكرة — إلى ما قاله باراك أوباما عن أنه يتفهّم كيف أن الأحوال الاقتصادية في الريف الأمريكي، وفشل الحكومة في التعامل معها، جعلت بعض الأمريكيين يشعرون بالمرارة، ودفعتهم إلى التشبث بالبنادق، والتمسك بالدين، ومعاداة كلِّ مَنْ هو مختلفٌ عنهم.

قوبل هذا التصريح — الذي أدلى به أوباما في حفلٍ خاصٍ أقيم في سان فرانسيسكو لجمع التبرعات — باتهام أوباما بأنه يرى نفسه فوق البشر، وتكبّد بسببه خسارة أصوات مهمة هي أصوات الطبقة العاملة في بنسلفانيا، مما ألحق بحملة أوباما هزيمة كبيرة في هذه الولاية الرئيسية، لكن هذه الخسارة لم تكن ساحقة كما توقع مؤيدو هيلاري كلينتون. ومنذ هذه اللحظة في السباق للحصول على ترشيح الحزب الديمقراطي ظل العمال البيض نقطة ضعف أوباما (على الأقل إلى أن دعا السيناتور جو بايدن عضو مجلس الشيوخ عن ولاية ديلاوير لينضم إلى قائمته بصفته نائباً له، وإلى أن تدهور حال الاقتصاد قبل الانتخابات بأسابيع قليلة، وبدا فجأة أن أوباما هو أقدر المرشحين على التعامل مع الأزمة الاقتصادية).

وبداً ستيفن كولبرت — الذي كان يقدم برنامج التلفزيوني ذلك الأسبوع من فيلادلفيا — اللقاء بأن آثار أزمة بيتريجيت. كانت ميشيل «ملكة أناقة»، حسبما أطلقت عليها

مجلة «فوج»، تنتمي لطبقة اجتماعية رفيعة؛ هكذا بدت بساقيها الطويلتين الجميلتين وهي تجلس استعدادًا للحوار مرتديةً فستانًا أنيقًا بلا أكمام فيروزي اللون يصلح للمناسبات الرسمية. قال ستيفن: «الجميع يعرفون أنك وزوجك من علية القوم. حدّثني عن نشأتك المميزة في المنطقة الجنوبية من شيكاغو. كم عدد الملاعق الذهبية التي وُلدتِ وهي في فمك؟»<sup>1</sup>

لم تستفزّها هذه العبارة وأجابت: «كانت لدينا أربع ملاعق. ثم حصل والدي على علاوة من المحطة وصارت لدينا خمس ملاعق.»  
قال كولبرت: «تبدو هذه حياةً مترفةً حقًا.»<sup>2</sup>

يكشف الحوار الكثير عن ذكاء ميشيل، وسرعة بديهتها، واستعدادها لإلقاء النكات بصورة تلقائية، ويكشف أيضًا عن الفرق بين حالها حين ميلادها والحال التي أصبحت عليها فيما بعد. وإن كانت هذه القصة تكشف عن أي ترف — مثل الملعقة الخامسة التي ادّعت حصول والديها عليها — فقد تحقّق هذا الترف عن طريق الكد والعزيمة ودعم والديها المستمر.

ومع أنه من المؤكّد أن ماريان وفريزر روبنسون كان لديهما أكثر من أربع ملاعق في مطبخهما عندما وُلدت ابنتهما ميشيل لافون روبنسون في ١٧ يناير عام ١٩٦٤م، فإن حياة هذه الأسرة لم تكن مترفة؛ فهذه الأسرة كانت تعيش في شقة بها حجرة نوم واحدة في المنطقة الجنوبية من شيكاغو.

كان فريزر روبنسون يعمل في حجرة الغلايات في محطة تنقية المياه في المدينة، وكان عمله في نوبة العمل المسائية التي تنتهي عند منتصف الليل، أما ماريان فمكثت في البيت لتعتني بميشيل وأخيها كريج الذي كان يكبرها بستة عشر شهرًا. وواصل والد ميشيل عمله يوميًا دون شكوى رغم أنه أُصيب بمرض التصلب العصبي المتعدد وهو لم يتجاوز الثلاثين من العمر، ومع أن صحته بدأت تتدهور باستمرار فقد نجح في أن يُلحق ولديه — وليس واحدًا منهما فقط — بالجامعة. ولم تكن أية جامعة، وإنما جامعة برينستون، التي يُعد الالتحاق بها أصعبَ من الالتحاق بالكثير من الجامعات الأخرى، ليس فقط على مستوى البلد بل على مستوى العالم. عادت والدة ميشيل إلى العمل بعدما كبرت ابنتها، ولم تترك آخر وظيفة التحقّت بها — وكانت في بنك — إلا قريبًا حتى تعتني بحفيدتيها ماليا وناشاشا — التي يدلونها باسم ساشا — عندما تعجز أمهما عن هذا.

في لقاء عُقد بجامعة ساوث كارولينا في يناير ٢٠٠٨م قالت ميشيل: «نشأتُ في أسرة تنتمي للطبقة العاملة في المنطقة الجنوبية من شيكاغو. ظلّت والدتي تعود من العمل

وتعتني بشئوننا حتى أنهينا الدراسة الثانوية، وكان والدي من العمال البسطاء الذين يعملون في نوبة العمل المسائية التي تنتهي عند منتصف الليل، وقد ظل يعتني بنا طوال حياته. الشيء الوحيد المذهل في حياتي هو أن رجلاً كوالدي استطاع أن يعول أسرة مكوّنة من أربعة أفراد دون أن يكون له دخل سوى راتب عاملٍ بسيط.<sup>3</sup>

كان العامل الذي شكّل طفولة ميشيل هو كونها أمريكية ذات أصولٍ أفريقية ترعرعت في واحدة من كبرى مدن البلاد، وفي جزء من هذه المدينة يضم واحدًا من أكبر تجمّعات الأمريكيين من أصولٍ أفريقية في البلاد كلها، إن لم يكن أكبر تلك التجمّعات على الإطلاق.<sup>4</sup> كانت مدينة شيكاغو عندما وُلدت ميشيل من المدن التي تعاني فصلًا عنصريًا نسبيًا، وفيها لا يجد العمال السود أمامهم سوى القليل من فرص العمل. وفي كتاب «جرأة الأمل» نجد أوباما يحكي عن الآباء السود الذين يُضطرون لأن يبذلوا جهدًا جبارًا لكي يحسّنوا دخلهم المحدود، ويحكي عن العنف الذي يسود الأحياء التي يُضطرون للعيش فيها، وعن الموارد المحدودة المتاحة لأبنائهم.<sup>5</sup>

لكل أسرة قصصٌ تحكيها عن حياة أجدادها، وفي بيت روبنسون كانت قصة جدّ ميشيل من أكثر القصص التي تتردّد على الألسن. فقد كان جدّها لأمها يعمل نجارًا، لكنه مُنع من الانضمام للنقابة بسبب لون بشرته. ونتيجةً لهذا حُرّم من العمل بأفضل أعمال المقاولات في المدينة.<sup>6</sup>

وأثناء طفولة ميشيل بدأ العالم الذي عرّفه والداها يتغير ببطء. إذ فتّحت حركة الحقوق المدنية التي أُسّست في ستينيات القرن العشرين البابَ أمام إصدار قانون الحقوق المدنية عام ١٩٦٤م، وقانون حقوق التصويت عام ١٩٦٥م، وأيضًا أمام ظهور قادة بارزين من الأمريكيين ذوي الأصول الأفريقية مثل: القس الدكتور مارتن لوثر كينج (الابن)، ومالكوم إكس.

وفي المدينة التي كانت تعيش فيها أسرة روبنسون، وهي مدينة طالما هيمن عليها سياسيون بيضٌ من أسرة دالي، برزت أسرةٌ أخرى على الساحة السياسية. وكانت هذه الأسرة مثل أسرة ميشيل، أمريكيةً من أصولٍ أفريقية، وسيكون زعيمها القس جيسي جاكسون أول أسود يرشّح نفسه رئيسًا للجمهورية.

والحقيقة أن ميشيل نشأت في صحبة أسرة جاكسون؛ سانتيتا، ابنة جيسي جاكسون، كانت واحدةً من أقرب صديقاتها وهي في المدرسة الثانوية. وسانتيتا تعمل مغنيّة، وقد غنّت في حفل زفافهما، وكانت أمًّا بالعماد للماليا، كبرى بنات أسرة أوباما. وقد شارك

جيسي جاكسون الابن في إدارة حملة أوباما على مستوى الولايات المتحدة بأسرها. أما عن جيسي جاكسون الأب فقد جذب الأضواء لبعض الوقت أثناء حملة الانتخابات الرئاسية عام ٢٠٠٨م، وسنتحدث عن هذا بالتفصيل فيما بعد.

ومع هذا، فإنه أثناء طفولة ميشيل، كان معظم سكان المنطقة الجنوبية من شيكاغو من السود، وكانت الكثافة السكانية بهذه المنطقة عالية، وكانت تعاني المشكلات التي تعانيها مثل هذه المناطق، وفي هذه البيئة علّمت أسرة روبنسون طفليها أن يجتهدا، ويطمحا للوصول إلى القمة، وألا يستسلما أبدًا.

قال كريج روبنسون — الذي يعمل الآن مديرًا فنيًا لفريق كرة السلة بجامعة ولاية أوريغون — لصحيفة «واشنطن بوست»: «عندما ينشأ المرء طفلًا أسود في عالم يهيمن عليه البيض تجد الناس يقولون له مرارًا وتكرارًا — بحسن نية أحيانًا، وبسوء نية أحيانًا أخرى — إنك لن تفلح أبدًا. لكن عندما تعيش في كنف أسرة لا تكف عن تذكيرك بمدى ذكائك وكفاءتك، ومدى سعادتها بوجودك معها، وكم من الممكن أن تكون ناجحًا، يصبح من الصعب ألا تؤمن بما يقولون. وكانت هذه هي حال أسرتنا. فقد وضعتنا أسرتنا على بداية طريق النجاح بأن جعلتنا نشعر بالثقة في أنفسنا.»<sup>7</sup>

وأفضل ما يمكن أن يُقال عن منزل أسرة ميشيل المستأجر هو أنه كان متواضعًا. فعندما كانت ميشيل صغيرة استأجرت الأسرة شقة بها حجرة نوم واحدة في بيت قديم صغير مبني بالطوب تملكه عمه أبيها التي كانت تعيش في الطابق الأسفل. كانت حجرة النوم الوحيدة من نصيب والديها، وقُسمت حجرة المعيشة بألواح خشبية إلى ثلاثة أماكن حتى يتسنى تخصيص حجرة نوم لكريج وأخرى لميشيل وحجرة للاستذكار. وإلى يومنا هذا، تعيش ماريان — التي أصبحت الآن أرملة — في هذه الشقة نفسها خلف باب من الحديد المطاوع يصعب على اللصوص اقتحامه. واليوم يُحاط هذا البيت البسيط بسياج حديدي.<sup>8</sup>

قال كريج لجريدة «واشنطن بوست»: «إن اضطررت لوصفها لسمازار فسأقول إنها شقة بها حجرة نوم واحدة وحمام واحد. وإن قال أحد إن مساحتها تبلغ ١١٠٠ قدم مربعة، فسأقول إنه كاذب.»<sup>9</sup>

بالنظر إلى هذه المساحة، لا يصعب تخيل كم كانت الشقة ضيقة على هذه الأسرة المكوّنة من أربعة أفراد (خاصة إذا وضعنا في الاعتبار مدى الضخامة التي وصل إليها حجم بعضهم، فميشيل امرأة طويلة جدًا؛ إذ يبلغ طولها خمس أقدام وإحدى عشرة

بوصة، وكريج — نجم كرة السلة السابق الذي شغل وظيفة مرموقة في أحد البنوك الاستثمارية ثم صار مدرب كرة سلة — يبلغ طوله ست أقدام وست بوصات). ومع هذا فإن نظام هذه الشقة البسيطة يكشف الكثير عن القيمة الخاصة التي تؤمن بها هذه الأسرة.

فعن طريق التضحية بحجرة المعيشة — التي تمثل مساحة الترفيه والاسترخاء الأساسية للكثير من الأسر الأمريكية — استطاع الزوجان أن يمنحا كل طفلٍ من طفليهما مساحةً صغيرة يمكن أن يعتبرها مساحته الخاصة. وحقيقة أنهما خصّصا حجرة للاستذكار تكشف عن مدى اهتمامهما بالتعليم؛ فعلى العكس من الكثير من الأطفال الذين نشئوا في ستينيات وسبعينيات القرن العشرين، لم يكن يُسمح لكريج وميشيل بمشاهدة التلفاز سوى ساعة واحدة كل ليلة. فبدلاً من تضييع وقتها في هذا العمل التافه، كان يُنتظر منهما القيام بأعمالٍ تُنمي العقل وتُقوي الجسد، مثل القراءة، ولعب الشطرنج، وممارسة الرياضة.<sup>10</sup>

(في هذه الأيام يسير ميشيل وبارك على مثل هذا النهج مع ابنتيهما، فيُقللان عدد الساعات التي تشاهد فيها البنات التلفاز، ويُشجّعانهما على ممارسة الرياضة والمشاركة في المسابقات الرياضية. وكانت قضية المسؤولية الأبوية من القضايا التي أثارها أثناء الحملة الانتخابية.)

ومع أن ماريان وفريزر لم يلتحقا بالجامعة فقد كانا على وعيٍ كبير بقيمة التعليم المتميز. وبفضلهما تعلّم كريج وميشيل القراءة وهما في الرابعة من عمرهما، وأُعفي كلٌ منهما من الالتحاق بالسنة الثانية من المدرسة نتيجةً لما حققاه من تفوقٍ دراسي. ومن المثير للاهتمام أن ماريان وفريزر أيضاً أُعفيا من الالتحاق بالسنة الثانية من المدرسة، وهذا يعني أن ما تميّز به ولداهما من تفوقٍ دراسي تحقّق بفضل ما ورثاه من ذكاء، وأيضاً بفضل قيم الاجتهاد، ومساندة والديهما القوية لهما.<sup>11</sup>

ومع كل هذا الاهتمام بالدراسة فقد ذكّرت ماريان لمجلة «نيويورك» إن الأهم من تعلّم القراءة والكتابة هو تعلّم التفكير وطرح الأسئلة. حيث قالت: «قلنا لهما: «احرصا على احترام أساتذتكما لكن لا تتردداً في طرح الأسئلة عليهما، بل لا تسمحا لنا بأن نُملّي عليكما القواعد دون أن تسألانا: لماذا؟»<sup>12</sup> وقد رأينا هذه القيم تنعكس اليوم في الصراحة والصدق اللذين يظهران متى تحدّثت ميشيل. وهي ليست من ذلك النوع من زوجات السياسيين

العديمت الشخصية الصامتات الخاضعات المذعنات لرغبات ومطالب أزواجهن، بل هي دائماً على استعداد لإبداء رأيها، بل إن طفلتيها تُشبهانها في هذا.

ومع أن ميشيل كانت من نواحٍ عديدة فتاةً تقليدية تعشق اللعب بعرائس باربي، ولعبة «إيزي بيك أوفن»؛ وهي لعبة على شكل فرن، فقد كانت هناك علاماتٌ مبكرة على أنها متميزة، وهذه العلامات لا تقتصر على ما حققته من تميزٍ دراسي. كانت صاحبة البيت الذي تسكن فيه ميشيل — التي هي في الوقت نفسه عمّة والدها — هي التي علّمتها العزف على البيانو، وكانت ميشيل تُقبل على تعلّم الموسيقى بنهم. قالت ماريان: «كانت تعزف على البيانو لوقتٍ طويل جداً ولا تتوقف حتى نُضطر إلى أن نطلبَ منها ذلك.»<sup>13</sup>

كانت ميشيل تمارس أنشطةً أخرى بهذا الحماس نفسه، ومع أنها كانت رياضيةً موهوبة فقد قال كريج إنها في النهاية تجنّب الألعاب التنافسية لأنها كانت تحب أن تكون هي الفائزة دائماً.

«لم تكن أختي تتمتع برُوحٍ رياضية؛ فقد كانت تكره الخسارة» هكذا قال كريج لصحيفة «شيكاغو صن تايمز»<sup>14</sup> في سياق تذكّره كيف أنه كان يدعُها تفوز في لعبة المونوبولي «بنك الحظ» حتى لا تتمتع عن اللعب معه تماماً، لكن كريج كان أيضاً أول من اعترف بأن هذه الرُوح لها جانبٌ إيجابي؛ فقد قال إن ميشيل «تكره أن تخسر ولهذا ظلّت متفوقةً للغاية.»<sup>15</sup>

ويبدو أن ميشيل كانت عصبية بعض الشيء، وقد يكون هذا قد أدى إلى تحفيزها أيضاً. فقد قالت فيرنا ويليامز، زميلة ميشيل في كلية الحقوق بجامعة هارفارد، لجريدة «نيويورك تايمز» إنها تتذكر أن ميشيل أخبرتها أن إحدى المدرسات اشتكت من عصبيتها وهي في المرحلة الابتدائية. فكان ردُّ والدتها على المدرسة: «نعم إنها عصبية. لكن هذا لن يجعلنا نلقي بها في البحر على أية حال.» (أظن أننا بهذا علمنا من أين أتت ميشيل بحس الدُعابة الرائع الذي تتمتع به، والذي أحياناً ما تسلّطه على أقرب الناس وأحبهم إلى قلبها، وهي تفعل هذا بحب، لكن هذا الحب لا يخلو من القسوة أحياناً.)<sup>16</sup>

بدءاً من الصف السادس كانت ميشيل تلتحق بفصل المتميزين في المدرسة التي تسمّى الآن «بوشيه إليمنتاري سكول». كانت تتعلم اللغة الفرنسية هناك، وكانت تدرّس منهجاً خاصاً في مادة الأحياء في مدرسة «كينيدي كينج كوليدج». وكان تلاميذ هذا الفصل يدرسون البناء الضوئي، ويدخلون المختبرات، ويشرّحون القوارض بهدف دراسة جهازها العضلي. وقد قالت صديقة طفولتها شيكاكا ديفيز باترسون لصحيفة «شيكاغو صن تايمز»:<sup>17</sup>

«هذا لم يكن ما يدرسه تلاميذ هذا الصف العاديون.» وعندما أنهت المرحلة الإعدادية كانت الثانية على المدرسة.

ثم انتقلت إلى مدرسة «ويتني يانج» التي تقع في غرب منطقة وست لوب بشيكاغو، وهي مدرسة ثانوية حكومية يلتحق بها أفضل التلاميذ وأكثرهم ذكاءً، وعادةً ما يتخرجون منها ليلتحقوا بأفضل الجامعات، ومن هذه الجامعات جامعة برينستون التي تخرج فيها كلُّ من كريج وميشيل. أُسست هذه المدرسة عام ١٩٧٥م هيئةً الإشراف على مدارس شيكاغو، وعُرفت بتميزها كمدرسة تُعد التلاميذ إعدادًا جيدًا للالتحاق بالجامعة، وفاز تلامذتها بجائزة «أكاديميك ديكاتلون» على مستوى الولاية عشرين مرةً في الإحدى والعشرين سنةً الماضية، حسبما ذُكر على موقع المدرسة. وللمدرسة تاريخٌ طويل من التنوع العرقي والثقافي؛ إذ إن ٣١٪ من تلامذتها أمريكيون من أصولٍ أفريقية، و٢١٪ أمريكيون من أصولٍ لاتينية، و١٧٪ آسيويون و ٣٠٪ قوقازيون.<sup>18</sup>

عندما التحقت ميشيل بـ «ويتني يانج» كانت المدرسة جديدةً نسبيًا. فقد قالت برناديت ماكهال مُدرسة ميشيل لـ «نيويورك ركر»: «أول دفعة تخرّجت في مدرستنا تخرّجت عام ١٩٧٨م» — تخرّجت ميشيل عام ١٩٨١م — «لذا فإن الالتحاق بهذه المدرسة كان يُعد مغامرة. لكنها اختارت أن تنضم لبيئةٍ متكاملة تتمتع بتنوعٍ في المناهج والأفراد».<sup>19</sup> قالت شيكا باترسون إن ويتني يانج كانت «الاختيار الصحيح؛ فهي كانت تُعد من أكثر المدارس حداثةً وتقدمًا».<sup>20</sup> وبحلول عام ٢٠٠٨م، كان أكثر من ٩٥٪ من معظم خريجي ويتني يانج يُقبلون في مؤسساتٍ تعليمية تكون الدراسة بها أربع سنوات، ومن بين هذه المؤسسات جامعة هارفارد وييل ومعهد ماساتشوستس للتكنولوجيا وجامعة ستانفورد، وجامعة ديوك، وجامعة هوارد.<sup>21</sup>

وفي نسخة عام ١٩٨١م من الكتاب السنوي الذي تُصدّره مدرسة ويتني يانج تظهر صورة لفتاة «جادة» ترتدي تنورةً صفراء من الحرير. ومع أنها كانت قوية البنية فإنها لم تشارك مع المدرسة في أنشطتها الرياضية. ويبدو أن هذا لا يعود وحسب إلى كراهيتها للخسارة. فقد قال أخوها كريج لـ «نيويورك ركر»: «هذه هي أفضل طريقةٍ تدفعها بها للامتناع عن فعل أمرٍ ما. إنها لم تُحب أن يكون السبب الوحيد لمشاركتها في الأنشطة الرياضية هو أنها طويلة وسوداء وقوية البنية».<sup>22</sup> لكن ميشيل كانت متفوقة دراسيًا، وظل اسمها في لوحة الشرف طوال السنوات الأربع، وكانت تلتحق بالفصول التي تُدرس لها بعض المناهج الجامعية في المرحلة الثانوية، وكانت عضوًا في جمعية ناشونال أونر

سوسايتي التي تضم الطلاب المتميزين في جميع المجالات. وانتُخبت أمانةً لصندوق مجلس الطلاب.<sup>23</sup>

وفي عام ٢٠٠٥م اختيرت ميشيل أوباما رئيساً شرفياً لحفل العشاء الذي أقيم بمناسبة مرور ثلاثين عاماً على إنشاء مدرستها الثانوية ومشرفةً عليه. وكان من بين المسؤولين معها عن هذا الحفل: العمدة ريتشارد دالي، وأرن دانكان الرئيس التنفيذي لهيئة مدارس شيكاغو الحكومية، ومايكل سكوت رئيس هيئة مدارس شيكاغو الحكومية. وفي ذلك الوقت قال الدكتور كينز إن عنوان هذه الأمسية — وهو: «بوابة إلى العالم: الاحتفال بثلاثين عاماً من التميز الدراسي» — يكشف «حقيقة أن خريجي مدرسة ويتني مؤهلون للتنافس رغم الظروف الاقتصادية التي تُهيمن عليها العولمة، وأنه لا حد للفرص المتاحة أمامهم».<sup>24</sup> لا شك في أن هذا ينطبق على ميشيل أوباما، التي تخرّجت في هذه المدرسة عام ١٩٨١م.

وعندما حان وقت الالتحاق بالجامعة دفعها للتقدم لبرينستون الروح نفسها التي منعتها من الاشتراك في الرياضيات التنافسية، والتي دفعتها للسعي إلى النجاح في جميع المجالات التي دخلتها. وحسبما تتذكر ميشيل، عندما تقدّم أخواها للالتحاق بالجامعة كان قبوله في إحدى الجامعات المشتركة في رابطة «أيفي ليج» الرياضية مضموناً بفضل تفوقه الدراسي والرياضي. قالت ميشيل لمجلة «نيوزويك»: «طفلٌ أسود من المنطقة الجنوبية من شيكاغو يلعب كرة السلة ويتميّز بالذكاء. كان يحقّق نجاحاً أينما حل. لكنني كنتُ أعرفه وكنْتُ أقول لنفسي: أستطيع أنا أيضاً فعل هذا».<sup>25</sup>

وفي حقيقة الأمر فقد كان كريج تلميذاً رياضياً شديد التميز لدرجة أنه عُرض عليه عددٌ من المنح الشاملة لمصاريف التعليم وجميع المصاريف الأخرى في عددٍ من الكليات، لكن والده نصحه بأن يكون معيار اختياره هو: أين سيحصل على أفضل تعليم؟ ومع أن المنحة التي فاز بها للدراسة بجامعة برينستون كانت منحةً غير شاملة فإن والده أصرَّ على أن يلتحق بها. قال كريج للمؤلف ديفيد ميندل: «قال والدي إن التكلفة لا تهم؛ فما يهمُّ حقاً هو التعليم».<sup>26</sup>

وعندما كانت ميشيل لا تزال في المدرسة الثانوية زارت أباها الأكبر في جامعة برينستون. وقد حذرهما بعض أساتذتها في المرحلة الثانوية من أن تتقدم لهذه الجامعة بسبب الدرجات التي حصلت عليها في الامتحانات. لكن ميشيل — وهي الأخت الصغرى التي تُنافس أباها — لم تعباً بتحذيراتهم، وبالطبع نعرف نتيجة هذا. إنها لم تلتحق ببرينستون وحسب، ولم تتخرّج فيها بمرتبة شرف وحسب، بل التحقت بكلية الحقوق بجامعة هارفارد أيضاً.

وكذلك ذكرت ماريان روبنسون لـمجلة «نيوزويك» أن ابنتها شعرت بالإحباط بسبب الدرجات التي حصلت عليها. إذ قالت: «اعتادت أن تواجه بعض المتاعب عند الامتحانات؛ لذا كانت تبذل كل ما في وسعها لتعوض هذا. أنا متأكدة من أن هذه المتاعب سببها نفسي؛ لأنها كانت مجتهدة جداً في حين كان أخوها يستطيع اجتياز أي امتحان دون أدنى مشقة. عندما يكون إلى جوارك شخص كهذا، فإنك تُحب أن تكون مثله أو أفضل منه، وإن كنت جيداً.»<sup>27</sup>

لكن هل كانت غيرة ميشيل من أخيها هي كل ما دفعها لأن تتحدى مدرسيها وتطمح للوصول إلى أعلى القمم؟ أم إن دافعها كان شيئاً أكثر عمقاً، شيئاً متعلقاً بوعيها أنها تستطيع أن تصبح شيئاً ما، وأنه يجب عليها أن تصبح شيئاً ما؟ هل هو أمر متعلق بوضعها كفتاة أمريكية من أصل أفريقي ناجحة في عالم يهيمن عليه البيض؟ أم أمر شبيه بإصرار هيلاري كلينتون على أن ترى امرأة في المنصب الذي ظل الرجال يشغلونه طوال المدة السابقة وحتى يومنا هذا، على أن تحطم ذلك القيد المفروض على المرأة، الذي صار الآن يحتوي على ١٨ مليون شرح (وهذه إشارة إلى عدد الأصوات التي حصلت عليها في الانتخابات التمهيدية للحزب الديمقراطي)؟

الخطبة التي ألقتها ميشيل في يناير ٢٠٠٨م بكلية «بنديكت كوليدج» الواقعة في مدينة كولومبيا بولاية ساوث كارولينا، حثت فيها جمهورها، الذي كان أغلبه من السود، على أن يُغامروا، ويطمحوا إلى المعالي، وإن واجهوا اعتراضات على هذا:

نواجه في كل مكان أناساً يتشككون في إمكانية تحقيق النجاح. هم أناسٌ يقولون لنا إننا لن نستطيع تحقيق أي شيء. يقولون إننا لسنا مؤهلين. ويقولون إننا لسنا أكفاء بما يكفي. ويقولون إننا لا نتمتع بالذكاء الكافي. ويقولون إننا أطول قامَةً مما يجب. كل واحدٍ منكم هنا سمع وشعر بتلك الحواجز، شخص يدفعك إلى الأسفل، يحدد حدودك، من أنت؟ أنت تعلم جيداً ما أنت قادرٌ على فعله ... هذه الانتخابات تتعلق بذلك بقدر ما تتعلق بالتغيير؛ لأن الحقيقة هي أن هناك ملايين من الأضواء الساطعة مثلي تماماً في جميع أنحاء البلاد. أطفال يعيشون في الظل، تُخبرهم مجتمعاتهم بما يمكنهم وما لا يمكنهم فعله. هذه فرصة لنا جميعاً لإرسال رسالة مختلفة لتلك الأضواء الساطعة.

كما تعلمون، في كل مرة أخبرني فيها أحدهم: «لا، لا يمكنك فعل ذلك»، تجاوزت تشكيكهم واتخذت مكاني على الطاولة!<sup>28</sup>

وتعترف ميشيل لوالديها بأنهما أكثر من قدّم لها الدعم، وبأنهما كانا يبذلان كل ما في وسعهما ليضمننا أن يلمع نجمها، ويتأكدنا من أنها ستحارب وتتنزع المكانة التي تستحقّها. قالت: «قال لنا والداي مرارًا وتكرارًا: «لا تُخبرانا ما الأمور التي لا تستطيعان القيام بها، ولا تقلّقا من أن الأمور قد لا تسير على ما يُرام.»»<sup>29</sup>

لا شك في أن ميشيل استحضرت هذه الكلمات كثيرًا على مدار حياتها، ولو بينها وبين نفسها. كان ذلك عندما قرّرت أن تتقدّم لجامعة برينستون على الرغم من نصيحة مدرّسيها، وفيما بعدّ عندما تقدّمت لكلية الحقوق بجامعة هارفارد. وعندما اختارت أن تترك عملها في شركة المحاماة الذي يُدر عليها دخلًا كبيرًا وتصبح موظفة حكوميّة. وعندما قرّرت هي وباراك أن يترشّح للمجلس التشريعي لولاية إلينوي، ثم للكونجرس، ثم لمجلس الشيوخ، ثم للرئاسة في نهاية المطاف. وأثناء الانتخابات التمهيدية للحزب الديمقراطي التي بدا من طولها أنها لن تنتهي، وطوال الشهور السابقة للانتخابات. ولا شك في أن صدّى هذه الكلمات سيظلّ يتردّد في أذنيها طوال السنوات القادمة عندما تجد نفسها مقيمةً في البيت الأبيض.

إضافةً إلى هذا فقد ضرب لها والداها خيرَ مثالٍ في الاجتهاد، وتجاهل العقبات، وعدم الاستسلام. وأثناء جولات الدعاية الانتخابية كانت ميشيل كثيرًا ما تحكي قصة والدها، وكيف أنه رفض أن يدع مرض التصلّب العصبي المتعدد يؤثّر على طريقة حياته. بعد أن كان فريزر سباحًا متميزًا وملاكًا بارزًا خدم في الجيش تدهورت صحته لدرجة جعلته لا يكاد يستطيع أن يعبر الطريق، ثم لم يعد يستطيع أن يعبره دون عكّازين، لكنه ظلّ يذهب للعمل يوميًا دون أن يشكو أو يستسلم. وعندما بلغت ميشيل الخامسة والعشرين تُوفّي والدها بعد إجراء عملية في الكلى، لكنه لا يفارق خيالها إلى اليوم.

قالت ميشيل في إحدى الخطب التي ألقتها أثناء الحملة: «أحاول باستمرار أن أضمن أنه فخورٌ بي. ترى ماذا سيكون رأي والدي في الخيارات التي تبنيتها؟ في طريقة حياتي؟ في المهن التي اخترتها؟ في الرجل الذي تزوجته؟ هذا هو الصوت الذي يتردّد في خاطري ويحافظ عليّ ويُبقي قدمي راسختين، ويجعل تلك الفتاة القادمة من المنطقة الجنوبية من شيكاغو تظلّ بداخلي مهما كثرت أعداد الكاميرات حولنا، وزاد عدد التوقعات التي يريد الناس الحصول عليها منا، ومهما عظم شأننا.»<sup>30</sup>

والداها هما من علّماها أول دروس رد الجميل. فمع أن والدها كان يُصارع مرضه، وكان يعمل يوميًا في محطة تنقية المياه، فقد تطوّع بالعمل منسقًا بين الحزب الديمقراطي

والناخبين في دائرته الانتخابية عندما كان دالي عمدةً لشيكاغو. وفي هذه الأثناء تطوّعت والدتها بالعمل في مدرسة طفليها مما ساعد على ضمان إبقائهما في أحسن حالٍ ممكنة، واهتمامها لم يكن قاصرًا على طفليها بل كان ممتدًا ليشمل كل الأطفال الآخرين الذين يُعدّ التعليم وسيلةً لحصولهم على مستقبلٍ أفضل.

وقد سارت ميشيل على خطاهما. فبعد العمل في شركة الحمامة التي قابلت فيها زوجها، تركت هذه الوظيفة التي تُدر عليها دخلًا مرتفعًا لتعمل في وظيفة حكومية، ووظيفة في مكتب العمدة ريتشارد دالي لا تُدر عليها إلا جزءًا ضئيلًا من الراتب الذي كانت تحصل عليه في مؤسسة «سيدلي أند أوستن». وبعد هذا تنقلت بين عددٍ من الوظائف في مؤسساتٍ غير هادفة للربح، من بينها وظيفة مدير تنفيذي في منظمة «بابليك أليز شيكاغو»، وهو مشروع يساعد على إشراك الشباب في الخدمة العامة، وكانت هي الشخص الأنسب لهذه الوظيفة. وفيما بعدُ شغلت منصب نائب الرئيس لشئون المجتمع والشئون الخارجية في مستشفيات جامعة شيكاغو. وفي هذه الوظيفة الأخيرة — التي أخذت منها إجازةً بدون راتبٍ أثناء الحملة الانتخابية — كانت تنسّق بين المستشفى الجامعي والمنطقة الجنوبية التي نشأت فيها، وهي وظيفةٌ أخرى لها صدَى في تجربتها الفريدة.

وإضافةً إلى هذا فقد شغلت عضوية عدد من مجالس الإدارة، من بينها عضوية مجلس شيكاغو للشئون العالمية، وعضوية مدرسة مرموقة؛ حيث مكّنها هذا المنصب من أن تضمن — مثل والدتها من قبلها — أن تكون مدرسة ابنتيها في أفضل حالٍ ممكنة، ليس فقط من أجل ابنتيها بل من أجل جميع الأطفال الذين يأملون في أن يوظّفوا التعليم كإطلاقة لمستقبلٍ أفضل.

والدرس المهم الأخير الذي تعلّمته ميشيل من والديها هو الأهمية القصوى لدور الآباء في حياة الأبناء. ومع أن البعض أخذ عليها قرار البقاء في شيكاغو مع ماليا وساشا بعد انتخاب زوجها عضوًا بمجلس الشيوخ، والامتناع عن تكريس كل وقتها للحملة أثناء ترشّح زوجها في انتخابات الرئاسة، فقد أوضحت ميشيل مرارًا وتكرارًا أن ابنتيها هما الأولوية الأولى في حياتها. وعندما تصبح سيدة «أولى» ستكون وظيفتها «الأولى» هي الاهتمام بابنتيها.<sup>31</sup>

كان هذا هو نمط الحياة الذي تربّت عليه. عندما كانت هي وأخوها كريج صغيرين كان لزامًا عليهما أن يُشاركا والديهما وجبة العشاء كل ليلة؛ فأسرة روبنسون لا تعترف بأسلوب تسخين كل شخصٍ طعامه في المايكروويف والتهامه حينما يجد الوقت مناسبًا.

بل كان وقتُ الطعام وقتًا للقاء في نهاية كل يوم، وهو يُعد من العوامل التي تساعد على الحفاظ على التوافق بين الوالدين وطفليهما. (ربما كانت مائدة الطعام هي المكان الذي طوّرت فيه ميشيل موهبة المناقشة والجدل وإقناع الآخرين بأن يأخذوا صفّها في أي نقاش. وهذه المهارة المميزة هي ما دفعت زوجها إلى أن يطلق عليها «ورقته الرابعة» أثناء جولات الدعاية الانتخابية؛ إذ إنها أظهرت قدرةً فريدةً على جذب الأشخاص القادرين على التبرّع لكنهم يعزفون عن هذا لعدم انتمائهم لأي حزبٍ سياسي، وهذه صفةٌ من المهم توفرها في زوجات السياسيين.)

أيضًا كانت أسرة روبنسون على علاقةٍ وطيدة بجميع أفراد العائلة، وكانوا يجتمعون في لقاءاتٍ منتظمة تسودها روح الود. وقد قال زوجها إن تجربة زيارة أسرة روبنسون بعد لقائه بميشيل في أواخر ثمانينيات القرن العشرين كانت شبيهة بـ «أن تحلّ ضيفًا على ممثلي مسلسل «دع الأمر لبيفر» (ليف إت تو بيفر)». (لا شك في أن هذا البيت كان مختلفًا عن البيتين اللذين قضى فيهما باراك أوباما طفولته في هاواي وإندونيسيا؛ حيث عاش بلا أبٍ أو أقارب.) ففي هذا البيت يُوجد فريزر والد ميشيل المرح الذي كرّس حياته لوظيفته وأنشطة أبنائه، وماريان، والدتها اللطيفة التي تُعد الكعك وتكرّس نفسها للاهتمام بمدرسة طفليها، والأخ كريج، الذي يتسم بأنه خفيفُ الظل وودود، والذي كان يشغل وظيفةً مرموقة في أحد البنوك الاستثمارية، لكنه كان يأمل في أن يعمل مديرًا فنيًا لأحد فرق كرة السلة. وكان أفراد العائلة كثيرًا ما يزورونهم مُضيفين لحناً جديدًا لهذه الأنشطة الأسرية فيمزحون ويأكلون ويستمعون للموسيقا لساعاتٍ طويلة. وكانت أسرُتهم خير مثال للأسرة السعيدة، إلا أنه لم يكن لديهم كلب.» فحسبما كتب باراك في كتاب «جراحة الأمل» فإن والدة ميشيل لم ترق لها فكرة أن يعبثَ كلبٌ بمنزلها.<sup>32</sup>

إن باراك على وعيٍ شديدٍ بقوة العلاقة الأبوية التي عاشتها ميشيل أثناء نشأتها، وقد حكى بحزنٍ شديد كيف أن خياراته جعلت من الصعب عليه الإسهام في إقامة مثل هذه العلاقة، خاصة ذلك الشق المتعلق بعلاقة الأب بابنتيه. وكتب أنه عندما تتحدّث ميشيل عن والدها فإنه يشعر بحبها واحترامها له، يشعر بمشاعر نشأت لا بفضل قيامه بأفعالٍ عظيمة بل بفضل قيامه بأعمالٍ يومية بسيطة؛ أي بفضل وجوده في حياتها. وكتب باراك أيضًا أنه كثيرًا ما يتساءل هل ستتحدّث ابنتاه عنه في يوم ما بمثل هذا الحب والاحترام.<sup>33</sup> (من الأشياء التي ستستطيع ابنتاه المطالبة بها: اقتناء كلب، وهو شيء لم تحصل عليه والدتهما في شبابها. فحسبما قالت ميشيل في حوارٍ مع سوزان مالفو مراسلة محطة

«سي إن إن»: «ستحصل البنتان على كلبٍ على أية حال. وهذا ليس خيارهما. فهما لم تكونا شغائين.»<sup>34</sup>

ومع أن أسرة روبنسون بدت لبارك مثل مجموعة من الممثلين في مسلسلٍ تلفزيوني، فقد كتب أنه بعد هذا أصبح على وعيٍ بأن هناك جانبًا مظلمًا لهذه الصورة؛ وهو أن فريزر كان عليه أن يصارع مرضًا أوَهَن جسده طَوال خمسة وعشرين عامًا. وعندما صار بارك أكثر قربًا من ميشيل بدأ يدرك كيف أثر مرض والدها على الأسرة؛ إذ وقع على والدتها عبءٌ ثقيل؛ عبء القيام بجهودٍ حثيثةٍ للحفاظ على الحياة الطبيعية للأسرة، ومهما بدت عليهم السعادة فقد كان يُراودهم جميعًا إحساسٌ دفين بعبثية الحياة.<sup>35</sup> وربما كان هذا الإحساس بعبثية الحياة، وبأن الظروف قد تتغير بسرعةٍ كبيرة، هو ما أشعل رغبة ميشيل القوية في أن تُحافظ على حميمية علاقتها بابنتيها.

وقد أقرَّ كلٌّ من ميشيل وبارك بأنهما في بعض الأوقات واجها صعوبة في تكوين رؤيةٍ مشتركةٍ حول تحقيق التوازن بين متطلبات العمل والأسرة، وأحد العوامل الرئيسية التي أدت إلى هذا هو اختلاف ظروف نشأتهما اختلافًا جذريًا.

قالت ميشيل لمجلة «فانيتي فير»: «بدأت علاقتنا الزوجية وفي ذهني فكرةً تقليدية عن الأسرة. الأسرة كما عرَفْتُها في نشأتي: أمٌّ في البيت وأبٌّ في العمل واجتماع الأسرة على العشاء. كانت نشأتي تقليديةً ومستقرةً جدًّا، وكنتُ أرى أن هذا وضعٌ جيد جدًّا. لكنني تزوجتُ رجلًا نشأ نشأةً مختلفةً تمامًا. فهو لم يعرف معنى أن تنشأ في كنف أب، وأمه كانت تجوبُ العالم. لذا فقد بدأنا حياتنا الزوجية وفي ذهننا فكرتان مختلفتان تمامًا عما يحتاجه الأبناء، وعما يحتاجه الزوجان حتى ينعموا بالسعادة.»

ومن جهةٍ أخرى كان هناك شيءٌ جذاب في فكرة السير على الطريقة غير المعتادة، وفي هذا مفارقةٌ عجيبة بعض الشيء. فالرجل الذي لم يكدُ يعرف والده، وعاش حياة حياة الرحالة حرَّك فيه بيت روبنسون حينًا للاستقرار وللانتماء للمكان لم يكن يعرف أنه موجودٌ بداخله. والعكس صحيح؛ فإذا كان بارك وجد الراحة في الاستقرار والانتماء، فإن ميشيل رأت في بارك «تجسيدًا لحياة المغامرة والمخاطرة والسفر إلى البلاد الغريبة، رأت فيه أفقًا أوسع من الأفق الذي كانت تسمح لنفسها بالعيش فيه فيما مضى.»<sup>37</sup>

ومقارنةً ببداية حياة ميشيل لافون روبنسون باعتبارها واحدةً من أفراد الطبقة العاملة في المنطقة الجنوبية من شيكاغو، فإن أفقها الآن واسع للغاية. وبصفتها سيدةً أولى، فإنها على أعتاب المغامرة والمخاطرة والسفر إلى بلادٍ غريبة أكثر من أي شخصٍ

آخر على وجه الأرض، باستثناء زوجها بالطبع، ومع هذا، فإن قَدَم ميشيل تبقى راسخة في الأرض، وإن لم تُعد تلك الأرض شيكاغو التي شهدت عهد طفولتها. كم عدد الملاعق الذهبية التي وُضعت في فمها وهي تنشأ في المنطقة الجنوبية من شيكاغو؟ من يعرف؟ ومن يهتم بأن يعرف؟ وهل هذا مهم من الأساس؟

بعد أن ضحك ستيفن كولبرت على ما قالته ميشيل عن عدد الملاعق الذهبية، ترك الحديث عن قضية بيترجيت والنخبوية. وقال لها إن مظهرها جيد للغاية، وشبَّهها بـ «جاكلين كينيدي أوناسيس»، بل إنه غنَّى لها جزءاً من الأغنية الرومانسية «الحب» (إل أوه في إي) لثلاث كينج كول حتى يثير «غيرة» زوجها شيئاً ما، وهذا قبل أن يسألها: لم تعتقد أن المرأة الأمريكية يجب أن تصوّت لبارك؟

أجابته: «الكثير من النساء من أمثالي، اللاتي يتصفن بأنهن مستقلات قويات ولهن أهداف في الحياة، يعرفن أن بارك مميّز، وأن لديه شيئاً فريداً يقدّمه لهذا البلد، وأن أفكاره ستغيّر حياة المرأة العاملة حقاً. وهو يتفهّم وضع هؤلاء النساء لأنه يعيش معي.»

سألها كولبرت: هل سئمت الحملة وشعاراتها؟ هل يعود زوجها إلى البيت أم لا؟ وقال: «هل تقولين أشياء من قبيل: «أنت زوجي و«أمل» أن «تغيّر» صندوق فضلات القطة؟» (الكلمتان الموضوعتان بين علامتي اقتباس مأخوذتان من شعارات حملة بارك أوباما الانتخابية، وقد نطقهما المذيع بنبرة مختلفة ليسلّط عليهما الضوء.)

فما كان منها إلا أن اصطنعت الصرامة وردّت عليه في الحال مستخدمة شعاراً آخر من شعارات الحملة: «ما أتق به هو أن بارك يؤمن بمقولة: «نعم نستطيع»!<sup>38</sup>

ومع أن ميشيل تلقت تعليمها في جامعتي برينستون وهارفارد، ومع أنها لبقة وتتمتع بقدر من الأناقة يجعلها تُشرف أغلفة مجلات الموضة، فإنها بلغت حدّاً فائقاً من البساطة.

## الفصل الثاني

# سنوات الجامعة

اكتشفت أنها يمكن أن تكون «سوداء ومبهرة في آن واحد»

عندما التحقت ميشيل بجامعة برينستون خريف عام ١٩٨١م، وجدت نفسها في عالم مختلف تمامًا عن العالم الذي نشأت فيه. لم يكن قد سُمح للنساء بالالتحاق ببرينستون إلا منذ سنواتٍ قليلةٍ ماضية، ولم يُسمح لأعدادٍ كبيرةٍ من الطلاب السود بالالتحاق بها إلا في العشرين سنة الأخيرة.<sup>1</sup> وحسبما قالت كايتي ماكورميك ليليفيلد المتحدثة باسم ميشيل أوباما: إن جامعة برينستون كانت تُعد «أفقا جديداً» للمرأة الأمريكية ذات الأصول الأفريقية في ثمانينيات القرن العشرين.<sup>2</sup>

عام ١٩٨١م كانت ميشيل واحدةً من بين ٩٤ طالباً أسود من مجموع ١١٤١ طالباً في السنة الأولى.<sup>3</sup> ولأول مرة في حياتها، صارت في موقفٍ هي فيه من الأقلية حقاً، على الأقل مقارنةً ببيئة المنطقة الجنوبية من شيكاغو التي عاشت فيها، ومقارنةً بمدرسة ويتني يانج التي تفتخر بتنوعها.

في السنوات الأخيرة قطعت جامعة برينستون خطواتٍ واسعةً نحو فتح أبوابها أمام الطلاب من جميع شرائح المجتمع، وذلك عن طريق تبني سياسات قبولٍ لا تلتفت إلى الوضع المادي للطلاب. وعام ٢٠٠٦م أعلنت الجامعة إنشاء مركزٍ جديد للدراسات الأفروأمريكية «يكون رائداً في مجال التدريس والبحث في الأعراق الموجودة في أمريكا».<sup>4</sup> لكن عندما دخلت ميشيل برينستون كانت تمثل ظاهرةً غريبةً نسبياً بصفتها امرأةً أمريكية من أصلٍ أفريقي في حرم إحدى جامعات رابطة «آيفي ليغ» المرموقة.

وعلى العكس من بعض الجامعات الأخرى في رابطة «آيفي ليغ»، فلم يلتحق أي طالب أمريكي من أصلٍ أفريقي بجامعة برينستون إلى أن نشبت الحرب العالمية الثانية،

حين طرحت الجامعة برنامجاً لتدريب جنود البحرية الأمريكية أطلقت عليه اسم برنامج «في-١٢» واقتنص أربعة من الرجال السود الفرصة. كان من بين هؤلاء الطلاب الأربعة: جون لي هوارد الذي تخصص في علم الأحياء ثم التحق بكلية الطب وأصبح جراح عظام، وقد حقق سبقاً تاريخياً حين حصل على شهادته عام ١٩٤٧م. ثم حصل الرجلان الآخران على شهادتهما في السنة التالية، أما الرابع فلم يفلح في التخرج. (قيل إن ثلاثة رجالٍ سودٍ درسوا في الجامعة في القرن الثامن عشر، لكنَّ أحداً منهم لم يتخرج. أيضاً، حصل اثنان من الرجال الأمريكيين ذوي الأصول الأفريقية على درجة الماجستير في الآداب من جامعة برينستون؛ أحدهما عام ١٨٩٥م، والآخر عام ١٩٠٦م.)<sup>5</sup> وعلى العكس من هذا، فقد تخرَّج أول طالبٍ أسود في جامعة هارفارد عام ١٨٧٠م،<sup>6</sup> ومنحت جامعة ييل شهادة التخرج لأول أمريكي من أصلٍ أفريقي عام ١٨٧٤م.<sup>7</sup>

ونظرًا لتأسيس جامعة برينستون عام ١٧٦٤م، ولأنها رابع أقدم جامعة في البلاد، فإننا نجدها مُغرقة في التقاليد. بل إن مبانيها تزخر بعبق التاريخ؛ إذ إن مبنى «ناسو هول» كان مقرًّا مؤقتًا لحكومة الولايات المتحدة عام ١٧٨٣م. والجامعة، بممراتها ذات الأسقف التي تتخذ شكلًا مقوسًا على الطراز القوطي، ومُزجها المشدَّبة، تعكس رُوح النُخبة المتعلمة في الساحل الشرقي للولايات المتحدة مع شيءٍ من رُوح الطبقة العليا في الجنوب. وعند مدخل أحد المباني الذي يحتوي على قاعات المحاضرات الخشبية نجد عبارة تعكس هذه الرُوح النُخبوية: «هنا تعلَّمنا من الرجال والأبراج القوطية الإيمان والاستقامة وحب المثل التي لا تدرکہا الأبصار ولا تعرف الموت.» ومن حيث الأسلوب المعماري، فإن برينستون هي النقيض التام لصفوف البيوت الصغيرة المبنية بالطوب الأحمر في ضواحي المنطقة الجنوبية من شيكاغو التي نشأت فيها ميشيل وهي طفلة.

ومن بين جميع جامعات «آيفي ليغ»، كانت برينستون في ثمانينيات القرن العشرين تضم أكبر عددٍ من الطلاب الذين ينتمون لعلية القوم، هذا وفقًا لكتاب «الدليل الرسمي لتلاميذ المدارس الخاصة» الذي صدر عام ١٩٨٠م. وردت في هذا الكتاب إحصائيات حول الدرجة المطلوبة في اختبارات «السات» من أجل القبول بالجامعة (اختبار الشفوي ٦٣٦، واختبار الرياضيات ٦٧٢)، وورد فيه أيضًا أن ٤٠٪ من الطلاب الذين التحقوا بجامعة برينستون عام ١٩٨٠م تخرَّجوا في مدارس تُدرَّس فيها مناهجٌ إضافية تؤهِّل لدخول الجامعة (وهي مدارسٌ ثانويةٌ خاصة مرتفعة التكاليف خاصة بالطبقة العليا ولا يلتحق بها الطالب إلا إذا وافقت المدرسة على هذا)، «لكن عندما حان وقتُ تخرُّجهم في الجامعة،

بدا الأمر وكأن النسبة أصبحت ١٠٠٪. وقد ورد في الكتاب أن برينستون هي «أكثر من يحمل رُوح الجنوب ولهجته من بين جامعات رابطة «آيفي ليغ»؛ إذ إنها ورثت الكثير من تراثه ومن نواديه وحفلاته». ولم ترد أية جامعة أخرى من جامعات رابطة «آيفي ليغ» في قائمة «توب تن بريبي كوليدجيز»، وهي قائمة بأكثر عشر جامعات تضم أكبر عددٍ من الطلاب الذين ينتمون للطبقة العليا (واحتلت جامعة برينستون المرتبة السابعة في هذه القائمة). وقد احتلت جامعة كولومبيا — التي تخرّج فيها باراك أوباما — المرتبة الأولى من بين الجامعات التي تضم أقل عددٍ من الطلاب الذين ينتمون للطبقة العليا.<sup>8</sup>

هذا هو العالم الذي خلّده خريج جامعة برينستون، الكاتب فرانسيس سكوت فيتزجيرالد في روايته الأولى «هذا الجانب من الجنة»؛ إذ صورَّ فيها بيئة لا تختلف عن البيئة التي صورَّها كتاب «الدليل الرسمي لتلاميذ المدارس الخاصة» مع أنها نُشرت عام ١٩٢٠م. بل إنه من المرجح أن أموري بلاين، بطل رواية فيتزجيرالد، قد انتابته إلى حدٍّ ما نفسُ مشاعر ميشيل أوباما بعدما ترك بيته للالتحاق ببرينستون؛ إذ إنه شابٌّ كاثوليكي قَدِم إلى هذه الجامعة من الإقليم الأوسط الشمالي الشرقي وكله شوق إلى الانهماك في أجواء هذه الجامعة التي سمع كثيرًا عنها والتي اشتهرت بأنها «أفضل نوادي أمريكا».<sup>9</sup>

عندما وصل أموري إلى برينستون وجد نظامًا اجتماعيًا لا يعترف به، مكانًا يبقي فيه الشباب المتخرّجون في مدارس خاصة معيّنة بعضهم بصحبة بعض، ويحيطون أنفسهم بمجموعة من الوصوليين الذين لا يتمتعون بشعبية كبيرة حتى يحموهم من خريجي المدارس العامة الودودين والمتحيرين مما يحيط بهم من أجواء.<sup>10</sup> لم يكن ما تسعى إليه ميشيل هو التمتع بأجواء النوادي؛ فلا شك في أنها كانت تعرف بعض مزايا الفوز بشهادة جامعية تحمل اسم برينستون، ولا بد أن هذا في حدِّ ذاته كان يُمثل لها إغراءً. لكن مثل أموري بلاين، كان ما وجدته مختلفًا عما توقعته، لكن بما يميّزها من إصرار على أن تنتزع المكانة التي تستحقها استطاعت أن تُشقَّ طريقها.

قالت ميشيل لسارا براون في حوار نُشر عام ٢٠٠٥م في الصحيفة الطلابية «ذا ديلي برينستونيان»: «عندما كنتُ واحدةً من الطلاب الأمريكيين ذوي الأصول الأفريقية القلائل في الكلية في ذلك الوقت وجدتُ أن الفرص المتاحة أمام الأقليات ليست كبيرة. لذا كَوْنًا مجتمعًا داخل مجتمعنا واشتركنا في أنشطة طلابية داخل الجامعة مثل «مركز العالم الثالث» الذي يُعرف الآن باسم مركز «كارل إيه فيلدرز» للمساواة والتفاهم.<sup>11</sup> وفي النهاية صارت عضوًا بمجلس إدارة المركز، ونظّمت أيضًا برنامجًا لمحو الأمية يقدّم

خدماته للأطفال الذين يعيشون في الأحياء المجاورة، وهذا عملٌ دراسي يناسب الشابة التي ترى أن التعليم هو أهمُّ ما في الحياة. وأُتيحت فرصٌ أخرى للطلاب السود عن طريق «طاولة أفكار السود»، وهو منتدى يناقش الموضوعات المتعلقة بالأعراق والأحداث الجارية، وجماعة «منظمة وحدة السود»، وهي جماعة تنظّم محاضراتٍ للطلاب السود.<sup>12</sup> قالت أنجيلا آكري – إحدى رفيقات ميشيل في سكنها الجامعي التي ظلت صديقةً مقربة لها – لمجلة «نيويورك»: إن برينستون في ذلك الوقت كانت «مكاناً يتسم بالتمييز الجنسي والفصل العنصري» لذا فقد كانت هي وصديقتها تقضيان معظم وقت الفراغ في مركز العالم الثالث.<sup>13</sup>

وعلى النقيض من هذا، كان محور الحياة الاجتماعية لكثيرٍ من زملائهما هو نوادي برينستون المشهورة. لي صديقةٌ قديمة اسمها ليزا روبنسون علمتُ عنها شيئاً جديداً منذ وقتٍ قريب؛ فقد اكتشفت أنها هي الفتاة التي ورد اسمها قبل اسم ميشيل روبنسون مباشرةً في الكتاب السنوي الذي أصدرته جامعة برينستون عام ١٩٨٥م، وحين وصفت لي ليزا الجامعة، حدتني عن مكانٍ ترتدي فيه الفتيات الفساتين والجوارب، ويرتدي فيه الفتيان المعاطف وربطات العنق في يومي الجمعة والسبت ويُمضون الليل في شرب الخمر والرقص.<sup>14</sup> من الطبيعي أن ميشيل لم تعرف عالم الطلاب الأثرياء ذوي البال الخالي هذا. فقد قالت لصحيفة «تليجراف» البريطانية: «أذكر أنني صدمتُ عندما رأيتُ طلاب جامعة يقودون سيارات بي إم دبليو. ففي الوسط الذي نشأت فيه لم يكن الآباء أنفسهم يقودون مثل هذه السيارات.»<sup>15</sup>

لكن التمتع بحياة اجتماعيةٍ صاخبة لم يكن هدف ميشيل من الالتحاق ببرينستون. فقد التحقت بها وعينها نُصب دراستها. ومع اشتهار برينستون بالنوادي وبأنها جامعة الأثرياء، فقد كانت الدراسة فيها صارمةً مثل باقي الجامعات. وكالمعتاد كانت ميشيل تتملكها الرغبة في أن تجعل والديها – اللذين لم تُتحَّ لهما فرصة الالتحاق بالجامعة – فخورين بها. قالت هيلاري برد صديقة ميشيل لصحيفة «بوسطن جلوب»: «كان كريج وميشيل يتحدثان كثيراً عن والديهما، وكانت ميشيل تريد أن تحقق النجاح لأجلهما بقدر ما تريد أن تحققه لأجل نفسها.»<sup>16</sup>

وقد وصفت أنجيلا آكري اجتهاد ميشيل فقالت: «كانت منظمةً جداً، كنا نستيقظ مبكراً كل صباح ونستذكر دروسنا قبل الإفطار، ثم نذهب إلى قاعة الطعام مبكراً. كان الإفطار يبدأ الساعة السابعة صباحاً وغالباً ما كنا نصل إلى حجرة الطعام فلا نجد

أحدًا سوانا»<sup>17</sup> (وهنا تبرز صحة القول المأثور: «من شبَّ على شيء شاب عليه»؛ فيلَى أن صارت مشاغل ميشيل كثيرةً جدًّا أثناء الحملة الانتخابية، كانت معتادةً على أن تستيقظَ في الرابعة والنصف كلَّ صباح لكي تقومَ بتمريناتٍ رياضية كثيرة. لكن أثناء الحملة الانتخابية تغيَّر هذا النظام بحيث صارت تمارس الرياضة ثلاث مراتٍ في الأسبوع، مدةً كل مرةٍ منها تسعون دقيقة، ولم يعد هناك موعدٌ ثابت للتمرينات؛ بل كانت تمارسها حينما يتسنى لها هذا.)

وبالإضافة إلى أن ميشيل وجدت نفسها ضمن الأقلية لأول مرة في حياتها، فإن العيش في المسكن الجامعي في إحدى الضواحي بولاية نيو جيرسي كان يمثل أول مرة تعيش فيها ميشيل بعيدًا عن والديها، لكنها كانت محظوظةً إذ كان أخوها الكبير في الجامعة معها، وكان مشهورًا جدًّا. فقد حصل على لقب أحسن لاعب في بطولة رابطة «آيفي ليغ» في عامين أثناء وجوده في برينستون، وهو إلى الآن صاحب المركز الرابع في تاريخ هدافي فريق كرة السلة بجامعة برينستون.

وقد قيل إن كريج كان يعتني بأخته الصغرى، لكن لننظر إلى ما قاله أحد زملاء كريج لسارا براون التي تعمل في صحيفة «برينستونيان»: «كان كريج يعدُّ ميشيل طفلةً هو مسئولٌ عنها، لكنه كان واضحًا منذ أول لقاءٍ لي بها أنها لم تكن طفلة أحد»<sup>18</sup> وكالمعتاد كانت ميشيل صريحة، حتى في هذه البيئة الجديدة الغربية عليها، وهناك قصة تُحب والدة ميشيل أن تحكيها عن ابنتها. وقد حكَّتها لمجلة «نيويورك» إذ قالت: «ميشيل دائمًا صريحة في كل شيء. وإن وجدت شيئاً يسير على غير ما يُرام فإنها لا تسكَّت عليه»<sup>19</sup> وعندما كانت في برينستون اتصل بي أخوها وقال: «أمي، ميشيل هنا تقول للجميع إنهم لا يدرسون اللغة الفرنسية على النحو الصحيح!»

يبدو أن ميشيل رأت أن أسلوبهم في التدريس لا يهتم بالمحادثة بما يكفي. ماذا كان رد والدتها؟ «قلتُ له: تظاهر بأنك لا تعرفها»<sup>20</sup> (إن رد والدة ميشيل المستفز والمشحون بالحب في آن واحد يشبه التعليقات التي قالتها ميشيل عن زوجها — على سبيل المثال، التعليقات التي تحدثت فيها عن فشله في وضع جواربه في موضعها الصحيح — وعن أنه لا يوجد أي مانع من أن يغيِّر صندوق فضلات القطة.)

يكشف التأكيدُ على أن ميشيل «لم تكن طفلة أحد»، والقصة التي حكَّتها الأسرة عن انتقادها لأسلوب تدريس اللغة الفرنسية عن ثقتها القوية بذاتها التي ظلت تتمتع بها — أو ربما عن إصرارها على أن تترك بصمتها وأن تنتزع المكانة التي تستحقها، لكن الحقيقة هي أن السهولة لم تكن سمة عالم ميشيل الجديد.

فحسبما تتذكّر أنجيلا آكري، طلبت إدارة الجامعة من الطلاب السود والهسبانيين الذهاب إلى الجامعة قبل باقي طلاب السنة الأولى بأسابيع، زاعمة أن الهدف من هذا هو أن يتأقلموا مع البيئة الجديدة. كان صعباً على آكري التي تخرّجت في مدرسة ثانوية خاصة من مدارس النخبة تقع في منطقة الساحل الشرقي أن تفهم سبب هذا. قالت أنجيلا لمجلة «نيوزويك»: <sup>21</sup> «كنا نظن أنهم إما رأوا أننا نحتاج أن نبدأ الدراسة قبل البيض أو أنهم قالوا: «لنجمع جميع السود معاً». لا شك في أن النوايا التي دفعت الإدارة إلى استدعاء الأقليات مبكراً كانت طيبة، لكن عندما لحق الطلاب البيض بالطلاب الملونين في الجامعة بعد أسابيع قليلة، لم يلتئم شمل المجموعتين قط.

وقصة ميشيل مع واحدة من طلاب السنة الأولى كانت تسكّن معها في الحجرة نفسها تلقى الضوء على بعض ملامح هذا الانقسام. ففي حوارٍ مع صحيفة «ذي أتلانتا جورنال كونستيتيوشن»، حكّت كاثرين دونلي — التي تخرّجت في برينستون عام ١٩٨٥م — أنها عندما انتقلت إلى حجرتها في سكن الجامعة في خريف السنة الدراسية الأولى، اكتشفت أن إحدى رفيقاتها في الحجرة سوداء. وعندما قالت هذا لوالدتها — التي صحبتها من بيتها في نيو أورليانز إلى نيو جيرسي — استشاطت الوالدة غضباً وأسرعت إلى إدارة الإسكان بالجامعة تطالب بأن تنتقل إبنتها إلى حجرةٍ أخرى.<sup>22</sup>

قالت أليس براون — والدة كاثرين — للصحيفة: «قلتُ لهم إننا لسنا معتادين على العيش مع السود؛ فكاثرين من الجنوب»، وأضافت: «الأرجح أنهم اعتبروني مجنونة.»<sup>23</sup> بعد نحو سبع وعشرين سنة تقول كاثرين، التي أصبحت محامية، ووالدتها — وهي مدرسة متقاعدَة — إنهما نادمتان على ردّ فعلهما. لقد تغيّر الزمن، وتغيّرتا هما أيضاً. وحديثاً أعادت كاثرين التعرّف على رفيقة حجرتها القديمة التي لم ترها كثيراً بعد السنة الأولى وكانت قد نسيّت أمرها تماماً، وذلك عندما بدأت تقرأ عنها وعن زوجها المشتغل بالسياسة في الصحف والمجلات، وبدأت ترى صورتها على شاشة التلفاز.<sup>24</sup>

في عام ٢٠٠٨م، قالت كاثرين ووالدتها إنهما مسرورتان بأن ميشيل — التي عاشت معها كاثرين حتى الفصل الدراسي الثاني من السنة الأولى حين وجدت حجرةً أخرى شاغرة — تستعد الآن لأن تصبح السيدة الأولى. (كاثرين لا تظن أن ميشيل علّمت بأمر طلب والدتها، وتقول إن تغيير الحجرات لم يكن بسبب ردّ فعل والدتها، بل لأنه كان من المنطقي أن تنتقل لمكانٍ أوسع).<sup>25</sup>

لكن كاثرين تقول إن هناك شيئاً آخر تندم عليه، وهو أنها لم تكن يوماً صديقةً حميمة لميشيل. وهي تتذكّر أن ميشيل كانت ودودةً جداً، وأن حُبها وقع في قلبها فور

التقائهما. ومع هذا فقد كان واضحاً من البداية أنهما لن تقضيا الكثير من الوقت معاً لأن كلاً منهما انهمكت مع مجموعةٍ مختلفة من الأصدقاء. قالت كاثرين لصحيفة «ذي أتلانتا جورنال كونستيتيوشن»: «لا أظن أن قدمي وطئت مركز العالم الثالث أبداً؛ فأنا أجهل هذا المكان الغامض تماماً».<sup>26</sup>

أما عن ميشيل فقد أخبرت صحيفة «بوسطن جلوب» أنها لم تسمع بطلب والدة كاثرين إلا أثناء الحملة الانتخابية، ولكنها تظن أنه ربما يكون قد ترك أثراً على علاقتهما. فقد كتبت في رسالة إلكترونية بعثت بها للصحيفة تقول: «لم تتوطد علاقتنا قط، وأحياناً تشعر أن هناك حاجزاً بينك وبين إنسانٍ ما؛ حاجزاً تشعر به فقط ولا يمكن وصفه».<sup>27</sup> وهي ترى بصيصاً من الأمل في هذه القصة. فقد كتبت في رسالة إلكترونية بعثت بها إلى سالي جاكوبس التي تعمل في صحيفة «بوسطن جلوب»: «هذه القصة تكشف ما حدث لوالدة كاثرين من نضج. وأرى أنها تكشف أن المشكلات التي تواجهها هذه الأمة بشأن العنصرية هي مشكلاتٌ كبيرة ... لكن علينا أيضاً أن نتذكّر أن الأشخاص يتغيرون وينضجون».<sup>28</sup>

لا نتذكّر كاثرين أنها تعاملت مع ميشيل كثيراً بعد أن انتقلت من الحجرة التي جمعتُهما معاً، لكن من المثير للاهتمام أنها كتبت بحث علم النفس الذي قدّمته في السنة الثالثة عن سياسة التمييز الإيجابي. أتعرفون ما الخلاصة التي توصلت إليها من البحث؟ لقد توصلت إلى أن «التحيز الخفي المتأصل» لن يموت.<sup>29</sup>

يبدو أن سياسة التمييز الإيجابي كانت تشغل أذهان الكثير من طلاب برينستون في ثمانينيات القرن العشرين. فمع أن جامعة برينستون كانت تحاول أن تهدم الحواجز القائمة بين مختلف عناصر المجتمع، شأنها في هذا شأن باقي الجامعات – وكانت سياسة التمييز الإيجابي إحدى الوسائل التي تستخدمها لهذا، فيبدو أن الطلاب البيض كانوا يرون أن هذه السياسة مهّدت الطريق لأن يلتحق ببرينستون بعض الطلاب الذين لا يستحقون هذا.<sup>30</sup>

لكن ميشيل تنظر إلى وضعها الشخصي نظرةً مختلفة. فقد قالت إحدى المتحدثات باسم الحملة لمجلة «نيوزويك» إن ميشيل ترى أنها حصلت على ميزة أثناء عملية الالتحاق لا بفضل سياسة التمييز الإيجابي بل لأن أباها الأكبر كان ملتحقاً بالجامعة بالفعل.<sup>31</sup> وهذا منحها فرصة التمتع بميزة يمنحها نظام الجامعة، ألا وهي: أن الجامعة تفضل اختيار الطلاب الذين لهم أقرباء درسوا فيها بالفعل، وشأن ميشيل في هذا شأن الكثير

من زملائها البيض الذين كانوا يتمتَّعون بمزايا أكبر من هذه، وكان الالتحاق ببرينستون يُعد من تقاليد عائلاتهم، الذين كان بعضهم يتمتع بهذا الحق قبل زمنٍ طويل من التحاق سكوت فيتزجيرالد بها.

وبالنظر إلى بيئة هذه الجامعة وإلى تناقضه مع بيئة المدينة الأكثر فقراً التي نشأت فيها، ربما يصبح من غير المدهش أن تكتب ميشيل بحث علم الاجتماع الذي قدَّمته في السنة الدراسية الأخيرة عن تجربة أن تكون طالباً أسود في جامعة برينستون، وعن أثر تجربة الالتحاق ببرينستون على مستقبل خريجها من السود. وقد أهدت بحثها إلى «السود الذين تعلموا في برينستون، وإلى مجتمع السود» وإلى أسرته وأصدقائها. إذ جاء فيه: إلى «أمي وأبي وكريج وجميع أصدقائي المقربين. شكراً على حبكم وعلى أنكم كنتم دائماً تجعلونني أنظر لنفسي نظرة إيجابية.» وعلى العكس من الدعم الذي حصلت عليه ميشيل من هؤلاء، فإنها وجدت عجزاً في «مجموعات الدعم التي تقدّم الإرشاد والنصح للطلاب السود الذين يجدون صعوبة في التكيف مع الانتقال من البيئات التي جاءوا منها إلى بيئة برينستون.»<sup>32</sup>

في البداية لم تكن إدارة حملة أوباما راغبة في أن تجعل البحث الذي قدَّمته ميشيل لبرينستون متاحاً للعامة، وطلبت أن يُحظر نشره حتى نهاية الانتخابات الرئاسية. لكنها نشرته في شهر فبراير على موقع Politico.com رداً على الاتهام الذي وُجه لها بأن التزامها بالشفافية ما هو إلا ادّعاء.<sup>33</sup>

لأجل إنجاز مشروع البحث هذا وزَّعت ميشيل استطلاعات رأي على أربعمائة خريج أمريكي من أصل أفريقي التحق كثير منهم ببرينستون في سبعينيات القرن العشرين «عندما بدأ العمل بسياسة التمييز الإيجابي التي منحت السود الكثير من الفرص على المستوى الاقتصادي والتعليمي والمهني»، حسبما كتبت ميشيل. وبالنظر إلى الردود التي حصلت عليها ميشيل من نحو مائة خريج — كانوا هم من أجابوا على الاستطلاع — وجدت أن الطلاب الذين تخرَّجوا في الجامعة وحققوا ارتقاءً تعليمياً واجتماعياً ومادياً، لم يعودوا يعتبرون أنفسهم جزءاً لا يتجزأ من مجتمع السود.<sup>34</sup>

وقد فوجئت ميشيل بأنها وجدت الشيء نفسه يحدث في حياتها. فقد كتبت تقول: «في بداية حياتي الجامعية لم يكن هناك شك في أنني، بصفتي فرداً من أفراد مجتمع السود، أشعر بالالتزام تجاه هذا المجتمع، وبأنني سأوظف جميع مواردِي الحالية والمستقبلية لإفادته هو في المقام الأول.» لكن عندما أوشكت على التخرج وجدت أن تجربة قضاء

أربع سنوات في جامعة برينستون غرست فيها بعضَ قيَم البرجوازيين، قالت: «على سبيل المثال وأنا أشرف على بدء السنة الأخيرة في برينستون وجدتُ نفسي أسعى خلف الكثير من الأهداف التي يسعى خلفها زملائي البيض ومنها: أن أُقبَل في كلية من الكليات المرموقة التي تُتاح فيها الدراسات العليا أو تُعلم طلابها مهنةً ما، أو الفوز بوظيفة ذات راتبٍ مرتفع في مؤسسةٍ ناجحة. ولذا فإن أهدافي بعد التحاقِي بـبرينستون لم تُعد تتسم بالوضوح نفسه الذي كانت عليه قبل الالتحاق بها.»<sup>35</sup> (المسار المهني لميشيل — الذي انتقلت فيه من عالم المؤسسات إلى العمل الحكومي ثم إلى المشروعات التي لا تهدف إلى الربح — يعكس هذه الإشكالية.)

وفي هذا البحث كشفتُ ميشيل أيضًا عن حقيقة شعورها كامرأة سوداء في بيئة يُهيمن عليها البيض. فتجربتها في برينستون جعلتها «أكثر وعياً» بحالها كامرأة سوداء» عن ذي قبل» وأحياناً كانت تشعر وكأنها «غريبة» في هذه الجامعة، وأنها لا تنتمي إلى هذا المكان مهما حاول بعضُ أسانذتها وزملائها البيض أن يعاملوها بسماحة. وتساءلت: هل ستظل في نظر زملائها البيض «سوداء في المقام الأول وطالبة في المقام الثاني»؟ وهل ستظل دائماً «على هامش المجتمع ولا يُسمح لها بأن تُسهم فيه إسهاماً فعّالاً؟»<sup>36</sup>

لقد قيل الكثير عن هذا البحث الذي كُتِبَ وميشيل لم تكد تصل إلى العشرين من عمرها. ولا شك في أن برينستون وميشيل تغيرتا كثيراً منذ أن كُتِبَ هذا البحث، ومع هذا فإنه يُلقي الضوء على نقاطٍ مهمة. قال لي صديقي الصحفي بن ماكنتاير الذي عمل محرراً لشئون الولايات المتحدة في صحيفة «تايمز» اللندنية أثناء الانتخابات التي سبقت فترة الرئاسة الثانية لبيل كلينتون: «مع أنني أظن أنه ليس من العدل أن ننقد هذا البحث لأنه كُتِبَ منذ زمنٍ طويل، فإن به سمةٌ دالة ... ولا أقصد بهذه السمة أنه حادٌّ، بل أقصد أن به قلقاً وألمًا واغتراباً، وأنه فصيح جداً، بالنظر إلى عمر الشخص الذي كتبه. وأظن أنه من المنطقي أن نحلله، لأنه يُعد إلى حدٍّ ما من قبيل المذكرات. الأمر يتعلق بميشيل أوباما.»<sup>37</sup>

وقد أكّدت الملاحظات التي أبدتها ميشيل حواراتٍ دارت بيني وبين مجموعة من الطلاب البيض الذين كانوا يدرسون في برينستون في ذلك الوقت نفسه. ومن المثير للاهتمام أنه لا يوجد من بين الأربعة البيض الذين تخرّجوا في برينستون عام ١٩٨٥م، والذين تحدّثتُ معهم، من يتذكر ميشيل أوباما، مع أنه من الصعب ألا ينتبه شخصٌ ما لواحدة في مثل طولها.

والسبب وراء هذا، حسبما تقول ليزا روبنسون التي تخرّجت في برينستون عام ١٩٨٥م، هو أن العالمين كانا منفصلين تمامًا. (ليزا هي صديقتي التي تعرّفتُ عليها في المدرسة الثانوية، والتي اكتشفتُ جانبًا جديدًا من جوانب عالمها بعد أن أرسل لي شخصٌ آخر من خريجي جامعة برينستون صورةً ضوئية من الصفحة التي تظهر فيها نيكول في الكتاب السنوي الذي أصدرته الجامعة، ورأيتُ فيها وجه زميلتي يُحدّق فيّ، وكان اسمها فوق اسم ميشيل مباشرةً وفقًا للترتيب الأبجدي.) مثل ميشيل، لم تكن ليزا مهتمّة بالذهاب إلى النوادي الاجتماعية؛ لذا كانت تقضي معظم وقت فراغها في بيت الطالبات. أما ميشيل فكانت تقضي وقت فراغها في مبنى «ستيفنسون هول» الذي كان معظم رواده من الأمريكيين ذوي الأصول الأفريقية.<sup>38</sup>

قالت ليزا إنها لم تسمع عن بحث ميشيل، ولكن عندما اطّلعَت عليه قالت إن النقاط الأساسية التي وردت فيه صحيحة. وقالت: «ما يقوله البحث صحيحٌ بالفعل؛ فالسود كانوا يتعرّضون للفصل العنصري.» وأضافت ليزا أن ميشيل، بصفتها امرأةً أمريكيةً ذات أصولٍ أفريقية، كان سيُنظر إليها على أنها «سوداء في المقام الأول، وستُعامل كالغرباء.»<sup>39</sup> واحتمال أن تصبح ميشيل أوباما، زميلتها السابقة، السيدة الأولى جعل ليزا تشعر بالسعادة. وقالت: «كم من الرائع أن يكون لدينا سيدةً أولى لديها فكر ورؤية.»<sup>40</sup> وأبدت لويز أمبلر أسبورن — وهي زميلة ميشيل في برينستون التي أرسلت لي صفحة الكتاب السنوي — الملاحظات نفسها. فكما التحقّت ليزا بجامعة برينستون بفضل التحاق عمّها بها، التحقّت لويز بالجامعة نفسها بفضل التحاق والدها بها. وقالت إن التحاقها ببرينستون كان أمرًا «طبيعيًّا».<sup>41</sup>

أما عن ميشيل فقد قالت لويز إن المرحلة التي كانت مقبلة عليها ستأخذها إلى عالمٍ جديد تمامًا. وأضافت: «لم يخطر ببالي أن أتواصل مع الأفراد الذين لم يكن التحاقهم ببرينستون أمرًا طبيعيًّا جدًّا.» وواصلت حديثها قائلة إنه «لم يكن هناك كثيرون يحاولون أن يقلّلوا من صعوبة تأقلم هؤلاء مع العالم الجديد».

قالت لويز إنها قرأت مقالًا في إحدى الصحف عن بحث ميشيل، وإنها ترى أن الموضوع «رائع» ويتصف «بالأمانة العلمية» لأن ميشيل «اختارت موضوعًا متصلاً بالواقع ومثيرًا، وهو لا يزال متصلًا بالواقع إلى اليوم»، وأضافت: «أما البحث الذي كتبته أنا فلو حاول أحد قراءته فسيغط في النوم.» (تخصّصت لويز في الأدب المقارن ودار بحثها حول الشاعر الفرنسي بودلير والشاعر الأمريكي إدجار آلان بو.)

ولويس لا تزور برينستون كثيراً، لكنها قالت إنها ذهبت إلى الاجتماع السنوي الذي تعقده رابطة خريجي برينستون منذ وقتٍ ليس ببعيد. وقد تحدّث في الاجتماع كريج أخو ميشيل وكان «خفيف الظل ورائعاً». وأثناء الاجتماع مُنحت جائزة تهدف إلى تنمية العلاقات بين الأعراق المختلفة للأشخاص الذين يبذلون جهوداً لرأب الصدع بين الأعراق والثقافات المختلفة. قالت: «وهذا أمرٌ تقوم به رابطة الخريجين هنا كل عام. وأظن أنه من الرائع أن تجد أناساً ينهضون ويقولون إنهم يريدون أن يفعلوا شيئاً حيال هذا.»<sup>42</sup> كانت المتحدثة باسم جامعة برينستون أثناء الحملة الرئاسية، لورين روبنسون براون، طالبةٌ أمريكيةٌ من أصولٍ أفريقيةٍ تخرّجت عام ١٩٨٥م، وقد ظهرت في الصفحة نفسها من الكتاب السنوي. (وهي امرأةٌ جميلةٌ تظهر صورتها فوق صورة صديقتي ليزا روبنسون مباشرة. وعندما أرسلت إليّ صفحة الكتاب السنوي بالبريد الإلكتروني، أثارت فضولي قصيدةً ألحقتها بصورتها تتحدّث فيها عن حال السود. ولم أكتشف أن لورين روبنسون براون، المتحدثة باسم الجامعة، هي نفسها لورين دانيال روبنسون إلا بعد أن بحثت في أخبار جامعة برينستون.)

وفي محادثة تليفونية أخبرتني لورين روبنسون براون أن الجامعة قطعت خطواتٍ واسعةً تجاه تعزيز التنوع واحتضان جميع الفئات والأعراق. وقالت في حوارٍ أجرته معها في أواخر شهر يوليو: «لم يمرّ على برينستون وقتٌ كانت فيه أكثر تنوعاً منها الآن، بكل ما تحمله كلمة التنوع من معانٍ؛ التنوع على المستوى الاقتصادي والاجتماعي والجغرافي والعِرقي والجنسي.» وأضافت: «وهذا وقتٌ عظيم ... تُتاح فيه الفرص أمام الجامعة؛ فهي مقبلة على مرحلة نمو.»<sup>43</sup>

روبنسون براون، التي تخصصت في اللغة الإنجليزية وحصلت على شهادة في الدراسات الأفروأمريكية، كانت تعيش مع ميشيل في السكن نفسه — في مبنى «ستيفنسون هول» — وكثيراً ما كانت تتناول العشاء معها.<sup>44</sup> وكانتا تقضيان معظم وقتهما في المنظمات نفسها (وفي الكتاب السنوي الذي أصدرته جامعة برينستون عام ١٩٨٥م عرّفت لورين نفسها قائلة إنها «ممثلة رفيعة المستوى» لمنظمة «وحدة السود»).

روبنسون براون التي حصلت على درجة الماجستير في الصحافة من جامعة كولومبيا، ونالت عدداً من الجوائز الصحفية أثناء عملها في عددٍ من الصحف، كان من بينها صحيفة «نيوآرك ستار ليدجر»، وصحيفة «دالاس تايمز هيرالد»، وصحيفة «بوسطن جلوب»، رفضت الحديث عن تجربتها الشخصية أو تجربة زميلتها ميشيل روبنسون بصفتها

امرأتين أمريكيتين من أصولٍ أفريقيةٍ التحقنا برينستون في ثمانينيات القرن العشرين، وفضّلت أن تركز حديثها عن حال برينستون اليوم. لكنها قالت: «الطلاب السود الذين التحقوا برينستون [في ثمانينيات القرن العشرين] كانوا يسعون لتحقيق الحلم الأمريكي.»<sup>45</sup> وإذا نظرنا إلى المسار المهني الذي اتخذته ميشيل ولورين، اللتان تخرّجتا في برينستون عام ١٩٨٥م، لرأينا أنهما نجحتا في تحقيق هذا الحلم.

ومن يقولون إن بحث ميشيل ينمُّ عن شخصية «غاضبة تشعر بالمرارة» عزلت نفسها عن زملائها البيض، قد يصبحون على بصيرة بحقيقة الأمر عندما يقرءون مقتطفاتٍ من القصيدة القصيرة التي أرفقتها لورين بصورتها في الكتاب السنوي. تتحدث الكاتبة في القصيدة عن قيادة شعبها «إلى العظمة». وتقول فيها: «لن أعيش على الهامش»؛ «أتمتع بالقوة والجمال والحكمة»؛ «سوداء أنا وفخورة بسوادي». وتنتهي بـ «أنا هي نحن.»<sup>46</sup>

في عام ٢٠٠٨م، بعدما انتخبت الولايات المتحدة أول رئيسٍ أسود لها، يبدو البيت الأخير من القصيدة مثل النبوءة. فالسيدة لورين ليست المتحدثة باسم مجتمع السود في برينستون، بل هي متحدثة باسم جميع المتحقيين برينستون. وباراك ليس رئيساً للسود الأمريكيين وميشيل ليست السيدة الأولى للسود الأمريكيين؛ بل لأمريكا بجميع أعراقها.

بعد مُضي نحو ربع قرن على اختيار لورين دانيال روبنسون أن تضمّ هذه الكلمات لصفحتها في الكتاب السنوي، تحوّلت «أنا» إلى «نحن» بالفعل. لم تتردّد لورين في أن تشير إلى أن الزمن تغبّر في برينستون وفي العالم أجمع. قالت: «العالم مختلف اليوم؛ فقد زادت قدرة الطلاب الذين ينتمون لأجناسٍ مختلفة وبيئاتٍ متنوعة على التعامل بعضهم مع بعض زيادةً كبيرة، وجامعتنا هي خير مثال على هذا.»

وقد أكدت أن التنوع أمرٌ مهم في التجربة الجامعية في برينستون. قالت: «منذ عهد بعيد أقر رؤساء الجامعة بأن التنوع عنصرٌ أساسي في التجربة الجامعية. فالطلاب يتعلمون وينضجون عندما يدخلون في حوارٍ مع أشخاصٍ لهم خلفياتٌ وآراءٌ متباينة.»<sup>47</sup> وفي مقال نُشر في ٢١ يناير عام ٢٠٠٨م في صحيفة «ديلي برينستونيان»، استعرض الكاتب مواقفَ أعضاء هيئة التدريس ومن يؤيدونه من المرشّحين لرئاسة الولايات المتحدة، مستقيماً معلوماته من السجلات الفيدرالية الخاصة بالتبرّعات للحملات الانتخابية، واحتل السيناتور أوباما المركز الأول بلا منازع.

كانت لورين واحدةً من موظفي برينستون الذين أُجري الحوار معهم. وعندما سُئلت لماذا فضّلت سيناتور أوباما عن المرشّحين الآخرين، أخبرت الكاتبتين مايكل جول لارسن

وجوش أوبنهايمر أنها لم تبين خيارها على أن ميشيل كانت زميلتها القديمة وأنها تعرفها «معرفة وثيقة». وأوضحت أن السبب هو ما يمكن أن يحدثه هذا السيناتور في مستقبل البلاد.

قالت: «أومنُ بأنه مرشّح لديه الأمل والرؤية، ويعجبني أنه قادر على إثارة الشباب بحيث يجعلهم يشاركون في العملية السياسية.»<sup>48</sup>

أثناء زيارة قمتُ بها إلى جامعة برينستون في يوليو عام ٢٠٠٨م، وجدتُ أنه من الجلي أن البيئة التي وصفتها ميشيل منذ ثلاثٍ وعشرين سنة تغيّرت تغييرًا حقيقيًا، على الأقل فيما يتعلق بهدف الجامعة. فبالإضافة إلى الكتاب الذي تُصدّره كل الجامعات موضّحة فيه رؤيتها، فإن المواد التي تعطيها جامعة برينستون لتمدّد من يريد الالتحاق بها بالمعلومات يُوجد من بينها كتابٌ عنوانه «برينستون وخيار التنوع». هذا الكتاب مكوّن من ٤٨ صفحة، واستُخدمت في طباعته أربعة ألوان، وهو يركّز على ١٥ طالبًا من خلفياتٍ متنوعة، ونجد فيه عبارةً قالتها جانيت لافين رابولاي، المسئولة عن قبول الطلاب بجامعة برينستون، وهي: «نريد أن نفتح أبوابنا أمام الطلاب من جميع البيئات، ولا شيء يهّمنا سوى سمات الطالب الشخصية والإنجازات والنجاحات الدراسية التي حقّقها.»<sup>49</sup>

ونجد به أيضًا عبارةً قالتها جانيت سميث ديكسون، نائب رئيس الجامعة لشؤون الطلاب، تتحدّث فيها عن تشجيع الطلاب على الخروج من الشرنقة، والتعامل مع أناسٍ جُدد لهم آراءٌ متباينة، وبهذا يحقّقون اكتشافاتٍ مفيدة. قالت: «أمل أن تجدوا البيئة الملائمة لكم ثم تتركوها. اتركوها لتستكشفوا، وتدخلوا في علاقاتٍ جديدة، وتواجهوا التحديات، وتكتشفوا اكتشافاتٍ مثيرة في غضون هذا.»<sup>50</sup>

وأثناء جلسة عُقدت لتمدّد الراغبين في الالتحاق بالجامعة بمعلوماتٍ عن عملية القبول فيها، تحدّثت واحدةً من المسؤولين عن هذه العملية عن التغيّر الذي طرأ على برينستون في السنوات الأخيرة. قالت: «لقد عَزَمنا على أن نلتزم بتقديم المساعدات المادية وبأن نصبح روادًا بارزين في سياسات المساعدات المادية. لقد غيّرنا سياستنا بعض الشيء، وهذا أدى إلى دفع الجامعة إلى الأمام وإلى جعلها تفتح أبوابها أمام الأسر من جميع الطبقات والأعراق.»<sup>51</sup>

عام ٢٠٠٧م كانت دفعة السنة الأولى (التي سوف تتخرّج عام ٢٠١١م) تضم ١٢٤٥ طالبًا منهم ٩٪ أمريكيون من أصولٍ أفريقية، و١٥٪ أمريكيون من أصولٍ آسيوية، و٨٪ هيسبانيون، وأقل من ١٪ من سكان أمريكا الأصليين، و٦٪ من أجناسٍ أخرى. ويحصّل

أكثر من نصف الطلاب على معوناتٍ مادية. ونظام القبول لا يهتم بالوضع المادي للأسرة بمعنى أن الجامعة تقبل الطلاب دون أن يكون لديها أي علمٍ بما إذا كانت أسرة الطالب ستستطيع التكفل بمصاريف الدراسة أم لا.<sup>52</sup>

ومركز الدراسات الأفروأمريكية الذي أنشأته الجامعة حديثاً يكشف عن اهتمام الجامعة بالقضايا المتعلقة بالأعراق وثقافتها المختلفة. ففي البيان الصحفي الذي ألقى عام ٢٠٠٦م معلناً افتتاح المركز الجديد، قالت شيرلي ماري تيلجمان رئيسة جامعة برينستون: «من بين جميع التحديات التي تواجهها أمريكا، يُعد الكفاح من أجل تحقيق المساواة العرقية وفهم تأثير الأعراق على الحياة والمؤسسات في الولايات المتحدة هما الأكثر صعوبة».<sup>53</sup>

ومن الملاحظات التي أوردتها ميشيل في بحثها أن الجامعات التي «يهيمن عليها البيض»، مثل برينستون، وُضع نظامها الاجتماعي والدراسي بحيث يرمى احتياجات الطلاب «الذين يمثلون الغالبية العظمى». على سبيل المثال، تشير ميشيل في البحث إلى أن عدد الأساتذة السود المعيّنين في الكلية عام ١٩٨٥م كان قاصراً على خمسة أساتذة، وكان منهج الدراسات الأفروأمريكية من أصغر المناهج، وكان القسم الخاص بهذه الدراسات يضم أقل عددٍ من العاملين على مستوى الجامعة. أيضاً تشير إلى أن عدد المنظمات الكبيرة التي «أسست خاصة لرعاية المصالح الفكرية والاجتماعية للسود وللطلاب القادمين من العالم الثالث» والتي تعترف بها الجامعة وتسمح لها بالعمل في حرمها لا يتجاوز منظمة واحدة.<sup>54</sup>

وفي البيان الصحفي الذي صدر عام ٢٠٠٦م عن مركز الدراسات الأفروأمريكية، أعلنت جامعة برينستون أن الإصلاحات التي ستتم في عملية التعيين ستشمل مضاعفة عدد مناصب أعضاء هيئة التدريس الذين يعملون دواماً كاملاً ليصل إلى أحد عشر منصباً بعد أن كان قاصراً على خمسة مناصب. وهذا يعني أنه مع توفر إمكانية أن يعمل بالمركز مدرّسون منتدّبون وآخرون متفرّغون، سيُصبح من الممكن أن يستوعب المركز عدداً من أعضاء هيئة التدريس يتراوح بين أحد عشر واثنتين وعشرين أستاذاً، حتى يساعدوا في تدريس عددٍ أكبر من المواد.<sup>55</sup>

ومن بين أعضاء هيئة التدريس الذين يعملون في مركز الدراسات الأفروأمريكية الكاتب والباحث الشهير الدكتور كورنل ويست الذي يعمل في تدريس الديانات بالمركز، ويُعد صوتاً من الأصوات البارزة في النقاشات الدائرة عن القضايا الخاصة بالأعراق. أيضاً

عملت الكاتبة الأمريكية الشهيرة ذات الأصول الأفريقية توني موريسون أستاذة بالجامعة وشغلت منصباً شرفياً بعد تقاعدها.

وفي كتاب «برينستون وخيار التنوع»، نجد قائمة بالمراكز الموجودة في الجامعة وتقوم بأنشطةٍ دراسية وثقافية واجتماعية. ومن بين تلك الأنشطة: مركز الحرم الجامعي الأول، ومركز ديفيز الدولي، ومركز كارل إيه فيلدز، ومركز الحياة اليهودية، ومركز الشواذ والخنثويين والمتحولين جنسياً. وبحلول عام ٢٠٠٨م، صار واضحاً أنه يوجد بداخل برينستون الكثير من المراكز التي يستطيع الطلاب عن طريقها «القيام بدورٍ فعّال في تنظيم الأنشطة سواء للطلاب جميعاً أم لمجموعاتٍ محدّدة من الأقليات» حسبما ورد في الكتاب.<sup>56</sup>

وأثناء الجلسة أخبرتُنا المسؤولة أن بيئة النوادي تغيّرت هي الأخرى. فمع أن الكثير من الطلاب لا يزالون ينضمّون إلى هذه النوادي بعد السنة الثانية – إذ تُوفّر لهم مكاناً يتناولون فيه وجباتهم بعيداً عن سكنهم الجامعي – فإن نوادي اليوم مختلفة تماماً عن نوادي العشر السنين أو العشرين سنة الماضية. فلا تُوجد نوادٍ خاصة بالرجال وأخرى خاصة بالنساء بل جميعها مختلطة. وصحيحٌ أن الكثير من الأمسيات تُعقد في هذه النوادي، لكنّ كثيراً منها يُسمح لجميع الطلاب بحضورها. وقد ورد في مطبوعات الجامعة أن نظام عضوية بعض هذه النوادي قائم على الحظ ونظام عضوية البعض الآخر يقوم على عملية اختيار الأعضاء.

ومن الجدير بالذكر أن ميشيل وبحثها يظهران بوضوح في المواد التي نشرتها الجامعة في عام ٢٠٠٨م، وهذا رغم أن البعض اعتبر هذا البحث ناقداً لبرينستون، والبعض الآخر غص الطرف عنه باعتباره نتاج شخصٍ شكّاء «لا يعترف بالجميل» مقابل ما أُعطي من مزايا. وفي الكتاب الذي تطرح فيه الجامعة رؤيتها نجد صفحات تسلّط الضوء على أبحاث التخرُّج التي يكون لزاماً على كل طالبٍ من طلاب السنة الرابعة أن يكتبها. ومن بين الأبحاث الواردة في القائمة بحث الممثلة بروك شيلدز التي تخرّجت عام ١٩٨٧م وكان بعنوان «البداية: من البراءة إلى الخبرة: رحلة ما قبل المراهقة والمراهقة في فيلمي المخرج لويس مال: «الطفلة الجميلة» و«لاكومب لوسيان»؛ وبحث الملكة نور، ملكة الأردن التي تخرّجت عام ١٩٧٤م الذي كان بعنوان «شارع ٩٦ وشارع ٧»؛ وبحث المستشار صامويل أليو الذي يعمل بالمحكمة العليا، والذي تخرّج عام ١٩٧٢م وكان بحثه بعنوان «مقدمة إلى المحكمة الدستورية الإيطالية»؛ وبحث بيل برادلي العضو السابق

بمجلس الشيوخ الذي تخرج عام ١٩٦٥م، والذي جاء بحثه بعنوان «على هذا الإنجاز أرتكز: معركة هاري إس ترومان للفوز بعضوية مجلس الشيوخ عام ١٩٤٠م»؛ وبحث ميشيل أوباما النائبة السابقة لرئيس هيئة مستشفيات جامعة شيكاغو التي تخرجت عام ١٩٨٥م، وجاء بحثها بعنوان «مجتمع السود وخرّيجو برينستون ذوو البشرة السمراء». أيضاً ظهرت ميشيل وبحثها في قائمة خريجي قسم علم الاجتماع وأعمالهم المنشورة على موقع الجامعة.

وبحث ميشيل أكثر من مجرد تأمل في تجربتها الشخصية. فحسبما كتبت ميشيل في المقدمة؛ فإن البحث في مختلف توجهات الخريجين السود والتغير الذي طرأ عليها مع مرور الوقت أمر مهم لأنه «مع زيادة عدد السود الذين يلتحقون بجامعات يهيمن عليها البيض سيكون من المفيد معرفة تأثير تجاربهم في هذه الجامعات على توجهاتهم المستقبلية».<sup>57</sup> وفي الخاتمة تقترح ميشيل إجراء مزيد من البحث لتحديد ما إذا كانت التوجهات التي ظهرت في دراستها شائعة بين كل السود الذين تعلموا في الجامعة بصفة عامة أم لا. وقالت: «هذه الدراسة ستكون لها أهمية كبيرة في تحسين البيئة التعليمية للسود الذين يستطيعون الالتحاق بالجامعة ومن ثم تحسين جودة التعليم الذي يتلقونه بصفة عامة».<sup>58</sup>

ومع أن ميشيل كانت في الواحدة والعشرين من عمرها، فإنه كان من الواضح أنها تنظر نظرةً بانوراميةً لموضوع سيزداد عدد الأشخاص الذين يمسُّهم عبر الوقت. ومع أنه من غير المحتمل أن يكون بحثها هو السبب وراء أي من التغيرات التي حدثت في جامعة برينستون — فيما يتعلق بقضايا العنصرية والعدالة الاجتماعية أو بالتزام الجامعة بأن تكون رائدةً في كفاح مواجهة هذه التحديات — فحسبها أنها وضعت المشكلة تحت المجهر حتى يراها كل من يقرأ البحث. ومثلما فعلت في مواقف كثيرة أثناء الحملة الانتخابية، فإنها لم تتجنب المشكلة مثلما يفعل من هم أقل منها جرأةً في مواجهة المشكلات، بل ألقت الضوء عليها، ورفعت صوتها، وأخرجت رأس النعامة من الرمال.

وكما قالت لويز أمبلر أسبورن، زميلة ميشيل: «إن تناولها لموضوع كان الكثيرون منا يخافون تناوله في الجامعة يكشف الكثير عن شخصيتها. وما أعجبنى عندما كنت أقرأ هذا البحث هو أنها تناولت موضوع الأعراف وأثارت حوله جلباً كبيرة لا لشيء إلا لأنه كان يستحق أن تُثار حوله هذه الجلبة».<sup>59</sup>

وفي الصفحة الخاصة بميشيل في الكتاب السنوي، كتبت أنشطتها الكثيرة (اشراكها في مركز العالم الثالث، وتنظيمها الأنشطة التي تحدث فيه بعد الدراسة، وفي منظمة

«وحدة السود»، وفي غيرهما من المنظمات). أيضاً اختارت أن تكتب رسالتين شخصيتين في صفحتها، الأولى جاء فيها: «الصدافه هي أهم ما في الحياة. ومن لا يملك الصداقة لا يملك أي شيء». والثانية جاء فيها: «شكرًا لكم يا أمي وأبي وكريج. أنتم أعزُّ ما أملك». وفي الصورة الواردة في الكتاب السنوي تبدو ميشيل مبتسمة. وشعرها كان أقصر مما هو عليه الآن، وكان أشعثٌ على النحو الذي كان شائعًا في ثمانينيات القرن العشرين. كانت ترتدي رداءً داكنًا بسيطًا له ياقة، وكان يتدلَّى على رقبتها عقدٌ من صَفِين مصنوع من الحبيبات المستديرة يكشف عن ولعها بالخرز الصغير الذي اشتهرت بالترزُّن به أثناء حملة الانتخابات الرئاسية.

كانت جميلة، وهادئة، وبدت مثالًا للشابة المستعدة لمواجهة التحديات الجديدة: الالتحاق بكلية الحقوق بجامعة هارفارد، ثم الالتحاق بوظيفتها الأولى في مكتب محاماة بارز. وابتسامتها الواثقة وعيناها اللتان تنظران إليك مباشرة تجعلان من الصعب على المرء أن يجد فيها ملامح الشابة التي تتساءل: هل ستظل «على هامش المجتمع» دون أن «تسهم فيه إسهامًا فعالاً»؟

بل إن تعبيرات وجهها التي تعكس الثقة والصراحة، وعينها اللامعتين تعكسان نقيض هذا. ففي الصورة تبدو ميشيل وكأنها على استعدادٍ لأن تفتح فمها. وكأنها كانت ستقول شيئًا غير متوقع، وستبدأ حوارًا مهمًا. إن كان قد مرَّ على ميشيل روبنسون وقتٌ كانت فيه غير واثقة من نفسها فعلاً ومن وضعها في برينستون، فإن الصورة تجعلك تشعر أن هذه الشكوك كانت قد تبخَّرت بحلول وقت تخرُّجها، وربما يرجع الفضل في هذا إلى أنها واجهت هاتين القضيتين بقوة.

قالت الصحفية والكاتبة البارزة تشارلاين هانتر جولد عن كتاب باراك أوباما «أحلام من أبي» إنه أحد أفضل ما قرأته من الكتب التي تتناول رحلة اكتشاف الذات.<sup>60</sup> ويبحث ميشيل بكلِّ ما فيه من مصطلحات خاصة بعلم الاجتماع قد لا يكون مؤلفًا نثرًا مثيِّرًا، لكن رحلة اكتشاف الذات التي يتناولها لا تقل شيئًا عن الرحلة الواردة في مذكَّرات زوجها التي كانت أكثر الكتب مبيعًا.

وعندما وصلت ميشيل إلى حرم كلية الحقوق بجامعة هارفارد بعد أشهر قليلة من تخرُّجها في برينستون، كان واضحًا أنها تخلَّصت تمامًا من بعض الشكوك التي كانت تعذبها أثناء سنوات ما قبل التخرُّج. وحسبما قال تشارلز أوجلترى الذي قدَّم لها النصح عند التحاقها بكلية الحقوق، فإن برينستون وضعت هوية ميشيل في «مفترق الطرق»؛<sup>61</sup>

فهي مكان تصارعت فيه مع قضايا العرق والهوية، وواجهت فيه قضية الإرث الذي تركه لها أجدادها في هذا العالم الذي يهيمن عليه البيض، هل ستحافظ عليه أم ستضعه.

قال أوجلترى لصحيفة بوسطن جلوب أثناء عمله ضمن فريق حملة أوباما: «كان السؤال الذي يؤرقها هو: «هل سأحافظ على الهوية التي ورثتها من آبائي الأمريكيين ذوي الأصول الأفريقية أم إن التعليم الذي حصلت عليه من جامعة نُخبوية حوّلني إلى شخص مختلف عن الشخص الذي ربّوه؟» وعندما صارت ميشيل إحدى طالباته كانت قد واجهت هذه الإشكالية وحسمتها؛ إذ يقول الأستاذ إن ميشيل اكتشفت أنها تستطيع «أن تكون سوداء ومبهرة في آنٍ واحد».<sup>62</sup>

إن تحلي المرء — أسود كان أم أبيض — بالثقة والهدوء في بيئة صارمة من طبيعتها أن تُفقد الإنسان توازنه، كبيئة كلية الحقوق بجامعة هارفارد، ليس أمراً هيناً. عندما وصلت ميشيل إلى مدينة كامبريدج، وجدّت في حرم كلية الحقوق الشهير والمنضم لرابطة «آيفي ليغ» بعض الانقسامات العرقية التي كانت موجودة في جامعة برينستون. فمرةً أخرى بدا أن الطلاب السود الملتحقين بكلية الحقوق يُنظر إليهم على أن التحاقهم بها كان منة وإحساناً، حسبما قالت فيرنا ويليامز، التي كانت صديقة ميشيل في كلية الحقوق والتي تعمل الآن مدرّسة بجامعة سينسيناتي.

غير أن ميشيل لم تساورها أيُّ مخاوف هذه المرة، وقد «أدركت أنها تمتعت بميزات سياسة التمييز الإيجابي وكان هذا يسعدها»، حسبما أخبر ويليام مَجلة «نيوزويك».<sup>63</sup>

وفي جميع الأفلام التي تقع أحداثها في كلية الحقوق بجامعة هارفارد — ومن بينها فيلم «قصة حب»، وفيلم «مكتب المحاماة»، و«مطاردة الأوراق»، و«شقراء في كلية الحقوق» — تظهر الكلية في صورة مكان تسوده رُوح المنافسة والجدية، يُمضي طلابها الليل في الاستذكار، ويتنافسون بقوة لجذب انتباه أساتذتهم وللحصول على أعلى الدرجات. بدا أن هذه البيئة تلائم ميشيل. فحسبما تقول فيرنا ويليامز، كانت ميشيل طالبةً متميزة تتمتع بذكاءٍ خارق، لدرجة جعلتها تطلب منها أن تساعد في إحدى المحاكمات الصورية، قالت فيرنا إنه حتى في ذلك الوقت كانت ميشيل تتمتع «بقبولٍ رائع. وهي تستطيع بسهولة أن تصبح كالسيناتور أوباما الذي يتحدث الناس عنه. إنها بالغة الذكاء ولبقة وجاذبة جداً؛ أي إنها تتمتع بكل الصفات التي يتمتع بها باراك».<sup>64</sup>

تركت ميشيل انطباعاً مماثلاً لدى أساتذتها في كلية الحقوق؛ إذ عُرفت بأنها شخصٌ قوي في دفاعه عن المواقف التي يتبناها وقادرٌ على الإقناع بها (وهي دلالاتٌ مبكرة على أنها ستكون «ورقة رابحة» لا مثيل لها في الجولات الانتخابية في يومٍ من الأيام).

ويتذكّر أحد أساتذتها، وهو ديفيد بي ويلكينز، أن ميشيل كانت صريحة جداً وواثقةً بأرائها وأنها لم تكن ممن يتجنّبون النقاشات الصعبة. قال: «كانت ميشيل تحضر المحاضرات التي كنت ألقّيها عن الحمامة، وكنتُ أسأل الطلاب في هذه المحاضرات كيف سيتعاملون مع التحديات المهنية والأخلاقية الصعبة. وكان كثيرٌ منهم — وهذا متوقع — يتجنّبون إقحام أنفسهم في مثل هذه النقاشات ويفضّلون التعويض عن عدم مشاركتهم هذه بالدخول في النقاشات المهنية البحتة التي تبدو وكأنها تُريحهم من أعباء اتخاذ القرار. أما ميشيل فليس لديها وقتٌ لأن تدفنَ رأسها في الرمال. بل كانت تعلن موقفها بوضوح وحسم.»<sup>65</sup>

وقد وصفها راندال كينيدي، وهو من أساتذتها، وقد عُيّنَت مساعدة له في أبحاثه، بأنها «هادئة وذات عزيمة قوية». وكانت «منظمة للغاية»، لكنه أضاف أنه هو نفسه لم يكن يتخيل أنها ستصبح بهذا الاتزان أثناء موسم الانتخابات القاسي.<sup>66</sup>

وصورة ميشيل بوصفها امرأة صريحة وجريئة تستدعي إلى الذهن صورة الشخصية الخيالية إيلي وودز التي مثلت دورها الفنانة ريز ويدرسون في فيلم «شقاء قانوناً» (ليجالي بلوند). إيلي فتاة شقراء قادمة من كاليفورنيا تنضم للجمعيات النسائية، وترتدي ملابس جميعها من اللون الوردى، بل إن القلم الذي تكتب به ملحوظاتها أثناء المحاضرات يوجد في أعلاه ريشٌ وردي، تصل إيلي إلى جامعة كامبريدج حيث تجد نفسها في عالمٍ غريب عليها تماماً. فهي تمثّل النقيض التام لزملائها التقليديين، ومع هذا فإنها تنجح بسرعة في أن تكسب ودَّ هذا العالم الممل الذي يسوده التكبر واضطهاد النساء.

ومثل ميشيل، فإن إيلي لا تلجأ إلى دفن رأسها في الرمال، بل تعلن عن مواقفها بوضوح وحسم — وإن كانت تفعل هذا بأسلوب الفتاة المدللة العاشقة للظهور — وفي النهاية تكسب الجميع بما تملّكُه من نكاه وذوق وبكلامها المقنع. وميشيل، بصفتها امرأة أمريكية من أصلٍ أفريقي في كلية الحقوق، لم تكن غريبة في هذه الكلية بالدرجة نفسها التي كانت عليها إيلي وودز التي لا ترتدي إلا اللون الوردى وتهتم بزينة أظافرها وقدميها؛ لكن هذا لا ينفي أنها كانت فتاةً من الأقلية على أعتاب الدخول إلى عالمٍ يهتم بالأعراف وتُهيمن عليه التقاليد. ومثل إيلي، فإن ميشيل كسبت ودَّ الجميع.

وبالإضافة إلى تفوّق ميشيل في دراستها، فإنها وجدت سبيلاً لمواجهة بعض المخاوف التي أعربت عنها في البحث الذي قدّمته لجامعة برينستون. فبدلاً من أن تُمضي وقت الفراغ في العمل في مجلة القانون أو غير هذا من الأنشطة التقليدية التي هي طابع الحياة

في كلية الحقوق — مثلما سيفعل زوجها الذي سيصبح أول رئيس أمريكي من أصلٍ أفريقي لـمجلة القانون التي تصدرها هارفارد بعد هذا بسنوات — فإنها قضت أوقات فراغها في مساعدة المجتمع الأسود الذي تنتمي إليه: فعملت مع كلية الحقوق في المساعدة على جذب مزيدٍ من الطلاب الملونين إلى الكلية وشاركت في مظاهرات تطالب بزيادة عدد الأقليات من الطلاب والأساتذة في هارفارد.<sup>67</sup>

ومع أنها كانت تقوم بكل هذه الأنشطة، فإن أداءها الدراسي كان رائعًا لدرجة أنها عندما أوشكت على التخرج عام ١٩٨٨م كانت تنتظرها بالفعل وظيفَةٌ مرموقة في مدينتها. وستشغل ميشيل لبعض الوقت الوظيفة التي نكرتها في بحثها ووصفتها بأنها تُدر دخلًا عاليًا وتكون في مؤسسة ناجحة.

تُرى ماذا كان شعورها وهي تعود إلى شيكاغو وقد تجاوزت تلك المرحلة التي كانت فيها فتاةً صغيرةً عليها أن تواجه من يتشككون في قدراتها وتنتزع المكانة التي تستحقها، وصارت امرأةً ناجحةً حاصلة على شهادتين من اثنتين من أفضل جامعات البلاد ووظيفة يتقاتل عليها معظم خريجي كلية الحقوق؟ حسبما تقول صديقتها ومرشدتها فاليري جاريت: «إنها تفتخر كثيرًا بقولها: «حَقَّقْتُ أفضل مما ظن الناس أنني سأحَقِّقه.»»<sup>68</sup> ويمكننا أيضًا أن نقبس مرةً أخرى مقولة الأستاذ الذي قدم لها النصح عند التحاقها بكلية الحقوق، ونقول إنها أثبتت — لكل من قابلته في حياتها ولنفسها — أنها كانت حقًا «سوداء ومبهرة في آنٍ واحد.»

## الفصل الثالث

# العمل من أجل أن يصبح العالم على ما يجب أن يكون عليه

رحلة من عالم المؤسّسات إلى العمل الحكومي

إن تحدّثت مع أيّ ممن عملوا مع ميشيل أوباما فستجدهم يردّدون عبارة واحدة: إنها قمة في النشاط، مستعدّة دائماً، وقادرة على الإنجاز.

هذه ليست مفاجأة لمن يعرف أننا نتحدّث عن امرأة كانت وهي طفلة صغيرة لا تتوقّف عن العزف على البيانو إلا عندما يُطلب منها ذلك، وكانت وهي طالبة بالجامعة تستيقظ مبكراً لتستذكر دروسها، وكانت أول من يذهب إلى حجرة الطعام كل صباح حتى يتسنى لها العودة بسرعة إلى دروسها؛ إننا نتحدّث عن امرأة تعمل «كالمحاربين» في كل ما تؤديه من مهام، حسبما يقول أصدقاؤها، وتحارب حتى تحقّق التوازن بين المسؤوليات التي يُملئها عليها كونها زوجة، وأمّاً، ومسئولة بإحدى المستشفيات، وشريكة في جولات الدعاية التي سبقت الانتخابات الرئاسية. فميشيل دائماً ما تتقن كل ما تؤديه من أعمال. يقول أخوها الأكبر كريج إنها تجتهد أكثر مما يجتهد أيّ شخصٍ عرفه في حياته. وإنهما عندما كانا طفلين كان يعود من تدريب كرة السلة فيجدها تعمل. ثم يجلس على الأريكة ويشاهد التلفاز وهي تظل تعمل. وبعد أن ينتهي من مشاهدة التلفاز يجدها لا تزال تعمل.<sup>1</sup>

ولهذا السبب عندما تخرّجت ميشيل في كلية الحقوق بجامعة هارفارد وحصلت على وظيفتها في شركة المحاماة المرموقة «سيدلي آند أوستن» (التي صار اسمها فيما بعد «سيدلي أوستن») أصبحت على الفور عضواً مهماً في فريق العمل. عندما كانت تعمل في سيدلي، كانت متخصصة في القضايا الخاصة بالتسويق والملكية الفكرية مما يعني

أنها كانت تتعامل مع مجموعة من القضايا من بينها قضايا الاحتكار، والقضايا المتعلقة بإبرام الصفقات. وفي إحدى المهام التي أوكلت إليها عملت مع فريقٍ يمثل شركة «إيه تي أند تي» في العرض الذي قدّمته للاستحواذ على شركة «إن سي آر»، وفي مهمةٍ أخرى مثّلت شركة «يونيون كاربايد» في حربها لإتمام بيع وحدة الأعمال الكيميائية التابعة لها لشركة «أركو» على الرغم من معارضة لجنة التجارة الفيدرالية.<sup>2</sup>

فيما يتعلق بصفقة أركو، من الواضح أنها نجحت في ترك انطباعٍ إيجابي لدى المستشار القانوني لشركة يونيون كاربايد. قال نيت إيمر، المحامي والشريك في ملكية مؤسسة «سيدلي»، للدورية التي تُنشر بعنوان «ناشيونال لو جورنال»، إن ميشيل «لم تكن مجرد محاميةٍ عادية بالشركة، وكانت لا تنطق إلا عندما تكون واثقةً مما تريد أن تقولَه فيأتي تحليلها واضحًا دقيقًا.»<sup>3</sup>

وبعد العمل لمدة عامٍ واحد في المؤسسة، صارت تنال احترامًا أهلها لأن تُوكَل إليها مهمةٌ تعليم طالبٍ واعدٍ جاء يتدرب في الصيف. هذه المهمة ستصبح مصيريةً لمؤسسة «سيدلي» ولميشيل ولهذا الطالب.

فالطالب هو باراك أوباما الذي سيصبح حبيبَ ميشيل ثم زوجها. والحديث البليغ لهذا الطالب عن خدمة مجتمعه والعالم أجمع والتزامه بهذا سوف يساعد في النهاية على أن يجذبَ ميشيل بعيدًا عن مهنتها الواعدة في عالم المؤسسات ويذهب بها إلى وظيفةٍ حكومية لا تقل تألقًا.

قالت ميشيل إن وظيفتها في سيدلي أند أوستن ساعدتها على أن تسدّد جزءًا من القرض الذي حصلت عليه لاستكمال دراستها، لكن هذه الوظيفة لم تتوافق مع جانبٍ آخر من جوانب شخصيتها، وتحديدًا ذلك الجانب المهتم بأن يجعل العالم مكانًا أفضل مما هو عليه.<sup>4</sup> وفي صيف عام ١٩٨٩م، ذاقت طعم الجانب الآخر من الحياة عندما ذهبت مع صديقها الجديد — الذي لم يكن قد صار حبيبها بعد — لتسمعه يُلقى خطبة في «ألتجلد جاردنز»، وهو مكانٌ شديد الفقر بالمنطقة الجنوبية من شيكاغو التي كان قد عمل فيها منظمًا للمجتمع الأهلي قبل أن يلتحق بكلية الحقوق.

شاهدته منبهرة وهو يتحدث لحشدٍ معظمه من الفقراء الأمريكيين ذوي الأصول الأفريقية عن الالتزام بالتغيير، وإن كانت الدنيا غير عادلة والظروف غير مواتية. وتحدّث عن الحُلم بأن يكون العالم على «ما يجب أن يكون عليه» بدلًا من الرضا بالعالم على «ما هو عليه».

العمل من أجل أن يصبح العالم على ما يجب أن يكون عليه

قالت ميشيل: «في ذلك اليوم رأيتُ فيه تجسيدًا للمصداقية والصدق والمبادئ. هذا هو الرجل الذي وقعتُ في غرامه.»<sup>5</sup>

كانت ميشيل آنذاك في منتصف العشرينيات، وكانت تحقّق نجاحًا ساحقًا وهي ترتقي درجات السلم المهني في سيدي أند أوستن، مدفوعة، إلى حدّ ما، بـ «قيم البرجوازيين»، وبالرغبة في الكفاح لتحقيق «الأهداف نفسها» التي يسعى إليها زملاؤها البيض، حسبما كتبت في البحث الذي قدّمته لجامعة برينستون، ومع هذا لم تكن واثقة من أنها راضية عن حياتها.

فحسبما ستقول بعد هذا في حوارٍ مع جريدة «تليجراف» البريطانية: «مشكلة هذه الكليات الرائعة هي أنها تجعل أفق المرء ضيقًا للغاية. يمكنه أن يصبح محامياً أو أن يعمل في «وول ستريت»، هذان هما الخياران التقليديان. وهما خياران سهلان، ومقبولان اجتماعياً، ومجزيان مادياً. فلم لا يستقر على واحدٍ منهما؟»<sup>6</sup> في الصيف الذي التقت فيه ميشيل ببارك، كانت قد بدأت تفكر لم لم تُعد تريد أن تصبح جزءاً من هذا العالم.

وبعد أشهرٍ قليلة من مقابلتها الرجل الذي سيصبح زوجها، وقع حدثان سيغيّران مجرى حياتها، وكان هذان الحدثان متعاقبين. فقد مات والد ميشيل الحبيب فجأة بعد إجراء عملية جراحية، وتبع ذلك على الفور فقدان صديقةٍ عزيزة، هي سوزان أيلي، في سنٍّ صغيرة جدًّا هي الخامسة والعشرون إثر إصابتها بالسرطان. كانت سوزان واحدةً من رفيقات ميشيل في حجرتها في برينستون وإحدى صديقاتها المقرّبات. وكان والد ميشيل، كما نعلم، مصدر قوةٍ ودعمٍ معنوي لابنته. هذه الحسارة المزدوجة جعلت ميشيل تُعيد النظر في حياتها.

قالت ميشيل للمجتمعين في أحد المؤتمرات الحزبية بولاية أيوا: «وجدتُ نفسي لأول مرة أواجه حقيقة أنه لا شيء مضمون في هذه الحياة. ومن الأشياء التي أتذكّرها عن سوزان أنها كانت دائماً ما تتخذ قراراتٍ تسعدها وتحقّق لها درجة من الرضا. لم تكن تهتم كثيراً بإرضاء الآخرين. سألتُ نفسي: هل كنتُ أستيقظ كل صباح وأنا أشعر بالحماس للذهاب إلى العمل، وبالحماس تجاه ما أقوم به؟ كنتُ في حاجة إلى أن أحدّد ما أحبه حقاً.»<sup>7</sup>

وبينما تتأمل ميشيل المسار الذي ستختاره لحياتها، تردّد في ذهنها صدى الكلمات التي قالها بارك في اجتماع ألتجلد جاردنز. فكيف يمكنها أن تُحدث تغييراً؟ وأين؟

هذه هي الإشكالية نفسها التي تحدثت عنها منذ سنواتٍ قليلة في بحثها، وهي الإشكالية نفسها التي عاشها الكثير من خريجي جامعة برينستون ممن أجرت عليهم البحث. فحسبما كتبت في بحثها: «في حياة كل فرد من الضروري أن يركّز اهتماماته على مساعدة بعض الناس وإنجاز بعض الأمور في آنٍ واحد؛ لأنه من المستحيل أن يساعد المرء كل الناس وينجز كل شيء بالدرجة نفسها من الإتقان في آنٍ واحد.» وكتبت أنه يجب على المرء أن يرتب أولوياته ترتيباً هرمياً بحيث يستطيع أن يحدّد عن طريق هذا الترتيب أي المجموعات الاجتماعية يرى أن خدمتها أهم. من الممكن أن تتضمن المجموعات التي يختار المرء أن يضعها في هذا الترتيب الهرمي: الذات و/أو العائلة، و/أو المهنة، و/أو الدين، و/أو «المجتمع الأمريكي، والأعراق غير البيضاء في العالم، أو البشرية جمعاء.»<sup>8</sup> تُرى ما الترتيب الهرمي لأولويات ميشيل؟

في يوليو عام ٢٠٠٨م، حكّت ميشيل، في حوار مع ريبيكا جونسون نُشر في جريدة «تليجراف»، كيف وصلت إلى قرار بشأن مستقبلها. وكعادتها بدأت بطرح أسئلة عن نفسها ثم بعد هذا وجّهت هذه الأسئلة للآخرين.<sup>9</sup>

قالت لريبيكا إن فقدانها لوالدها ولصديقتها جعلها تدرك أنه من المحتمل أن تموت هي نفسها «غداً». قالت: «كان عليّ أن أسأل نفسي: «هل أريد أن تمضي حياتي على هذا النحو؟» كنت أعلم أنني لن أحب القانون ولن أستمتع بدراسته. كنتُ أشعر أنني نسخة مكرّرة من الجميع، وأنني التحقتُ بكلية الحقوق فقط لأن هذه كانت الخطوة التالية.»<sup>10</sup> ثم بدأت تطرح أسئلتها. قالت: «أرى أن إفصاحي عن آرائي، ومحاولة أن أكون صادقةً فيما أقول هي شكلٌ من أشكال الثورة. ولا أظن أن الكثير ممن يشاركون في الحياة العامة يفعلون هذا، وإلا فلِمَ يندهش الناسُ كثيراً عندما أفعل هذا؟»<sup>11</sup>

وعندما وصلت ثورة الأسئلة التي توارّتها إلى ذروتها عام ١٩٩١م، أخذت تقابل الأصدقاء وتتناقش معهم حول فكرة تغيير مسارها والعمل في الحكومة. وساعدتها إحدى صديقاتها على الاتصال بفاليري جاريت، التي كانت تشغل في ذلك الوقت منصب رئيسة الموظفين في مكتب «دالي» عمدة شيكاغو، والتي أصبحت صديقة ميشيل ومرشدتها الدائمة.

عندما نهبت ميشيل لمقابلة جاريت في مكتبها في المجلس المحلي لمدينة شيكاغو عام ١٩٩١م شرحت لها الحالة التي وجدت نفسها فيها، فهي تشغل وظيفة رائعة في مؤسسة محاماة مرموقة، وتحصل على راتبٍ ضخم، ومع هذا فإنها لم تكن سعيدة. وعندما كانت

العمل من أجل أن يصبح العالم على ما يجب أن يكون عليه

تقول إنها تتمنى لو استبدلت وظيفة صغيرة الراتب في القطاع الحكومي بوظيفتها في شركة الحمامة المرموقة، كان معظم الناس يتهمونها بالجنون.

لكن رد فعل جاريت كان مختلفاً. فجاريت كانت قد اتخذت قراراً مشابهاً منذ سنوات قليلة، وهي التي تخرّجت في جامعة ستانفورد وفي كلية الحقوق بجامعة ميشيغان.

قالت ميشيل لدون تيري المحرر بصحيفة «شيكاغو تريبيون»: «لقد تفهم كلُّ منا الآخر بسرعة. فقد فهمت ما أشعر به. وكان صعباً أن أجد أناساً يفهمون قرارى بترك وظيفتي في عالم المؤسسات التي تُدر عليّ دخلاً مرتفعاً. أما هي فقد مرّت بالشعور نفسه الذي مررتُ به، شعور الرغبة في أن تقدّم المزيد لمجتمعك، الرغبة في أن تهَب حياتك لإفادة الآخرين».<sup>12</sup>

رأت جاريت فيها توءماً لرُوحها، ورأت أنها مؤهلة تماماً للوظيفة الشاغرة، فعرضتها عليها على الفور، لكن قبل إبرام العقد، قالت ميشيل إنها تريد رأي خطيبها. (في ذلك الوقت كانت مخطوبة لبارك.) وافقت جاريت على أن تقابل ميشيل وبارك على العشاء بعد بضعة أيام. وكان هذا اللقاء مصيرياً، تماماً كمهمة تدريب الطالب المتميز في الصيف. أثناء العشاء أُعجب كلُّ منهم بما قاله الآخر، وأبرمت ميشيل عقداً للالتحاق بوظيفة في المجلس المحلي لمدينة شيكاغو حيث عملت مع دالي، ابن الرجل الذي ظل قائداً لشيكاغو لمدة طويلة، وهو العمدة دالي الأول، الذي تطوَّع والدها بالعمل منسقاً بين الحزب الديمقراطي والناخبين في دائرته الانتخابية عندما كان دالي عمدة شيكاغو. أيضاً كان ذلك المساء بداية صداقتهما مع جاريت، وهذه الصداقة ستساعد في دفع ميشيل إلى العمل في عددٍ من الوظائف الخدمية المرموقة في القطاع الحكومي، وفي دفع زوجها إلى السعي إلى أرفع مناصب هذه البلاد.<sup>13</sup>

قالت ميشيل لتيري: «هناك أناسٌ مثلي عملوا [مع فاليري جاريت] وهم كالأُسرة الواحدة. وكانت فاليري تقدم لي ولبارك النصح في بعض الأحيان. فهي ممن نستشيرهم دائماً عندما نكون مقبلين على اتخاذ قرار ما.» (قرارات مثل الترشح للرئاسة).<sup>14</sup>

عندما أعلنت ميشيل عزمها ترك سيدلي أند أوستن حزن الجميع لرحيلها. قال نيوتن مينو، من كبار المستشارين بسيدلي أند أوستن: «كانت ستصبح نجمةً بارزة. وكنا جميعاً مولعين بها».<sup>15</sup>

ومع أن الوظيفة الجديدة تبعها انخفاضٌ كبير في راتب ميشيل، فإنها كانت مؤمنة بأن العمل في هذا المجال سيمُنحها درجةً كبيرة من الرضا، وكانت على استعدادٍ كبير لأن

تغيّر عالم العمل الحكومي إلى الأحسن. قال تشارلز أوجلترى أستاذها بكلية الحقوق: «ما تعلّمته في كلية الحقوق بجامعة هارفارد وفي مؤسسة «سيدلي آند أوستن» ساعدها كثيرًا في جميع القرارات التي صار عليها اتخاذها عندما أصبحت تؤدي أعمالاً إدارية وعندما صارت مديرة.»<sup>16</sup>

ومن الأهمية بمكان أنها كانت تخطو خطواتها الأولى في الطريق الذي ستحتّ هي وزوجها الآخرين بعد سنواتٍ على السير فيه. ففي الثاني من يوليو ٢٠٠٨ م كشف السيناتور أوباما عن خطة للخدمة الوطنية كان مؤمناً بأنها ستساعد في حل بعض أصعب المشكلات التي تواجهها البلاد. وهذه الخطة لن تكون مجرد «نداء في خطبةٍ واحدة أو برنامجٍ واحد»، بل ستكون «القضية الأساسية» التي يعمل في خدمتها أثناء الرئاسة، على حد قوله.

قال أوباما في خطبة ألقاها في جامعة كولورادو في مدينة كولورادو سبرنجز: «سنطلب من الأمريكيين أن يتطوّعوا لخدمة مجتمعهم. وسنخلق لهم فرصاً جديدة للقيام بهذا. وسنوجّه هذه الطاقة إلى أكثر تحديات الأمة صعوبة.»<sup>17</sup>

هذه الخطة تدعو إلى القيام بإجراءاتٍ عديدة من بينها التوسع في برنامج «أمريكوربس» (الفيالق الأمريكية) الذي يهدف إلى تحقيق التنمية في مجالاتٍ مثل التعليم والبيئة، ومضاعفة حجم مشروع «فيالق السلام» الذي يهدف إلى مساعدة البلدان النامية في تحقيق التنمية، وتمكين عددٍ أكبر من المواطنين من الانضمام للقوات المسلحة، وإدخال مناهج في المدارس تُعلّم الطلاب عن طريق جعلهم يتطوّعون لخدمة المجتمع، وزيادة فرص التطوّع للعاملين والمتقاعدين، وزيادة فرص الاستفادة التي يقدّمها العمل التطوعي للناس بحيث «يستفيد منها الشباب المحرومون، وتحسّن مستوى تعليمهم.»<sup>18</sup>

أيضاً أشار السيناتور أوباما إلى أن خدمة المجتمع لا تفيد من يتلقى العون وحسب؛ فعندما عمل منظماً للمجتمع الأهلي. وعندما ساعد على تسجيل ١٥٠ ألف ناخبٍ جديد من الأمريكيين ذوي الأصول الأفريقية في شيكاغو عن طريق منظمة «مشروع التصويت»، لم يكن يساعد الآخرين وحسب. فقد قال: «فعن طريق خدمة الناس وجدتُ مجتمعاً يحتضني، وعرفتُ معنى المواطنة، ووجدتُ الطريق الذي كنتُ أبحثُ عنه. وعن طريق خدمة الناس اكتشفتُ أن قصتي الغريبة هي جزء من قصة أكبر هي قصة أمريكا.»<sup>19</sup>

ولا شك في أن زوجته كانت تشاركه هذا الرأي.

لكن يبدو أن معارضي السيناتور أوباما كانوا أحياناً ما يفشلون في فهم هذه الآراء. فأحدى أكثر لحظات الحملة الانتخابية سوءاً، كانت أثناء المؤتمر القومي للحزب

العمل من أجل أن يصبح العالم على ما يجب أن يكون عليه

الجمهوري الذي يُختار فيه مرشح الحزب لرئاسة الجمهورية؛ إذ سخر رودى جوليانى عمدة نيويورك الأسبق — الذي كان ينافس للفوز بترشيح الحزب الجمهورى مثلما كان أوباما ينافس للفوز بترشيح الحزب الديمقراطى — من السيناتور أوباما بسبب السنوات التي قضاها في العمل منظمًا للمجتمع الأهلي. وردّت حاكمة ولاية ألاسكا سارا بالين هذا الرأي في خطبتها فقالت: «أظن أن الشخص الذي يعمل عمدة لمدينة صغيرة يكون تقريبًا مثل منظم المجتمع الأهلي، لكنه — على عكس ذلك المنظم — تكون لديه مسئوليات حقيقية». وعلا صوتها عندما كانت تنطق بكلمتين هما «تقريبًا» و«حقيقية»، ويبدو أنها فعلت هذا حتى تلقي الضوء على الفرق الشاسع — وفقًا لرأيها — بين خبرتها السابقة في عمودية مدينة واسيلا التابعة لولاية ألاسكا التي يبلغ تعدادها ٩٧٨٠ نسمة وبين خبرة أوباما في العمل منظمًا للمجتمع الأهلي في واحدة من كبرى مدن الدولة.

ومع أن عددًا كبيرًا من الجمهور انفجر ضاحكًا، فإن تألفًا من الجماعات الدينية اشتكى قائلًا إن القادة السياسيين يجب أن يشكروا منظمي المجتمع الأهلي من أجل الجهود التي يبذلونها بدلًا من إهانتهم.

وقال جيرى كيلمان، وهو الشخص الذي عين باراك أوباما عام ١٩٨٥م للعمل في «مشروع المجتمعات النامية» مقابل راتب يبلغ ١٠ آلاف دولار أمريكي سنويًا، إن مسئوليات أوباما حينها كانت تتضمن تحديد حاجات الناس — بدءًا من توفير التدريب اللازم لنيل فرص العمل، ووصولًا إلى التخلص من مادة الأسبستوس المسببة للسرطان — ومساعدتهم على العمل من أجل الوفاء بهذه الاحتياجات. وقال كيلمان لصحيفة «يو إس إيه توداي» إن أوباما تعلّم أن يستمع للناس، وأن يعمل معهم سعيًا لإنجاز المهام، وأن يساعد في «إطلاق طاقتهم».<sup>20</sup>

وفي الساعات التي تلت تصريحات بالين وجوليان الساخرة، بدأت التبرعات تنهال على حملة أوباما، ويبدو أن هذا كان بفضل سخافة الحزب الجمهورى. كتب ديفيد بلوف، مدير حملة أوباما في رسالة إلكترونية: «كانا يسخران من فكرة أن للأشخاص العاديين دورًا يقومون به في العملية السياسية التي تمسنا جميعًا، دعونا نوضّح الأمور لهم الآن. إن القيام بتنظيم المجتمع الأهلي هو الطريقة التي يردُّ بها الأشخاص العاديون على السياسيين الذين يعيشون في أبراج عاجية وعلى سياساتهم الفاشلة.»

لكن لنعدّ إلى السيناتور أوباما وإلى طرحه خطة لخدمة المجتمع. إن الاقتراح الذي طرحه أثناء الحملة الانتخابية لم يكن أول نداء يوجّهه أوباما بشأن وضع خطة للخدمة

الوطنية. ففي مقالٍ منشور على موقع باراك أوباما بعنوان «الخبراء يمتدحون خطة أوباما للخدمة الوطنية» بتاريخ الخامس من ديسمبر عام ٢٠٠٧م، نجد أن الخبراء يمتدحون نداءاته بشأن الخدمة الوطنية.<sup>21</sup>

قال السيناتور هاريس ووفورد، نائب مدير مشروع «فيالق السلام» سابقًا، والمساعد الخاص للرئيس كينيدي لشئون الحقوق المدنية سابقًا، والرئيس التنفيذي السابق لوكالة الخدمة الوطنية والمجتمعية: «باراك أوباما يقود الطريق إلى تحقيق نقلة كبيرة في خدمة المواطنين من جميع الأعمار والطبقات داخل البلاد وخارجها. وقد حمل الشعلة التي أضاءها جون كينيدي، ومرةً أخرى أعاد للفعل «أسألوا» قوّته وقدرته على التحدي. وعن طريق هذه الخطة نستطيع أن نُظهر للعالم — ولأنفسنا — أفضل ما يمكن لأمریکا أن تقدّمه.»<sup>22</sup>

وقال ألان خازي الذي أسهم في تأسيس منظمة «سي تي بير» غير الهادفة للربح، وكان رئيسًا تنفيذيًا لمنظمة «بي ذا تشينج» غير الهادفة للربح أيضًا: «الأمريكيون يبحثون عن طرقٍ جديدة وخلّاقة لخدمة مجتمعاتهم وللمساعدة في تغيير بلادهم. وعدد الشباب الذين يُسهّمون في الخدمة الوطنية يرتفع، وقابل للازدياد زيادةً كبيرة في السنوات القادمة. وعن طريق توجيه هذه الطاقات إلى برامجٍ مبتكرة موثوق بها تؤتي ثمارًا حقيقية، نستطيع أن نتغلب على أكبر التحديات التي تُواجهها بلادنا ... من الضروري أن يدعوا المرشّحون للرئاسة جميع الأمريكيين إلى التطوع، وأن يوفّروا لهم فرصًا حقيقية للقيام بهذا. ويُعد الاقتراح الذي طرحه السيناتور أوباما بشأن الخدمة الوطنية خطوةً واسعة إلى الأمام.»<sup>23</sup>

وقال ألان سولومونت، الذي عيّنه الرئيسان بيل كلينتون وجورج بوش عضوًا بمجلس إدارة وكالة الخدمة الوطنية والمجتمعية: «إن حياة كلِّ من باراك أوباما وزوجته ميشيل جعلتُهما يدركان التأثير الخلاق للعمل التطوعي. وهما أيضًا يعرفان ما يستطيع المواطنون أن يُحدثوه من فرقٍ إيجابي في مواجهة التحديات الصعبة في مجتمعاتهم. وخطة أوباما للتطوع بخدمة المواطن على نطاقٍ عالمي تقوم على فكرة حازت تأييد كلا الحزبين، وتنتقل بهذه الفكرة إلى نطاقٍ جديد يجعل المواطنين الأمريكيين، في الداخل والخارج، علامةً جديدةً على الديمقراطية الأمريكية.»<sup>24</sup>

وفي الحوار الذي أجراه بيتر سليفين، المحرر بجريدة «واشنطن بوست»، مع ميشيل في نوفمبر عام ٢٠٠٧م، تحدّثت ميشيل عن الدافع القوي الذي كان يحركها هي وزوجها نحو العمل التطوعي وهما شابان. ووصفت الإشكالية التي واجههاها بصفتها أمريكيتين

العمل من أجل أن يصبح العالم على ما يجب أن يكون عليه

متعلمين وموهوبين ينجذب إليهما عالم المؤسسات، وينجذبان للعمل من أجل العالم أجمع. وقد أثّرت هذه القضية مرارًا وتكرارًا أثناء قيامها بجولات الدعاية الانتخابية؛ إذ حث الطلاب على التفكير في العمل بمهنة حكومية بدلًا من السير تلقائيًا في طريق عالم المؤسسات الأمريكية المرسوم سلفًا.

قالت ميشيل: «لقد واجهتُ أنا وباراك السؤال التالي: إن المرء عندما يكتشف أن الله قد أنعم عليه بالنعم ومنحه الكثير من المواهب فإنه يفكر كيف يمكنه تنمية هذه المواهب إلى أقصى حدٍّ بحيث تفيد أكبر عددٍ من الناس؟ وما الذي يفعله؟ هل يُنظّم المجتمع الأهلي؟ هل يعمل في السياسة؟ هل السبيل هو القيام بمسئوليات الأبوة والأمومة؟ وإلى حدٍّ ما، كانت إجابتنا هي: كل هذا ممكن»<sup>25</sup>

ففيما يتعلق بميشيل، كانت وظيفتها في مكتب العمدة هي الأولى من بين سلسلة من الوظائف التي شغلتها في القطاع العام، تبعثها وظائف في قطاع المؤسسات التي لا تهدف إلى الربح. أمضت ميشيل مدةً وجيزةً في المجلس المحلي لمدينة شيكاغو، بعدها انتقلت جاريةً إلى رئاسة هيئة النقل العام في شيكاغو، واختارت ميشيل أن تلحق بها إلى هناك عارضةً عليها أن ترأس المجلس الاستشاري لشؤون المواطنين.

ردت جاريةً قائلةً إن هذه المرأة التي تشملها بعنايتها هي مصدر عونٍ كبير في العمل خاصةً عندما يتضمّن هذا العمل تفاعلًا بين الأفراد. وهي، بلا شك، مجتهدة ودائمًا ما تكون مستعدة، لكن قيمتها الحقيقية تكمن في ميلها لمواجهة المشكلات مواجهةً مباشرة. قالت لصحيفة «شيكاغو صن تايمز»: «تعرّضت مع ميشيل لمواقف كثيرة وحضرتُ معها اجتماعاتٍ عديدة ووجدتُ أن الناس يلفون ويدورون حول الموضوع، أما هي فتدخل إليه مباشرة، وتطرّحه على طاولة النقاش. فهي على استعدادٍ لأن تجهر بما يتجنّب الآخرون قوله»<sup>26</sup>

عام ١٩٩٣م شغلت ميشيل وظيفةً أخرى كانت محببةً إلى قلبها، وهي رئاسة فرع منظمة «بابليك أليز» في شيكاغو، وهي منظمة تهدف إلى تثقيف الشباب بشأن عالم الخدمة العامة عن طريق إشراكهم في برامجٍ تدريبية في مؤسسات لا تهدف إلى الربح. كان هذا المشروع ثمرة الجهود التي بذلها الرئيس كلينتون في مشروع «أمريكوربس» (الفيالق الأمريكية)، وكان اشتراكها فيه يعني أنها ستتمكّن من مدّ يد العون لـ «نجوم لامعة» تعمل من أجل أن تجعل «العالم على ما يجب أن يكون عليه»، بدلًا من أن تظلّ حبيسة «العالم على ما هو عليه».

وكان هذا الدور مناسباً تماماً لميشيل؛ إذ إنها «تُنقِن فنَّ العطاء بلا مقابل»، حسبما تقول جاريت التي أغرَّتْها بعد هذا بثلاث سنواتٍ بالعمل في جامعة شيكاغو. (في وقت الانتخابات وقبل أن تصبح أحد كبار مستشاري الرئيس أوباما، كانت جاريت تشغل منصب نائب رئيس مجلس أمناء الجامعة).<sup>27</sup>

وقبل أن تترك ميشيل منظمة «بابليك أليز» ذاهبةً إلى جامعة شيكاغو، تركت أثرها الإيجابي في المكان. فعندما كانت تشغل منصب مديرة فرع المنظمة بشيكاغو كوَّنت مجلس إدارة قوياً، وجمعت مبلغاً كبيراً من النقود، حتى إنها عندما تركت الفرع عام ١٩٩٦م، كان فيه، بحسب ما قاله بول شميت، الرئيس التنفيذي للمنظمة، «احتياطيٌّ مالي يكفيهِ عاماً، وهو شيءٌ لم يحدث في أيِّ من فروعنا من قبل». لقد وضعت له ميشيل أساساً يمكنه من البقاء.<sup>28</sup>

وكان منصب ميشيل الجديد في جامعة شيكاغو قائماً على المبادئ نفسها التي جذبتْها إلى منظمة «بابليك أليز». وأثناء تولي ميشيل منصبَ نائبة العميد لثئون الطلاب، ومديرة مركز خدمة المجتمع بالجامعة، ساعدت على تنسيق العمل التطوعي الذي يقوم به الطلاب مما أعانها على مساعدة الشباب في ترتيب أولوياتهم.

وفي غضون هذا أصبحت ميشيل أمًّا، في البداية لماليا التي وُلدت عام ١٩٩٨م ثم لساشا التي وُلدت عام ٢٠٠١م. وفي هذا الوقت بدأ زوجها العمل في السياسة، وعندما كان يذهب في جولةٍ من جولات الدعاية الانتخابية أو يسافر للقيام بمهامٍ سياسية، كانت غالباً ما تجد نفسها بدون زوجٍ يساعدها، خاصةً فيما يتعلق بتقديم الرعاية الأبوية لطفلتيهما الصغيرتين. هذا النظام غيّر من فكرتها عما يعنيه أن تكون المرأة أمًّا عاملة. ومرةً أخرى وجدت نفسها مضطرة لأن تعيد النظر في أولوياتها.

بعد قضاء سنواتٍ قليلة في وظيفتها في الجامعة — وسنة من حياتها في القيام بدور الأم — جذبت سمعة ميشيل انتباه مايكل ريوردان، رئيس مستشفيات جامعة شيكاغو. وفي عام ٢٠٠٢م دعا ميشيل إلى مقابلة شخصية وصفها بأنها «على الأرجح، أكثر المقابلات الشخصية تفرّداً» في حياته.<sup>29</sup>

ربما تكون ميشيل قد شعرت أنه من الضروري أن تشرك خطيبها في النقاش مع جاريت قبل أن تترك عالم المؤسسات منتقلة إلى القطاع العام، لكن عندما كانت ذاهبة للمقابلة الشخصية مع رئيس المستشفى صحبت معها فرداً آخر من أفراد أسرتها، ألا وهو الطفلة ساشا التي كانت «جالسة في عربة أطفال».<sup>30</sup>

العمل من أجل أن يصبح العالم على ما يجب أن يكون عليه

قالت ميشيل موضحة هذا الموقف بعد سنوات، إنها كان عليها القيام بعدة أمورٍ متعلقة برعاية طفلتها — وهي أمورٌ لا تعرف معظم الأمهات العاملات عنها سوى أقل القليل — لذا رأت أن تصبحها معها. وذهابها إلى اللقاء الشخصي مصطحبةً أصغر أعضاء أسرتها لم يجعل الرئيس يتراجع عما كان قد عزم عليه. فقد عُيِّنت ميشيل مديرةً تنفيذيةً لشئون المجتمع وهي وظيفة جعلتها تعمل في التنسيق بين المستشفى والمنطقة المحيطة بها.

مرةً أخرى كانت هذه المنطقة هي المنطقة الجنوبية من شيكاغو؛ أي المكان الذي أمضت فيه ميشيل طفولتها. ومكان العمل هذه المرة هو جامعة شيكاغو، وهي مؤسّسة أكاديمية تُعدّ مثلاً لرفعة الفكر، وتهتم بالمجتمع، ويسود التسامحُ أجواءها؛ أي إن بيتها هي الأخرى لم تُثر في ميشيل إحساساً بالغرابة.

قالت ميشيل لسليفين المحرر بصحيفة «واشنطن بوست»: «الحقيقة هي أنني توصلتُ إلى أن المجتمع لا يثق بالجامعة ولا يفهمها، وأن الجامعة لا تثق بالمجتمع ولا تفهمه، وقد توصلتُ إلى هذا بفضل أنني عشتُ في كلتا البيئتين وعرفتُهما. ونحن لن نستطيع أن نخلق حواراً بين الجانبين إلا إذا قمنا برأب هذا الصدع وسمعنا كل طرفٍ من الطرفين وفهمنا سبب خوفه.»<sup>31</sup>

وهنا يأتي دور ميشيل. فهي الوسيط بين العالمين، والشخص القادر على طرح القضايا على مائدة النقاش وبدء الحوار. كان المستشفى يرغب في إنجاز أهدافٍ عديدة من بينها افتتاح سلسلة من العيادات في المنطقة الجنوبية من شيكاغو قرب المكان الذي نشأت فيه والذي سمعت فيه زوجها يُلقي خطبة في الدور الأرضي للكنيسة لأول مرة منذ سنواتٍ عديدة.

عام ٢٠٠٥م ترقّيت ميشيل إلى منصب نائب الرئيس للشئون الخارجية، وهو منصبٌ راتبه السنوي يقرب من ٢٧٥ ألف دولار أمريكي وفقاً للإقرارات الضريبية التي قدّمت عام ٢٠٠٦م. ادّعى البعض أن ميشيل استفادت من سطوع نجم زوجها في عالم السياسة. (إذ جاءت الترقية بعد أن صار زوجها عضو مجلس الشيوخ عن ولاية إلينوي مباشرة). لكن رئيسها مايكل ريوردان قال إنها فازت بالترقية بفضل الجهد الذي بذلته. وقال لصحيفة «شيكاغو صن تايمز» إن «ميشيل هي المكسب الحقيقي»، وأوضح أنه أراد أن يرسل رسالةً قوية لمجتمعته تثبت له أنه يكرّس جهوده له، وقال: «لذا أردتُ أن أجعل هذا المنصب منصب نائب رئيس.»<sup>32</sup>

ولم يكن ريوردان هو الوحيد الذي امتدح ميشيل. فقد قالت سوزان شير مستشارة الجامعة للشؤون القانونية: «عندما يقوم المرء بأعمالٍ متعلقة بشؤون المجتمع، فإنه يتعامل مع مجموعةٍ متنوعةٍ من الناس تضم رؤساء المستشفيات وقادة المجتمعات والفقراء من الناس ... وميشيل تتمتع بأسلوبٍ فريد في التعامل مع الناس؛ إذ إنها تتعامل معهم بأسلوبٍ هو غاية في الإحسان»<sup>33</sup>

وفي البيان الصحفي الذي أعلن فيه ريوردان عن ترقيتها قال: «لقد أبهرتُنَا ميشيل بالعبارة والإبداع والنشاط الذي يميّز عملها في كل مشروعٍ أسهمت فيه منذ أن جاءت إلى المستشفيات. وإنه لمن دواعي سرورنا أن نرقّيتها لتصعد سلم الإدارة العليا. فهي تضيف إلى فريقنا مستوىً جديدًا من التفاهم والالتزام والارتباط الوثيق بالمجتمع»<sup>34</sup>

أما عن ميشيل فقد قالت: «إن هدي في هذا المنصب هو الاستمرار في تنمية علاقة المستشفيات بحيّنا وبمدينتنا ... فنحن يقع علينا واجبٌ ضمان أن نوظف مواردنا على نحوٍ يفيد حيّنا ومدينتنا. وفي هذا الدور الجديد هدي هو أن أجعل المشاركة الاجتماعية جزءًا لا يتجزأ من ثقافة هذه المؤسسة وأن أتوسّع في شراكاتنا مع المنظّمات والمؤسّسات المحلية»<sup>35</sup>

اجتهدت ميشيل في عملها، ولم تتغيّر هذه الحال بعد أن انتقل زوجها إلى واشنطن ليؤدّي عمله الجديد في مجلس الشيوخ، وصارت تقوم بمهام كلٍّ من الأم والأب في معظم الأحيان. وظلت تعمل عندما كان يفكر في الترشح للرئاسة. وظلت تعمل بعد أن أعلن عن ترشيحه وبدأ حملته الانتخابية.

قالت جاريت: «إنها لا تختار الطريق السهل أبدًا؛ فبعد أن أعلن باراك أنه سيرشّح نفسه للرئاسة، كانت تأتي إلى كل اجتماع وهي مستعدة إلى أقصى حد. وهي شخصٌ لا يمكنك أبدًا أن تعرف ما الذي يجري في حياته»<sup>36</sup>

بعد هذا خفّضت ميشيل عدد الساعات التي تقضيها في المستشفى حتى تتمكن من أن تساعد زوجها في شؤون الحملة الانتخابية، وأن ترعى ابنتيها. وعندما احتدمت الحملة الانتخابية أخذت إجازة من المستشفى.

وإضافة إلى واجباتها المهنية، كانت تعمل في عددٍ من مجالس الإدارة، منها مجلس إدارة مدرسة ابنتيها، ومجلس إدارة مدرسة «شيكاجو لاب سكول»، ومجلس إدارة مؤسسة «سبرينج»، ومجلس إدارة منظمة «فيسينج هيستوري أند أوزسلفس» غير الهادفة للربح، ومجلس إدارة شركة «موننتو دانس»، ومجلس شيكاغو للشؤون العالمية، ومجلس إدارة متاجر «تري هاوس فودز».

العامل من أجل أن يصبح العالم على ما يجب أن يكون عليه

وقد واجهت ميشيل بعض الانتقادات عندما قبلت وظيفتها في متاجر «تري هاوس فودز»، وهي إحدى منافذ بيع منتجات شركة «وول مارت»، وكانت قد عملت في هذه الوظيفة في الوقت الذي أصبح فيه زوجها عضوًا بمجلس شيوخ الولايات المتحدة. ثم استقالت بعدما قال زوجها إنه لن يشتري من المتاجر التي تُعارض قرارات النقابات العمالية، لكن المتجر قال إن سبب الاستقالة هو «كثرة مطالب» ميشيل. أما عن ميشيل فقد قالت: «مع زيادة الالتزامات الواقعة على كاهلي تجاه الحملة الانتخابية، زادت صعوبة إعطاء مهامي الوظيفية التركيز الذي أحبُّ أن أعطيه لها». وقالت إن ترك العمل يصبُّ في مصلحة أسرتها ومصلحة الشركة. ويكشف إقرار ميشيل الضريبي أنها ربحت ٥١٢٠٠ دولار أمريكي من «تري هاوس» عام ٢٠٠٦ م.<sup>37</sup>

رفضت ميشيل أن تفصح عن أجندتها عندما تصبح سيدة أولى، وكان كل ما قالته هي أنها ستعمل على ضمان حصول ابنتيها على الرعاية اللازمة. (فقد قالت لمجلة «إيبوني»: «بصراحةٍ شديدة وظيفتي الأولى ستظل وظيفة «أم»، وضمن أن هذا التغيير الذي ستقع أكبر تبعاته على البنيتين لن يمسَّ استقرارهما بسوء، وضمن أن تعرفا أنهما ستظلان محور حياتنا إلى الأبد.»<sup>38</sup> ومع هذا، فقد ناقشت القضايا الثلاث الأساسية التي تهتم بها، وجميع هذه القضايا تعكس الخيارات المهنية التي اتخذتها وتعكس واقع حياتها كأم عاملة.

قالت في حوارٍ مع كاتي كوريك في محطة «سي بي إس نيوز»: «كنتُ أدير برنامجًا للخدمة الوطنية؛ لذا فإنني أهتم اهتمامًا بالغًا بها. وأنا أعمل في مركز طبي تابع للجامعة؛ ولذا فإنني أعرف التحديات التي نواجهها في قطاع الرعاية الصحية. وأنا أمٌّ وامرأةٌ عاملة وزوجة. ولذا فإنني أعرف المعارك التي تخوضها النساء في سبيل تحقيق التوازن بين متطلبات العمل والحياة والأسرة.»<sup>39</sup>

يبدو أن هذا الأمر الأخير هو ما يحركها حقًا.

فقد قالت إن محاولة تحقيق التوازن بين متطلبات العمل والحياة والأسرة هو صراعٌ تدخل فيه كل امرأة تعرفها. أيضًا كل أسرةٍ أمريكيةٍ «تتأثر بالتحديات التي نواجهها عندما نحاول أن ننجز كل شيءٍ دون أن تتوفَّر لنا الموارد اللازمة ونتمتع بالدعم اللازم.»<sup>40</sup>

قالت ميشيل إن الأمر الوحيد الذي يجعلها تنجح في هذا هو عونُ والدتها وأصدقائها، والمرونة التي توفرها وظيفتها — هذا قبل أن تحصل على إجازةٍ لتركِّز جهودها على الحملة — إذ قالت: «لأنني نائب الرئيس فإنني أستطيع أن أغيِّر مواعيدي متى احتجتُ إلى هذا».

«نظم الدعم غير الرسمية» هذه ساعدتُها لكن «بالله، كيف تتصرف الأمهات اللاتي يقمن بدور الأب والأم في آن؟! كيف تتصرّف المرضات والمعلمات وجميع العاملات؟»<sup>41</sup>

قالت: «واقع الأمر هو أن مدى قوّتنا في هذا المجتمع يعتمد على سلامة أسرنا وسلامة من يرعى هذه الأسر». وأضافت: «لكننا لم نتحدث بما يكفي عن هذا من الناحية العملية. أعني أنني بصفتي امرأة يُقال لي، حتى هذه اللحظة، «يمكنك أن تتمتعني بجميع حقوقك، لكن عليك أن تديري جميع شئونك». وكدتُ أفقد عقلي وأنا أحاول العيش بهذه الطريقة. فهذا مستحيل. مستحيل. إننا نضع المرأة والأسرة في وضعٍ يجعل كلاً منهما خاسراً.»<sup>42</sup>

وعندما كانت تتحدث إلى النساء في أرجاء البلاد أثناء الحملة الانتخابية، كان هذا هو الموضوع الذي يهيمن على حديثها من حين لآخر. فعندما كانت تتحدث لحشد يرفع شعار «النساء يؤيدن أوباما» في شيكاغو في نهاية شهر يوليو، أشارت إلى أهمية أصوات النساء في الانتخابات الرئاسية. قالت بلغت نسبة النساء ٥٤٪ — من بين جمهور الناخبين — عام ٢٠٠٤م، وأضافت: «نحن من يحدّد نتيجة هذا السباق.»<sup>43</sup>

وتغيير سياسات البلاد بحيث تدعم الأسر ليس بالمهمة السهلة، لكن ميشيل مقتنعة بأنه إن كان هناك قائدٌ سياسي قادر على أن يفعل هذا، فهذا القائد هو زوجها. وهذا يرجع في الأساس إلى أنه يفهم هذه المشكلة.

أولاً: لأن والدته كانت «صغيرة جداً وكانت هي الأم والأب معاً عندما أنجبته»، وثانياً: لأنه يرى أمامه ميشيل زوجته التي تواجه كل يومٍ الشعور بالذنب الذي تحمله كل النساء في أعماق قلوبهن، ذنب أن خيار البقاء في المنزل ليس مطروحاً أمامهن، وأضافت: «بل إننا نشعر بأننا مذنباتٌ وإن كان لدينا هذا الخيار.»<sup>44</sup>

واستطردت مخاطبة النساء: «لقد رأني أصارع هذا الشعور طوال حياتي. فلتتقن بي، باراك يفهم مشكلات النساء.»<sup>45</sup>

إذن ما الذي سيقدمه زوجها لحل هذه المشكلات عندما يصبح رئيساً؟ عندما كانت تتحدث إلى النساء في ولاية ميشيجان تحدثت عن تحسين فرص الحصول على الرعاية الصحية الجيدة، وعن اختلاف رواتب النساء والرجال، وعن القرارات الصعبة التي تُضطر المرأة إلى اتخاذها بسبب حالة الاقتصاد المزرية.

قالت: «يُضطر الناس للاختيار ما بين تزويد السيارة بالبنزين للدّهَاب إلى العمل أو شراء مستلزمات البيت من المواد الغذائية» وتحدثت عن أن هذا الوضع يجب أن يتغيّر.<sup>46</sup>

العمل من أجل أن يصبح العالم على ما يجب أن يكون عليه

في الأمسية التي رُفِعَ فيها شعار «النساء يؤيدن أوباما» التي جرت فعاليتها في مدينة شيكاغو في الثامن والعشرين من يوليو عام ٢٠٠٨م، أُعطي الحضور كُتَيْبًا أزرَقَ به الخطة التي يطرحها زوجها لمساعدة النساء والأسر في زيادة الأمن الاقتصادي، وتحقيق التوازن بين العمل والأسرة، وضمان سلامة صحة أفراد الأسرة. ويظهر في الكُتَيْبِ سلسلة من الاقتراحات منها جعل الحكومة الفيدرالية مكان عمل ممتاز من حيث تبني جداول عمل مرنة، ومضاعفة التمويل المخصَّص لأبحاث السرطان التي تقوم بها الحكومة. وتشمل الإجراءات الأخرى المقترحة: إلزام جميع جهات العمل بأن تجعل الإجازة المرضية مدفوعة الأجر ما لم تتجاوز سبعة أيام، وزيادة الائتمان الضريبي على الدخل المكتسب، ورفع الحد الأدنى للأجور، وتعديل القانون الخاص بالإجازات المرضية وإجازة رعاية الأسرة.

وفي رسالة شخصية واردة على غلاف الكُتَيْبِ، يعترف السيناتور أوباما لثلاثة نساء بالفضل في إلهامه، وهن: أمه وجدَّته وزوجته. وكتب في تمهيدٍ للكتاب جاء بعنوان: «رسالة من باراك»: «أمامنا فرصة لأن نسير بأمریکا في اتجاهٍ مختلف تمامًا، والخطوة الأولى في سبيل تحقيق هذا هي تمكين النساء، وتقوية الأسر. هذا الاعتقاد راسخٌ في كياني لأنني لم أكن لأترشَّح لمنصب الرئيس اليوم لولا نساءً قويات، موهوبات، مُحَبَّات، ذكيات في حياتي.»<sup>47</sup>

أيضًا يذكرُ باراك اثنتين أُخريين ساعدتا في تحفيزه إلى السعي إلى دعم النساء وتقوية الأسر، ألا وهما ابنتاه ماليا وساشا. قال: «الآن أريد أنا وميشيل لابنتينا أن تنشأ في بلد تتمتعان فيه بحرية تحقيق أحلامهما ورعاية أسرتهما، وتُتاح لهما فيه هذه الفرصة. أريد لساشا وماليا وبناتكم وأبنائكم أن ينشئوا في بلدٍ يكون فيه العمل والأسرة جزءًا لا يتجزأ من الحُلم الأمريكي، ويكون تحقيق هذا الحلم في متناول الجميع.»

تستطيع أن ترى تأثير ميشيل واضحًا في مقترحات باراك، وفي الشاعر التي ولدتها. بل إن ميشيل كتبت هي الأخرى «رسالة من ميشيل» في الكتاب الأزرق الذي جاء بعنوان: خطة باراك أوباما لدعم النساء العاملات وأسرهن. وجاء فيها: «الهدف من هذا الكُتَيْبِ هو مساعدة النساء على إحياء أحلامهن الخاصة بهن وبأسرهن. هدفه هو مد يد العون للناس وليس مجرد إعطائهم كُتَيْبًا وحسب. الموضوعات المطروحة هنا قريبة من قلبي وهي محور هذه الحملة. لكن السياسات المطروحة لن تنجح إلا إذا لبَّت حاجاتكم. لذا نرجوكم أن تطلعونا على آرائكم.»

ومع أن ميشيل تحدت عن هذه الأمور نفسها طوال شهور عديدة أثناء قيامها بجولات الدعاية الانتخابية — ونستطيع أن نقول إنها تحدت عنها لسنوات في بيتها —

فإنها تعترف بأنه قد يمرُّ بعض الوقت قبل أن تشهد البلاد تحسناً في هذه المجالات. (فبعد كل شيء، احتاج زوجها لبعض الوقت حتى يدرك كمَّ الضغوط التي تتعرَّض لها وهي تحاول أن تكون أمًّا عاملةً مثالية تقوم بكل شيء، هذا على حدِّ اعترافها.)  
قالت ميشيل: «حتى عندما يصبح باراك رئيس الولايات المتحدة سنحتاج إلى بعض الوقت والجهد حتى نجني ثمار تطبيق استراتيجية مختلفة»، لكن ميشيل مؤمنة بأن هذا الوقت سيأتي.<sup>48</sup>

قالت ميشيل: «عندما نبدأ نرى عددًا أكبر من الناس يتمتع بالرعاية الصحية، وعندما نجني ثمار تطبيق سياسات اقتصادية جديدة، وثمار التوسُّع في الاستثمار في التعليم الحكومي، أرى أنه حينها سيبدأ الحماس يدبُّ في عروقنا.»<sup>49</sup>

عندما كانت ميشيل تتوقف في المحطات المختلفة لجولة الدعاية الانتخابية، كان يبدو أنها تُحب أن تطمئنَّ على الأطفال، وإن لم يكونوا أطفالها. ففي أكتوبر عام ٢٠٠٧م قالت لطفلة في مقهى في مدينة مانشستر بولاية نيوهامبشير: «أنت لطيفة.» ثم تحدتت عن حياتها اليومية في بيتها مع ابنتيها الصغيرتين: تجهزهما للذهاب إلى المدرسة ثم تذهب إلى عملها وتحاول أن تحل مشكلة وصولهما إلى الأماكن التي تقومان فيها بأنشطتهما بعد المدرسة، ثم تعود إلى البيت في الوقت المناسب لتساعدهما في أداء واجباتهما وتعدُّ الغداء وتُنيمهما. قالت: «أعرف أن الجميع مشغولون جدًّا، لأنني أعرف طبيعة الحياة.»<sup>50</sup>

عندما تقول ميشيل أوباما هذا تعرف أنها عاشت الحياة نفسها التي عشناها، وأنها لا تختلف عن باقي النساء، وأن حالها لا يختلف عن حال أي امرأة عاملة. أيضًا تشعر أنها تبذل قصارى جهدها في أي مهمة تستجدُّ عليها، وهذا ما فعلته على مدار حياتها المهنية، فهي تفعل كلَّ ما بوسعها حتى تجعل «العالم على ما يجب أن يكون عليه.»

## الفصل الرابع

# أنت وأنا (معاً نستطيع أن نواجه العالم)

### الزواج من باراك أوباما

سكن باراك وملاذه. ورقته الرابعة في جولات الدعاية الانتخابية. هي له كما كانت جاكين كينيدي. نصف باراك الحلو (أو «نصفه المر») إن كنت تتحدث بلسان الكاتبة المحافظة ميشيل مالكين). حب حياة باراك. أكثر من يملأ البيت مرحًا. هي من تحافظ على نقاء معدنه.

كل عبارة من هذه العبارات وُظفَت في وصف ميشيل أوباما أثناء رحلتها مع زوجها في جولات الدعاية الانتخابية. لكن كيف أصبحت هذه المرأة الأمريكية ذات الأصول الأفريقية القادمة من المنطقة الجنوبية من شيكاغو وتنتمي للطبقة العاملة ملادًا شخص يتنافس للفوز بمنصب الرئاسة، وورقته الرابعة، وكيف صارت منزلتها عنده كمنزلة جاكين عند كينيدي، أو كيف صارت «نصفه المر»؟ لكل علاقة بداية. تُرى كيف بدأت علاقة ميشيل بأوباما؟ وما هو الوقود الذي يغذيها فيحافظ عليها رغم الضغوط التي تتسبب فيها مهنتاهما الشاقَّتان (يمكن القول إن إحداها هي أكثر مهنة شاقة على مستوى العالم)، ودورهما تجاه ابنتيهما، والحياة تحت سمع وبصر المجتمع الذي لا يغفل؟

مثلما يحدث في كثير من الزوجات، خاصة في عالم السياسة على ما يبدو، بدأت علاقة ميشيل روبنسون وباراك أوباما بموقف يتسم بعدم تكافؤ موازين القوى بينهما. لكن في هذه المرة كان الوضع التقليدي منقلبًا رأسًا على عقب؛ فعندما قابل باراك زوجة المستقبل، كانت هي رئيسته.

ومع أن ميشيل كانت تصغر زوجها بما يقرب من ثلاث سنوات، فإنها سبقته في الدراسة الجامعية إذ التحقت بكلية الحقوق بجامعة هارفارد بعد أن تخرجت في جامعة

برينستون مباشرة. وبهذا مارست مهنة المحاماة في مؤسسة «سيدلي أند أوستن» المرموقة عندما وصل إليها باراك صيف عام ١٩٨٩م ليتدرب أثناء الإجازة. أما باراك، فكان قد أنهى لتوه عامه الأول في كلية الحقوق بجامعة هارفارد التي التحق بها بعد قضاء ثلاث سنوات في العمل منظمًا للمجتمع الأهلي في مسقط رأس ميشيل.

ومع أن باراك كان يحب دراسته فقد كتب أن القلق كان يساوره لأن اختياره لسلك المحاماة قد يعني أنه يتخلى عن مبادئه التي آمن بها في باكورة شبابه، ويستسلم لواقع المال والسلطة القاسي؛ أي يسلم بقبول العالم على حاله، بدلاً من السعي من أجل أن يصبح العالم على ما يجب أن يكون عليه،<sup>1</sup> وبهذا وصل إلى مؤسسة «سيدلي أند أوستن» وهو في حيرة من أمره. (وهذا يذكّرنا بالماخوف التي عبّرت عنها ميشيل في البحث الذي قدّمته لجامعة برينستون؛ الخوف من أنها إن سعت وراء الأهداف التي يسعى إليها زملاؤها البيض — مثل النجاح في الالتحاق بالدراسات العليا في إحدى الجامعات المرموقة و/أو الحصول على وظيفة تُدر دخلاً كبيراً في إحدى المؤسسات الخاصة في أمريكا — فإنها بهذا تبيع نفسها للقيم والمبادئ البرجوازية.)

في المؤسسة قيل لميشيل إن طالباً من كلية الحقوق بجامعة هارفارد سيقضي بعض الأشهر في المؤسسة ليتدرب، وإنها قد أوكل إليها مهمة تعليمه، وتدريبه، وجعله يشعر بالراحة في المكان. كان ما قالته السكرتيرات اللاتي قابلنه إنه «جذاب» وإنه أمريكي من أصل أفريقي مثلها (كان عدد المحامين السود في المؤسسة في ذلك الوقت قليلاً)، وإنه يحمل اسماً غريباً بعض الشيء، ألا وهو «باراك». كان المحامون تحت التدريب بالمؤسسة يتحدثون عن مدى تميّز أدائه في السنة الأولى بكلية الحقوق، وكان المحامون المتمرسون الشركاء في ملكية المؤسسة يُشيدون بروعة المذكرة التي كتبها يُعرّف بها نفسه.<sup>2</sup>

ومع كل هذا المديح فلم تعلق ميشيل على باراك آمالاً عالية؛ إذ قالت في مقابلة عام ٢٠٠٤م مع الكاتب ديفيد ميندل الذي ألف كتاب «أوباما من الوعد إلى السلطة»: «كان يبدو رائعاً جداً لدرجة جعلتني لا أصدق أنه يظهر حقيقته». وقيل إنها قالت للأصدقاء: «أنا واثقة من أنه غريب الأطوار»<sup>3</sup> وقد كتب باراك في كتاب «جرأة الأمل» أن ميشيل اعترفت له بهذا فيما بعد، وأخبرته أن صورته المطبوعة في أحد أكشاك طباعة الصور الرقمية التي أرسلها بالبريد إلى إدارة مؤسسة «سيدلي أند أوستن» جعلت أنفه يبدو كبيراً. من الواضح أنها أيضاً تشككت في وصف السكرتيرات اللاتي قابلنه له بأنه جذاب. فقد افترضت أنهن انبهرن برؤية رجلٍ أسود يرتدي بذلة ويحصل على وظيفة، هذا ما كتبه باراك.<sup>4</sup>

أنت وأنا (معاً نستطيع أن نواجه العالم)

لكن بصرف النظر عما إذا كان الصيْتُ الذي ذاع عن الوافد الجديد مبالغاً فيه أم لا، وعما إذا كان غريباً أم لا، وعما إذا كان أنفه كبيراً أم لا؛ فقد وقع على ميشيل مسئولية الترحيب به؛ ولذا فقد دَعَتْهُ إلى تناول الغداء معها في أول يوم ذهب فيه إلى المؤسسة. وأثناء تناول الطعام تحدَّثنا حول الأمور المتعلقة بالعمل في مؤسسة «سيدلي أند أوستن»، وكان من بينها نظام تحديد المقابل الذي يدفعه العملاء وَفَقاً لساعات العمل في القضية، ووجدنا أن الحوار يدور بينهما في سلاسة. وحسبما قالت لكاتي كوريك في حوارٍ أجرته معها وأُذيع في قناة «سي بي إس نيوز» في فبراير عام ٢٠٠٨م، فقد نَحَّت جانباً على الفور فكرة أن هذا المدرب الجديد غريب الأطوار. وقالت: «نال إعجابي بسرعة لأنه ليس مغروراً رغم تمتُّعه بذكاءٍ حاد، ولأنني وجدتُ أن تجربته مثيرة، وأنه شخصٌ تستمتع بالحديث معه.»<sup>5</sup>

وماذا عن أول انطباع أخذه باراك عن ميشيل؟ إنه لا يتذكر الكثير عن الحوار الذي دار بينهما لكنه يتذكَّر أن مدربته كانت ودودة بقدر ما كانت طويلة وجذابة في زي المحاماة. أما عن مظهر باراك، فإنه يتذكَّر أنه كان يرتدي واحدة من البذلات الثلاث التي اشتراها حديثاً بأسعارٍ رخيصة وحناءً ضيقاً للغاية، وهذا بسبب الموازنة التي يسمح بها وضعه كشخصٍ عاد للدراسة بعد أن عمل منظماً للمجتمع الأهلي.<sup>6</sup> لكن يبدو أن ميشيل لم تعبأ بملابسه كثيراً مثلما لم تعبأ بأنفه. ووجدت أنها تضحك من قلبها وهي في صحبته، لكن باراك يتذكَّر أنها مع هذا، أوضحت له أثناء تناول الطعام أنه لا مجال في حياتها للأمور التي تعوق الناس عن السير في طريقهم كأن يكون لها عشيق على سبيل المثال. ورغم هذه الملحوظة، مضى سيل الكلام في يسر، ولم يبدُ أنها تتعجل إنهاء اجتماع الغداء.<sup>7</sup>

أيضاً لاحظ باراك أن لها وجهاً آخر يختفي خلف قناع المرأة التي لا تهتم إلا بالعمل، إذ قال: «[كنتُ أرى] لمعةً تراقص في عينيها السوداوين الواسعتين كلما نظرتُ إليها، ولمحةٌ خافتة جداً من الحيرة، وكأنها تعرف في أعماقها كم هي ضعيفة، وأنها لو تركت لنفسها العنان، ولو للحظة، فإن خطتها ستنتهار تماماً.» وقد أثر هذا في باراك، لأنه كان يريد أن يستكشف «هذا الجانب من شخصيتها.»<sup>8</sup>

لذا طلب أن يخرج معها، لكنها صدَّته على الفور معتقدة أنه من غير اللائق أن تقوم مدرِّبة بالخروج مع من تدرِّبه. قالت: «فكَّرتُ جيداً يا تلميذي، وأنا لا أظن أن هذا لائق.»<sup>9</sup> وحاولت في المقابل أن ترتب له موعداً مع بعض صديقاتها.

لكن المحاولة باءت بالفشل. فيبدو أن باراك لم يكن مهتمًا إلا بها، وقد قام بكلِّ ما في وسعه حتى يجعلها تستسلم، مجادلًا إياها بأن الخروج معه مرةً واحدة لا يُعد انتهاكًا لقواعد المؤسسة.<sup>10</sup>

وفي إحدى الليالي دعا باراك ميشيل لمرافقته إلى إحدى الكنائس الواقعة في المنطقة الجنوبية من شيكاغو، وهي المنطقة التي عمل فيها أثناء قيامه بتنظيم المجتمع الأهلي. كانت الكنيسة تقع في منطقةٍ قريبة من المكان الذي نشأت فيه ميشيل، وقد وافقت أن تصحبه لأن هذا لم يكن موعدًا غراميًا.

وعندما وصلا إلى الطابق السفلي من الكنيسة حيث سيُعقد اللقاء، وجدا حشدًا معظمه من الأمهات اللاتي يعشن بلا زوج، وكان معظم هؤلاء الأمهات أمريكيات من أصولٍ أفريقية. كان باراك زاهبًا إلى هناك ليعطينهن دورةً تدريبيةً حول «العالم على ما هو عليه في مقابل العالم على ما يجب أن يكون عليه» وأن الأفراد العاديين يستطيعون أن يشكّلوا جمعيات ويعملوا معًا من أجل «تضييق الفجوة بين هذين العالمين»، حسبما تتذكر ميشيل.<sup>11</sup>

ما رآته ميشيل وهي تشاهد باراك يتحدث إلى هذا الحشد أثارَ فيها تأثيرًا كبيرًا. قالت: «عندما تراه وهو يتحول من شاب يتدرب في مؤسسة حمامة مرتديًا بذلةً إلى شاب يذهب إلى الطابق الأسفل من الكنيسة في صحبة أناسٍ من أمثالي، أناس نشئوا في الظروف نفسها التي نشأت فيها، وواجهوا التحديات، وكافحوا تحت ظروفٍ لم أتعرض لها يومًا ما، وعندما تراه في ذلك الموقف قادرًا على أن يخلع بذلته وربطة عنقه ويصبح شخصًا مختلفًا تمامًا ويتعامل مع الناس بالكفاءة نفسها التي يتعامل بها مع زملائنا في المؤسسة، تُدرك أنك لن ترى في حياتك شخصًا يضاهيه قدرةً على التعامل في المواقف المختلفة بسلاسة، وعلى التأثير في الناس.»<sup>12</sup>

قالت إنها اكتشفت في ذلك الوقت وذلك اللقاء أن «هناك شيئًا مختلفًا في هذا الشاب؛ فهو قادر على أن يتعايش مع كلا العالمين. وكان هذا مُبهّرًا، وكانت رسالته مؤثرة. أعني أنها مسّت شغاف قلبي حقًا.»<sup>13</sup>

أعادت كاتي كوريك صياغة العبارة الأخيرة من كلام ميشيل قائلة: «وبعدها صرت أسيرة هواه. كان رد ميشيل: «رأيتُ أنني من الممكن أن أواعد هذا الشاب، لقد أبهرني، أبهرني حقًا.»<sup>14</sup>

لكن قبل أن توافق ميشيل على أن تخرج مع زميلها المتدرب في لقاءاتٍ غرامية، كان عليه أن يجتاز اختبارًا آخر، وهذا الاختبار ستُساعدُها أسرتها في إجرائه. ففي حوار

أنت وأنا (معاً نستطيع أن نواجه العالم)

مع ميليندا هينيبرجر، المحررة بمجلة «سليت»، قال أخو ميشيل الأكبر كريج إنه عندما صحبت ميشيل زميل العمل إلى بيت الأسرة في ذلك الصيف، ظن أفراد الأسرة أنه «سينضم إلى صفوف مَنْ فشلوا في إيقاعها في هواهم». ويبدو أنها كانت قد تقدّم لها عددٌ من الخطّاب الذين لم يكونوا أهلاً لها.<sup>15</sup>

قال كريج: «لا أقصد أنها قد صاحبت الكثير من الرجال؛ فهذا ليس صحيحاً؛ إذ إن رضا أختي صعب المنال.» وإنما كان كريج يقصد أن هذا الشاب الجديد «كان عليه أن ينجح في عددٍ من التحديات» التي مرّ بها من سبقوه، وكان لكريج دورٌ يقوم به في التحدي الذي وقع اختيار ميشيل عليه، ويمكن أن نطلق على هذا التحدي «تحدي الملعب».<sup>16</sup>

طلّبت ميشيل من كريج الذي هو أحد هدافي جامعة برينستون الفائق التميز، والذي حصل مرتين على لقب أحسن لاعب كرة سلة في دوري جامعات رابطة «أيفي ليغ»، والذي يحلم بأن يصبح مديراً فنياً لأحد فرق الجامعات التي تلعب كرة السلة مع أنه يشغل منصباً رفيعاً في أحد البنوك الاستثمارية؛ طلّبت منه أن يدعو صديقها الجديد إلى منافسته في لعبة كرة السلة. (بارك الذي يبلغ طوله ستة أقدام وبوصة كان قد مارس هذه اللعبة في مدرسته الثانوية، أكاديمية بوناو بهواوي، وظل يمارس هذه الرياضة مع أصدقائه ممارسة الهواة منذ ذلك الحين، لكن هذا لم يكن ليؤهله لأن يقبل تحدي نجم كرة السلة البالغ طوله ستة أقدام وست بوصات الذي اختاره فريق فيلادلفيا ٧٦، الذي يلعب في الدوري الأمريكي لكرة السلة للمحترفين «إن بي إيه»، لأن يلعب ضمن صفوفه، وإن كان النادي تراجع بعد ذلك ولم يقيده في قائمته الرسمية.)<sup>17</sup>

وقد أوضح كريج هذا قائلاً إنه هو ووالده كانا دائماً ما يقولان لميشيل إن المرء يستطيع أن يعرف الكثير من ملامح شخصية أي إنسان في ملعب كرة السلة. «لذا عندما أخذت ميشيل علاقتها بأوباما مأخذ الجد، قالت لشقيقها: «اصحّب هذا الشاب والعبا معاً»».<sup>18</sup>

هل سيكون بارك أنانياً، أم إنه يتمتع برُوح الفريق؟ هل سيكون جباناً أم سيتحل بالشجاعة ويُقدّم على المحاولة؟ هل سيتقبل الهزيمة بصدرٍ رحبٍ أم لا؟ وإذا فاز، فهل سُرَاعِي مشاعر منافسه أم سيستهزئ به ويتفاخر بفوزه؟ وهل سيُثير فزعاً تفوق حُصمه عليه في الحجم والخبرة؟

وكانت الإجابة وفقاً لما قاله كريج هي: ربما لا يكون بارك لاعباً ماهراً لدرجة تؤهله لأن يلعب مع أفضل الفرق الجامعية، «لكنه مثل جميع مَنْ يمارسون الألعاب الكروية

ممارسة الهواة فإن مستواه يؤهله لأن يلعب مع ٨٠٪ من لاعبي كرة السلة بالعالم ... وهو لم يكن أنانيًا. وكان يتمتع بروح الفريق، وكان كل شخص في المباراة رقيبًا على نفسه في ظل غياب الحكام».<sup>19</sup>

وبصفة عامة، لم يكن باراك خصمًا ضعيفًا على الإطلاق. قال كريج: «لم يكن ضعيفًا. بل كان شجاعًا بلا حماقة، وسلوكه جعلني أحمل لأختي ردًا بأنه ممتاز».<sup>20</sup>

وهذا مدح له قيمته إذ إنه صادر من رجل سيحقق حلمه في النهاية ويصبح مديرًا فنيًا في جامعة نورثوسترن، ثم في جامعة براون ثم في جامعة ولاية أوريجون (وسيلتحق فيما بعد بفريق «نيويورك نيكس» لكرة السلة بصفته نائب رئيس تطوير اللاعبين والمؤسسة). وكان لهذا التقييم أهمية كبرى عند ميشيل. فقد قالت: «نحن أسرة رياضية بطبيعتها. فقد نشأنا في صالات الجمنازيوم، وفي ملاعب البيسبول حيث كنا، في الغالب، نشاهد كريج وهو يلعب. وكان كريج دائمًا ما يقول إن المرء يستطيع معرفة ملامح شخصية أي إنسان من سلوكه الرياضي؛ لذا كان من الجميل أن أسمع من أخي نفسه أن باراك كان قويًا، يُظهر ما يُبطن، ويتمتع بالثقة دون أن ينتابه الغرور، ويتمتع بروح الفريق. وهذه صفاتٌ تنكشفُ على أرض الملعب».<sup>21</sup> إذن فميشيل كانت تريد أن تكشف معدنه بأن تضعه على النار.

بعد سنواتٍ عديدة، سيستخدم كريج تشبيهًا قائمًا على مصطلحات كرة السلة ليُبيد رأيه حول ما إذا كان يرى أن زوج أخته يجب أن يرشح نفسه للرئاسة أم لا. ففي عام ٢٠٠٤م عندما ألقى باراك خطبته التي صارت شهيرة فيما بعد، في أول ظهور له على الساحة الوطنية أثناء المؤتمر القومي للحزب الديمقراطي، قال كريج روبنسون إنه كان يتصبب عرقًا لدرجة أنه لم يكذب يتحمل هذا الأمر. لكن عندما تحدت مع أخته بشأن مسألة: هل ينبغي أن يدرس باراك فكرة الترشح للرئاسة أم لا، كان رأيه واضحًا وضوح الشمس.

قالت ميشيل: «قال لي كريج إن هذا الرجل [باراك] يتمتع بالموهبة وإنه يجب أن يُقدم على المحاولة. وقال إن الكرة تُحبه وتُطوعه فهو اللاعب الذي يجب تمرير الكرة إليه لأنه دائمًا يحرز الأهداف. والبلاد متعطشة لأن يقودها أحدٌ مثله؛ لذا علينا ألا نضيع الفرصة. كان كريج قادرًا على أن ينتبه لهذا قبل أن أدرك أنا أن علينا القيام به».<sup>22</sup>

في أول موعدٍ غرامي بين ميشيل وباراك، ذهبنا لمشاهدة فيلم «افعل الصواب». هذا الفيلم من إخراج سبايك لي ويدور حول التعصب والصراع العرقي في بدفورد ستايفسانت

أنت وأنا (معاً نستطيع أن نواجه العالم)

بضاحية بروكلين، وكان الفيلم في أيامه الأولى في دور العرض. وزارا أيضاً معهد الفنون بشيكاغو ثم تجوّلا في أنحاء المدينة. قالت ميشيل إن الأمسية كانت رائعة ومنذ تلك اللحظة ظلت علاقتهما ناجحة.

قالت ميشيل متذكّرة الموعد الغرامي الأول: <sup>23</sup> «كان الموعد رائعاً. وكان أوباما ساحراً جداً ... ونجح. نجح في أن يوقّعي في شبّاك غرامه.»

بعد سنواتٍ قابل باراك سبايك لي في جزيرة «مارثا فينيارد». وقيل إنه شكره لأن أول مرة سمحت فيها ميشيل لباراك أن يلمس ركبته كانت وهما جالسان في قاعة العرض يشاهدان فيلمه. <sup>24</sup>

عندما انقضى فصل الصيف عاد باراك إلى جامعة هارفارد وظلّت ميشيل تعمل في مؤسسة «سيدلي أند أوستن» في مدينة شيكاغو. ورغم أعباء الكلية الواقعة على باراك ومسئوليات العمل الملقاة على كاهل ميشيل، فإنهما استمرّا في علاقتهما وتواصلًا رغم طول المسافة بينهما.

بعد لقائهما بنحو ستة أشهر، عاد باراك إلى مدينة شيكاغو لكن هذه العودة كانت لسببٍ مأساوي فقد عاد ليُشدّ أزر ميشيل. كان والدها فريزر قد توفّي فجأة بعد إجراء عملية في الكلى، وعاد باراك بسرعة إلى مدينة شيكاغو ليشارك في الجنازة. وفي كتاب «جراًة الأمل»، يحكي باراك أن مرافقة ميشيل في تلك المحنة زادت من قوة علاقتهما. وأثناء الجنازة وعد باراك فريزر روبرنسون في صمتٍ بأن يعتني بابنته. <sup>25</sup>

وحسبما علمنا، فإن وفاة والد ميشيل وما تبعها من فقدان صديقتها العزيزة سوزان أليبي إثر إصابتها بالسرطان، كانا نقطة تحوّل في حياتها. فحسبما قالت لكاتي كوريك: «إن الوفاة جعلتني أنظر نظرة مختلفة لطريقة حياتي وأعيد النظر في الدور الذي أقوم به من أجل تحقيق فكرة جعل العالم على ما يجب أن يكون عليه؟ هل أقوم بهذا الدور عن طريق عملي في شركة الحمامة؟» <sup>26</sup>

واستمرّا يتواصلان رغم طول المسافة بينهما أثناء دراسة باراك بالسنتين الثانية والثالثة بكلية الحقوق. وفي ذلك الوقت، نجحت ميشيل في أن تثبت براعتها في شركة الحمامة رغم الشكوك التي كانت تنتابها، وذاع صيتُ باراك بصفته أول رئيس أسود لمجلة «هارفارد لوريفيو» (وفاز بعقد لتأليف كتاب — كان هذا الكتاب هو «أحلام من أبي»). كانت هذه أول مرة يقيم فيها باراك علاقةً بهذا العمق تستمر كل هذا الوقت. ومع أنه أقام فيما مضى علاقاتٍ مع فتياتٍ أخريات، فإن علاقته بميشيل كانت مختلفة. وقد

اعترف أنه كان صبيانياً إلى أقصى حدٍ فيما مضى، لكن بدا أن شيئاً يتغير وهو على أعتاب الثلاثينيات؛ إذ بدأ يفكر في قيمة إقامة علاقة قوية، ثم الزواج وبناء أسرة.<sup>27</sup> ولكن هذا لا يعني أن هذه الأفكار جعلته يتسرع في إقامة علاقة تسرعاً يتجرّع مرارة تبعاته بعد هذا. عندما تخرّج باراك عام ١٩٩١م عاد إلى مدينة شيكاغو حيث اختار أن يلتحق بمكتب حمامة صغير مختص بالقضايا المتعلقة بالصالح العام والحريات العامة بدلاً من العمل في مؤسساتٍ كبيرة تهتم بالربح مثل مؤسسة «سيدلي». وفي هذا العام قرّرت ميشيل أن تترك عملها في عالم المؤسسات وتلتحق بالعمل في الحكومة بادئةً بوظيفة في مكتب العمدة دالي، وقد شجّعها على هذا وجود باراك معها والتزامه بالسعي إلى جعل العالم على ما يجب أن يكون عليه بدلاً من الاستسلام للعالم على ما هو عليه. وفي ظل هذه الظروف استمرّت علاقتهما الرومانسية وتطوّرت، لكن لم يبدو أنها ستأخذ شكلاً رسمياً. وكان هذا مصدر توتّر كبير في علاقتهما؛ فخلفية ميشيل كانت تقليدية أكثر من خلفية باراك؛ ولذا فإنها كانت بكل كيانها تفضّل الزواج عاجلاً وليس آجلاً. أما باراك، الذي وُلد لأبوين غير تقليديّين، فظل يجادل أن الزواج — باعتباره عرفاً — ليس له أي معنى.<sup>28</sup>

قالت ميشيل في حوار مع مجلة «نيويورك»: «طوال علاقتنا، كنا دائماً ما نتجادل حول هل الزواج ضروري أم لا. وكانت هذه نقطة خلافٍ جوهرية؛ لأنني كنتُ من الفتيات اللاتي يقلن: «اسمع يا رجل، لستُ واحدةً من هؤلاء اللاتي يُحِببن أن يقضين حياتهن في التسكُّع». لستُ منهن».

أما باراك عشيقها، فقال، بحسب ما تذكّرتُه ميشيل: «الزواج ليس مهماً، ما يهم هو شعورنا أحداً تجاه الآخر».<sup>30</sup>

لكن في أحد الأيام كانا يتناولان الطعام في مطعم «جوردونز»، وهو مطعمٌ فاخر يقع في شارع كلارك بمدينة شيكاغو، وقالت ميشيل لعشيقها إنها تريد لعلاقتهما أن تأخذ شكلاً جاداً، وأن تكون علاقةً جادة. لم يرتبك باراك. وبعد انتهائهما من الطبق الرئيسي، قدّم طبق الحلوى، وكان عليه صندوقٌ صغير. أمسكت ميشيل بالصندوق، ثم فتحته وإذا بها تُفاجأ بوجود خاتم الخطوبة فيه. وتذكّر ميشيل أنه قال لها: «أفحمتك، أليس كذلك؟»<sup>31</sup>

بعد سنوات، عندما سُئلت ميشيل عن صنف الحلوى الذي تناوله بعد أن حصلت على الخاتم، لم تستطع أن تجيب. قالت: «لا أتذكر. بل لا أظن أنني تناولتُ الحلوى. كنتُ في حالة صدمة، وكنتُ أشعر بشيءٍ من الإحراج لأنه أفحمني فعلاً».<sup>32</sup>

أنت وأنا (معاً نستطيع أن نواجه العالم)

تزوَّجا في الثالث من أكتوبر عام ١٩٩٢م. ورقص العروسان أولى رقصاتهما في حفل الزَّفاف على أغنية «لا يُنسى» (أنفورجيتابل)، وهي الأغنية التي ذاعت شهرتها عندما غناها نات كينج كول، ثم غنَّتها ابنته ناتالي بعد هذا. ثم كانت أغنية «أنت وأنا، معاً نستطيع أن نواجه العالم» (يو أند آي وي كان كونكر ذا وورلد) التي غناها ستيفي ندر، وعنوان هذه الأغنية وكلماتها يبْدوان كالنبوءة اليوم.<sup>33</sup> غنَّت سانتيتا جاكسون في حفل الزَّفاف، وترأسَّ القس جيريمايا رايت قدَّاس الزواج في كنيسة «ترينيتي يونيتد تشرتش أوف كرايست».<sup>34</sup>

وبقية القصة معروفة تقريبا. التحقت ميشيل بعددٍ من الوظائف الحكومية، وكتب باراك مذكراته عن نشأته ابناً لأبٍ أفريقي وأمٍّ أمريكية بيضاء، وعمل في مؤسَّسة حمامة مختصاً بالقضايا المتعلقة بالصالح العام والحريات العامة ودَّرَس القانون الدستوري ثم بدأ يدخل عالم السياسة تدريجياً. وبعد هذا بمدَّة وجيزة انخرط تماماً في عالم السياسة، وهذا القرار نال ترحيب ميشيل لكن ستكون له آثارٌ بالغة على أسلوب حياتهما.

بعد مرور ستِّ سنوات على زواجهما أنجبا أولى ابنتيهما. وفي حوار مع مجلة «يو إس ويكلي» قال أصدقاء ميشيل إنها كانت تتوق إلى أن تكون أمًّا منذ طفولتها، لكن هذا لم يكن سهلاً كما كانت تتمنَّى. قالت إيفون دافिला، التي تعمل مديرة علاقات عامة، وظلت صديقة حميمة لميشيل طوال عشرين عاماً: «واجهت صعوبات حتى تصبح حاملاً، في الواقع حملت قبلها لكنني لم أرد أن أخبرها. وعندما دقت بابي ذات يوم وقالت: «أنا حامل»، انهمرت دموعي».<sup>35</sup>

وكانت ماليا آن هي أولى فرحتهما، وهي «طفلة وطنية»، حسبما يحب والداها أن يطلقا عليها؛ إذ إنها وُلدت في اليوم الموافق ليوم الاستقلال من عام ١٩٩٨م؛ أي في الرابع من يوليو. ثم رُزقا بناتاشا — المعروفة بساشا — في السابع من يونيو عام ٢٠٠١م.

وفي غضون هذا انتُخب باراك عضواً بمجلس شيوخ ولاية إلينوى وبدأ القيام بمهام هذا المنصب عام ١٩٩٧م. وعام ٢٠٠٠م قام بمحاولة فاشلة لدخول مجلس النواب الأمريكي، وعام ٢٠٠٤م أصبح عضواً بمجلس شيوخ الولايات المتحدة. وفي العام نفسه ألقى خطابه المهم في المؤتمر القومي للحزب الديمقراطي، وهو الحدث الذي سيجذب إليه الأضواء على مستوى الأمة، وسيؤدِّي إلى فوزه بالمنصب الذي فاز به في نهاية عام ٢٠٠٨م، ألا وهو منصب رئيس الولايات المتحدة الأمريكية. ويا لها من إنجازاتٍ كبيرة في سنوات لم تتجاوز العشر.

وفي حين كان هذان الزوجان الخارقان — اللذان وصفتها ميشيل للحاضرين في أحد المؤتمرات الانتخابية بـ «الوالدين الخارقين» — يواصلان حياتهما اليومية، تحت جناح الخصوصية تارة وتحت سمع وبصر المجتمع الذي لا يغفل تارةً أخرى، كانا يحاولان تحقيق التوازن بين متطلبات الحياة الأسرية ومتطلبات العمل — مثلنا جميعاً — وكانت العواصف أحياناً ما تهبُّ على حياتهما. لم تكن ميشيل واثقة من أنها تُحب الحياة السياسية، وقد وصفتها بأنها أحياناً ما تكون «حقيرة». وبصفتها أمّاً عاملة، لم يكن لديها متسع من الوقت للأُمسيات والمؤتمرات التي يُنتظر من زوجات السياسيين أن يحضرنها.

وقد تحدّث باراك في كتاب «جرأة الأمل» بصراحةٍ عن المُشادّات الكلامية التي كانت كثيراً ما تدور بينه وبين زوجته حول تحقيق التوازن بين العمل والأسرة على نحوٍ عادل لكلٍّ منهما وفي الوقت نفسه يراعي مصلحة الأبناء.<sup>36</sup> وقد زادت درجة التوتُّر بعد أن وُلدت ساشا، وبدأت ميشيل تشعر بأن باراك يهتم بنفسه أكثر مما ينبغي. وعلى حد قول باراك فإنها كانت كثيراً ما تقول له إنها لم تتزوَّج لتربي الأبناء بمفردها.<sup>37</sup> بعد سنوات، عندما بدأت الابنتان تذهبان للمدرسة، بدأ باراك يفهم ما كانت زوجته تمر به. أدرك أنه فور الإنجاب، صارت ميشيل هي من يقدِّم جميع التنازلات، رغم أنه يؤمن إيماناً راسخاً بأنها لا تقلُّ عنه شيئاً وأن أهدافها ومهنتها لهما أهمية مهنته وأهدافه نفسها.<sup>38</sup>

أما ميشيل فكانت لها نظرةٌ مختلفة للموضوع؛ إذ قالت في حوارٍ أجرته معها صحيفة «شيكاغو تريبيون» عام ٢٠٠٤م: «ما لاحظتهُ عن الرجال، جميع الرجال، هو أن ترتيب أولوياتهم هو كالتالي: نفسي ثم أسرتي ثم يأتي الدين في مرتبةٍ ما بعد ذلك، لكن «نفسى» دائماً ما تحتل المرتبة الأولى. أما عن النساء فـ «نفسى» تحتل المرتبة الرابعة، وهذا ليس أمراً جيداً.»<sup>39</sup>

ومثل الكثير من الأزواج، توتّرت علاقتهما بسبب مشكلاتٍ مادية. فطوال سنواتٍ عديدة ظل الزوجان ميشيل وباراك غارقين في الدَّين الذي اقترضاه لاستكمال دراستيهما، وقد زاد الأمرُ سوءاً بسبب القرارين اللذين اتخذاهما بترك عالم المؤسسات الخاصة، والاتجاه نحو وظائفٍ هدفها خدمة المجتمع. ومع أن وظيفة ميشيل الأخيرة في مستشفيات جامعة شيكاغو أدّرت عليها — أخيراً — دخلاً كبيراً، فإن ما مكَّنها من سداد القروض هو أرباح كتابي زوجها: «أحلام من أبي» و«جرأة الأمل».<sup>40</sup>

أنت وأنا (معاً نستطيع أن نواجه العالم)

وفي كتاب «أوباما من الوعد إلى السلطة»، يحكي ديفيد ميندل عما عانياه في إحدى الأزمات الاقتصادية التي مرّت عليهما عام ٢٠٠٠م قبل أن تنفجر الأزمة ويجني أوباما أرباح الكتّابين. كان أوباما قد سحب أقصى مبلغٍ تسمح به بطاقته الائتمانية — وكان أحد أسباب هذا الدّين الذي تراكم عليه جرّاء قيامه بحملةٍ انتخابيةٍ للحصول على مقعد في مجلس النواب ثم فشله في الفوز بهذا المقعد — وكان لا يزال مديناً بالقرض الذي حصل عليه ليستكمل دراسته، ومع هذا اشترى تذكرة طيرانٍ رخيصة للذهاب إلى مدينة لوس أنجلوس لحضور المؤتمر القومي للحزب الديمقراطي. لكن عندما وصل إلى مطار لوس أنجلوس، رفضت شركة تأجير السيارات التعامل ببطاقته الائتمانية، قال أوباما لميندل: «أفلسْتُ. وليس هذا فحسب، بل كانت زوجتي ساحطة عليّ لأنني ترشّحتُ لمجلس النواب مع أننا مسئولان عن طفلة ... كانت مرحلةً صعبةً في حياتي.»<sup>41</sup>

في ذلك الوقت كان الشك قد بدأ يتسرّب إلى آراء ميشيل حول الاشتغال بالسياسة؛ ففي البداية عندما أخبرها باراك أنه يريد أن يجربّ الاشتغال بالسياسة شجّعته لأنها كانت واثقةً من أنه يتمتع بكافة الصفات التي يتطلع الناس إلى وجودها فيمن ينتخبونهم من المسئولين. لكن بعد هذا، عندما زادت المشكلات المادية والهجوم الأخرى، بدأت ترتاب في صحة موقفها.<sup>42</sup>

وعندما أطلعها باراك على نيّته الترشّح لمجلس الشيوخ أبدت حماساً أقلّ كثيراً من الذي أبدته في المرة السابقة. وقالت إن خياراته المهنية تُلحِق بهم ضرراً مادياً بالغاً، وأضافت: «رأيي هو، هذا قرارٌ طائش، فلنفتِرض أنك فزت، كيف ستحمّل التبعات المادية لهذه الخطوة الرائعة؟ وكان رده: «حسناً، سأكتب كتاباً، كتاباً جيداً.» قلتُ لنفسي: «النتيجة نفسها، تأليف كتاب! آه، هذا مُجدٍ حقاً! تظن أن هذا سيجعل السماء تُمطر عليك ذهباً.»<sup>43</sup>

طبعاً نعرف ما حدث. لقد ألّف زوجها الكتاب، وأمطرت السماء عليه ذهباً، وفاز في الانتخابات أيضاً.

ساعدته أرباح كتّابه اللذين كانا الأفضل مبيعاً في سداد القرضين اللذين حصل عليهما لاستكمال دراستيهما، ومكّنته من شراء بيت به ستُّ حجرات نوم يقع في حي هايد بارك بالمنطقة الجنوبية من شيكاغو قريباً من جامعة شيكاغو، وهذا الحي سكانه متباينون عرقياً وبه العديد من المؤسّسات الثقافية. وقد اشترى أوباما هذا البيت المبني من الطوب على الطراز الجورجي في مقابل ١,٦٥ مليون دولار أمريكي عام ٢٠٠٥م.<sup>44</sup>

وفي مقالٍ نُشر في مَجلة «بيبول» في الرابع من أغسطس عام ٢٠٠٨م كتبتُ ساندرًا سوبيراج ويستقول إن هذا البيت يبدو للوهلة الأولى مثل جميع البيوت الأمريكية إلى أن تخرج ساشا من البيت متوجِّهة إلى المدخل الأمامي فيرفع أحد أفراد الحرس السري، المنوط به حماية الرئيس وأسرته، يده إلى فمه ويقول بصوتٍ منخفض: «المدخل الأمامي».<sup>45</sup>

ومنزل أوباما يبدو عليه الرغد؛ ففيه بيانو للبتنن، وفي حجرة المكتب الكثير من الكتب، وعلى الجدران أعمالٌ فنية أفريقية وآسيوية جلباها من أسفارهما. وعلى أحد الجدران تجد صورة للأسرة رسمتها آني ليوفيتز. غير أنه لم يتوفَّر لأوباما وزوجته متسعٌ من الوقت للاهتمام بالديكور الداخلي للمنزل، ودائمًا ما تعتذر ميشيل لزائريها وهم على أعتاب حجرة الطعام عن وجود مصباحين غير متطابقين. قالت: «أعلم أن هذا سيئٌ. لكنني أنوي تغييرهما منذ عامين!» أظن أن هذا هو ما يحدث عندما يكون على المرء أن يعمل ويعتني بأبنائه ويساعد زوجه في معركة الانتخابات الرئاسية.<sup>46</sup>

في أكتوبر عام ٢٠٠٨م؛ أي قبل الانتخابات العامة بما يقرب من شهر، احتفل ميشيل وباراك بعيد زواجهما السادس عشر. وقياسًا على كل الدلائل الظاهرة، يبدو أن زواجهما ناجح. إذ يرّد باراك عبارات مثل: «حب حياتي»، و«سكّني وملاذني»، و«الورقة الرابعة» في حملات الدعاية الانتخابية. ونشاهد لقطاتٍ يظهر فيها الزوجان السعيان وهما يحتضن أحدهما الآخر، ونقرأ سيل المدح الذي أمطر به باراك زوجته في كتاب «جرأة الأمل»، وهذا الجزء من الكتاب يبدو وكأنه قصيدةٌ يتغنّى فيها باراك قائلاً إن الرجال عندما يقابلون أم طفلتيه، فإن سحرها يغمُرهم تمامًا. وعندما يستمع الناس إلى حديث ميشيل يُخبرونه بأنه زوجٌ رائع لكن روعة زوجته تفوق الوصف. وفي أفضل مجاملة ينطق بها هذا الرئيس القادم، قال إن ميشيل لو فكّرت في أن تنافسه على أحد المناصب العامة، فسيصبح في مأزق. لكنها لحسن الحظ لا تهتم بالسياسة حسبما يقول زوجها. فهي تقول له إنها لا تتمتع بالصبر اللازم لهذا. ويكتب باراك معلقًا على ما قالته: «إنها تنطقُ بالحقيقة كعادتها».<sup>47</sup>

تُرى ما هي مفاتيح سعادة أسرة أوباما؟ كيف ينجحون في الحفاظ على علاقتهم؟ لا شك في أن أحد هذه المفاتيح هو خفة الظل.

حسبما قالت ميشيل لراشيل راي في برنامجها التلفزيوني أثناء المعركة الانتخابية للفوز بترشيح الحزب الديمقراطي، فإن الضحك يساعدهم في مواجهة الأوقات العصيبة. قالت ميشيل: «أنا أكثر أفراد المنزل مرحًا، ودائمًا ما أستطيع أن أرسم الضحكة على شفاه باراك».<sup>48</sup>

أنت وأنا (معاً نستطيع أن نواجه العالم)

وعندما سألتها أحد الصحفيين: كيف تجد تجربة أن تكونَ زوجة رجلٍ سياسي؟ أقرَّت ميشيل بأنها تجربة شاقة، ثم أضافت مازحة: «ولهذا يعترف باراك بجميلي عليه». <sup>49</sup> وتتعدّد المواقف التي أظهرت خفة ظلها أثناء جولات الدعاية الانتخابية. ففي إحدى المحطات الانتخابية في ساوث كارولينا مزحت ميشيل حول أحوالها المادية هي وزوجها والوقت الذي استغرقه حتى يسددا القرضين اللذين حصلتا عليهما ليستكملا دراستيهما. فقالت: «ما زلت أنتظر ميراث باراك، لكنني سمعتُ أن ديك تشيني قد يكون قريبه، فعرفتُ أننا على أعتاب المشاكل!» <sup>50</sup>

وفي لقاء في مدرسة «إنديا بوليس» الإعدادية قالت إن الأمريكيين «شعبٌ طيب» وإنهم على استعدادٍ لأن يكدوا ويضحوا ما دام هذا في حدود المعقول. وأضافت: «أنا وباراك نعرف هذا جيداً؛ لأننا نخبويان» مشددة على كلمة «نخبويان» وهي تقول هذا وكأنها تشير إلى أزمة بيجيت، وما وُجّه لباراك من اتهاماتٍ بأنه نخبوي بعد ما قاله عن الدين والبنادق. <sup>51</sup>

وفي حوارٍ أجرته مجلة «إيبوني» مع ميشيل عام ٢٠٠٦م تحدتت عما قالت لزوجها عندما أخبرها أنه يريد الترشح لمجلس الشيوخ، فألقت طرفة لا تنم عن الاحترام. قالت: «قلتُ له: لقد تزوجتُك لأنك وسيم وذكي، لكن هذا هو أغبى شيءٍ استشرتني في القيام به». <sup>52</sup>

وإباراك مرحٍ أيضاً. ففي مقالٍ آخر نُشر في المجلة نفسها، تحدث باراك مازحاً عن عيوبه كزوج، فقال لـلين نورمنت مصطنعاً الشكوى: «عندما أكون في البيت لا بد أن أثبت وجودي وأهمل في ترتيب حاجياتي. فحسبما تُحب ميشيل أن تقول: «أنت رجلٌ جيد، لكن هذا لا ينفي أنك من جنس الرجال». فأنا أترك جواربي في غير مكانها. وأعلقُ بنطالي على الباب. وألقي الجرائد في أي مكان، لكنها تكون لي بالمرصاد عندما لا أتصرف على نحو سليم. وبعد مرور أربعة عشر عاماً على ارتباطنا أستطيع أن أقول إنها تمكّنت من ترويضني». <sup>53</sup>

وإضافة إلى خفة الظل نجد الصدق والصراحة، وهذا شيءٌ عُرِفَتْ به ميشيل على وجه الخصوص. ويمكن هنا أن نقبس مرةً أخرى المقولة التي دائماً ما يرددها زوجها «إنها تنطق بالحق كعادتها».

وفي فقراتٍ وردت بها أسئلة القراء وألحقت بحوارٍ أجرته مع ميشيل الكاتبة تونيا لويس — زوجة المخرج سبايك لي الذي ورد ذكره في سياق الحديث عن أول موعدٍ غرامي

بين ميشيل وأوباما — في مجلة «جلامور» سأل قارئ ميشيل: لِمَ، في رأيها، تعرّضت للنقد بسبب ما قالتها عن أن زوجها يترك جواربه ملقاة على الأرض.<sup>54</sup> (بعد نشر هذا المقال، وجّه لميشيل نقدًا لأنها قالت للسيدة تونيا إن رائحة زوجها تكون «سيئة» في الصباح وإنه يكون «مزعجًا».)<sup>55</sup>

أجابت ميشيل: «أظن أن [معظم] الناس فهموا المفارقة الكامنة في موقفنا؛ إذ تبين لهم أن هذه هي طريقة حياتنا جميعًا، أكرّر وأقول جميعًا، وبارك لا يختلف عن باقي الناس. لذا علينا ألا نرفعه فوق مستوى البشر لأن ما نفعله دائمًا هو أننا نرفع الناس إلى السماء السابعة ثم نهوي بهم إلى مكانٍ سحيق. وهناك أفكارٌ راسخة في أذهان الناس عن دور الزوجة في هذا، وهو دورٌ تقليدي يتلخّص في الحب الأعمى. أما النموذج الذي أمثله فمختلف قليلًا، وأظن أن معظم الزوجات الواقعية مثل زوجتي.»

وقد ردّدت ميشيل مثل هذا الكلام في الحوار الذي أجرته معها كاتي كوريك في قناة «سي بي إس نيوز»، وذلك عندما أشارت كاتي كوريك إلى أن بعض الناس يصفون باراك بأنه رجلٌ فوق مستوى البشر سيخلص العالم من الشرور. فكان رد ميشيل: جميعًا بشرٌ بلا استثناء. وقالت: «ولهذا فإننا نحاول أن نسخر من أنفسنا حتى تبقى صورتنا عن أنفسنا في حجمها المعقول. ولهذا فقد سخرتُ من باراك بسبب عدم وضع الجوارب في مكانها، وغير هذا من الأمور التي تعرفونها. ولهذا أحاول أن أتأكد أنه يستطيع إعداد شطيرة الزبد، وهذا لا يعني أنني أحاول أن...»

هنا سألتها السيدة كاتي: «تنفي رجولته؟»

فردّت ميشيل: «نهائيًا. كل ما هنالك أن باراك في النهاية بشر مثل أي قائد. وأنا أرى أن التحدي الذي نواجهه في هذا البلد لا يكمن في إيجاد شخصٍ يخلصنا من شرور أنفسنا، فالتحدي يكمن فينا نحن. فالتحدي الذي تواجهه هذه البلاد هو: كيف سنغيّر من أنفسنا، نحن أفراد هذا المجتمع؟»<sup>56</sup>

وحسبما تقول كايتي ماكورميك ليليفيلد المتحدثة الرسمية باسم ميشيل، فإن ميشيل عندما تهزأ بزوجها «يكون هناك منطقٌ يدفعها لهذا العمل المجنون». فإنها تكشف عن أن زوجها «شخصٌ عاديٌّ يسهُل أن نقابل أمثاله وأنه بشر، مجرد بشر».<sup>57</sup>

لكن لا يُجمع الناس على تقدير صراحة أوباما وزوجته وخفة ظليهما، ويشعر البعض أن أسلوبهما ليس أفضل الخيارات السياسية على المدى البعيد. فقد كتب مورين دود في مقال بجريدة «نيويورك تايمز»: «أشعر بشيء من الألم عندما توبّخ ميشيل زوجها

أنت وأنا (معاً نستطيع أن نواجه العالم)

قائلة إنه مجرد بشر، وهي تقوم بهذه المهزلة باستمرارٍ مبررةً هذا بأننا نراه في منزلة الآلهة. لكن ليس من الذكاء أن تهزأ به على نحوٍ يجعلنا نكف عن النظر إليه على أنه مبهر كالرئيس كينيدي، ويجعله في نظرنا كالرئيس جيرالد فورد العادي الذي كان يُعد إفطاره بنفسه. إن كان لدى السيناتور أوباما ما يمنحه السحر والجادبية، فلم تسعَى لنزعهما عنه؟»<sup>58</sup>

أيضاً، رغم أن صديقي الصحفي البريطاني بن ماكنتاير منبهراً بشخصية كلٍّ من ميشيل وباراك وبعلاقتهما، فإنه قال «إن ما تفعله ميشيل محفوفٌ بالخطر لأنها إن رأت أنها تستطيع أن توبّخه فسيحذو الآخرون حذوها».

وأضاف: «عندما تقول إن رائحة فمه تكون كريهةً في الصباح، فإننا جميعاً نعرف أن هذا من الأمور الطبيعية في الحياة لكن ما قالته قد يثير المتاعب مستقبلاً. فقد يصبح ما يقوله الناس هو «يا إلهي، إنها لا تحترمه نهائياً»، و«إنها لا تفهم قواعد اللعبة»، و«إنها ساذجةٌ جدّاً»، و«إنها لا تكف عن الانتقاد». لكنه أضاف أن ما قالته هو من ناحيةٍ أخرى قمة في الصراحة. قال: «أرى أن هذا مبهر. فالعلاقة التي نراها تتجسّد أمام أعيننا هي علاقةٌ سمّتها الصراحة.»<sup>59</sup>

من مفاتيح السعادة الأخرى إصرار الزوجين على أن يُوجدا وقتاً لأسرتهمما بصرف النظر عما يجري في حياتيهما المليئة بالأشغال.

قالت ميشيل لصحيفة «شيكاغو صن تايمز»: «أنا وباراك لا نحيا حياةً سمّتها الإثارة، ولم يحدث هذا قط. وإنما نحن أشخاصٌ نهتم بالحياة الأسرية. وعندما نخرج معاً، فإننا إما نتناول الطعام في الخارج أو نشاهد فيلماً لأننا لا نستطيع أن نطيل السهر حتى نفعل كلا الأمرين.»<sup>60</sup>

طبعاً، أصبح رجال الأمن السري يخرجون معهم الآن، لكن هذا لم يغيّر طريقة حياة هذه الأسرة تغييراً كبيراً. فقد قالت ميشيل إنهم يحترمون خصوصيتهم.<sup>61</sup> ويبدو أن ماليا وساشا لا تنزعجان من فكرة أنهما مُضطّرتان لإشراك رجال الأمن في حياتيهما. قالت ميشيل: «إن وجود رجال الأمن لا يزعجهما. وهما تسميانهن «العملاء السريين.»»<sup>62</sup>

وفي صفحة ميشيل على موقع فيسبوك، كتبت تحت عنوان «الأنشطة»: «الخروج مع زوجي باراك ومع ابنتي، والقيام بجولات الدعاية الانتخابية، وممارسة التمرينات الرياضية». وتحت عنوان: «الاهتمامات» كتبت: «القيام بدور الأم، ولعب السودوكو». وتحت عنوان «الفيلم المفضّل» كتبت: «حديثاً لم أشاهد إلا أفلام الأطفال، وشاهدتُ فيلم

«إنشانتد» منذ وقتٍ ليس ببعيد.» وخمّنوا ماذا كتبتُ تحت عنوان «الكتب المفضّلة». كتبت: «نقرأ الكثير من كتب الأطفال في بيتنا. ومنذ وقتٍ قريب قرأنا «هاري بوتر».»

أو بعبارةٍ أخرى، فإنّ المحاميّة التي تلتّ تعليمها في جامعتي برينستون وهارفارد، وزوجها الذي تلقّى تعليمه في جامعتي كولومبيا وهارفارد والذي من المحتمل أن يصبح الرئيس القادم للولايات المتحدة اختاراً أن يقضيا وقتهما في القيام بالأمر نفسها التي يقوم بها معظم الآباء الذين لهم أبناءٌ صغار؛ أي في: مشاهدة أفلام الأطفال، وقراءة كتب الأطفال، والخروج معاً. قد لا يكون هذا مبهراً، لكنه يُصّب في مصلحتهما.

في نهاية شهر يونيو عام ٢٠٠٨م؛ أي بعد فوز باراك بترشيح الحزب الديمقراطي بنحو أربعة أسابيع، التقط أحد المصوّرين الذين يقومون بتغطياتٍ إخبارية جماعية صورةً لباراك وميشيل على حين غرّة تعكس إحدى اللحظات الخاصة؛ إذ كانا يستجمّان في إحدى مباريات الكرة التي تلعبها ابنتاهما. (في مقال نُشر في الخامس من يوليو عام ٢٠٠٨م، قال المراسلان الصحفيان كيم تشابمان وكريستين جونسون اللذان يعملان في قناة «بلومبرج» إن عملية التغطية الإخبارية الجماعية هذه يُطلق عليها «بودي ووتش»؛ أي المراقبة اللصيقة ومهمّتها تسجيل كل خطوة يتخذها مهما كانت تافهة بما في ذلك جلسات التدريبات الرياضية (والحلاقة).) كان باراك قد عاد إلى بيته مسافراً بالطائرة لقضاء إجازة مع أسرته، مثلما يفعل كلما تسنّى له هذا. ارتدى باراك وميشيل ملابس غير رسمية مثل جميع الآباء الذين كانوا في ملعب الكرة ذلك اليوم. وكان الفارق الوحيد بينهما وبين أولئك الآباء هو أن المراسلين الصحفيين كانوا يراقبون كل حركةٍ من حركاتهما، وكذلك أفراد الأمن.

فتح الزوجان كرسيّيهما اللذين جلباهما من محلات «سبورتس أوثورتي» وجلسا يشاهدان المباراة، وكانا يقفزان من حينٍ لآخر — مثل غيرهما من الآباء — ليصفقاً مشجعين ابنتيهما على لعبةٍ جيدة أو ليهتفا ببعض التعليمات الفنية. وفي إحدى اللحظات بدا أن ميشيل كانت تقول لزوجها أن يغلق تليفونه من نوع البلاك بيري. وفي لحظةٍ أخرى التقطت صورة لباراك وهو يميل نحو زوجته مبتسماً ابتساماً عريضة وهو يهمس لها بأمرٍ ما. ومهما كان ما قاله، فلا بد أنه كان بذيقاً إلى حدٍّ ما لأنه كان يضحك وميشيل تدفعه بعيداً عنها بلطف. وقد سجّل المصور هذا في الرسالة المكتوبة المصاحبة للفيديو إذ جاء فيها: «٨:٣٠ — ميشيل وباراك يداعب أحدهما الآخر.»<sup>63</sup>

أنت وأنا (معاً نستطيع أن نواجه العالم)

وهذا يقودنا إلى المفتاح التالي لسعادتهما الزوجية، إلى هذه الرابطة الغريبة أو هذا الوقود الذي يغذي علاقتهما، والذي يبدو، في حالتها، صادقاً وجلياً لأعين المحيطين بهما. لدرجة أن المراسل الصحفي لم يملك إلا أن يلاحظ هذا الارتباط القوي بينهما ويسجله. في موضوع بعنوان «لم يحبها باراك»، تناول زواج أوباما وكان موضوع غلاف مجلة «يو إس ويكلي»، كتب كيفين أوليري يستعرض أجواء المؤتمر الانتخابي الذي عُقد في ولاية مينيسوتا في الثالث من يونيو بعد أن فاز باراك بترشيح الحزب الديمقراطي، ثم يستطرد واصفاً لحظات حميمة خاصة تلت هذا المؤتمر بأربعة أيام.

ففي الثالث من يونيو، صعد مرشح الرئاسة وزوجته المتألقة في رداؤها الأرجواني إلى المنصة أمام ١٨ ألف شخص يفور حماساً في مدينة سان بول بولاية مينيسوتا. وعلى إيقاع أغنية «يوم سعيد» (بيوتيفول داي) التي غنّتها فرقة «يو تو» والتصفيق الحاد، حبياً مؤيديهما، وبعدها أدّى حركة تعبر عن حبهما، وذلك حين جعل أوباما قبضته تلمس قبضة زوجته في حركة أصبحت الآن سيئة السمعة قبل أن يتوجه إلى مكبر الصوت ليلقي خطبة قبول الترشح للرئاسة.

في السابع من يونيو، أثناء إقامة مأدبة بمناسبة حفل عيد الميلاد السابع لابنتهما الصغرى ساشا، تجمعت مجموعة من الأصدقاء ومن أفراد الأسرة بالقرب من منزلها في شيكاغو ليشاركوا في الاحتفال. وكان من بين الحضور إيفون دافيلدا إحدى أقرب صديقات الأسرة، وقد وصفت لحظة حميمة خاصة مرّت أثناء الاحتفال بعيد الميلاد.

قالت لأوليري، المحرر بمجلة «يو إس ويكلي»: «غنّينا أغنية «عيد ميلاد سعيد» (هابي بيردداي). ولحّته ينظر نحو زوجته ثم بدا وكأن الابتسامة ترسم على شفّتيه. لم يكن على وعي بما يفعل، لكنني رأيته، وقد أثر فيّ ما فعله كثيراً»<sup>64</sup>

وعام ٢٠٠٧م وضعت مجلة «إيبوني» اسمي باراك وميشيل في قائمة أفضل عشر أزواج. وكان من بين من ذُكروا في القائمة أزواج مبهرون مثل بيونسيه، وجاي زي.<sup>65</sup>

أيضاً انبهر صديقي بن بما رآه من وُد واضح بين باراك أوباما وزوجته. ووصف تعاملهما معاً بأنه «غير مصطنع على الإطلاق»، وقال إن «التوافق» يسود علاقتهما. وقال «إنهما يتعانقان كثيراً جداً»، ثم أضاف «أو ربما أنني لا أقاوم الالتفات إلى هذا. لكن علاقتهما تتميز بكثرة لمس أحدهما للآخر، وهذا أمر غير عادي ... ربما يكون هذا أسلوبهما. فهو يبدو غير مصطنع. إذ لا يبدو أنهما يفكران قبل أن يتصرفا»<sup>66</sup>

من مفاتيح السعادة الأخرى، ثقة — بل إيمان — كلٌّ منهما بالآخر، وبالمستقبل.

فمع أن ميشيل لم ترحب في البداية باتخاذ باراك خطوة الترشح للرئاسة فقد قالت إنها لم تستطع أن تستمر على موقفها هذا عندما فكرت فيما قد يعنيه ترشحه لابنتيها وللمستقبل.

قالت في الحوار الذي أجرته معها كاتي كوريك: «نحن نحتاج شخصاً يوحد صفوفنا، هل تفهمين مقصدي؟ نحتاج شخصاً يوحد هذا البلد ... وباراك يتمتع بالقدرة على تخطي الحواجز الحزبية وعلى أن يخلق نوعاً من التوافق بين الولايات الموالية للحزب الجمهوري (الولايات الحمراء) وتلك الموالية للحزب الديمقراطي (الولايات الزرقاء) مما سيمكّننا من تكوين أغلبية مؤثرة في الكونجرس ويساعدنا في حل بعض المشكلات».<sup>67</sup>

وقد قالت لتونيا لويس التي تعمل في مجلة «جلامور»: «أشعر بحماس شديد لعملية الترشح هذه. فعندما اتخذنا قرار الدخول في هذه المعركة الانتخابية، كان بداخلي صوت يقول: «يا إلهي! هذا سيخل بنظام حياتنا الشخصية، لم نقم أنفسنا في هذا؟» لكن بعد هذا تركت العنان لنفسي بأن أحلم بثمار وصول زوجي للرئاسة، وسرت قشعريرة في جسدي».<sup>68</sup>

أما عن باراك فقصيدة المدح التي غناها لزوجته في كتاب «جراًة الأمل»، والطريقة التي يتحدث بها عنها في جولات الدعاية الانتخابية — إذ يقول إنها «الورقة الرابعة»، و«حب حياته»، و«سكّنه وملأه» — يكشفان عما يُكنه لها.

وثقة كل منهما بالآخر بلغت حدّاً جعل كلا منهما يؤمن بإخلاص الآخر له. فمع أننا رأينا أن زيجات السياسيين تواجه بعض التحديات مع مرور السنين فإن ميشيل ترفض أن تقلق بشأن أمور مثل الخيانة. وقالت: «لا أقلق نفسي أبداً بشأن الأمور التي لا يد لي فيها، وفيما يتعلق بالإخلاص فإن هذا أمرٌ يخصني أنا وباراك».<sup>69</sup>

هذا لا يعني أن ذلك الموضوع لم يُطرح في وسائل الإعلام. ففي أعقاب الفضيحة الجنسية لحاكم ولاية نيويورك إلبوت سبيتزر الخاصة بتورطه مع إحدى فتيات الدعارة، نشرت مجلة «فانيتي فير» مقالاً عن الخيانة الزوجية بعنوان «إنها الخيانة الزوجية يا غبي!» وأجرت تحقيقاً صحفياً دقيقاً حول جميع المرشحين للرئاسة وحول السياسيين المشهورين، وثبتت براءة أوباما وزوجته.

فقد كتب الكاتب مايكل وولف يقول: «لا غبار تقريباً على سمعة باراك أوباما فيما يتعلق بعلاقاته الجنسية الخاصة. وهذا يمثل تحولاً جذرياً في الصورة الراقصة في أذهان الناس عن طباع ذوي الأعراق المختلفة؛ فالرجل الأبيض أصبح هو المنحرف جنسياً الذي

أنت وأنا (معاً نستطيع أن نواجه العالم)

لا يوجد ضابط لتصرفاته (ويُستثنى من هذا مت رومني وهيلاري كلينتون) والرجل الأسود هو رمز الدفاء الأسري الجميل الذي تتسم به الطبقة الوسطى.<sup>70</sup> ويقتبس وولف ما قاله أحد أصدقائه وهو «طبيب أبيض في منتصف العمر يؤيد أوباما بقوة»، إذ قال إن باراك لن يقع أبدًا في المشكلات الجنسية نفسها التي وقع فيها بعض السياسيين وهم في منتصف العمر لأن ميشيل ستكون له بالمرصاد. أو بعبارة أخرى: فإن حال الرجل لا ينصلح إلا بسياسة العصا. ويصف وولف أوباما بأنه «الوحيد في هذه الساحة الذي يبدو أنه لا يعاني أزمة جنسية. وهذا تجسيدٌ لنظرتنا لما يجب أن تكون عليه الحياة الجنسية للرجل الليبرالي القويم.»<sup>71</sup>

وقد أثار هذا الموضوع ميندل في كتاب السيرة الذي ألفه عن أوباما بعنوان «أوباما من الوعد إلى السلطة». فمثلما يحدث دائمًا مع الكثير من الرجال المشتغلين بالسياسة وجد أوباما نفسه فجأة محل اهتمام النساء. وقد قال دان شومون، المستشار السابق لحملة أوباما، لميندل إن أي إنسانٍ لن يروقَ له أن تلتقي المرأة التي يحبها مع أوباما؛ لأن كل النساء يقعن في هواه.<sup>72</sup>

وقد قالت إحدى الصديقات لميشيل إنها سمعت مصادفةً بعض النساء في أحد النوادي الصحية يتحدثن عن زوجها ويقلن إنهن يودنَّ لو شاهدنه وهو يمارس الرياضة.<sup>73</sup> وقالت فاليري جاريت الصديقة الحميمة لأسرة أوباما إن ميشيل لا تُقلق نفسها بشأن تأثير زوجها المغناطيسي لأنها تعرف أنه يعلم ما ستفعله به إن خانها. قالت جاريت وهي تضحك: «ستقتله أولاً، وبعدها قد تتركه وشأنه.»<sup>74</sup>

ومن الأمور الأخرى التي لا تُحب ميشيل أن تُقلق نفسها بشأنها هو ما قد يحدث، أو قد لا يحدث، أثناء أو بعد الحملة الانتخابية إن فاز زوجها بمنصب الرئاسة. ففي الحوار الذي أجراه معها لاري كينج في الحادي عشر من شهر فبراير قالت: «لا أشغل ذهني بالتفكير في الأمور التي قد لا تسير على ما يُرام. ولم أُمضِ أبدًا حياتي في التفكير فيما قد يقع من سوء، وإلا لما كنتُ هنا الآن.»<sup>75</sup>

وكذلك، عندما قال لاري: «جميعنا نعرف أن ألما باول أثنت كولين باول عن الترشُّح للرئاسة خشية أن يصيبه مكروه» بسبب أنه سيكون أول رئيسٍ أسود، ردَّت ميشيل بكلمة واحدة: «صحيح.»

بعد أن راوَعَت ولم تُجب عن السؤال تحدتت عن أن زوجها — وهو رجلٌ أسود — فاز في ولاياتٍ مختلفة هي ولايات: يوتا، وساوث كارولينا، ولويسيانا، ومين، وإلينوي.

قالت: «أعني أن زوجي أثار في كل من ينتمي لهذا البلد؛ في كل عرق وكل حزب، في الجمهوريين وفي المستقلين. وأرى أنه لا يوحد الناس حول العرق بل حول الأمل.» وقد كتبت شايلا ديوان في جريدة «نيويورك تايمز» إنه في شهر يونيو تحدثت ميشيل أمام حشدٍ معظمه من السود في مدينة أتلانتا مشيرةً إلى المخاوف التي أثّرت حول ما قد يتعرّض له زوجها من خطر بسبب ترشّحه للرئاسة. وقالت إنه لا تزال هناك أصوات، داخل مجتمع السود نفسه، لا تتحدّث إلا بما قد يقع من مكروه، لكن تاريخ العنصرية يجب ألا يمنع زوجها وأمثاله من الترشّح لهذا المنصب.<sup>76</sup> وبدلاً من التركيز على المخاوف، فإن ميشيل تفضّل دائماً التركيز على الفكرة الأساسية التي تدور حولها الحملة، ألا وهي: الأمل.

من الأمور الأخرى التي تُسهم في تحقيق سعادتهما الزوجية هي رغبة كلٍّ منهما في أن يكون قدوةً حسنة لابنتيه وللآخرين، وأن يساعد الآخر في تحقيق هذا. عندما أخبر باراك ميشيل أنه يريد الترشّح للرئاسة، طرحت عليه سؤالين وأملت عليه شرطاً. كان السؤالان متعلقين بأمور مثل: كيف سيتحمّلان النفقات التي تتطلبها الحملة؟ وما أثرها على حياتهما الأسرية؟ أما الشرط فكان: أن يقلع عن التدخين. وأمر التدخين متعلق بتجربة شخصية مرّت بها ميشيل؛ فعندما كانت هي وكريج طفلين، وكان والداهما يدخنان، كانت تقوم هي وأخوها بتفريغ سجائر والديهما من التبغ ووضعها في الصلصة الحارة. والإقلاع عن التدخين يصب في مصلحة أسرتهما، وخاصةً في مصلحة ماليا التي تعاني الربو، مع أن ميشيل تقول إن زوجها لا يدخن أبداً أمام ابنتيه. غير أن الأهم من هذا هو أن ترك هذه العادة يتعلق بمسألة القدوة الحسنة. فبحسب ما أخبرت ميشيل صحيفة «شيكاغو تريبيون»: <sup>77</sup> «في رأيي هذا الأمر يتعلق بمسألة القدوة الحسنة. فالمرء يجب ألا يجمع بين عادة التدخين وشغل منصب الرئاسة.» (قال باراك في برنامج «ذي إلين ديجينيريس شو»<sup>78</sup> إن أحد الأسباب التي جعلت محاولة الإقلاع عن التدخين تتكلل بالنجاح هو علكة النيكوريت. وقال: «ظللتُ أمضغ لبان النيكوريت الذي يشبه طعمه طعم الفلفل المطحون، لكنه ساعدني مساعداً كبيرة.» أيضاً اعترف بفضل زوجته في أنها حثته على هذا، وقال لإلين: «ما هذا إلا أحد الأمثلة على أن زوجتي تجعلني أغيّر للأحسن.»)

وقد تحدّث باراك بحماس عن أهمية أن يكون الآباء قدوة لأبنائهم، وهذه رسالة مؤثرة جداً، خاصة أنها صادرة من رجلٍ هجره أبوه هجراً تاماً منذ أن كان في الثانية

أنت وأنا (معاً نستطيع أن نواجه العالم)

من عمره. وقد قال مرارًا وتكرارًا إنه عاش الواقع الأليم الذي يعيشه من يَنْشُتُون بلا أب، وكتب عن هذا في كلِّ من «أحلام من أبي»، و«جرأة الأمل». <sup>79</sup> بل إن موضوع كتاب «أحلام من أبي» يدور حول محاولته أن يشكِّل هُويَّةً لنفسه رغم غياب والده من حياته.

وفي الرسالة التي بعث بها في خطبة، صارت مشهورة الآن، وجَّهها لحشدٍ معظمه من السود في كنيسة شيكاغو في يوم عيد الأب عام ٢٠٠٥م، طالب باراك الآباء في المجتمع الأفروأمريكي الذي ينتمي هو إليه بأن يكونوا قدوةً حسنة لأبنائهم وأن يتحمَّلوا مسئولية أفعالهم وأن يتصرَّفوا كما يتصرف «الرجال الناضجون».

وقال في الخطبة التي ألقاها في ١٩ يونيو من عام ٢٠٠٥م في كنيسة «كرايست يونيفرسال تمبل» في مدينة شيكاغو: «كثيرٌ من الأشخاص والإخوان الذين يسرون حولنا يبدون في هيئة رجال. فهم طوال القامة ولهم شوارب، وربما يكونون قد أنجبوا طفلًا. لكني لا أراهم رجالًا ناضجين.»

وواصل حديثه قائلاً إن كثيرًا من الآباء «ينشغلون بأمورٍ تافهة»، و«يصبُّون اهتمامهم على رغباتهم الخاصة أكثر مما يهتمُّون بمصلحة الآخرين» حائثًا الآباء على أن يطمحوا لبلوغ العُلا. وقال: «إن كنا نريد أن يكون لأبنائنا آمالٌ عريضة، فعلينا نحن أن يكون لنا آمال عريضة.» <sup>80</sup>

وألقى أوباما خطبةً مماثلة في يوم عيد الأب أثناء الانتخابات الرئاسية داعيًا المتعبدين في كنيسة أفروأمريكية أخرى في المنطقة الجنوبية من شيكاغو أن يتولَّوا مسئولية حياتهم وأبنائهم. وبعد أن أقرَّ بأن هناك حاجةً إلى زيادة الوظائف والفرص قال: «أيضًا نحتاج إلى أسرٍ تربِّي أبناءنا. نحتاج إلى آباء يدركون أن المسئولية لا تنتهي عند مرحلة الإنجاب. نحتاج إلى أن يدركوا أن معنى الرجولة لا يتلخَّص في القدرة على الإنجاب. الشجاعة تتمثل في القدرة على تربية الأبناء.» <sup>81</sup>

وفي الخطبة التي ألقاها في كنيسة «أبوستوليك تشرتش أوف جود» في ١٥ يونيو عام ٢٠٠٨م، تحدث عن أهمية الأسرة، وقد أدرك أوباما مدى أهميتها عندما كان ابنًا وعندما أصبح أبًا. قال: «من بين جميع الدعائم التي نوَّسَّس عليها حياتنا، علينا أن نتذكَّر اليوم أن الأسرة هي الأكثر أهمية. وعلينا أن ندرك مدى أهمية دور كل أبٍ في هذه المؤسسة وأن نقدر هذا الدور.»

وميشيل أيضًا كانت مهتمة بأن تتمثَّل قدوةً أنثويةً حسنة لابنتيها. ومع أن حياة زوجها السياسية كانت تعني أن عليها أن تُحجِّم طموحاتها المهنية لبعض الوقت على

الأقل، فإنها كانت تؤمن بأنه من المهم جداً أن تظل لها حياة مهنية واعدة. (عندما زادت حاجة جولات الدعاية الانتخابية إليها خفّضت عدد ساعات عملها في المستشفى بنسبة ٢٠٪ حتى يتسنى لها المساعدة في أمور الحملة، وقضاء وقتٍ مع ابنتيها لا تنشغل فيه بما سواهما، وهذا الشق الأخير ترفض التضحية به إطلاقاً. وعندما زادت أعباء الحملة الانتخابية زيادةً لا تُحتمل، أخذت إجازة بدون راتب من العمل.)

وقالت في حوارٍ أجراه معها ديفيد ميندل إنها تخاف من أنها قد تُضطر لأن تصبح المصدر الوحيد للدعم المادي والمعنوي لابنتيهما إن أصاب زوجها مكروه. وميشيل هي بالتأكيد شخصية عملية واقعية تؤمن بالدروس التي علّمها لها أبوها وهي صغيرة، تلك الدروس الخاصة بالإصرار، وبتحمّل المسؤولية، والاعتماد على الذات. أيضاً هي تعلم أنها ستجد من يتعاطف معها ويدعمها إن وقع مكروه، لكنها تترك في الوقت نفسه أن الحفاظ على حياتها المهنية أمرٌ لا غنى عنه، ليس فقط لأنها تُحبها، بل أيضاً لأنها سبيل يمكنها من الاستمرار في رعاية ابنتيهما.<sup>82</sup>

وهذا يقودنا إلى آخر مفتاح من مفاتيح السعادة، وربما يكون أهمها جميعاً، ألا وهو: الابتنان.

فبارك وميشيل يريان أن ماليا وساشا هما الحبل الغليظ الذي يربطهما والجزر الذي يحافظ على رسوخهما في الأرض. وفي كتاب «جرأة الأمل»، حكى بارك عن إحدى الليالي التي أمضاها في بيته في مدينة شيكاغو؛ إذ صعد إلى الطابق العلوي ليغطي ابنتيه في الفراش. وكان قد عاد إلى البيت بعد أن ألقى خطبة في مدينة بيرمينجهام بولاية ألاباما في الناحية المقابلة للكنيسة التي فقدت فيها أربع بناتٍ صغيرات حياتهن عام ١٩٦٣م، إثر انفجار قنبلة زرعها عنصر يون بيض. كان يفكر في هؤلاء البنات الأربع وفي أمه التي كان قد فقدّها منذ وقتٍ ليس ببعيد إثر إصابتها بالسرطان، ثم جال بخاطره حوارٌ دار بينه وبين صغرى بناته. فقد قالت له ساشا إنها لا تريد أن تموت، فقال لها والدها إنه لا يزال أمامها وقتٌ طويل قبل أن تبدأ في التفكير في هذا الأمر.

لكن في تلك الليلة سأل نفسه أيضاً إن كان يجب عليه أن يصدّقها القول ويخبرها بأنه لا يعلم ما سيحدث بعد أن نموت علم اليقين، مثلما لا يعلم أين الرّوح؟ وكيف كان حال الكون قبل الانفجار العظيم؟ وبينما هو يصعد السلم، فكر فيما كان يأمل في حدوثه، ألا وهو «أن تكون أُمي مع هاتين البنّتين الصغيرتين على نحوٍ ما، وتكون قادرة على احتضانهما، وإدخال السعادة على قلوبهما.»

أنت وأنا (معاً نستطيع أن نواجه العالم)

لكن الأمر الوحيد الذي لم تساوره الشكوك بشأنه هو أنه كان يشعر وكأنه في الجنة وهو يغطّي ابنتيه في تلك الليلة، حسبما كتب.<sup>83</sup> أما على الصعيد الدنيوي، فإن ماليا وساشا يساعدان والديهما على تحديد هويتهما. ففي إحدى المحطات الانتخابية في وسط ولاية أوهايو، تحدث الزوجان إلى خمسين من الطلاب الجامعيين في مدينة كولومبوس حيث قدّمهما الحاكم تد ستريكلانداً قائلاً إنهما زوجان خارقان، لكن ميشيل غيرت هذا اللقب قائلة إنها هي وزوجها يريان نفسيهما والدين خارقين.<sup>84</sup>

وكذلك فإن الابنتين تمثلان معياراً لقياس سير الأمور في جولات الدعاية الانتخابية. فعندما سُئلت ميشيل كيف يخلقان جوّاً إيجابياً في البيت في حين أن باراك المرشح الرئاسي، وميشيل زوجة المرشح الرئاسي، يخضعان لمراقبة شديدة في وسائل الإعلام وأحياناً ما تُوجّه إليهما الانتقادات؟ أجابت إنهما دائماً ما يراقبان ردود أفعال ماليا وساشا. «ابنتاي تفضّلان مشاهدة مسلسل «سبونج بوب» عن مشاهدة قناة «سي إن إن»؛ لذا فإن الحفاظ على الجو الإيجابي في البيت أمرٌ سهل، لكن أنا وباراك دائماً ما نتحقّق من أنهما لا تزالان بخير.»<sup>85</sup>

والفتاتان تساعدانهما في الحفاظ على ترتيب أولوياتهما؛ فعندما انتقل باراك إلى واشنطن ليمارس مهام منصبه في مجلس الشيوخ الأمريكي، اختارت ميشيل، ومعها الفتاتان، أن تبقى في مدينة شيكاغو. وعلى الرغم من النصائح التي يتطلّبها هذا القرار فإن والديين ارتاحا إليه لأنه الأفضل أثراً على البنّتين، قالت ميشيل عام ٢٠٠٥م: «كان قرارنا بالبقاء في مدينة شيكاغو، والاستقرار هناك، قراراً صائباً؛ ولذا فإنه حافظ على استقرار أسرتنا. فلم يتبع هذا حدوث تغيير كبير في حياتي وحياة البنّتين. صحيح أنه أصبح يتنقل كثيراً الآن، لكنه هو الأكثر نضجاً. وهو عضو مجلس الشيوخ. ويستطيع أن يتعايش مع هذا. وقد ساعد هذا كثيراً في الحفاظ على استقرارنا.»<sup>86</sup>

ومع أن ماليا وساشا كانتا تظهران مع والديهما من حين لآخر في اللقاءات والجولات الخاصة بالحملة الانتخابية، وظهرتا في حوارٍ تلفزيوني بارز، وحضرتا الخطب التي أُلقيت في المؤتمرات، لكن في الغالبية العظمى من الأحيان كانتا تسيران وفقاً لبرنامجهما المعتاد في مدينة شيكاغو أثناء احتدام معركة الانتخابات الرئاسية الطويلة والعصيبة. في البداية كانت ميشيل تقضي يوماً أو يومين في جولات الدعاية الانتخابية لكن بعدما احتدمت المعركة الانتخابية وازدادت أهمية وجودها أصبحت تقضي وقتاً أطول بعيداً عن

المنزل. وعلى الرغم من هذا فقد كانت تحاول أن تعود إلى البيت في معظم الليالي لتكون في صحبة البنّتين، وكذلك كان باراك يحاول أن يبقى في صحبتهما لأكثر وقتٍ ممكن، فكان يذهب إليهما في بعض عطلات نهاية الأسبوع وفي المناسبات الخاصة مثل اللقاءات بين المدرّسين والآباء، ويوم عيد الحب، ويوم عيد الأم وفي أعياد الميلاد.

وهناك مفارقة في الأمر؛ فرغم أن قرار باراك بالترشّح للرئاسة كان غالبًا ما يأخذه بعيدًا عن ابنتيه، على الأقل على مستوى مشاركتهما شؤون الحياة اليومية، فإن ميشيل وباراك قالوا إن هذا ما دفعهما للمضي قدمًا في السعي المضني خلف الوصول إلى البيت الأبيض.

جاء عيد ميلاد ماليا في الرابع من يوليو — الموافق لعيد الاستقلال — عام ٢٠٠٨م، فاجتمع كل أفراد الأسرة، وفيهم شقيقة باراك لأمه مايا سوتورو إنج وغيرها من الأقرباء، في مدينة بيوت بولاية مونتانا، للمشاركة في موكب الاحتفال بعيد الاستقلال والخروج في نزهة، وعُقد مؤتمرٌ سياسي يحتفلون أثناءه بعيد ميلاد ابنتيهما. وعندما ذهبت ميشيل إلى مكبر الصوت لتقدّم زوجها أثناء المؤتمر، بدأت حديثها بأن حثّت الحشد على غناء أغنية «عيد ميلاد سعيد» (وهذا أمرٌ أقرّت فيما بعدُ أنه أخرج صاحبة عيد الميلاد إحراجًا كبيرًا). ثم دارت ببصرها في الحشد المجتمع وقالت: إن «الصغار والأطفال الرائعين الموجودين في هذه الحديقة» هم مصدر الإلهام الذي يدفع زوجها إلى الترشّح للرئاسة على الرغم من جميع المشكلات التي جلبتها هذه الخطوة على أسرة أوباما.<sup>87</sup>

قالت: «السبب الذي يجعلني أقف هنا اليوم هو أنه إن كان يهتم بهذه البلاد نصف اهتمامه بابنتيه فإن الأمور ستسير على ما يُرام.»<sup>88</sup>

وقد بعثت ميشيل برسالة مشابهة في الخطبة التي ألقته أثناء المؤتمر حينما قالت: «أتي إلى هنا بصفتي أمًّا تُعد ابنتيها أهمّ ما في عالمها؛ فهما بمنزلة القلب من الجسد وهما أول ما أفكر فيه عندما أستيقظ في الصباح وآخر ما أفكر فيه وأنا ناهبة للنوم. ومستقبلهما، ومستقبل جميع أبنائنا، هو ما أراهن عليه في هذه الانتخابات.»<sup>89</sup>

ولنعدّ إلى ما حدث في مونتانا في الرابع من يوليو إذ أمضت ماليا وساشا اليوم في اللعب والضحك والاستمتاع. (أيضًا، حسبما علمنا فيما بعدُ، شاركتنا مع والديهما في حوارٍ أجراه معهن برنامج «أكسيس هوليوود». وسنتناول هذا بالتفصيل في الفصل القادم.) وكانتا تُقابَلان بالتهنّات وبعبارة «كل عام وأنتم بخير» أينما حلّتا، وهذا جعل باراك يبتسم محذرًا الحضور من أن يجعلوا ماليا تنهمك أكثر من اللازم في جوّ الحفلات.<sup>90</sup>

أنت وأنا (معاً نستطيع أن نواجه العالم)

قال والد الفتاة صاحبة عيد الميلاد والمرشح الرئاسي مازحاً: «فالألعاب النارية وجميع مظاهر الاحتفال لم تُعد لها وحدها»، فانفجر الحضور في الضحك.<sup>91</sup>

كل هذه الأجواء جديدة تماماً على الولايات المتحدة بما فيها من حديثٍ مرح يتسم بالبساطة والصرامة، والفريق المرح المكوّن من زوج وزوجة لا ينسيان أبداً أنهما أب وأم، وطفلتين هما ككل الأطفال: تعيشان حياة سعيدة يرفرف عليها الحب، وتُحبان اللعب، وتتسمان بأنه يسهُل إحراجهما، وبأنهما قادرتان على إثارة الحب في النفوس. وهذا الأمر لا يتعلق فقط بأنه قد مرّت سنوات طويلة منذ أن شهد هذا البلد رئيساً له أسرة سنُّ أفرادها صغيرة، وإنما بأن أسرة أوباما تقلب السلوكيات التي نتوقع أن نراها تصدر من أسرة الرئيس رأساً على عقب.

ففي الغالب كان نموذج أسرة الرئيس الذي رأيناه في السنوات الأخيرة — إن لم يكن على مر العصور جميعها — نموذجاً تقليدياً؛ فقد كنا نرى أمامنا الرئيس الزوج والسيدة الأولى الزوجة التي تدعم زوجها وتُحبه ودائماً ما تُشد من أزره، بالمعنى المجازي والحرفي للكلمة. فقد رأينا الابتسامة المفتحة على وجه لورا بوش، ورأينا نظرة الحب في عيني نانسي ريجان، ورأينا الابتسامة المتحيّرة على وجه باربارا بوش ورأينا مواقفها القوية، ورأينا الدعم القوي المخلص الذي منحتَه هيلاري كلينتون لزوجها (مع أنها تُصر على أنها ليست نموذج المرأة التي تقف وراء زوجها، الذي دعت إليه المغنية تامي وينيت في إحدى أغنياتها).<sup>92</sup>

أما عن أبناء رؤساء الجمهورية الذين عاشوا في البيت الأبيض حديثاً، فإننا لم نرَ على الإطلاق ابنتي بوش التوأمين باربارا وجينا، بل قرأنا عن عثراتهما وعن الكليات التي كانتا ستلتحقان بها، وعندما حان وقت الزواج علمنا أنهما ستتزوجان وعلمنا من اللذان ستتزوجانهما. (بل إن جينا قالت في حوار أُجري عام ٢٠٠٨م إنها لم تُعد البيت الأبيض «بيتاً»؛ ولذا اختارت أن تقيم حفل زفافها في بيتها «الحقيقي»، في ضيعة الأسرة في بلدة كروفورد بولاية تكساس، فلم يُقم لها حفل كالذي أقيم لتريشيا نيكسون في البيت الأبيض).<sup>93</sup>

ورأينا تشيلسي كلينتون تكبر أمام أعيننا تقريباً، لكنّ الصورتين اللتين نتذكرهما لها هما صورة الفتاة الهادئة ذات الشعر المموج التي تبسم في حياء وهي بجوار والديها، وصورة الفتاة المراهقة وهي تمشي بين والديها وكلّ منهما ممسك بإحدى يديها وهي تبدو كالرابط (أم مانع التصادم؟) بين والدها ووالدتها في مديّة عصبية جداً من زواجهما. وهذه الصورة هي أكثر الصور الراسخة في أذهاننا لها. وبالطبع نتذكّر كارولين كينيدي

تلعب تحت مكتب والدها، وجون جون الصغير البريء وهو يُشيع جنازة والده كينيدي. وبتذكّر أمي كارتر بشكلها الذي كانت عليه حين دخلت البيت الأبيض وهي في التاسعة من عمرها إذ كان بوجهها نمش وكان شعرها أشقر يميل للاحمرار. ورأيانها تكبر وتلعب ثم رأيانها مرة أخرى بعد هذا بسنوات عندما أصبح لها رأيانها السياسي الخاص بها.

غير أن نموذج أسرة أوباما مختلف تمامًا. فكم مرة سمعنا سيدة أولى تشتكي من أن رائحة نفس زوجها أحيانًا ما تكون سيئة في الصباح؟ ومن أنه ينسى أن يضع جواربه في موضعها؟ ومن أنه يجب ألا يكون هناك مانع من أن يُلقى بصندوق مخلفات القطة؟ وتقول إنها سترحبّ بترشيحه للرئاسة شريطة أن يكف عن التدخين؟

وكم مرة يرى المرء مرشحًا رئاسيًا يضحك على مثل هذه التعليقات التي تفوّهت بها زوجته، ويعترف علنًا بنقاط ضعفه بأسلوبٍ يجمع بين نقد الذات والمرح؟ كم مرة سمع فيها المرء رجلًا يعمل في أي مستوى من مستويات السياسة يُقر بأنه «في النهاية، مجرد رجل»؟

متى كانت آخر مرة رأينا فيها الرئيس وقرينته — أو الرئيس المرتقب وقرينته — يضعان كرسييهما القابلين للطي في مباراة كرة قدم حتى يتسنّى لهما مشاهدة ابنتيهما وهما تلعبان ثم يمزحان بدفع أحدهما الآخر بالأيدي دفعًا خفيفًا وعدسات الكاميرات تصوّرهما؟ متى كانت آخر مرة رأينا فيها رئيسًا مرتقبًا وقرينته يغنيان أغنية «عيد ميلاد سعيد» لابنتهما في اجتماعٍ سياسي ويقولان لها ألا تغتري بنفسها؛ فهذا ليس عيد ميلادها وحدها إذ إن البلاد تحتفل بعيد ميلادها أيضًا؟

ومهما اختلفت الآراء، فإن العلاقة الزوجية التي تربط أوباما وقرينته علاقةٌ واقعية جدًا وعصرية جدًا في آن واحد. عندما يقدم باراك ميشيل يصفها بأنها «سكنه وملاذه» لأنها تُبقي قدميه راسختين، كما يقول.

وفيما يتعلق بنظرة ميشيل لباراك، فيبدو جليًا أنه يمثل لها طرف النقيض — فبطفولته التي قضاها في بلادٍ مختلفة، وبرغبته في أن يقحم نفسه في أمرٍ مهيب مثل الانتخابات الرئاسية بعد قضاء أربع سنواتٍ فقط في العمل في السياسة الداخلية، فإنه جعلها تعيش حياة «المغامرة والمخاطرة والسفر إلى البلاد الغريبة»، وتتمتع بأفقٍ أوسع من الأفق الذي كانت تسمح لنفسها بالعيش فيه، ذلك الأفق الذي تحدّث عنه في كتاب «جراًة الأمل». ويبدو أن ميشيل أوباما — السيدة الأولى — سعيدة بالمضي قدمًا في هذه الرحلة، إن لم تكن منبهرة تمامًا بها.

أنت وأنا (معًا نستطيع أن نواجه العالم)

ف ذات مرة قالت ميشيل في حوار: «لم يعدني باراك بالثراء بل وعدني بحياة ممتعة.  
وقد أوفى بهذا الوعد.»<sup>94</sup>



## الأمومة الوظيفية الأولى للسيدة الأولى

برنامج ميشيل أوباما كزوجة

لا أعرف طموحًا يسعى إليه الأب أنبل من طموح أن يصبح أبناؤه أفضل الرجال.

أفلاطون

صحيحٌ أن هذا الفيلسوف، الذي كثيرًا ما يقتبس الناس أقواله، أبدى هذا الرأي منذ أكثر من ٢٠٠٠ عام، لكن الأفكار الجيدة تتمتع بالقدرة على البقاء، وإن كنا في هذه الأيام ندخل الأمهات والبنات في إطار هذه العبارة. متى سُئلت ميشيل عن الأجندة التي ستسير عليها عندما تصبح سيدة أولى، تُجيب بأن العمل الذي يحتل المرتبة الأولى في قائمة أولوياتها هو ضمان أن ابنتيها، ماليا وساشا، تنالان العناية اللازمة. أو حسبما قالت في فبراير عام ٢٠٠٨م: «ضمان أن تكون حياة ابنتي على ما يُرام. يمكننا أن نتحدث عن الفكرة الرئانة الخاصة بالبرنامج السياسي للسيدة الأولى لكنني امرأة عاملةٌ عليّ أن أقوم بعملٍ إضافة إلى وظيفتي الأولى: وظيفة الأمومة.»<sup>1</sup>

إذن كيف تضمن الأم أن حياة ابنتيها تسير على ما يُرام في هذا العصر الذي لم يعد فيه ضابط للآباء، والآباء الذين كُنّرت مشاغلهم حتى تشتتت عقولهم؟ يتحقّق هذا عن طريق الجمع بين النظام التقليدي الجيد، ووضع الحدود، والحضور الدائم (بالنفس لا بالمال فحسب) في حياة الأبناء، وإحاطتهما بالحب. وحسبما قالت ميشيل نفسها، فإنها وجدّت قدوةً حسنة في والدتها.

قال أخوها كريج: «إنها أمينةٌ جدًّا، ومنضبطةٌ جدًّا. وابنتاها رائعتان لأنها ربّنتهما بالطريقة نفسها التي ربّنا بها والداي.»<sup>2</sup>

وكان هذا يعني فرض مجموعة صارمة من القواعد على ماليا وساشا. القاعدة الأولى التي يجب أن تتبعها هي: «ممنوعُ الشكوى والشجار والمضايقات المزعجة»، هذا وَفَقًا لقائمة القواعد التي تسير عليها الأسرة، والتي ظهرت في مجلة «بيبول» في الصيف، إلى جانب حوار أجري معهما، ونشرت المجلة أيضًا صورًا التُقطت حديثًا لهذه الأسرة التي من المرتقب أن تسكن البيت الأبيض، والتي يبدو أفرادها شديدي الجاذبية في الصور التي التُقطت لهم في بيتهم بشيكاغو وفي الشارع.<sup>3</sup>

ومن القواعد الأخرى أن البنّتين يجب أن تُرتبًا سريزيهما يوميًا، ليس شرطًا أن يكونا في صورة مُثلى لكن يجب على الأقل أن تفرشا الغطاء على الفراش. أيضًا، تضبط الفتاتان منبّههما وتستيقظان وترتديان ملابسهما بمفردهما. وإذا ما قامتا بهذا — إلى جانب إعداد مائدة العشاء وتنظيفها، وترتيب لُعبهما، والخلود إلى النوم في الوقت المحدد، وهو الثامنة والنصف — فإنهما تحصّلان على مصروفٍ أسبوعي قدره دولار لكل منهما. (غير أن رب المال غالبًا ما يكون على سفر؛ لذا فإن المبلغ الذي تستحقانه أحيانًا ما يتعرّض للزيادة. إذ قال والد ماليا، المرشّح الرئاسي: «أغيب عن المدينة لمدة تصل إلى أسابيع في بعض الأحيان، وفي هذه الحالة تقول ماليا: «حسنًا، إنك مدين لي بمصروف عشرة أسابيع»».)<sup>4</sup>

أيضًا تعلمت ماليا وساشا من والديهما أن لكل شيء حدودًا. على سبيل المثال: بابا نويل يزورهم في عيد الميلاد محملاً بالهدايا، لكنّ والديّن لا يعطيان ابنتيهما هدايا إضافية. ولهذا ميزة إضافية؛ إذ إنه يساعد البنّتين على تقوية إيمانهما. فحسبما قالت ميشيل لمجلة «بيبول»: «ماليا تقول: أعرف أن هناك بابا نويل لأنه من المستحيل أن تشتريا لي كل هذه الهدايا». وكذلك لا تحصّل الفتاتان على هدايا في عيد ميلاديهما من والديهما؛ إذ إنهما تنفقان «مئات» الدولارات على حفلات عيد الميلاد، وتدعوان الضيوف إلى المبيت عندهم بعدها. وكما يقول والدهما فإن عليهما أن تعلمتا أن لكل شيء حدودًا.<sup>5</sup>

ومثلما كان حال والديهما وخالهما عندما كانا صغيرين، فإن ماليا وساشا تتلقّيان تشجيعًا على أن تطرحا الأسئلة وتعبّرا عن آرائهما. قالت ميشيل لمجلة «بيبول»: «ابنتاي تُحبان الكلام، وتشعران بالثقة بآرائهما لأننا نقدّر هذه الآراء وإن كانت سخيفة أو خاطئة أو غريبة».<sup>6</sup> هل تدكّرون النصيحة التي أسدتها والدة ميشيل إلى ابنتها وابنها الأكبر كريج عندما كانا طفلين؟ نصيحة من قبيل: «احرصا على احترام أساتذتكما لكن لا تتردّدا في طرح الأسئلة عليهما».

أيضًا تعتني الأسرة بالتربية الرياضية والأنشطة. فماليا ترقص وتلعب كرة القدم وتمثّل في المسرح، وساشا تمارس الجمباز ورقص الكلايكيت، وكتاهما تعزفان على البيانو

وتلعبان التنس. (ووالدهما يمثلان القدوة لهما في القيام بهذا السلوك النشط؛ فأتثناء الحملة الانتخابية حاولت ميشيل أن تمارس التمرينات الرياضية من ثلاث إلى أربع مرات أسبوعياً تقوم فيها بتمرينات مفيدة للقلب وللحفاظ على الوزن. وكثيراً ما شُهد المرشح نفسه متوجّهاً لقاعة الألعاب الرياضية ليرفع الأثقال، أو ليلعب كرة السلة، مما أثار مختلف التكهّنات حول مهارته في قذف كرة السلة بيد واحدة، ومهارته في إحراز الأهداف من مسافات بعيدة. بل إنك تجد بعض التخمينات حول أسلوبه في ممارسة الرياضة في الكثير من المدونات. وفي مدونة عنوانها «تدرّب كالمحاربين»، تدّعي أنها تتناول موضوع التمرينات الرياضية التي يقوم بها «اللاعبون الرياضيون والجنود المشهورون» افترضت أن برنامجها الرياضي «يتكون من مجموعة من الأنشطة التالية: رفع الأثقال، ولعب كرة السلة، والجري، والسباحة، والابتسام والتلويح.»<sup>7</sup>

ويبدو أن ميشيل تستمتع حقاً بإيصال ابنتيها إلى الأماكن التي تمارسان فيها أنشطتهما المختلفة. ففي حوارٍ أجرته معها صحيفة «يو إس إيه توداي»، سُئلت: كيف تسترخين؟ تُرى بِمِ أجابت؟ أجابت بأن الاسترخاء بالنسبة لها يعني أن تصطحب ابنتيها إلى مباريات وتمارين الكرة والتنس والسباحة وغيرها من الألعاب، ولقاءاتهما المسرحية. قالت: «هذا يجعلني أشعر بالاسترخاء، وأنا غالباً ما أقوم بهذا في صحبة أمهات أخريات كن صديقاتي وتبادل الحديث ويعرف بعضنا أخبار بعض ونشاهد الأطفال وهم يلعبون.»<sup>8</sup> ولا شك في أن ميشيل قامت بمهمة رائعة إلى الآن. فقد قالت إيفون دافيللا — وهي صديقة عمر ميشيل، وأطفالها من أقرب أصدقاء ابنتي أوباما — في حوارٍ أجرته معها قناة «إيه بي سي نيوز» في يوليو عام ٢٠٠٨م: «إنها أمٌ رائعة، وهاتان البنتان وصلتا إلى درجة رائعة من النضج وتنعمان بدفء الحب.»<sup>9</sup> وإيفون هي إحدى الأمهات اللاتي يعاونن ميشيل في القيام بمسئوليات الأمومة؛ فهي من الأفراد المشتركين في نظام الرعاية غير الرسمي الذي قالت ميشيل إنه يجعل الوفاء بجدولها المزدحم ممكناً.

أيضاً نالت ميشيل مدح زوجها على صعيد رعاية البنّتين. فقد قال باراك لمجلة «يو إس ويكلي»:<sup>10</sup> «ميشيل أمٌ رائعة لابنتينا، عندما بدأنا هذه الحملة، كنا نريد أن نضمن أن حياة البنّتين ستظل طبيعية بقدر المستطاع، ويرجع الفضل إلى ميشيل في أنهما ناضجتان. لا شيء أكبر أهمية لميشيل من أن تكون أمّاً صالحة، وهي دائماً ما تجتهد من أجل أن تغرس في ابنتينا القيم نفسها التي تربيّنا عليها.»

وبالتأكيد ما رأيناه من سلوك الفتاتين في الحملة يؤكّد صحة القول بأن أهمها تقوم بدورها جيداً. في معظم الوقت كانت ماليا وساشا تظلان وراء الستار، لكن من حين

لآخر كنا نشاهد فتاتين صغيرتين جميلتين تلوّحان لنا وتبتسمان (وأحياناً ما تتجهمان أو تتثاءبان) من فوق المنصة أثناء مؤتمر انتخابي، أو تظهران من السيارة وهما في الطريق إلى إحدى فعاليات الحملة الانتخابية التي نادراً ما تحضّرانها. ومثل معظم أبناء الأشخاص الذين كانوا رؤساء مرتقبين في المدة الأخيرة، فقد ظلت حياة الفتاتين هادئة وبعيدة عن كل ما يحدث أمام الكاميرات. لذا علينا أن نصدّق ما يقوله الآخرون عن أن ابنتي أوباما ناضجتان وبسيطتان تماماً، وأنهما من جميع النواحي تُشبهان جميع الفتيات الصغيرات اللاتي يلعبن الكرة، ويعزفن على البيانو، ويُحبين مسلسل «هانا مونتانا» وفرقة جونا س براذرز.

ثم جاء ذلك اليوم من شهر يوليو — وتحديداً الرابع من يوليو، يوم ميلاد البلاد وميلاد كبرى ابنتي أسرة أوباما — عندما قُدمت الفتاتان للناس في هذه الأجواء الاحتفالية. قالت حملة أوباما وبرنامج «أكسيس هوليوود» إنه لم يكن من المخطّط أن يحدث هذا، لكنه حدث ووصلت للعالم صورة حقيقية عن الأسرة التي من المرتقب أن تسكن البيت الأبيض، وفي عصرنا هذا الذي تُبثُّ فيه المعلومات على مدار الساعة، يمكن أن تُشاهد هذه الصورة مراراً وتكراراً، وليلَ نهارَ على شاشة التلفاز وعبر الإنترنت.

واللقاء الذي كان من المخطّط أن تديره ماريا مينونوس مراسلة برنامج «أكسيس هوليوود»، كان من المزمع أساساً أن يستضيف والديّن فقط أثناء احتفال الأسرة بهذه المناسبة في مدينة بيوت بولاية مونتانا. لكنّ ماريا والفتاتين قضين بعض الوقت معاً وهن في انتظار بدء التصوير، وانخرطن في الحديث عن الاهتمامات المشتركة مثل فرقة جونا س براذرز (يبدو أن ماريا كانت قد أجرت معها حواراً في مدة الانتظار هذه). وعندما حان وقت بدء الحوار جلست الفتاتان بجوار والديهما، وعلى الفور ثبّت المخرجون مكبرات الصوت.

وقال روب سيلفرستون المنتج المنفذ للبرنامج: «كان يسود الجوُّ تلقائياً شديدة، وكان هذا اللقاء من اللقاءات الرائعة النادرة.»<sup>11</sup>

ما الذي عرّفناه من هذا اللقاء؟ عرّفنا أن الفتاتين تتمتعان باللباقة بقدر ما تتمتعان بالقدرة على إثارة حب الناس لهما (وأنهما تبدوان جذابتين على شاشة التلفاز بقدر ما تبدوان جذابتين في الصور). وعرّفنا أنهما تبدوان ناضجتين مثلما قال الناس تماماً. وعرّفنا أن علاقتهما الأسرية أيضاً تتسم بالتلقائية والبساطة وأنها تقليدية، وأن العلاقة بين هذين الوالدين وابنتيهما قوية ويسودها الود تماماً مثل العلاقة بين باراك الزوج وزوجته.

ومع أن باراك أوباما أعرب عن ندمه على اضطرابه ألا يقضي الكثير من الوقت مع ابنتيه بسبب المهنة التي اختارها، فيبدو أن العلاقة بينه وبين ابنتيه طبيعية تمامًا مثل العلاقة بين أي أب وابنتيه. ومثل معظم الآباء فإنه أحيانًا ما يتسبب في إحراج ابنتيه. وأثناء اللقاء حكّت ماليا عن موقفٍ حدث ذات مرة عندما جاءت إحدى صديقاتها لتلعب معها في المنزل. قام والدها المرشح بما يقوم به طوال الوقت أثناء العمل ومدّ يده ليصافحها. وأضافت ماليا أنها شعرت أنها مضطرة لأن تُعطي والدها درسًا في آداب التعامل مع الأطفال. وحكّت أنها قالت له: «هل تعلم يا أبي أننا يجب ألا نصافح الأطفال كثيرًا، وإنما نصافح الكبار». فقال: «إذن كيف أتصرّف عندما أقابل طفلًا؟» قالت: «فقط تلوّح بيدك أو تقول «أهلاً»».<sup>12</sup>

وكان للسيئاتور أوباما تعقيبٌ على هذا الموقف. فقد قال: «إنها تتجنّب إحراجي لها في الأساس عن طريق إعطائي هذه النصائح. ولا سيما عندما أكون بين أصدقائها.» ومع أن باراك هو الرئيس القادم للبلاد فإنه أحيانًا ما يفعل أشياء مزعجة لابنتيه. ومن ذلك مثلًا أنه معتاد أن يرمي حقيبته بجوار الباب مباشرة وهو داخل إلى المنزل في مكانٍ يمكن أن يتعثّر فيه أفراد أسرته. قال والدهما، المرشح الشجاع: «هذا صحيح، أنا أضعها على الأرض بسبب أنني أكون سعيدًا جدًّا بعودتي إلى البيت وبرؤيتهن.» وإلى الآن لا يزال يرميها بجوار الباب.

أضافت الصغيرة ساشا، التي كانت تترك دفة الحديث لوالديها وماليا طوال الوقت: «على حذائي!»

علمنا أيضًا أن والدهما لا يُحب الحلوى كثيرًا، ومع أن ابنتيه تجدان هذا غريبًا، فإن هذا الأمر يساعد في تفسير كيف يحافظ على رشاقته في حين أن وزن المرشحين الآخرين يميل إلى الازدياد أثناء الحملات الانتخابية الطويلة والمرهقة. (وربما يعود هذا أيضًا إلى إيمانه القوي بالرياضة.)

وقد علمنا بكراهية السيئاتور أوباما للحلوى عندما بدأت ساشا، التي كانت في السابعة من عمرها، تملُّ الجلوس في صمت والاستماع لكل هذا الحديث أثناء اللقاء، مثلما يفعل كلُّ مَنْ هم في مثل سنّها. وفجأة، وأثناء دوران الكاميرا التفتت إلى والدتها وقالت: «أمي، متى سنأكل آيس كريم؟»

فأجابت ماليا (بتلقائية وبسعادة واضحة، مثلما تفعل أية فتاة في العاشرة يُحتمل أن تتناول الآيس كريم): «هل سنأكل آيس كريم؟ الآيس كريم هو طعامي المفضّل. أتمنى أن أتناوله للأبد.»

فقالت ساشا الصغيرة: «الطبيعي أن يحبَّ الجميع الآيس كريم. إلا أبي. أبي لا يُحب الحلوى.»

حينها شعر المرشَّح أن عليه أن يعترف. فقال: «لستُ من المولعين بالحلوى»، مع أنه أشار هو وماليا إلى أنه يضعُّف أمام بعض أصناف الحلوى خاصة قرع العسل. (على الأرجح أن هذه لم تكن مفاجأةً كبيرةً لمن تابع الحملة الانتخابية، إذ وردت أخبارٌ من قبلُ عن العادات الغذائية «الصارمة» للسيناتور. وفيما أُطلق عليه فيما بعدُ «لحظة الجرجير»، قال أوباما أثناء زيارة محل «هول فودز» في الأيام الأولى لحملة الانتخابية إنه لا يستطيع أن يصدِّق مدى ارتفاع سعر الجرجير. وقد رأى البعض أن طريقة تعامل أوباما مع سعر الجرجير جعلته يبدو منعزلاً عن رجل الشارع، مثلما بدا جورج بوش الأب عندما أظهر نهبه من وجود المساحات الضوئية في محلات البقالة عام ١٩٩٢م.)

أيضاً كشفت ساشا عن أن والدها يفضِّل اللبان بطعم النعناع عن اللبان الذي يسهل تحويله إلى فقاعات، وحينها شعر والدها أن عليه القيام باعترافٍ آخر: «حسناً، ذوقي في اللبان تقليدي بعض الشيء.»

ويبدو أنه ليس مولعاً أيضاً بشراء الملابس. فقد استمتعت كل من تنتمي إلى الجنس اللطيف في البيت بالسخرية قليلاً من رجل البيت إذ أشرن إلى أن البنطال الذي يرتديه «عمره عشر سنواتٍ تقريباً»، ورجون المصورين ألا يصوروا حذاءه أو حزامه. (وحقيقة أنه لا يحبُّ التسوق قد تُفاجئ عالم الموضة الذي مدح ذوق أوباما في اختيار ملابسه. فقد وضعت مجلة «إسكواير» اسمه في القائمة التي تُعدها لأكثر الرجال أناقة عن عام ٢٠٠٧م، وظهر على غلاف مجلة «جي كيو».)

وفي لحظةٍ بعثت إلى تأمل الذات سُئلت الفتاتان عن الأمور التي تفعلنها ويكرهها والداهما، فأجابتا: «الشكوى.» ثم بعد مزيدٍ من التفكير أضافت ماليا: «الشجار هو الأسوأ لأنه يجعل والدينا يطلبان منا الجلوس، ثم يقولان لنا: «تعلمان أن كلاً منكما ليس لديها أغلى من أختها. والحياة لم تمنحنا شيئاً أفضل من علاقتنا بعضنا ببعض.»»

(هل تتذكرون القاعدة الأولى؟)

وأثناء اللقاء دار حديثٌ عن أنهما أحياناً عندما تذهبان مع والديهما في جولات الدعاية الانتخابية فإنهما تُحضران معهما ألعاباً مثل مسدسات المياه حتى يسعدا باللعب في أوقات الاستراحة.

قالت ميشيل بأسلوبها المستفز الذي اشتهرت به: «هذا أفضل كثيراً من الاستماع لحديث والدهما.» عندها رفعت الصغيرة ساشا يديها وفتحت قبضة يدها ثم أغلقتها وهي تقول: «كلام كلام كلام.»

قال والد ساشا: «عادةً ما يغربون عن وجهي عندما [أبدأ الكلام]»، وهو من شُبّهت موهبته في الخطابة بموهبة جون كينيدي وأبراهام لينكولن. لكن يبدو أن هذه الموهبة تحديداً لا تؤثر في الفتاتين إطلاقاً.

(في الحوار الذي أجرته راشيل راي في شهر أبريل، قال باراك إن ماليا وساشا «لا تنهران» بأداء والدَيْهما في معركة الانتخابات الرئاسية. قال: «عندما أتصل بهما وتقولان: «أبي، كيف قضيتَ يومك؟» فأقول: «تحدثتُ إلى ٣٥ ألف شخص.» تقولان: «هذا ممل، هذا ليس مثيراً.»»<sup>13</sup>)

وفي الحوار الذي أجره معهما برنامج «أكسيس هوليوود» أفترت ماليا بأنها تجد أن رؤية والدَيْها على أغلفة المجلات قد تكون أمراً جيداً لكنها تحرص على أن تجعلهما على علم بأنها ترى أنهما ليسا من المشاهير الحقيقيين، ليسا في مصافّ النجوم «المهمين فعلاً». وقالت ماليا متذكرة رداً فعلها عندما رأت صورة والدتها على صفحات جريدة أسبوعية شهيرة: «رأيتُ الجريدة وقلتُ: «يا إلهي، أُمي إن صورتك في الجريدة»، لأنني لم أرَ أبداً صورة أُمي في هذه الجريدة. وإنما عادةً ما أرى أناساً مثل أنجلينا جولي.»

قالت ميشيل: «أناساً مهمين فعلاً.»

وافقتها ماليا قائلة: «أناساً مهمين فعلاً»، ثم نظرت إلى والدتها وقالت مبتسمة: «لم أقصد شيئاً.»

وكشف لنا اللقاء عن المتعة التي تراها ماليا في احتمال العيش في البيت الأبيض. فقد قالت: «سيكون هذا رائعاً، وأروع ما فيه أنني سأعير زينة حجرتي.» وأخيراً، علمنا رد فعل البنّتين تجاه تلك اللحظات الخاصة التي تمر بعيداً عن الكاميرات عندما يتصرف باراك وميشيل كأبي زوج وزوجة. ماذا يكون شعور الفتاتين عندما تشهدان ما وصفه الآخرون بأنه «توافقٌ طبيعي» بين باراك وميشيل؟ وهل تُحبان رؤية والدَيْهما ممسكاً أحدهما بيد الآخر أو يحتضن أحدهما الآخر؟

قالت ماليا المرحة: «أحياناً عندما ندخل في مرحلة المراهقة يرى الناس أن هذا محرج. لكنني أحبُّ هذا.»

ثم عاد الاهتمام ينصب على الوالدين: كيف يجدان وقتاً للرومانسية رغم كل أعباء الحملة الانتخابية؟

قالت ميشيل ناظرةً إلى زوجها: «باراك رومانسي جداً. لقد أحضر لي وردًا منذ أيام ... إنه دائماً ما يجلب لي الورد.»

سُئلت ميشيل: «ما آخر لمسة رومانسية أضفتها لحياة زوجك؟» فصممت وفكّرت لبعض الوقت ثم قالت لزوجها: «أنا أعتني بابنتيك. هذا هو الحب.»

فأجاب المرشح الرئاسي: «هذا رومانسي جداً.» وبدا يعني ما يقوله حقاً.<sup>14</sup>

بعد أن بدأ بثُّ اللقاء الذي أجراه برنامج «أكسيس هوليوود» على شبكة الإنترنت وعلى شاشة التلفاز، صار هذا اللقاء محور حديث الناس. وكان ما أعجب المشاهدين في الأساس هو أن الفتاتين بدتا طبيعيتين وتلقائيتين جداً، وأنهما كانتا لبقتين وعميقتي التفكير جداً، وخاصة ماليا التي قال الكثيرون إنها بدت «أكبر من عمرها» كثيراً.

قال سيلفرستون المنتج المنفذ لبرنامج «أكسيس هوليوود»: «ماليا ذات السنوات العشر مختلفة عن جميع الأطفال الذين رأيتهم من قبل. فهي ذات مشاعر متوهّجة. وتبدو أكبر من سنّها كثيراً. كم من الممتع أن تستمع إلى هاتين الفتاتين وهما تتحدثان. إنك لا تتصور أن تجد شخصاً في العاشرة من عمره يتسم بهذا الاتزان، وهذا الذكاء، ويتمتع بحسن الأدب.»<sup>15</sup>

وقد علّق الناس على علاقتهم الأسرية التي يسودها السكن والحب والمرح في آن واحد؛ أي التي هي خير مثال للأسرة الأمريكية. خطر على بالي وصف باراك أوباما لبيت أسرة روبنسون. فعندما زار أسرة ميشيل كتب في كتاب «جراًة الأمل» يقول إن تجربة زيارة هذه الأسرة شبيهة بأن يحلّ المرء ضيفاً على ممثلي مسلسل «دع الأمر ليبر». ورؤية أسرة أوباما جعلتني أشعر بأنني أشاهد نموذجاً عصرياً من أسلوب حياة أسرة روبنسون هذا نفسه.

ولهذا اندهش البعض عندما قال باراك في برنامج «جود مورنينج أمريكا» الذي يُذاع على قناة «إيه بي سي»، بعد بث اللقاء الذي أجراه برنامج «أكسيس هوليوود» بأيام قليلة، إنه ندم هو وميشيل على أنهما جعلتا جميع أفراد الأسرة يشاركون في اللقاء. فقد قال إن الاستماع لبعض الأسئلة ولإجاباتها استوقفه قليلاً، وأضاف: «أظن أننا تمادينا قليلاً.»<sup>16</sup>

ولم يكن ما أزعج المرشح هو شيء جلل نتج عن اللقاء، وإنما خشي أن يكون هو وميشيل قد فتحا المجال أمام زيادة اهتمام الإعلام بابنتيهما الصغيرتين عن طريق السماح لوسائل الإعلام بأن تسبر أغوار أسرتهن لأول مرة. فقبل اللقاء الذي أجراه برنامج

«أكسيس هوليوود»، كان الزوجان قد أوضحا أنه يجب أن تبقى الفتاتان «بعيداً» عما يحدث إلى حدٍّ ما. هل سيغيّر اللقاء من الأمر شيئاً؟ ليس إن تدخل الزوجان. قال باراك في برنامج «جود مورنينج أمريكا»: «لا أرى أن هذا أمرٌ جيد، وستتجَنَّب حدوث مثل هذا في المستقبل.»

ومن الجدير بالاهتمام أن الزوجين شمالاً أبناء منافسيهما السياسيين بهذا الحرص على حماية الأطفال. فعندما أعلنت سارا بالين بعد ترشيحها لمنصب نائبة للرئيس أن ابنتها ذات السبعة عشر عاماً حامل، أعلن الزوجان على الفور أن أبناء الحاكمة بالين يمثلون خطأً أحمر. بل إن باراك أوباما قال إن أي عضو من أعضاء حملته سيثير هذا الموضوع بهدف تحقيق مكسبٍ سياسي سيفصل.

قالت ميشيل: «أحد الأسباب التي تجعلني فخورة جداً بزوجي وتجعلني أحبه هو أنه كان يشمل ابنتينا بالحماية القصوى طوال هذه العملية.»

وهو يؤمن بأن «الأشياء التي تصُب في مصلحة ابنتينا ستصب في مصلحة جميع الأطفال» وأنا أوافقهما تماماً. أعلم أنهما [تقصد سارا بالين وزوجها] يهتمان بأبنائهما، ويجب علينا أن نتركهما يتعاملان مع هذا الأمر حسبما يشاءان.<sup>17</sup>

لكن المدونات لم ترحم سارا وزوجها. وانتشرت رسائل البريد الإلكتروني منتقدة نفاق أعضاء اليمين المسيحي الذين ظلوا يعظون الناس بقيمة العفة طويلاً، لكنهم الآن يرون أن قرار بريستول بالين بالأ تَجَهُّصٌ طفلها، وأن تتزوج أباه، قرارٌ يستحق المدح. وسأل أصحاب المدونات: ماذا لو كانت ابنة ميشيل أوباما المراهقة هي من حملت؟ كيف كان سيصبح رد فعل المسيحيين المحافظين حينها؟

إن استطاع الزوجان أن يُبقيا ابنتيهما بعيداً عن وسائل الإعلام، فإنهما بهذا يسيران على نهج من سبقوهما من الرؤساء. فكلُّ من الرئيس بوش والرئيس كلينتون اتبعا سياسة الإبعاد في كل ما يتعلق بأبنائهما عندما انتقلا إلى البيت الأبيض، وفي الغالب كانت وسائل الإعلام تحترم هذا. لكنَّ هناك آخرين واجهوا بعض الصعاب من أجل تحقيق هذا. فيبدو أن الرئيس كينيدي وزوجته — وهما رباً الأسرة التي كثيراً ما تُقارَن بها أسرة أوباما — اختلفا فيما بينهما حول أي الأسلوبين أصح. فقد قيل إن جاكلين كينيدي كانت تعارض تصوير أبنائها معارضةً كبيرة، والصور المشهورة لكارولين وأخيها جون في المكتب البيضاوي التُقطت لهما أثناء غياب والدتهما عن المدينة.<sup>18</sup>

إلى الآن يبدو أن حياة ماليا وساشا لم تضطرب نهائياً بسبب اهتمام وسائل الإعلام أثناء الحملة، حتى بعد اللقاء التلفزيوني. وعندما تعرضت ميشيل في وقتٍ ما لهجوم

إعلامي، وعلمت ماليا بالأمر، ولكنها لم تأبه بهذا كثيرًا. قال والدهما: «عندما كان البعض يهاجمون ميشيل، سألت ماليا: «لم هذا؟» وناقشنا الأمر» وتجاهلت ابنته الهجوم، قال: «إنها واثقة تمامًا من روعة والدتها.»<sup>19</sup>

قال جو كيلى، أحد مؤسسي منظمة «دادز أند دوترز» التي تهتم بتقوية العلاقات بين الآباء وبناتهم، لصحيفة «شيكاغو تريبيون» إنه يرى أن باراك وزوجته يتعلمان أصول التربية مع مرور الأيام. وأضاف: «نحن نتعلم والأطفال يكبرون أمامنا، ونتعرف على شخصياتهم، ونعرف ما هو في مصلحتهم وما ليس كذلك.»<sup>20</sup>

لكن كان هناك آخرون أقل تسامحًا مع استعداد الزوجين لأن يجعلوا البنّتين تظهرا في وسائل الإعلام.

كتب، أندرو سوليفان المحرر بصحيفة «أتلانتيك»، الذي يشتهر بأنه من المحافظين ويصف نفسه أنه من مؤيدي أوباما، مقالًا بعنوان «عجرفة أوباما» انتقد فيه المرشح المرتقب وزوجته نقدًا لاذعًا قائلاً إن رأيهما في هذا كان خاطئًا. وقال: «من أروع الأمور في زواج باراك وميشيل الطريقة التي يبدو أنهما ريبا ابنتيهما عليها لتكونا فتاتين رائعتين جدًا»، هذا ما كتبه في مدونة «ذا ديلي ديش». وأضاف: «تقديمهما على هذا النحو للعامة كان رأيًا خاطئًا وسوء تربية.»<sup>21</sup> ويصف سوليفان الشهرة بأنها مثل «السم»، ويضيف أن الأطفال «من حقهم أن نحميمهم منها مثلما نحميمهم من الطلاء المحتوي على الرصاص.»<sup>22</sup>

مما لا شك فيه أن آخر ما كان يقصد فعله باراك وزوجته هو أن يُعرّضا ابنتيهما لـ «سُم» الشهرة. لكن مثلما يعرف جميع الآباء، فإننا لسنا معصومين من الخطأ، وإنما كلُّ ابن آدم خطأ. ومثلما أقول لأبنائي فإن أجمل ما في الأخطاء هو أننا نتعلم منها.

وبصفتي أمًا فإنني أستطيع بالتأكيد أن أقدر شعور باراك وزوجته في هذا اليوم الخاص؛ إذ كانا يريدان أن يجعلوا من عيد الميلاد العاشر لابنتهما الكبرى تجربة سعيدة لا تُنسى، وأيضًا أن يمنحا العامة فرصة التعرف على هذا المرشح في هذا اليوم القومي الخاص. كانا يحاولان أن يحققا ذلك التوازن بين الأسرة والعمل الذي كثيرًا ما تحدثت ميشيل عنه، والذي فهمه باراك عندما أصبح زوجًا وأبًا.

إحدى فقراتي المفضلة من كتاب «جرأة الأمل» هي الفقرة التي يظهر فيها تفهّم باراك للتوتر الذي عاشته ميشيل وهي تحاول أن تقوم بالمهام التي تتطلبها الأسرة، وتلك التي يتطلبها العمل في آنٍ واحد.

كتب يقول: «أدركت أن في ذهنها صورتين مختلفتين لنفسها كلُّ منهما تصارع الأخرى؛ فمن جهة هناك الرغبة في أن تسير على خطى أمها، أن تكون صلبة، يمكن

الاعتماد عليها، وأن تكون ربة بيت جيدة، وألا تكُف عن مد يد العون لأبنائها، ومن جهةٍ أخرى هناك الرغبة في أن تتميز في عملها وأن تترك بصمتها في هذا العالم وأن تحقق جميع الخطط التي كانت تحلم بها منذ أول يوم قابلتها فيه.»<sup>23</sup>

لا أظن أننا نبالغ حين نقول إن باراك، المرشح الرئاسي، عاش هو نفسه هذا الصراع في الرابع من يوليو — أو ربما في اليوم التالي، في الخامس من يوليو — عندما أدرك أن رغبته في «التميز في مهنته» ربما تكون قد تصادمت مع رغبته في أن يخلق مناخاً «قوياً» يمكن الاعتماد عليه» لابنتيه.

بوسعي أيضاً أن أتخيل أنني أعيش أسيرة هذه اللحظة؛ أن أقع في أسر سحر تميز أبنائي ورغبتني في أن أجعل الآخرين يرون هؤلاء الأطفال الرائعين المتميزين الفريدين الذين يمثلون مركز حياتي. وبوسعي أن أتخيل أنني أتخذ القرار نفسه الذي اتخذه باراك وميشيل ثم أندم عليه — على الأرجح — بعد هذا.

فكل أب وأم يشعران بالفخر بأبنائهم (وإن لم يراودهم هذا الشعور فإن هذا عادةً ما يكون وضعاً مأسوياً). وإلا فلم نحصل على الكثير من الصور العائلية في العطلات، تلك الصور التي يظهر فيها الأطفال الرائعون وهم يضعون أذرعهم على أكتاف بعضهم بعضاً، وهم على قمة أحد الجبال، أو وهم جالسون على رمال الشاطئ مبتسمين تحت شمس الأصيل؟ لم يرسل لنا الأحباء كل هذه الخطابات الطويلة المكتوبة على الحاسوب مصحوبةً بصور تذكارية لمكان عطلتهم؟ تعرفونها، تلك الخطابات التي تبدأ بـ «أصدقائي الأعزاء»، والتي يُخبروننا فيها بأن فريق كرة السلة الذي تلعب فيه سوزي وصل إلى نصف النهائي في دوري الولاية، وأنها حصلت على درجاتٍ ممتازة في جميع المواد، وأن جوني انتُخب ليكون من مساعدي رئيس اتحاد الطلبة، وأنه يكتب روايةً مع أنه لا يزال في المرحلة الإعدادية؟

وإلا فلم نفتح الكتب السنوية التي تُصدرها المدرسة، ونرى الكثير من الإعلانات التي دفع ثمنها الآباء ونرى مدحاً مثل «أنجيلا أنتِ نور حياتي. يوم ولدتِ ولدتِ المعجزات.

إنكِ لم تكفي يوماً عن إبهاري؟ إلخ، إلخ...؟

هذا لأننا فخورون بأبنائنا. نحن نحبهم ونريد أن يعرفَ العالم كم نحبهم. نحن نريد أن يشهدَ العالم أروع إنجازاتنا؛ إذ إن الأبناء هم صورٌ جديدة من الآباء. هل تتذكرون ما قاله أفلاطون (والذي نقتبسه هنا بشيء من التصرف)؟ «لا أعرف طموحاً يسعى إليه الأب [والأم] أنبل من طموح أن يصبح أبناؤه [أبناؤهما، وبناتهما] أفضل الرجال [والنساء].»

مَنْ لَفَتَ نظري إلى هذه المقولة هو بيل باورز مدير مدرسة أبنائي؛ إذ أوردَها في واحدةٍ من آخر الرسائل التي أرسلها للآباء قبل إجازة الصيف. كان ابني قد أنهى المدرسة لتوّه وكنتُ قد عشتُ لحظاتٍ خاصةً ذقتُ فيها معنى أعظم طموحٍ يسعى إليه الآباء ومعنى ألا شيء على الإطلاق — بما في ذلك الكتاب الذي أكتبه والذي يقترّب موعد تسليمه بسرعة — أهم من أن يصبح أبنائي وبناتي «أفضل الرجال والنساء».

وأرى أن هذا هو الطموح الذي يوجه باراك وميشيل في القرارات التي يتخذانها بشأن ابنتيهما. وعلى الأرجح هذا هو الطموح نفسه الذي سيُوجّه سياسات أوباما فيما يتعلق بالأطفال الأمريكيين بعد أن يحلف اليمين ويصبح رئيسًا والسيدة الأولى إلى جانبه. لكن في الوقت الحالي، ينصبُّ اهتمام ابنتي أوباما على الوقت الحاضر، وفي منزل أوباما هذا يعني التفكير في أمر الكلب. حسبما قال والدا ساشا وماليا أثناء الحملة فإنهما ستحصلان على كلبٍ سواء أ جاءت النتيجة «بالفوز أو الخسارة». أما الأمر الذي يكون فيه مجالًا للتفكير فهو نوع الكلب، وهذا أيضًا سيخضع لتضارب الآراء.

كان السيناتور أوباما قد قال في ولاية أيوا قبل أن تبدأ المؤتمرات الحزبية والانتخابات التمهيدية إن ماليا بحثت في أنواع الكلاب وبدأ أنها تستقرُّ على كلب من نوع جولدن دودل الذي لا يسبّب حساسية، وهو نوعٌ هجين من نوع جولدن ريتريفر ونوع البودل، وذلك لأنهما مصابتان بحساسية من الكلاب. فابنته الكبرى «التي يبدو أنها تقود هذه العملية» تقول إن نوع جولدن دودل «هو الخيار الأمثل»، هذا ما قاله والدها في ذلك الوقت.<sup>24</sup> وبحلول الصيف ثار صخبٌ حول هذا الموضوع. فقد طالبت مؤسسة «أمريكان كينيل كلوب» البلاد بأن تصوّت على قائمة من خمسة أنواعٍ من الكلاب التي لا تسبّب الحساسية، في حين حثّت جمعية «بيست فريندز أوف أنيمال سوسايتي» ميشيل وأوباما على أن يتبنّيا كلبًا من اللجأ! وفي هذه الأثناء أدلّت جماعة «بيبول فور ذي إيثيكال تريمنت أوف أنيمالز» (بيتا) بدلوها أيضًا. ففي خطابٍ أرسلته رئيستها إنجريد نيوكيرك في الثامن والعشرين من شهر يوليو عام ٢٠٠٨م طالبتُهما بأن يتبنّيا أحد الكلاب العادية التي لا تنتمي لسلالةٍ أصيلة.

كتبَت في خطابها: «أعزائي السيناتور أوباما وحرمة المصون أما بعد، فإننا نتمنّى أن تكونا على خير ما يُرام. نعلم أن مربّي الكلاب الطامعين يلهثون وراء أملٍ أن تُسهّم الشخصيات البارزة في ترويج تجارتهم عن غير قصد وقد يحاولون إغواءكم بفكرة شراء كلبٍ ينتمي لسلالةٍ أصيلة.»

وتواصل حديثها قائلة: «من نافلة القول أن هذا البلد فخور بأنه بوتقة تنصهر فيها العناصر المختلفة، وفي الميل إلى شراء الكلاب التي تنتمي لسلاية أصيلة فقط خطأ فادحٌ وتعالٍ ... والأفراد العطفون في جميع أنحاء البلاد يختارون تبني الكلاب الضالة التي تعيش في حظائر الإيواء — التي تُعد ملجأً جيداً يُبعدها عن المجتمع الذي لا يُراعي دائماً الحنان في تعامله مع الكلاب «البائسة» — بدلاً من أن يسعوا خلف إرضاء أهوائهم الخاصة دون مراعاة مصالح الكلاب ...»

كل حيوان تشترونه من المربيين أو من محال بيع الحيوانات الأليفة يسلب بيتاً يستحقه حيوانٌ محتاج في ملجأ الحيوانات، وينتظر، وكله أمل، الحصول على فرصة تحقيق الحلم الأمريكي في الحياة والحرية والسعادة.»<sup>25</sup>

ألا يمكن أن تحصل ماليا وساشا على كلب دون كل هذه الجلبة؟!



## الفصل السادس

# قوية كالجبل

أن تكون زوجة رجلٍ سياسي (أو وراء كل عظيم امرأة)

الجَلْبَة التي أثارها ما قالته ميشيل أوباما عن فخرها ببلادها، والتي تتلخّص في قيام الحزب الجمهوري ببث مقطع الفيديو الذي أعدّه في ولاية تينيسي على الإنترنت، وما تبع ذلك من مطالبة زوجها معارضيه بأن يدعوا زوجته وشأنها؛ تكشف مدى صعوبة أن تكون المرأة زوجةً مرشح يسعى خلف كرسيّ الرئاسة في يومنا هذا، وخاصة إن كانت هذه المرأة صريحةً وموهوبة. ولنتذكّر حال هيلاري رودهام كلينتون قبل أن تصبح عضوًا بمجلس الشيوخ ثم منافسةً على الرئاسة، عندما كانت في بداية قيامها بدور السيدة الأولى وطوّال مدة قيامها بهذا الدور.

عندما ظهرت هيلاري على الساحة القومية بجوار زوجها عام ١٩٩٢م (قبل أن تتحطّم آمالها في الوصول إلى كرسي الرئاسة بعد ذلك بستة عشر عامًا في أصعب ما شهدته هذه البلاد من سباقات على الفوز بترشيح الحزب الديمقراطي)، ظهرت في برنامج «نايتلاين». حينها قدّم المذيع تيد كوبل السيدة الأولى المرتقبة قائلاً: «معنا نموذجٌ جديد من نماذج زوجات السياسيين. إنها امرأةٌ عاملة، لها آراؤها الخاصة. وهي شريكةٌ لحياته بكل ما تحمله الكلمة من معانٍ ... والآن ثار حولها جدلٌ واسع»<sup>1</sup>.

ها هي امرأةٌ شديدة الذكاء وموهوبةٌ إلى أقصى حد — امرأةٌ وُضع اسمها مرتين ضمن قائمة أفضل مائة محامٍ في البلاد التي تُعدها دورية «ناشيونال لو جورنال» — لكنها رغم هذا تعرّضت للسخرية عندما أدلت بعبارات مثل: «أظن أنكم تعرفون أنني كان بوسعي أن أبقى في البيت، وأخبز البسكويت، وأقيم حفلات الشاي، لكنني قررتُ أن أوصل عملي الذي بدأته قبل أن يدخل زوجي الحياة العامة». ومثل: «لستُ

نموذج المرأة التي تقف وراء زوجها وتُلغي شخصيتها، الذي دعت إليه المغنية تامي وينيت في إحدى أغانيها. «ودارت جلبهٌ واسعة حول زوجها، وقيامها بتغيير تصفيفة شعرها (موقع HillarysHair.com) وضحكتها (ولتجرب أن تكتب على الإنترنت «Hillary Clinton Cackle»)، بل أجزاء جسدها المختلفة. (لن أخوض في هذا هنا، لكنه وارد في عدد مجلة «نيويورك» الصادر في أكتوبر عام ٢٠٠٧م، في مقال نُشر على الإنترنت بعنوان «تاريخ موجز عن سياسة الجسد لدى هيلاري كلينتون».)<sup>2</sup> ولن أتحدث عن الجلبه التي أثّرت حول قضايا أكثر أهمية مثل مبادرة الرعاية الصحية التي باءت بالفشل، والقول بأن هيلاري كلينتون من الممكن أن تشارك مع زوجها في الحكم، ويكون لأمرها «رئيسان لا رئيس واحد».

ورغم مواهبها التي لا خلاف عليها، ورغم الكثير من النجاحات التي حققتها بعد هذا عندما صارت عضواً بمجلس الشيوخ عن نيويورك، ورغم روعة أدائها عندما كانت مرشحة للرئاسة لا تعرف الاستسلام، ورغم فوزها بثمانية عشر مليون صوت، فإن بعض جمهور الناخبين كان ينظر إليها من البداية على أنها شخص منبوذ. ومع أنها كسبت أنصاراً يُكنون لها ولاءً شديداً كاد أن يجعلها تفوز بترشيح الحزب الديمقراطي فإنها قط لم تتخلص تماماً من الانطباع الأول الذي تركته في أذهان الناس عندما كانت امرأة عاملة مثيرة للخلاف، وشريكة توازر زوجها المرشح الرئاسي وتعبّر عن آرائها الخاصة.

وأوجه الشبه بين هيلاري كلينتون وميشيل أوباما التي كثيراً ما يتحدث عنها الناس واضحة. فمثلما ورد اسم هيلاري ضمن قائمة بأفضل المحامين، فقد زين اسم ميشيل قوائم أخرى. فعام ٢٠٠٦م وضعت مجلة «إسنس» اسم ميشيل ضمن قائمة بأكثر ٢٥ امرأة تأثيراً على مستوى العالم. أيضاً وضعتها مجلة عن خريجي هارفارد اسمها «٢٠١٣» (هذا الرقم هو الرمز البريدي لمدينة كامبريدج بولاية ماساتشوستس حيث تقع جامعة هارفارد) في المرتبة الثامنة والخمسين بين ١٠٠ مرتبة رُتبت فيها أسماء أكثر خريجي الجامعة تأثيراً عام ٢٠٠٧م. (وجاء زوجها في المرتبة الرابعة.) ولم يكن لهذا أي علاقة بإنجازاتها أو قدرتها على التأثير في الآخرين — باستثناء خيارات الموضة لربما — لكن ميشيل اختيرت أيضاً ضمن قائمة مجلة «فانيتي فير» لأكثر النساء أناقة في العالم عامي ٢٠٠٧م و٢٠٠٨م.

ومع هذا، فمثلما كان الأمر مع هيلاري، فإن التصريحات التي أدلت بها في بداية الحملة (والتي ربما تتمنى الآن لو كانت قد عبّرت عنها بطريقة مختلفة) تآبى أن تمحى

من الأذهان. بعض هذه التصريحات فُسرَت بمعزل عن سياقها، والناس — خاصة المنتمين لمن يعارضونها — يأبون النسيان.

ومثل هيلاري تعرَّض كل شيء في ميشيل للانتقاد بدءًا من تعبيرات وجهها ووصولًا إلى اختيارها للملابس. تُرى هل تعري رجلها أكثر من اللازم؟ كيف لا ترتدي جوارب طويلة؟ ماذا عن هذا العيوس وهذا الغضب؟ ما الغرض من هذَّين الذراعين العاريَّتين؟ (سنتحدث بالتفصيل عن هذا فيما بعد).

بالطبع ليست ميشيل وهيلاري الوحيدتين من زوجات السياسيين اللتين استهدفهما المعارضون، لكن يبدو أن القاعدة هي أن الانتقاد ينصب على مَنْ تعبرن عن رأيهن بصراحة. وقد كتبت جوان فينوتشي الصحفية بجريدة «بوسطن جلوب»، في أواخر شهر يونيو عام ٢٠٠٨م تقول: «إن الزوجة القوية الصريحة تجعل المرشح يبدو ضعيفًا، وغير وطني، خاصة إن كان من الحزب الديمقراطي».<sup>3</sup>

أيضًا وجدت تيريزا هاينز كيري، زوجة المرشح الديمقراطي السيناتور جون كيري، نفسها في الموقف نفسه أثناء الانتخابات الرئاسية عام ٢٠٠٤م. فإن كتبت اسمها على موقع جوجل فستظهر لك قائمة بزلات لسانها، ومثال ذلك عندما تحدّثت عن انتشار «الحُقراء في كل مكان». (وكان هذا في حوار مع قناة «دبليو تي إيه إي» التلفزيونية بمدينة بيتسبرج في ردٍّ على سؤالٍ حول ما إذا كان النبلاء قد اختفوا من مجال الخدمة العامة).<sup>4</sup> وعندما سجّل صحفي لها شريطًا تقول فيه «اخرس». (حدث هذا في مقر المجلس التشريعي بولاية ماساتشوستس عندما كانت تتحدث عن زيادة السلوكيات غير المتحضرة في عالم السياسة، وقد رأت أن الصحفي أساء اقتباس كلماتها. ومارلا روماش واحدة من المتحدثات الرسميات باسم السيدة تيريزا شرحت الموقف قائلة: «ما هذه إلا صيحة استياء في وجه شخصٍ يميني تافه دائمًا ما يتعمّد تشويه الحقائق كلما نقل كلام السيدة تيريزا وأفراد أسرتهَا»)<sup>5</sup> ومن الأمثلة الأخرى قولها إنها لم تعرف أن لورا بوش «عملت في وظيفة ذات قيمة أبدًا»، وأضافت: «أعني منذ أن صارت ناضجة». وبعد هذا اعتذرت السيدة تيريزا قائلة: «لقد نسيْتُ أن السيدة لورا عملت مدرّسة، وأمينة مكتبة، ولا وظيفة أهم من تعليم أبنائنا».<sup>6</sup>

هنا يفكر المرء في أنها لو وقفت بجوار زوجها مبتسمة دون أن تنبس ببنت شفة، لصارت الأمور إلى غير ما صارت إليه. لكنها لم تفعل هذا، بل أطلقت لسانها العنان وصار كل ما يتحدث عنه الناس هو سوء اختيارها للكلمات (أو مظهرها، وثوراؤها

الفاحش، وأنها «غريبة»، وهذا لا يجعلها مؤهلة لتكون سيدهً أولى جيدة؛ إذ إنها امرأة تحمل تراثاً برتغالياً).

بل إن السيدة الأولى بتي فورد نفسها لم تأمن هذا. كانت بتي من أقوى مؤيدي التعديلات المقترحة على الدستور الأمريكي التي تمنح المرأة حقوقاً مساوية للرجل، ولحقّ المرأة في اختيار عملها، وقد قال البعض إن السيدة بتي وما تتصف به من ميل إلى التعبير عن آرائها — في برنامج «ستون دقيقة» — هي أحد الأسباب التي أدت إلى خسارة زوجها في الانتخابات. وبالطبع إلى جانب التعبير عن رأيها بشأن القضايا الخاصة بالمرأة يجب ألا ننسى أنها تحدّثت بصراحة عن موضوعاتٍ أخرى مثل مشكلاتها الشخصية الخاصة بإساءة استخدام العقاقير، وبفضل هذا الميل إلى إطلاع الناس على قصّتها وبفضل شجاعتها مع العالم، أنشئ مركز علاجي يحمل اسمها ويساعد كثيرين غيرها في معركتهم مع الإدمان. ومع هذا فقد تساءل البعض بصوتٍ مرتفع: هل من اللائق أن تنشر سيدهً أولى غسيلها المتسخ أمام الناس.

وبالطبع كانت كبيرة هؤلاء السيدات الأول الصريحات، نوات الرأي، المثيرات للخلاف هي إليانور روزفلت، وهي امرأة ظلّت تحت الأضواء مدةً طويلة أثناء القرن العشرين، وأثّرت في العالم بقدر ما أثّر فيه زوجها الرئيس فرانكلين ديلانو روزفلت، بل يمكن القول إن تأثيرها عليه كان أكبر من تأثير زوجها.

ومثل الكثير من السيدات الأول اللاتي سرن على نهجها، صارت السيدة إليانور كاختبار رورشاخ لقياس الشخصية: فالناس انقسموا بين محب لها وكاره. فمحبوها رأوا أنها ذكية، وشجاعة، ومليئة بالحماس، وعملية، ودائماً ما تعمل من أجل أن يصبح العالم في حالة أفضل. أما منتقدها فرأوا أنها شخصٌ متطفل، بلا خبرة سياسية، وأنها تتجاوز حدود دورها كسيده أولى.

لكنّ هناك أمراً لا خلاف عليه، وهو أن إليانور روزفلت سيده أولى غير عادية بكل المقاييس. فقد كانت تكتب مقالاتٍ وتنشرها في عددٍ من الجرائد والمجلات، وكانت تقدم برنامجاً في الإذاعة، وكانت تعقد مؤتمرات صحفية وتشارك في المؤتمرات السياسية. وبعد وفاة زوجها ظلت تشارك في الحياة العامة بصفقتها ممثلة الولايات المتحدة في الأمم المتحدة حيث ساعدت في إقرار الإعلان العالمي لحقوق الإنسان.

غير أن صراحة إليانور روزفلت الشديدة، وميلها إلى خدمة بلادها مع زوجها، القائد المنتخب، ثم الاستمرار في خدمتها بعد رحيله، جعلها عرضةً للنقد. لكنها تعلمت كيف

تتعامل مع هذا النقد ومع الحياة تحت سمع وبصر العامة مع أنها كانت شديدة الخجل وهي طفلة. وقد كتبت ذات مرة تقول: إن «كل امرأة تشارك في الحياة العامة يجب أن تجعل نفسها في قوة الجبال».<sup>7</sup>

وفي أثناء انتخابات عام ٢٠٠٨م، وطوال موسم الانتخابات التمهيديّة الطويل الذي سبقها، كانت ميشيل تنمّي قوّتها لتصير كقوة الجبل. وفي هذا العالم الجديد الذي تنتشر فيه المعلومات في لمح البصر، كانت تتعلم أنه من المهم أن يصون المرء لسانه. بل إنها بعدما نجحت في أن تفعل هذا، تعلّمت أن الكلمات يمكن أن تُفسر بمعزل عن سياقها أو أن تُختلق من الأساس؛ ولذا يجب أن يكون المرء على استعداد لتقبل النقد بصدر رحب. لم يُضطر أحد لأن يلقن لورا بوش هذا الدرس، فقد رأت مخاطر التعبير عن رأيها عندما كان والد زوجها، جورج بوش الأب، يسكن البيت الأبيض (ولا شك أنها تعلّمت الكثير عن تبعات أن يتفوه المرء بكلام قبل أن يفكر فيه من زوجها)، وأمضت لورا السنوات الثمانية التي قضتها في البيت الأبيض مبتسمة ابتساماً لاثقة، ممتنعة عن التكلم إلا فيما ندر، محجمة عن الكتابة إلا في الموضوعات غير الخلافية التي تُحبها. وقُرب انتهاء مدة ولاية زوجها ظهرت على شاشة التلفاز عدة مرات لكنها عادة ما كانت تتحدث عن موضوعات غير خلافية مثل زفاف ابنتها المرتقب، أو عن كتاب الأطفال «اقرأ كل شيء عنه» الذي اشتركت في تأليفه مع ابنتها جينا.

لذا فقد كان الأمر مثيراً بعض الشيء عندما أعربت السيدة لورا بوش عن رأيها أثناء رحلة قامت بها مع زوجها إلى جمهورية سلوفينيا في شهر يونيو من عام ٢٠٠٨م، بعدما بدأ أن السباق على لقب مرشح الحزب الديمقراطي قد حُسم مباشرة. ففيما بدأ أنه إظهار للتضامن مع زوجة المرشح المرتقب للرئاسة عن الحزب الديمقراطي قالت السيدة الأولى، لورا بوش، إنها لا تظن أن ميشيل قصدت أن تقول إنها لم تكن فخورة ببلادها أبداً، وأضافت: «أرى أن الأرجح أنها تقصد أن تقول إنها أكثر فخرًا الآن». وأسدت المرأة — التي كانت تشغل منصب السيدة الأولى حينها — نصيحةً للسيدة الأولى المرتقبة وهي: «عليك أن تفكري جيداً فيما تقولين؛ لأن كل ما تتفوهين به سيخضع للنقد، ولسوء التأويل في كثيرٍ من الأحيان».<sup>8</sup>

ولندكرُّ بهذه الواقعة فنقول إنه أثناء لقاء في ولاية ويسكونسن منحت ميشيل معارضي زوجها فرصة على طبقٍ من فضة إذ قالت: «لأول مرة، منذ أن صرت ناضجة، أشعر حقاً أنني فخورة ببلادي». الآن جميعنا نعرف ما قالت إنها تعنيه بهذا — وهو أنها

كانت فخورة لأن عددًا كبيرًا من الناس يشارك في العملية الانتخابية — لكن الجلبة التي أثارها هذه الجملة الواحدة لم تهدأ حتى بعد هذا بشهور. وتساءل الناس: ماذا عن سقوط سور برلين؟ وماذا عن قيام ملايين الأمريكيين بمساعدة ضحايا إعصار تسونامي الذي ضرب جنوب شرق آسيا عام ٢٠٠٤م؟<sup>9</sup>

وقبل الانتخابات التمهيدية في ولاية تينيسي بثَّ الحزب الجمهوري في هذه الولاية مقطع فيديو مدته أربع دقائق على موقع «يوتيوب» تنطق فيه ميشيل بعبارتها ستَّ مراتٍ تفصل بينها صور للمقيمين في هذه الولاية يعلنون عن فخرهم بأنهم أمريكيون. وكما نعرف فإن هذا الفيديو جعل زوج ميشيل، الذي لم يكن قد دخل في معارك حتى تلك اللحظة، ينتقد هذا الهجوم السلبي بقوة؛ إذ قال لبرنامج «جود مورنينج أمريكا» الذي يُبث على قناة «إيه بي سي»: «لو أصبحت المرشَّح فسيكون من حق الحزب الجمهوري أن يقول ما يشاء عني وعن تاريخي، أما لو ظنوا أنهم سيحاولون أن يجعلوا من ميشيل موضوعًا للنقد في هذه الحملة، فعليهم أن يحذروا لأنني لن أقبل فكرة أن يهاجم شخصٌ ما زوجتي أو أفراد أسرتي.»<sup>10</sup>

ربما لم يكن من المفترض أن يفاجئ مقطع الفيديو حملة أوباما؛ إذ كانت هذه هي الولاية نفسها التي أصدر فيها الحزب الجمهوري بيانًا إخباريًا ورد فيه اسم المرشَّح كما يأتي: «باراك حسين أوباما» (وتعمد التركيز على اسم الأب، وهو اسم من أسماء المسلمين)، وزعم أيضًا أنه يأخذ المشورة من مستشارين معادين للسامية.<sup>11</sup>

أيضًا عرض البيان الصحفي الذي أصدره الحزب الجمهوري بولاية تينيسي صورة لباراك مرتديًا زيًّا ادَّعوا أنه «زي إسلامي». لكن في الواقع كان هذا الزي هو الزي التقليدي للصوماليين — وهو جلباب أبيض وعمامة — وقد ارتدى باراك هذا الزي أثناء زيارة قام بها لمدينة واجير التي تقع في أقصى الشمال الشرقي لكينيا عام ٢٠٠٦م. وقد تسبَّب نشر هذه الصورة، التي ظهرت على موقع DrudgeReport.com، في حدوث هياجٍ في كينيا إذ هدَّد زعماء القبائل الكينيون بفرض غرامة على منظِّمي حملة هيلاري كلينتون إذا لم يعتذروا، يدفعونها في صورة ماشية. وقد أنكرت الحملة أنها صرَّحت بنشر الصورة، وقالت إن عدد من يعملون فيها يبلغ نحو ٧٠٠ شخص وإنه ليس بوسعهم أن يتأكدوا من أنها أرسلت في ظل موافقة رسمية من الحملة.<sup>12</sup>

ومن الأشخاص الذين انتقدوا البيان الصحفي في ذلك الوقت جون ماكين مرشَّح الرئاسة عن الحزب الجمهوري؛ إذ طالب بأن تكون سمة المناظرات التي تُعقد أثناء

جولات الدعاية الانتخابية هي مراعاة الاحترام. أيضًا بعد هذا طالب البلاد بأن تحترم النساء اللاتي من المحتمل أن تصبحن سيدات أول.

لكن أثناء احتدام الخلاف حول مقطع الفيديو الذي بثه الحزب الجمهوري بولاية تينيسي على موقع «يوتيوب»، لم يُدل جون ماكين بأية تصريحات، وكانت زوجته أول من انقضوا على ميشيل بعد أن ألقت بتصريحاتها المهينة الأولى. فقد قالت سيندي ماكين في مؤتمر انتخابي عُقد في ولاية ويسكونسن في ١٩ فبراير: «أنا فخورة ببلادي». وأضافت: «لا أعرفُ ماذا عنكم — وما إذا كنتم قد سمعتم هذه الكلمات من قبلُ — لكنني فخورة ببلادي.» بعد أشهر اقتبس وزير الخارجية الأسبق لورانس إيبلرجر هذه العبارة عندما قدّم سيندي أثناء إحدى الحفلات المقامة لجمع التبرعات في شهر يونيو قائلاً إن السيدة سيندي «تشعر بالفخر ببلادها، وإن هذا الشعور لم يُراودها مرةً واحدة وحسب بل ظل مصاحباً لها دائماً.»<sup>13</sup> وفي حوارٍ أجراه معها برنامج «جود مورنينج أمريكا» على قناة «إيه بي سي»، وأذيع في ١٩ يونيو ٢٠٠٨م، كرّرت سيندي الهجوم الذي بدّته في عباراتها السابقة قائلة: «لكل شخصٍ تجاربه، وأنا لا أعرف لمَ قالت ما قالت، لكن كل ما أعرفه هو أن الفخر ببلادي لم يغب عني قط.»<sup>14</sup> (بعد هذا أوضحت أن تصريحاتها نبعت من كونها زوجةً وأماً لرجلين عسكريين «تؤمن» بالخدمة العسكرية.)

وعندما طالب أوباما باحترام زوجته وأسرته طالب بأن ينطبق هذا على شتى ألوان الطيف السياسي فقال: «أباً كان الشخص المسئول عن الحزب الجمهوري في ولاية تينيسي فإنه يجب أن يفكر طويلاً وكثيراً في نوع الحملة التي يريد أن يديرها، وأظن أن هذا ينطبق على الجميع سواء أكانوا ديمقراطيين أم جمهوريين.»<sup>15</sup>

وبعدما طالب أوباما الناس بأن يدعوا زوجته وشأنها أضاف: «[ميشيل] تحب هذا البلد. وأظن أن محاولتهم تشويه ما قالته والتلاعب به على نحوٍ يسيء إليها أمرٌ شائن، وأظن أن معظم الأمريكيين يتفقون معي في هذا.»<sup>16</sup>

أما عن ميشيل فقد أخبرت قناة «إيه بي سي» أنها تظن أن الناس مستعدون لأن يتخطوا هذا ويركزوا على الأمور ذات الأهمية الحقيقية. وقالت: «نحن نتق بأن الناخبين الأمريكيين على استعدادٍ لأن يتحدثوا عن القضايا المهمة وليس عن الأمور التي ليس من شأنها أن تحسّن حياة الناس.»<sup>17</sup>

وأثناء ظهور ميشيل في برنامج «ذا فيو» على قناة «إيه بي سي» في يونيو؛ إذ شاركت في تقديم البرنامج، انتهزت هذه الفرصة وشكرت السيدة لورا بوش على الملأ لما قدّمته من

دعم لها وهي في جمهورية سلوفينيا؛ إذ قالت إنها تأثرت بكلمات السيدة لورا وأعلنت أن التأثير بلغ بها حدًا جعلها تكتب لها رسالة شكر. وقالت لمذيعي البرنامج الذين كان من بينهم باربرا والترز، وووبي جولدبرج، وغيرهما: «ما أحبُّه في لورا بوش هو هذا الأسلوب الهادئ العقلاني في التعامل مع مثل هذه الأمور. وأنا أتعلَّم منها؛ فهي متزنة. وحبُّ الناس لها لم يأت من فراغ. بل هو مبنيٌّ على أنها ليست من هواة سكب البنزين على النار.»<sup>18</sup>

سواء استطاعت ميشيل تجنبُّ أن تسكَّب هي بنفسها البنزينَ على النار أم لا، فإن مقطع الفيديو الذي بثَّه الحزب الجمهوري لم يكن إلا كقمة الجبل الجليدي. فقد مضى الناس في لغطهم حول أمورٍ لن تؤدي إلى تحسين حياة الناس كثيرًا، إن أدت إلى هذا من الأساس. إذ ثارت شائعاتٌ حول مقطع فيديو مزعوم ادَّعى الناس أن ميشيل انتقدت فيه «الحثالة البيض» بقسوة. هذا الفيديو لم يظهر إلى الوجود أبدًا، لكن عندما سألت إحدى الصحفيات باراك أوباما عنه تسبَّب هذا السؤال في أن تظهر عليه أماراتُ الانزعاج التي نادرًا ما ترتسم على وجهه، بل إننا لا نبالغ إذا قلنا إن وجهه احتقن غضبًا.

قال أوباما للصحفية: «شائعات وأكاذيب» تنتشر عبر البريد الإلكتروني «وتتداولها الألسن كثيرًا حتى تأتي أنتِ الصحفية التي تسير مع التيار وتسأليني عنها. وهذا يزيد من قوتها.»<sup>19</sup>

وواصل أوباما حديثه قائلاً: «مجرد ترديد بعض الأقاويل عبر البريد الإلكتروني يجب ألا يكون دليلاً على مصداقيتها. فمصداقية هذه الأقاويل لا تزيد عن مصداقية ما يسمعه المرء من أقاويل تتردد على ناصية الطريق. وأظن أن وظيفة الصحافة ليست أن تنشرَ شائعاتٍ سفيهةً مثل هذه ما دام ليس لها سندٌ من الواقع، وليس عليها أي دليل يكون برهاناً على صحتها، وليست مبنية على أي أساس من الصحة.»<sup>20</sup>

بعد هذا كتبتَ مارجریت تاليف، الصحفية في جريدة «ماكلاشي» التي طرحت هذا السؤال على أوباما، في مدونتها إنه كان من الجلي أن مجرد أن يطلب أحدٌ من أوباما أن يعطي قيمة لهذه الشائعة بالحديث عنها، ولو لنفيها، أثار غضبه، وهذا هو موقف من يعملون معه نفسه.<sup>21</sup>

وبعد أن طُرح على أوباما مباشرة السؤال الخاص بـ «الحثالة البيض» دشنت الحملة موقع FightTheSmears.com على الفور. قال الموقع: «أكذوبة، لا وجود لهذا الشريط. لم تتحدث ميشيل أوباما على منبر هذه الكنيسة ولم تتفوه بهذه الكلمة.» وواصل الموقع حديثه قائلاً إن من ادَّعوا أن هذا الشريط موجود فشلوا في أن يأتوا به وسلّموا الآن بأن هذا الشريط «قد يكون مؤامرة.»<sup>22</sup>

وأنكر الموقع أيضًا الشائعات التي كانت منتشرة لبعض الوقت عن المرشح نفسه، الشائعات التي تقول إنه مسلم وأنه لم يُولد في الولايات المتحدة (ويعرضُ الموقع صورةً من شهادة ميلاده)، وأنه لن يؤدي يمين الولاء للولايات المتحدة، بل سيؤدي اليمين الدستوري حالفًا على القرآن، الكتاب المقدس للمسلمين (ويعرض الموقع صورةً له وهو يحلفُ اليمين على الإنجيل الخاص بأسرته) ... إلخ.<sup>23</sup>

وفي تكتيكٍ فريد بعض الشيء، يعتمد الموقع في نشر المعلومات على طريقة «استوحاها من فكرة انتشار الفيروسات» وهي تشبه طريقة انتشار الشائعات الأساسية. إذ يطلب من القراء أن يشتركوا في الموقع، ويبحثوا بوحدة من الرسائل الإلكترونية التي تحارب الشائعات إلى صديق أو أصدقاء. وبهذا يتمكن من يستقبلون هذه الرسائل من إرسالها إلى أصدقاء آخرين حتى تنتشر انتشارًا واسعًا. وقد قال بعض النقاد إن هذا الأسلوب قد يأتي بنتائج عكسية. فنشر الحملة هذه المعلومات المحاربة للشائعات يجعل عددًا لا حصر له من الناس يصبح على علم بالشائعات، مع أنها قد تكون غير حقيقية.

قبل إنشاء هذا الموقع أرسلت خدمة «تنبيهات جوجل» تنبيهاتٍ تكشف عن وجود ما يزيد على ٤٠ مقالاً و/أو مدونةً تتحدث عن ميشيل أوباما ويركز معظمها على القيل والقال، والشائعات التي لا أساس لها من الصحة، وكثيرٌ منها يسلط الضوء على عبارة «الحثالة البيض» التي زُعم أن ميشيل قالتها. لكن بعد تدشين الموقع بأيامٍ قليلة، لم يعد يُرسل إلا عددٌ قليل من تنبيهات جوجل المتعلقة بميشيل أوباما يوميًا، ومعظمها تكشف عن كتاباتٍ تتناول أمورًا مثل الملابس التي ارتدتها في أحد الأيام، أو المحاولات التي تقوم بها الحملة لـ «تلميع» صورتها.

وأوضح تومي فيتور المتحدث الرسمي باسم أوباما السبب من إنشاء الموقع فقال: «إن حملة أوباما لن تسمح للشائعات المغرضة أن تنتشر عبر الإنترنت دون أن تردَّ عليها. ومتى واجهتُنا هذه الأكاذيب فسندردُّ عليها بقوة الحقيقة، وسنساعدُ مؤيدينا على كشف زيف الشائعات التي لا أساس لها من الصحة والتي تنتشر عبر الإنترنت.»<sup>24</sup>

(بالقراءة عن هذا التكتيك عام ٢٠١٨م، مع تحديث هذا الكتاب وإعادة إصداره، من المؤسف أن تكتيكات مكافحة التشهير والرد على الأكاذيب لم تستمر بعد الحملة الانتخابية. ربما كنا في مكانٍ مختلف تمامًا الآن.)

وقد قالت ميشيل لصحيفة «نيويورك تايمز» إنها أحيانًا كانت تندesh من مدى افتراء هذه الأكاذيب. وقالت: «أقصد بهذا الشائعة الخاصة بكلمة «الحثالة البيض»! فهذه

كلمة قد تتفوه بها شخصية جورج جيفرسون [وهو شخصية كانت تظهر في مسلسل «عائلة جيفرسون» الذي كان يُعرض في سبعينيات وثمانينيات القرن العشرين]. وأي شخص يقول إنني تفوهت بهذا لا يعرفني، ولا يعرف الحياة التي عشتها، ولا يعرف أي شيء عني».<sup>25</sup>

واقعة شائعة «الحثالة البيض» ما هي إلا واحدة من أمثلة عديدة. إذ ثارت تعليقات سخيفة، يبدو أنها لن تنتهي، عن حركة اليد التي يقوم بها كل من ميشيل وباراك أوباما تعبيراً عن الحب أو التهنية أو تمنّي الحظ الطيب قبل خطبة باراك في الليلة التي حُسم فيها السباق على الترشيح الرئاسي عن الحزب الديمقراطي لمصلحته. ولا شيء مثير للمخاوف في هذه الحركة، بل لا شيء غريب فيها، وهي الحركة التي يقوم بها كل أمريكي يلعب البيسبول في مسابقة «ليتل ليغ»، وكل من يدرب هذه الفرق، بل يقوم بها الآباء عندما يقوم أبناؤهم بضربة موفقة، أو يفشلون في هذا، بل عندما يتوجّهون إلى المكان الذي سيقذفون منه الكرة (وهذه الحركة تتم بأن يضم شخص قبضة يده ويضرب بها قبضة شخص آخر، ويمكن أن نسميها تحية الرياضيين، أو آخر صيحة من صيحات المصافحة). (وصدقوني أنا أعلم هذا. فقد قضيت أياماً وليالي طويلة في مدرجات ملاعب كرة البيسبول في جميع أنحاء البلاد، وأقول إن هذه الحركة منتشرة انتشار الفول السوداني والفشار.)

ومع هذا فقد تساءلت إحدى الصحف البريطانية: هل الحركة التي قام بها أوباما وزوجته استعراض لقوة السود، وتساءلت إديث هيل، المذيعة بقناة «فوكس نيوز»، هل هذه الحركة «لكمة إرهابية». (لقد اعتذرت بعد هذا، وألغيت برنامجها الذي كان يُذاع في الساعة الحادية عشرة صباحاً، لكن قناة «فوكس» قالت إن إلغاء البرنامج لم يكن بسبب هذه التصريحات).<sup>26</sup> وأتساءل: ألم تقم السيدة إديث بزيارة ملعب كرة قط؟ ألم تفتح التلفاز لترى ماني راميرز أو ديريك جيتز يطوفان بالمكان الذي يضربان منه الكرة بعد قيامهما بضربة موفقة؟ بالتأكيد كانت ستري ضربة اليد هذه في تلك المواقف، هل يمكنها أن تقول إن ما يقومان به هو لغة إشارة إرهابية سرّية؟ من أي كوكب أتت هذه المذيعة؟ مقارنةً بالاتهامات التي وُجّهت إليهما، تبدو بعض هذه الأقاويل التي ثارت حول ضربة اليد مضحكة بعض الشيء. فقبل شهر من بدء الانتخابات، بدأت سارا بالين تتحدث عن علاقة تربط أوباما وزوجته بويليام أيرز، الأستاذ بكلية التربية بجامعة إلينوي بمدينة شيكاغو الذي أسس منظمة «ويدز أندرجراوند» الإرهابية في ستينيات القرن العشرين.

قالت سارا بالين في حديث وجَّهته للمتبرِّعين في أحد المطارات بإنجلوود في ولاية كولورادو: «إن منافسنا ... شخصٌ يرى أمريكا - فيما يبدو - بلدًا يعجُّ بالنقائص، حتى إنه يُقيم صداقاتٍ مع إرهابيين لا يتورَّعون عن إيذاء بلدهم.»<sup>27</sup> ثم عادت وكرَّرت التصريح نفسه خلال لقاءين في كاليفورنيا.

وفي حين رأى الكثيرون أن هذه العلاقة تستحق الانتقاد، فإن ردود الفعل العنيفة التي أثارته تعليقات سارا بالين دقت جرس الإنذار. كان من بين أسوأ الإساءات التي رُمي بها باراك أثناء المؤتمرات الانتخابية القاسية الخاصة بالحزب الجمهوري: «إرهابي!»، «اقتطعوا رأسه!»، «اقتلوه!».

كذلك، لم تسلم ميشيل من محاولة الربط بينها وبين الإرهابيين. فحسبما ورد في صحيفة «ديلي نيوز» التي تصدر في نيويورك: «لحقت ميشيل أوباما بزوجها في القائمة التي وضعها جون ماكين للأشخاص الوثيقي الصلة بالإرهابيين.»

لكن ما جريمتها؟ أنها عملت في مكتب سيدلي أند أوستن «في الوقت نفسه الذي عملت فيه برناردين دورن زوجة بيل أيرز به. أوردت الصحيفة هذا النبأ وأضافت: «عام ١٩٨٧م كان هناك ١٨٠٠ شخص آخر يعمل في هذا المكتب.» وقد صدر هذا الادعاء بأن لميشيل علاقةٌ بالسيدة برناردين في مكالمة جماعية قامت بها حملة ماكين، ونشرتها صحيفة «ديلي نيوز» وغيرها من وسائل الإعلام.

حقًا تبدو الجلبة التي أثارها حركة اليد بسيطةً جدًا مقارنةً بالغل الذي ساد الأجواء قبل الانتخابات بأسابيع.

وبعد أسابيع قليلة من الجلبة التي ثارت حول حركة يد أوباما الشهيرة، قام الرئيس جورج بوش بمثل هذه الحركة هو الآخر، ولن تصدقوا، لم تصدر أية صحاحٍ تقول بأن هذا سلوكٌ شائن. وقد قام بوش بهذه الحركة مع صبي في الثانية عشرة من عمره نال تكريمًا بفضل قيامه بأعمال تطوعية، وذلك عندما كان يقوم بزيارة رسمية لولاية أركنساس. قال الصبي إن الرئيس رفع قبضته وأضاف: «وأنا فهمتُ ماذا يريد ...»<sup>28</sup> (لم ينطق أحد بكلمة واحدة عن عمل إرهابي أو عن قوة السود. لكن علينا أن نذكر أيضًا أن هذا هو الرئيس الذي داعب أحد خريجي أكاديمية القوات الجوية بأن صدم بطنه ببطنه في حفل خريجي أكاديمية القوات الجوية الأمريكية في مدينة كولورادو سبرنجز قبل هذا بأسابيع عديدة، ومرَّ هذا دون أن يثير جلبةً كبيرة. ربما يقوم مرشحو الرئاسة بهذه الحركة مع زوجاتهم عندما يفوزون بالترشيح في المرات القادمة وينسون أمر قبضة اليد!)<sup>29</sup>

وفي حوارٍ أجراه المذيع براين ويليامز الذي يعمل في قناة «إن بي سي» قال باراك أوباما إن حركة اليد التي قام بها مع زوجته على المنصة في سانت بول تجسّد ما يحبه في زوجته ألا وهو أنه رغم كل الأضواء المسلطة عليهما فإنها لا تنسى أبدًا أنه زوجها وأحيانًا ما يقومان بأفعالٍ سخيّة. <sup>30</sup> سواء أكان ما فعلاه سخيًّا أم لا، فإنهما ليسا أول من يفعل هذا. والسخيّف حقًّا هو الجلبة التي ثارت حول هذا.

ثم جاءت واقعة «عشيقة باراك»، وكانت هي الأخرى بفضل قناة «فوكس نيوز»؛ إذ عُرض فيها شريط (أو تصميم جرافيك تقوم فكرته على الكتابة) مع تقريرٍ إخباري قيل فيه إن ميشيل هي «عشيقة باراك». وقد حدث هذا عندما كانت المذيعة ميجين كيلى تجري حوارًا مع المدونة المحافظة ميشيل مالكين حول هجوم المحافظين على ميشيل أوباما. وبينما كانتا تتحدثان، ظهرت رسالة على الشاشة. جاء فيها: «أيها الليبراليون الساخطون: كُفوا عن الاستهزاء بعشيقة باراك!» الجلي أن كلمة «عشيقة» هي كلمةً بذئية تشير إلى امرأة أنجبت من شخص دون زواجٍ شرعي. <sup>31</sup> ولك أن تتخيل أنه كان هناك عددٌ قليل من الكتابات الساخطة على المواقع الإلكترونية والمدونات بعد هذا.

وأيضًا هناك كتاباتٌ وردت على موقع MichelleObamaWatch.com. بعضها كان سخيًّا، وبعضها كان متجاوزًا لحدود العقل، والبعض الآخر يجعل القلوب تنفطر لأنه ينتهك جميع الحدود انتهاكًا صارخًا (ولهذا لن أكرّره هنا).

وبسبب قسوة بعض هذه الشائعات، قرّرت حملة أوباما أن تعطي ميشيل مزيدًا من العون. في منتصف يونيو، عُيّن لها رئيسة موظفين جديدة شهيرة هي ستيفاني كاتر، التي عملت متحدثة باسم السيناتور جون كيري أثناء سعيه الفاشل للفوز بمنصب الرئيس. والأرجح أنها لُقنت درسًا عن الشائعات عام ٢٠٠٤م، هل تذكرون واقعة سويفت بوت؟

في حال كان أحدٌ يحتاج إلى تذكّرة، نقول إن حملة السيناتور كيري تلقت ضربةً قوية، بل صفةً مدمرة، عندما أعلنت الجماعة المسماة «سويفت بوت فيتيرانز فور تروث» عن تشكُّكها في شرعية الميداليات التي حصل عليها كيري وعن مشاركته في حرب فيتنام. وعلى عكس الجدل الذي دار حول ما قالته ميشيل أوباما عن الفخر ببلادها أو حول ما قالته هيلاري كلينتون عن الوقوف وراء زوجها، فإن الجدل الذي دار حول ما قالته جماعة «سويفت بوت» لم يكن سببه أي عمل قام به السيناتور كيري أو قام به أحد العاملين في حملته أو تصريح تفوه به أيٌّ منهم.

ومنذ ذلك الوقت دخلت عبارة «سياسة السويقت بوتينج» معجم المصطلحات السياسية الأمريكية، وهذا ما يوضحه مقالٌ نشرته كلية الاتصالات بجامعة ولاية بنسلفانيا على إحدى المدونات. إذ ورد مقالٌ بعنوان «سقوط حملة الانتخابات الرئاسية لجون كيري عام ٢٠٠٤م» يعرض حالة من بين حالات اختارها طلاب العلاقات العامة لإجراء دراسة عليها، ويبدأ هذا المقال بتعريف لهذه العبارة ورد فيه: «استراتيجية تواصلٍ شديدة التطور تُنفق بموجبها جماعاتٌ معزولة — وهي واجهة لجماعاتٍ أخرى — مبالغٌ طائلةٌ على إعلاناتٍ تلفزيونية تتضمن هجوماً شرساً، وهذه الجماعات واثقة من أن وسائل الإعلام الإخبارية ستنتقل هذا الهجوم.» ثم يستعرض المقال تحليلاً لنقاط القوة والضعف في حملة كيري التي باءت بالفشل وللفرص التي أُتحت لها والتهديدات التي واجهتها، واستنتج من هذا التحليل أن حملة التشويه التي قام بها سويقت بوت من أسباب الفشل الرئيسية.<sup>32</sup>

ومع أن هذا المصطلح نُحِتَ بعدما حدث لحملة كيري، فإن السيناتور كيري لم يكن أول مرشحٍ يتعرض للمعاناة بسبب الشائعات والتشويه، والأرجح أن ميشيل وباراك لن يكونا آخر من يعاني بسببهما.

وسنستعرض معاً بعض الأمثلة لوقائع قريبة العهد حدثت؛ فأثناء الانتخابات الرئاسية عام ١٩٨٨م، ساعد في هزيمة مايكل دوكايس مرشح الحزب الديمقراطي وحاكم ولاية ماساتشوستس ما دار حوله من شائعات وما تم من تعريض به. فالإعلان الشهير الذي يظهر فيه المجرم الأسود «ويلي هورتون» وهو يرتكب جرائم الاغتصاب والقتل أثناء خروجه في إذن مؤقت من السجن مسَّ جميع الموضوعات التي تهم المجتمع، بما فيها الأعراق والخوف، وأثار مشاعر مكبوتة أسهمت في إلحاق الهزيمة بدوكايس.

ولم تسلم أسرة هذا المرشح من الشائعات في هذه الانتخابات. فبينما هو يصارع لخطف مقعد الرئاسة من بين يدي الجمهوريين، تعرضت زوجته كيتي لانتقاداتٍ شديدة عندما ادّعى ستيف سيمس الذي ينتمي للحزب الجمهوري ويشغل عضوية مجلس الشيوخ عن ولاية أيداهو، أنها أحرقت العلم الأمريكي احتجاجاً على حرب فيتنام.<sup>33</sup>

بالطبع جميعنا يعلم أن الحملة سارت من سيئ لأسوأ، وأن الجمهوريين فازوا في النهاية. لكن الأسوأ من هذا هو أن كيتي دوكايس في النهاية وقعت هي الأخرى في محنة. فبعد مرور عام على الانتخابات أُدخلت مصحة بعد أن شربت كحول الإيثانول السام. وفي عام ١٩٩١م حكّت بصراحة عن معركتها مع إدمان الكحول في مذكراتها التي نُشرت

بعنوان «الآن تعرفون». وفي هذا الكتاب حكمت عما عانته من إدمان، وكتبت أيضًا عن المصاعب التي واجهتها بصفتها زوجة رجلٍ سياسي.

(رأيتُ بأم عيني كيف من الممكن أن تكون الحملات الانتخابية قاسية على المستوى الشخصي. فعام ١٩٨٨م كنتُ أعملُ صحفيةً تحت التدريب في وكالة «أسوشيتد برس» في مدينة ميلووكي، وهي أولُ وظيفةٍ عملتُ بها بعد تخرُجي من كلية الصحافة. وأتذكُر أن الجريدة أرسلتني إلى ضاحيةٍ بعيدة لتغطية مؤتمر انتخابي يعقده دان كوايل، نائب الرئيس جورج بوش الأب — كان هو نفسه ضحية الكثير من العبارات القاسية التي دار معظمها حول مقدار نكاته. ولن أنسى أبدًا الفتاتين الصغيرتين اللتين رأيتُهما في المؤتمر. كانت الفتاتان ترتديان جونلتين وبلوزتين كلُّ منهما مكوَّنة من قطعتين ملتصقتين، وتزيَّنان رقبتيهما بعقدتين وتربطان شعريهما بتوكتين من لون البلوزتين نفسه، وتبدوان مثالًا للفتيات الجامعيات الرائعات. كانت الفتاتان تبسман وتلوحان بلافتةٍ مصنوعة يدويًا ومكتوب عليها: «لنلقِ بكيتي على الجمر». بعد عام من هذه الواقعة، عندما قرأتُ عن أنهم ذهبوا بكيتي إلى المستشفى بعد أن شربت كحول الإيثانول السام، لم أستطع أن أمنع نفسي عن التفكير في هاتين الفتاتين. أتساءل هل شعرتا بالذنب أو الخزي أو الحزن؟)

وكان لسيندي ماكين نصيبٌ من النقد مع أنها كانت تميل إلى أن تقف وراء زوجها حقًا دون أن تفتح فمها كثيرًا (فهي أقرب إلى نموذج لورا بوش). فأثناء انتخابات عام ٢٠٠٠م وقعت ضحية لحيلةٍ قذرة أثناء الانتخابات التمهيدية لولاية ساوث كارولينا، وذلك حين ورَّع معارضوهم وريقاتٍ تظهر فيها صورة لزوجها مع طفلٍ أسود البشرة. وأدعت الأوراق أن الطفل هو ابنٌ غير شرعي للسيناتور ماكين، لكن في الحقيقة كانت هذه الصورة صورة بريجيت ابنة ماكين التي تبناها من بنجلادش.<sup>34</sup>

وفي حوارٍ مع مجلة «نيوزويك» قالت سيندي إنها تأمل ألا يصل إلى مسامع ابنتها هذا اللغظ. لكن منذ وقتٍ ليس ببعيد كتبت بريجيت اسمها على موقع جوجل ووجدت المقالات الصحفية التي تتحدث عن هذا الأمر، وسألت والدتها، وهي الآن في السادسة عشرة من عمرها، لماذا يكرهها الرئيس بوش. قالت سيندي للمجلة: «بذلت كل ما في وسعي لأقنعه أن من فعل هذا لم يكن الرئيس بوش. لكن ما لا تستطيع أن تستوعبه هو: كيف يمكن للناس أن يتفوهوا بكلمات كهذه؟»<sup>35</sup>

من الطبيعي أن هذه التجربة جعلت سيندي ماكين تفكر ألف مرة قبل أن تعطي زوجها الضوء الأخضر للدخول في السباق الانتخابي عام ٢٠٠٨م. وتُقر سيندي بأنها

لا تزال لديها قائمة بأسماء أعدائها تضع فيها أسماء الأشخاص الذين تعتقد أنهم أضروا زوجها وأسرته.

«أظن أن أية أم ستتفق معي فيما أقول: يمكن للناس أن يلاحقوني لكن عليهم أن يبتعدوا عن أبنائي.»<sup>36</sup> (حدسي يخبرني أن ميشيل أوباما ستُحَيِّي سينيدي ماكين بحركة يدها الشهيرة لما قالتها).

أيضاً كان على سينيدي أن تواجه قضية شخصية مؤلمة أخرى تحت سمع وبصر العامة. عندما أدمنت المسكنات التي لا تُصرف إلا بإذن الطبيب في تسعينيات القرن العشرين بعد أن أجرت جراحةً في ظهرها (وبدأت تسرقُ أقراص الدواء من المؤسسة الخيرية العلاجية التي أنشأتها)، لم تكن معركتها معركة خاصة على الإطلاق. وقد وصفت سينيدي هذه المدة بأنها «أسود مراحل» حياتها.<sup>37</sup>

بعد أن كُشف النقاب عن إدمان سينيدي، دفعت تعويضاً عما سرقته، وحضرت جلسات علاجية، وقامت بخدمة المجتمع. ولما كانت تعلم هي وزوجها أن هذه الأخبار مصيرها إلى التسرب، أطلعا مجموعة من الصحفيين الذين يثقون بهم عليها؛ ولذا أصاب سينيدي الهلع عندما اكتشفت في اليوم التالي وجود رسم كاريكاتوري في صحيفة «أريزونا ريبابليك» يظهر فيه شخصٌ مدمن — يشير إلى سينيدي — «يفتس الأطفال الرضع بحثاً عن أقراص الدواء».<sup>38</sup>

ثم جاءت الواقعة التي أُطلق عليها «فضيحة الوجبات»؛ إذ قام شخصٌ يتلقى تدريباً في القيام بأعمال الحملات الانتخابية بسرقة وصفات غذائية من قناة «فوود نت» المتخصصة، وقدمها على أنها بعض الوصفات «المفضلة» لسينيدي ماكين، وكان هذا موضوع عددٍ من العناوين الرئيسية.

وفي بداية صيف عام ٢٠٠٨م، لم تَزغ الأبصار عن سينيدي عندما تأخرت في تقديم إقرارها الضريبي. قالت سينيدي قبل أن تقدم الإقرار أخيراً في شهر يونيو: «هذا أمر متعلق بالخصوصية؛ فأنا لست المرشح»، موضحةً أن لها ذمّة مالية منفصلة عن زوجها. (ورثت سينيدي ثروة من تجارة المشروبات الكحولية تقدّر بأكثر من مائة مليون دولار أمريكي).<sup>39</sup>

صحيحٌ أن السيدة سينيدي ماكين ليست من ترشّح للانتخابات. ولا أيٌّ من زوجات أوباما وكلينتون وكيري وبوش وفورد. ومع هذا تعرّض الكثير مما قالته هؤلاء النساء وارتدّينه وأكلنه للفحص والتحقيق، وكان موضوعاً للعناوين الرئيسية في الصحف في

جميع أنحاء العالم. وهذا ينطبق بصورة خاصة على انتخابات عام ٢٠٠٨م إذ صار نشر هذه المعلومات سريعاً كسرعة البرق بسبب الإنترنت ووسائل التواصل الاجتماعي وموقع «يوتيوب» (وهذا ينطبق أيضاً على المعلومات التي لا تُمتُّ للحقيقة بصلة).

ومن حسن حظ أوباما وزوجته أنه بحلول عام ٢٠٠٨م كان يبدو أن الديمقراطيين قد لُقِنوا درساً بفضل ما حدث من تشهيرٍ بكيري منذ أربع سنوات. فحسبما قال ديفيد أكسلرود مدير حملة أوباما لمجلة «نيوزويك» في شهر أبريل فإن أوباما «لن يجلس متربّع اليدين يترنم بالمثاليات والسهام تنهال عليه. وأظن أن الناس يجب أن يفرّقوا بين حدود الأدب والاستعداد لمواجهة التحديات المقبلة».<sup>40</sup>

ويبدو أن القائمين على الحملات الانتخابية قرّروا أنهم سيكونون في موقفٍ أفضل إذا صاروا هم أنفسهم مصدرَ أكبر عددٍ ممكن من الأخبار، ونظرًا لقدرة الإنترنت على نشر الشائعات والأقاويل بسرعة هي كسرعة انتشار النار في الهشيم، فقد صار واضحاً أنهم قرّروا أن زوجات وأزواج المرشّحين والمرشّحات سيكونون في حاجة إلى دعايةٍ وبريقٍ إعلامي كالمرشّحين أنفسهم.

ولهذا فإنه مع بداية الصيف صار من الممكن أن ترى علامات على بدء حملة دعايةٍ قوية تركز على ميشيل أوباما. وقد تناول مقال نُشر في جريدة «نيويورك تايمز» بعنوان «ميشيل أوباما تبحث عن بدايةٍ جديدة»، ما يرى الكاتب أنه محاولة «تجميل ذكية» تخضع لها السيدة الأولى المُحتَمَلة. وكتبت الصحيفة تقول إنه في حين يسعى زوجها لإزالة الحدود بين الهويات المختلفة فيما يبدو أنه بداية لعصرٍ جديد يتجاوز حدود الأعراق، تظل هوية السيدة ميشيل أقل قابلية للتغيير. فأصولها ترجع إلى الرقيق وهي ابنة المنطقة الجنوبية من شيكاغو المعروفة تاريخياً بأنها مأوى السود. وهي تميل لأن تُشعل النيران في حين يميل هو إلى إخمادها وهذا أيضاً يجعلها عرضةً للهجوم».<sup>41</sup> وقد قالت جريدة «تايمز» إن الحملة ستعمل على تحسين صورتها.

وعندما أظهر استطلاع رأي أنه يبدو أن الناخبين يشعرون أنهم لا يعرفون سيندي ماكين، بدا أن الجمهوريون قاموا بحملة مماثلة. فأجرى حوار تلفزيوني معها صوراً أثناء قيامها بجولة في فيتنام حيث ساعدت الأطفال المصابين بمرض الحنك المشقوق. ثم رأيناها تستعد لأن تلتقط لها مجلة «فوج» صورة، ورأيناها بعد أيام قليلة مع زوجها في مجلة «بيبول».

وبدا أن هناك سابقًا لكتابة أكبر عددٍ من المقالات «المعسولة» عن أوباما وزوجته و/أو ماكين وزوجته، وإذاعة أكبر عددٍ من حوارات «التلميع» في البرامج الترفيهية، وكل هذا يتم باسم تعريف الناس بهم (ولا يتم لأنهم يتطوعون بأن يقولوا الكثير).

وقد قال جون كلش، عميد كلية إدارة الأعمال بجامعة هارفارد، إن التركيز غير المسبوق على زوجتي المرشحين الأخيرين، وعزم حملتيهما على تقديمهما في صورة مشرقة، قد يكون له علاقة بخروج السيناتور هيلاري كلينتون من السباق.<sup>42</sup>

وقال لصحيفة «سان فرانسيسكو كرونيكل»: «بدا الأمر لي وكأنه كان هناك ثلاثة نساء يسعين خلف مقعد الرئيس، وصارتا اثنتين. وعدد من يهتمون في الولايات المتحدة بأن يزوا مرشحةً امرأةً كبيرًا جدًا لدرجة أن الاهتمام بزوجات المرشحين صار شديدًا بعد انسحاب السيناتور هيلاري. فلا يزال هناك اهتمامٌ كبير بتمثيل صوت النساء في الحوار السياسي الدائر عن أرفع مناصب البلاد.» وهذا قد يفسر اختيار السيناتور ماكين لنائبة دون آخرين قد يُقال إنهم أكثر جدارة.<sup>43</sup>

لكن كان هناك آخرون لا يشعرون بمثل هذا اليقين في أن هناك اهتمامًا كبيرًا بتمثيل صوت النساء في الحوار السياسي. ففي مقال كتبته جوان فينوتشي بعنوان «فلنغير الآراء القديمة وليس زوجات السياسيين» اقتبست فيه ما قالته زميلتها السابقة الصحفية إلين مكنامارا قائلة: «عندما أقرأ عن حياة النساء كثيرًا ما يبدو لي أن الزمن قد توقّف، وكأن الثلاثين سنة الأخيرة لم تمر. بالطبع لدينا فضولٌ حول زوجات المرشحين للرئاسة — فثقافتنا هي ثقافة شعبٍ مهووسٍ بشخصيات الناس — لكن أسنا ننتظر منهن أن يكُنَّ قد عشنَّ على الكوكب نفسه الذي نعيش عليه وفي العصر نفسه الذي نعيش فيه؟»<sup>44</sup>

وربما يكون كلينتون وزوجته قد أسهما في تحفيز هذا الاهتمام الإعلامي الشديد بطريقةٍ أخرى دون أن يتعمداً هذا. فمجرد ظهور رئيس سابق — هو بيل كلينتون — بصفته الرجل الأول المرتقب، زوج السيدة الأولى المرتقبة، «خلق موقفًا تاريخيًا جعل الإعلام يركز على الزوجات والأزواج على نحوٍ غير مسبوق»، هذا ما قاله فيل تراونستاین، منظم الاستطلاعات والمتحدث السابق باسم حاكم ولاية كاليفورنيا السابق جراي ديفيز.<sup>45</sup> وقد يكون هذا هو السبب في أننا وجدنا أنفسنا فجأة نسمع حديثًا مطولاً عن أمور كثيرة، سواء أكانت تُمُتُّ بصلةٍ إلى السباق الانتخابي أم لا. لننظر مثلًا إلى ما دار حول زراعي ميشيل أوباما: هل يجب أن تترك عاريتين معظم الوقت أم يجب عليها أن تغطيها؟ قالت إحدى الإعلاميات إنها بعدما رأت عضلات زراعي ميشيل الجميلتين التي

تظهر كلما ارتدت فساتينها التي بلا أكمام صارت تحتفظ بأداةٍ من أدوات رفع الأثقال وزنها خمسة أرطال على مكتبها بجوار الحاسوب.<sup>46</sup>

أو أن ميشيل توقفت عن ارتداء الجوارب التي تغطي الساق كلها؛ إذ قالت في برنامج «ذا فيو»: «توقفت عن ارتداء هذه الجوارب منذ وقتٍ طويل»، وأضافت أنها «مؤلة» جدًّا. إن سمعت البعض يتحدثون عن فكرة المشي أمام الناس بأرجلٍ عارية فستظن أن ميشيل كانت تتكلم عن حرق حمّالات الصدر كما فعلت بعض رائدات الحركة النسائية. (وقد ورد في تعليق نُشر في مدونة لين سويت، الصحفية بجريدة «شيكاغو صن تايمز»: «إن الانطباع الذي تتركه السيدة الأولى العارية الأرجل عن طريقة لبس السيدات الأمريكيات اللاتي تمثلن بلغ أقصى حدود الابتذال. لا تقولوا لي إن في هذا تجسيدًا لسياسة خفض الانبعاثات الكربونية الناجمة عن النشاط البشري. إن كانت سيندي تؤيد ارتداء هذه الجوارب [أنا واثق أنها ترتدي جوارب من ماركة «ولفورد»] فسأمنح صوتي لماكين وللسيدة الأولى التي تتمتع بقدرةٍ أكبر على تحمّل الألم ومظهر أكثر أناقة!»)<sup>47</sup>

ولنفكر مثلًا ما الغرض من أن يُطلعنا التقرير الإخباري الجماعي على أن الحائط المقابل لمنزل أوباما المبني من الطوب الأحمر، والواقع في حي هايد بارك، مغطى بالنمل الناري، وأن ابنتي أوباما تحبان اللعب برشاش المياه في الحديقة الأمامية، وأن ميشيل كانت تبدو رائعة في فستانها الأسود المعد للمناسبات الرسمية (نعم كانت ذراعاها عاريتين، وكان الفستان مفتوحًا فتحةً كبيرة من الخلف)، وكانت تصف شعرها على هيئة كعكة وهي تتوجه مع زوجها لتناول وجبة في مطعم سيباجيا، وهو المطعم الإيطالي نو النجوم الأربعة الوحيد في مدينة شيكاغو، ويبدأ سعر الوجبات فيه من خمسين دولارًا أمريكيًا. (لم تستطع الصحفية أن تُخبرنا كيف يبدو المطعم من الداخل — إذ لم يُسمح لها بالدخول — لكنها تفضّلت وضمت لتقريرها الوصف الوارد على موقع المطعم ألا وهو: «صالة طعام رائعة أرضها مصممة بشكل متفاوت الارتفاع كالمدرجات، وهي مزدانة بألوان هادئة فاتحة ومفروشات لها ألوان متناقضة تناقضًا يُبرز جمالها. بها نوافذ ضخمة يبلغ طولها ٤٠ قدمًا وهي تُطل على ناصية «أوك ستريت» وميشيجان».)<sup>48</sup>

هل نحن في حاجة إلى أن نعرف كل هذا؟ وكيف يمكن أن تسير هذه الحياة التي لا خصوصية فيها؟

بالنظر إلى هذه الأمور يصبح علينا أن نتساءل: لِمَ تفكر أي امرأة في الحصول على

لقب السيدة الأولى؟

وقد أجالت المراسلة الصحفية إيما كاوينج فكرها في الفرص المتاحة أمام المرأة التي تقف خلف «العرش» الأمريكي. إذ كتبت في مقال نُشر في صحيفة «سكوتسمان» تقول إن «دور السيدة الأولى غير واضح المعالم. ورغم محاولات الكثير من السيدات الأول السابقات، فإن ملامحه لم تتحدد بوضوح. فهو ليس له راتب، والسيدة الأولى لا تُنتخب وليست منوطة بها مهامٌ رسمية، ومع هذا فإن الالتحاق بوظيفة أثناء التمتع بهذا اللقب أمرٌ مُستهجنٌ جداً لدرجة أنه لا تُوجد سيدةٌ أولى واحدة أقدّمت على فعل هذا.»<sup>49</sup>

ولنقارن هذا بحال الملكة المتحدة حيث «تتمتع زوجة رئيس الوزراء [أو زوج رئيسة الوزراء في حالة مارجريت تاتشر] بحرية العمل ولا يعمل تحت إمرتها أي موظفين حكوميين حتى تختار هي [أو يختار هو] هذا خاصة»، حسبما تشير إيما. أما في الولايات المتحدة فإن السيدة الأولى «يكون لها مكتبها الخاص في البيت الأبيض ويعمل تحت إمرتها موظفون من بينهم مديرة للموظفين، وسكرتيرة صحفية، وسكرتير البيت الأبيض للشئون الاجتماعية، وكبير طهاة البيت الأبيض، وبالطبع كبيرة منسقي الأزهار.» (بالطبع قامت ميشيل بأدوارٍ عديدة في المدة السابقة القصيرة نسبياً من حياتها؛ إذ عملت محاميةً ومديرةً بمستشفى، وموظفةً حكومية، وعضوً مجلس إدارة، وأمًّا وزوجة، لكن لا شيء في خبرتها حتى الآن يؤهلها لأن تتعامل مع كبيرة منسقي الأزهار!)<sup>50</sup>

وتمضي إيما في مقالها مقتبسةً مقولةً ميلان فيرفير، التي عملت مديرة لموظفي هيلاري كلينتون عندما كانت هيلاري سيدةً أولى، وقد وردت هذه المقولة في كتاب سوزان جولدنبرج الذي كتبتُه بعنوان «سيدتي الرئيسة: هل أمريكا مستعدة لأن تصل هيلاري كلينتون للبيت الأبيض؟» إذ قالت إن دور السيدة الأولى دورٌ استثنائي «فالمرأة تحصل عليه بفضل زواجها وحسب، ولا تبذل الجهد لتصل إليه بنفسها.»<sup>51</sup>

صحيحٌ أنه لا توجد سيدة أولى واحدة في التاريخ حازت هذا اللقب بنفسها، لكنه من الصعب جداً على المرء في عصرنا هذا أن يقول إنهن لا يستحقّنه. ومثلما أنه من العسير جداً أن يعيش المرء تحت سمع وبصر الناس، فإنه ليس من اليسير على المرء أن يرى رفيق حياته يمزق إرباً. ومثلما قالت ميشيل أثناء المعركة الملحمية التمهيديّة مع هيلاري كلينتون: «توقّعنا أن يفتخر بيل كلينتون بالإنجازات التي حقّقها في تسعينيات القرن العشرين وأن يتحدث عن دور هيلاري في تحقيق نجاحه السابق. وهذا أسلوبٌ عادلٌ وتحّد نحن على استعداد لمواجهة.

لكن ما لم نتوقَّعه — على الأقل من زملائنا الديمقراطيين — أن يتبعوا سياسة السعي لتحقيق الفوز بأي ثمن كما رأينا أخيراً. لم نتوقَّع منهم التفوُّه بهذه الاتهامات المضلَّة التي تتعمد تشويه إنجازات باراك.»<sup>52</sup>

من الواضح أن ميشيل كانت تشير إلى التصريحات التي أدلى بها الرئيس الأسبق بيل كلينتون متهمًا فيها منافس هيلاري بتشويه الإنجاز الذي حقَّقه في العراق، وبإثارة الصراعات العرقية بهدف كسب الناخبين لصفه.

عام ٢٠٠٤م عندما كانت فكرة ترشح باراك للرئاسة لا تحتل، على الأرجح، المكانة الأولى في قائمة أولويات ميشيل، سُئلت في حوار: أيُّ السيدات الأولى هي الأكثر نيلًا لإعجابها؟ ترى ماذا كانت إجابتها في ذلك الحين؟ الإجابة هي: هيلاري رودهام كلينتون. إذ قالت: «إنها ذكية وكريمة الخلق، ولا خلاف بين ظاهرها وباطنها، وهي امرأة نجحت في تربية أطفال يبدو أنهم ناضجون رائعون.»<sup>53</sup>

بعد هذا بأربع سنوات، سُئلت ميشيل في حوار أجرته معها المذيعة كاتي كوريك في برنامج «إيفنينج نيوز» الذي يُذاع على قناة «سي بي إس» هل ترى أوجه شبه بين منافسة زوجها السابقة هيلاري كلينتون وبينها؟ فأجابت: «أنا واثقة من أن هناك بعض [أوجه الشبه]، لكنني أرى أنني مختلفة عنها، وأرى أن كلَّ سيدة أولى في تاريخ هذا البلد أضافت لمسةً فريدة من نوعها وأضافت إضافةً جديدة تمامًا لهذا المنصب. أعتقد أن ما جعلنا نصل إلى مرحلة أتمكن فيها من أن أكون معكِ هنا بصفتي السيدة الأولى المرتقبة — رغم ما أتصفُ به من صراحة ورغم أسلوبِي في الحياة والآراء التي أدلى بها — لهو تطورٌ ملحوظ.»<sup>54</sup>

سواء أكانت ميشيل ستظل على رأيها بأن هيلاري كلينتون هي السيدة الأولى المفضَّلة لديها أم لا، وسواء استطاعت أن تدرك أوجه الشبه الواضحة بينها وبين هيلاري بعد ما حدث في السباق القاسي على ترشيح الحزب الديمقراطي أم لا، يبقى السؤال هو: هل ستسير ميشيل على خطى هيلاري وتترشَّح للرئاسة؟

أجابت ميشيل: «كلا، نهائياً.»<sup>55</sup>

فمع أن صلابة عود ميشيل تزداد كل لحظة، فيبدو أنه لم يبلغ القوة الكافية بعد.

## الفصل السابع

# اللون الأرجواني

دور الموضة والمظهر في السباق إلى البيت الأبيض

ملابسنا وهيئة أجسادنا ستكشفان طبيعة الحياة التي عشناها، وإن التزمنا الصمت ولم ننسب بينت شفة.

مسرحية «كريولانس» لشكسبير،  
الفصل الخامس، المشهد الثالث

زِيُّ الرجل يعكس شخصيته.

مسرحية «هاملت»، الفصل الأول، المشهد الثالث

جاكلين كينيدي كانت تتميز بقبعاتها الصغيرة المستديرة، وأزيائها القصيرة التي صُمِّمت في بيت الأزياء شانيل. ونانسي ريجان كانت تتميز بارتداء ملابس بأكتافها بطانات، وفساتين منفوشة من تصميم بعض أفضل مصممي الأزياء في العالم. وتميّزت باربرا بوش بعقدها الشهير المصنوع من اللؤلؤ غير الأصلي، ورأسها الذي يكسوه شعرٌ أبيض جميل. وتميّزت هيلاري كلينتون بما تضعه في شعرها من رباطات (على الأقل في السنوات الأولى) وبما ترتديه من بذلات (بعد هذا). أما لورا بوش فمن الصعب أن يأتي المرء بزِيٍّ واحد مميز لها. لكن دائماً ما يبدو أن كل ما ترتديه يكون جذاباً دون بهرجة، وعملياً ومتمقن الصنع، ويتسم بأنه حسن الذوق وبسيط في آنٍ واحد؛ أي إنه يشبه الصورة المرتسمة في أذهاننا عن شخصيتها.

ماذا عن ميشيل أوباما؟ ما هو المظهر المميز لها؟ ما الذي تكشفه الملابس التي اختار ارتداؤها عن شخصيتها وعن المبادئ التي تمثلها؟ وإن أردنا اقتباس الصورة التي

وظَّفها شكسبير في مسرحيته «هاملت»، ما الذي يعكسه زيُّ ميشيل عن شخصيتها؟ وهل زيتها يحمل دلالاتٍ ما؟

بالنظر إلى ما أثارته من ضجة في عالم الموضة بصفتها السيدة الأولى المرتقبة، فإن زي ميشيل أوباما يعلن عن امرأة تحتل الصدارة، وتخطف الأبواب، وتتمتع بالقدرة على قيادة الآخرين، وعلى طرح أشياء جديدة تمامًا. وقد قالت لي آيمي فاين كولينز المراسلة الخاصة لمجلة «فانيتي فير»: «الناس لا يرفعون أعينهم عن ميشيل؛ إنها القائدة ذات الملابس الضيقة.» وأضافت: «إنها تتمتع بقوامٍ يساعدها على ارتداء ملابس رائعة. فهي تتمتع بذلك الطول الفارع، وتلك القدرة على إبهار الآخرين بمظهرها وسلوكها. وهي مختلفة عن أية سيدة أولى عرَفناها من قبل. فهي ليست مهووسة بالتزام القواعد. ولم يحظَ أي شخص يُحتمل وصوله إلى البيت الأبيض بهذا الاهتمام منذ عهد نانسي ريجان.»<sup>1</sup> تحدثتُ إلى آيمي فاين كولينز بعد أيامٍ قليلة من وضع مجلة «فانيتي فير» اسم ميشيل أوباما على القائمة التي تُعدها بأسماء أكثر السيدات أناقةً على مستوى العالم للعام الثاني على التوالي. كانت القائمة تعجُّ بأسماء المشاهير المعتادة التي من بينها أسماء ممثلين، ونجوم مجتمع، وإعلاميون. لكن الفريد في هذا العام هو عدد الشخصيات السياسية التي ورد اسمُها في القائمة، على حد قول السيدة آيمي.

قالت: «هذا ليس عام انتخابات وحسب، بل هو عام انتخابات شديد الأهمية.» ثم أشارت إلى أن النساء اللاتي وردت أسماءهن على القائمة كان من بينهن — إلى جانب ميشيل — كارلا بروني زوجة الرئيس الفرنسي نيكولا ساركوزي التي تشمل قائمة حُطَّابها الطويلة نجوم موسيقا الروك وغيرهم من المشاهير، وديانا تيلور رفيقة مايكل بلومبرج عمدة مدينة نيويورك.

وواصلت آيمي حديثها قائلة: «إن ورود اسم سيدة فرنسا الأولى التي كانت صديقة مغني الروك ميك جاك في هذه القائمة أكثر غرابة من ورود اسم سيدة أولى سوداء البشرة. هذا هو القرن الحادي والعشرون!» وأضافت: «صاروا [القادة السياسيون وقرنائهم] هم نجوم الروك والتلفاز الآن. إن هذا عصر ازدهار السياسة.» ومن الجلي أنه عصر ازدهار الموضة أيضًا.

فطوال السنة والنصف التي مرَّت منذ أن أعلن زوج ميشيل ترشُّحه للرئاسة، ظلَّت ميشيل محل اهتمام عالم الموضة.

وقد ورد في عدد مجلة «فوج» الصادر في أبريل ٢٠٠٨م: «وميشيل أوباما تطوف بولاية نيوهامبشير ملقبة خطبًا سياسية، أو تقوم بأنشطتها في جمعية نيويورك التاريخية

... كانت تضرب مثلاً للأناقة ببلوزاتها البيضاء الأنيقة، وتأثيراتها الصوفية الأنيقة.» وفي مقال بعنوان «ميشيل أوباما تضيء الحملة الانتخابية: أثبتت أنها قوة لا يستهان بها في مجال الموضة»، عُرِضَت مجموعة من الصور تظهر فيها ميشيل مرتديةً مجموعة من الفساتين والبلوزات والتنورات والبنطالات تتسم بأنها تجمع بين البساطة والأناقة وأنها أحادية اللون، وغالبًا ما تزيّن رقبتها بعقد من الخرز المستدير الصغير يتدلى في طبقة أو طبقتين.<sup>2</sup>

فها هي في مدينة دي موين ترتدي فستانًا أسود ضيقًا له أكمام تغطي ثلاثة أرباع ذراعها وتزيّن رقبتها بعقد من اللؤلؤ الأبيض. وفي أمسية عُقدت في بيفرلي هيلز، ارتدت بلوزةً بيضاء وبنطالًا أصفر مائلًا لونه إلى البني وعقدًا من طبقتين تركوازي الخرز، وصفّفت شعرها على هيئة كعكةٍ أنيقة. وارتدت هذا العقد التركوازي نفسه على معطف لونه بيج وارتدت معه حذاءً بنياً طويل الساق مصنوعًا من الجلد، وله كعبٌ طويل مدبّب، وهي زاهبة لتلقي خطبة في مدينة لاس فيجاس. وعندما كانت تقوم بالدعاية الانتخابية في دي موين في يوم صيفٍ حار، كانت ترتدي بلوزةً بيضاء وتنورةً سوداء ونظاراتٍ سوداء للوقاية من الشمس (وكانت ابنتها ساشا ترتدي فستانًا مرسومًا على مربعات يكشف ذراعيها وظهرها؛ وزوجها باراك يرتدي قميصًا أزرق بلا ربطة عنق ولا جاكيت، وكان يشمّر أكمامه). وعندما كانت تقوم مع زوجها بالدعاية الانتخابية في نيوهامبشير، كانت ترتدي بلوزةً سوداء من الكروشيه وبنطالًا أسود قصيرًا يصل إلى منتصف ساقها، وحذاءً أسود بلا كعب يشبه أحذية راقصات الباليه.

وفي مقال نُشر في ٨ يونيو ٢٠٠٨م بالقسم الخاص بالموضة بجريدة «نيويورك تايمز» ورد أنها تفضّل الخرز الكبير والأحزمة والفساتين الضيقة. ودار مقال عنوانه «أزياء ميشيل أوباما تفوز دائماً» حول رداءٍ واحد على وجه الخصوص، ألا وهو الفستان الأرجواني الزاهي الذي يتوسطه حزام والمُعد للمناسبات الرسمية، وهو الفستان الذي ارتدته عندما أعلن زوجها انتصاره في المعركة الطويلة مع هيلاري كلينتون:

عندما صعد السيد أوباما وزوجته منتصرين إلى المنصة في مدينة سان بول يوم الثلاثاء يعلنان فوز أوباما بترشيح الحزب الديمقراطي لمقعد الرئاسة، خطفت زوجة المرشح — الذي كان يرتدي واحدةً من بذلاته الأنيقة ذات اللون الهادئ التي جعلته أحد الشخصيات المفضّلة لمجلة «جينتلمانز كوارترلي»

المعنية بالموضة — الأضواء منه بعض الوقت، وهذا لا يرجع فقط إلى أنها ضربت قبضة يدها بقبضة يده أمام العالم أجمع. ما خطف الأنظار هو الفستان الأرجواني الضيق المصنوع بلا أكمام من قماش الكريب الحريري الذي صمّمته لها ماريا بيتو، المساعدة السابقة لجوفري بيني التي طالما كانت مصممة الأزياء المفضّلة لميشيل. هذا الفستان ذو التصميم البسيط، الذي يبلغ ثمنه إذا اشتريته بالتجزئة تسعمائة دولار أمريكي، ليس بالطبع من الأزياء التي يطمح إلى شرائها الناخبون الذين ينتمون للطبقة العاملة، وقد أصبح موضوع الأحاديث الجانبية.<sup>3</sup>

إذ تحدث البعض عن الحزام الذي صمّمه عز الدين عليا، وتحدث آخرون عن حجم اللؤلؤ الضخم. قال البعض إن ما جذب انتباههم هو قوة اللون، وقال آخرون إن ما لفت نظرهم هو عدم ارتدائها بعض الملابس. قال ميكى تيلور، محرر غلاف مجلة «إسنس»، لنيويورك تايمز: «كل امرأة تحدث إليها قالت إنها تتمتع بثقة حظيت بالتمكين؛ ففستانها الأرجواني وأرجلها التي أظن أنها كانت عارية من الجوارب البنية التي من الأساسي ارتداؤها تعلن بقوة: «أنا هنا لأحدث تغييراً.»<sup>4</sup>

في الواقع إن المكانة التي حظيت بها ميشيل باعتبارها شخصاً يحدّد مسار التوجّهات في عالم الموضة كان راسخاً جداً في أوائل شهر أغسطس من عام ٢٠٠٨م لدرجة أن مجلة «هاربرز بازار» المختصة بالموضة صورت إحدى أبرز رموز عالم الموضة — وهي تيرا بانكس، عارضة الأزياء الشهيرة التي صارت تقدم برنامجاً حوارياً وبرنامجاً من برامج تلفزيون الواقع حقق نجاحاً ساحقاً هو برنامج «أميركاس نيكست توب مودل» — في مجموعة من الصور تقوم فيها بدور ميشيل أوباما متخيّلة ما ستكون عليه حين تصبح سيدة أولى. وحسبما ورد في موقع مجلة «نيويورك» فإن «باراك أوباما قد لا يكون أشهر مشاهير العالم» — على عكس ما ورد في الإعلان المثير للجدل الذي بثته حملة ماكين متهمه فيه باراك بأنه غير مؤهل للقيادة وإن كان أشهر مشاهير العالم — لكن زوجته هي رمز من رموز عالم الموضة.<sup>5</sup>

وأكثر الأمور جدارة بالاهتمام في هذا الحديث الدائر عن دور ميشيل كرمز من رموز الموضة هو أن اختيارها للملابس ينبع من تفكيرها الخاص. فقد قالت كايتي ماكورميك ليليفيلد المتحدثة الرسمية باسم ميشيل أوباما: «على حد علمي فإنها لا تستعين بمصمم

أزياء»<sup>6</sup> بل عندما سألتها صحيفة «يو إس إيه توداي» عن سر الموضة الخاص بها قيل إنها قالت: «البس ما يُعجبك»<sup>7</sup>

وفي حوار مع مجلة «إيبوني» قالت إن الزينة المفضلة لديها هي: زوجها. فقالت: «بارك وأنا – بصفتنا زوجين، وصديقين وحبيبين – يزين أحدهما الآخر بأوجهٍ عديدة. فأنا أرى أنه يكون زينة لي عندما يقف مبتسمًا لي أو عندما أشاهده وهو يسخر الناس بكلامه، أو يتحدث إلى البعض في دور المسنين»<sup>8</sup>

هذه الزينة على وجه الخصوص ربما يكون من الصعب على الآخرين الحصول عليها، لكن إن أرادت امرأة أن تقلد أسلوب السيدة الأولى المرتقبة فإنها تستطيع أن تذهب إلى محل ملابس وتشتري فستانًا بسيطًا بلا أكمام معدًا للمناسبات الرسمية، فتحصل على المظهر الذي ساعد على تتويج ميشيل بلقب «القائدة ذات الملابس الضيقة» في القائمة التي أعدتها مجلة «فانيتي فير» بأسماء أكثر النساء أناقة عام ٢٠٠٨م. ووفقًا لقسم أزياء النساء في موقع About.com، فإن فستانًا ضيقًا مستقيمًا «يتميز بقصة تُبرز شكل الجسم مع خصرٍ محدّد (دون حزام أو رباط عند الخصر). وهو فستانٌ قصير (يصل إلى منتصف الساق أو أقصر)، ويناسب التصاميم بدون أكمامٍ على الأجسام المشدودة والمتناسقة»<sup>9</sup>

ويناسب جسد ميشيل بالتأكيد هذا النوع من الملابس؛ فقد قالت آيمي فاين كولينز المحررة بمجلة «فانيتي فير» إن ميشيل «تبدو امرأةً كاملةً الأنوثة. فهي تتمتع بجسدٍ رائع، وبحيوية ... عندما تنظر إليها لا يسعك إلا أن تتخيل امرأةً تجري. يكون بوسعك أن تتخيل ميشيل تجري وراء ابنتيها، فصورها ليست مجرد لقطاتٍ جامدة»<sup>10</sup>

وحسبما يقول صديقي الصحفي بن ماكنتاير فإن ميشيل «هي أكثر النساء جاذبية. فهي تتمتع بطولٍ فارح، وحركةٍ رشيقة ... وإن كنت من معارضيها، فقد تظن أنها تنظر إليك بازدراء من عل. بل إنها في الواقع تنظر إليك من علٍ لأن طولها يبلغ نحو ستة أقدام!»<sup>11</sup>

كذلك قالت السيدة آيمي إن أحد العوامل التي تجعل مظهر ميشيل شديد التفرد هو استعدادها لارتداء ألوانٍ جديدة ومختلفة، وارتداء درجاتٍ من الألوان لم نعتد رؤية زوجات السياسيين ترتديها (فهن تملن إلى ارتداء ملابس لونها أحمر أو أبيض أو أزرق، وسبب هذا واضح). قالت آيمي: «الألوان تحمل كثيرًا من القوة والجرأة، ولا شيء فيها يتخطى حدود اللياقة والأدب.»

مرةً أخرى، هنالك ذلك الفستان الأرجواني الذي صمّمته لها ماريا بينتو والذي ارتدّته عندما ألقى باراك كلمة بمناسبة فوزه بترشيح الحزب الديمقراطي لمقعد الرئاسة في سان بول. في هذا الصدد، تقول محررة الموضة، روبين جيفان، بجريدة «واشنطن بوست» التي انبهرت بشدة برداء ميشيل في تلك الليلة:

اختيار اللون الأرجواني اختياراً متميزاً لأنه ليس واحداً من الألوان الأساسية التي تُحبها زوجات السياسيين كثيراً. تاريخياً اللون الأرجواني هو لونٌ ملكي. واليوم هو لونٌ مسابير للموضة. يبدو أن ميشيل تختار ألوانها بناءً على ما يناسبها متجاهلة القواعد المتعارف عليها في عالم السياسة. ولهذا فلا عجب أن نرى عليها ألواناً غير تقليدية مثل اللون الأرجواني أو الليموني. فهي ليست مخلوقة لتكون سيدة أولى تقليدية. بل هي امرأةٌ سوداء تُراعي في ملابسها أن يجمل لون بشرتها. إذن هل نستبعد أن ترتدي درجات البرتقالي والأصفر؟<sup>12</sup>

وعندما ينظر المرء في اختيارها للألوان — اللون الأرجواني على وجه التحديد — يتذكر الرواية التي كتبها أليس والكر والتي تحمل اسم «اللون الأرجواني» (وتحوّلت بعد هذا إلى فيلم ومسرحية استعراضية). ولأنه كانت قد مرّت سنواتٌ منذ أن قرأتُ رواية والكر الرائعة لم أستطع أن أتذكر إلّام كان يرمز اللون الأرجواني. ولهذا استعنتُ بذلك المصدر السريع المسمى «ويكيبيديا» وإليكم ما توصلتُ إليه: اللون الأرجواني في رواية (اللون الأرجواني) يظهر في حوار دار بين اثنتين من الشخصيات الرئيسية حول الإيمان؛ إذ قالت شاج، إحدى الشخصيات: «أظن أن الرب ينزعج عندما يمر المرء بلون أرجواني في مكان ما، ولا يلفت ذلك انتباهه». عندما سألتها سيلي، وهي الشخصية الثانية، ماذا يفعل الرب بعد أن يُتجاهل على هذا النحو؟ أجابتها بأنه يخلق شيئاً آخر حتى يراه الناس ويلتفتوا إليه. ففي رأي شاج، كل ما يريده الله هو أن يُحبه الناس.<sup>13</sup> ووفقاً لسياق هذا الكتاب، لا بد وأن الرب كان سعيداً جداً عندما ارتدّت ميشيل أوباما فستانها الأرجواني، فلا شك في أنه لفت انتباه الناس.

وهناك أيضاً آراء تقول إن ميشيل، باختيارها ارتداء فستان أرجواني، كانت ترسل رسالة سياسية، وإن كان هذا عن غير وعي منها. فمثلما يعرف كل طفل، ومثلما أشارت صحيفة «نيويورك تايمز»، فإن اللون الأرجواني هو نتاج خلط اللونين الرئيسيين الأحمر والأزرق. هل من الممكن أن يكون هناك فكرٌ واعي وراء اختيارها ارتداء فستان له لونٌ

يرمز إلى توحيد الأحمر والأزرق (أي، على سبيل المثال، توحيد الولايات الحمراء التي تميل للتصويت للحزب الجمهوري والزرقاء التي تميل للتصويت للحزب الديمقراطي)؟ خاصةً أن هذا جاء في نهاية معركة الانتخابات التمهيدية التي كانت شديدة الطول وبالغة الألم (وهذا يستدعي إلى الذهن صورة «الكدمات» التي يكون لونها أرجوانياً هي الأخرى).

وفي مقال نُشر قبل يوم الاستقلال، في الثاني من يوليو، كتبتُ بام أدامز التي تعمل في صحيفة «بيوريا جورنال ستار» مقالاً بعنوان «بدلاً من الأحمر والأبيض والأزرق، أيمن أن يصير اللون الأرجواني لوناً لعيد الاستقلال؟»

في هذا المقال تحدثتُ بام عن اللون الأرجواني الملكي الرائع الذي اختارته ميشيل للفستان الذي ارتدته ليلة أن أصبح زوجها مرشحاً برئاسة الولايات المتحدة عن الحزب الديمقراطي. قالت: «لا مجال لأن نخطئ تفسير اختيارها ارتداء فستانٍ ذي لونٍ أرجواني تلك الليلة، أو أن نصم آذاننا أمام أصداء الخطبة التي ألقاها زوجها في المؤتمر القومي للحزب الديمقراطي عام ٢٠٠٤م فيما يتعلق باختيار هذا اللون؛ إذ قال: «يعشق ضيوف البرامج الإعلامية تقسيم بلادنا إلى ولاياتٍ حمراء أغلب سكانها من الجمهوريين وأخرى زرقاء أغلب سكانها من الديمقراطيين. لكن لديّ أنا أيضاً شيء أقوله لهم. إننا نعبد رباً رائعاً في الولايات الزرقاء، ولا نُحب أن يعبث العملاء الفيدراليون بمكثباتنا في الولايات الحمراء.»<sup>14</sup>

هل تتذكرون الحوار الذي أجرته كاتي كوريك مع ميشيل، والذي تحدثتُ فيه عن قدرة زوجها على توحيد الصفوف؟ كان نص ما قالته هو: «نحن نحتاج شخصاً يوحد صفوفنا ... هل تفهمين مقصدي؟ نحتاج شخصاً يوحد هذا البلد ... وبارك يتمتع بالقدرة على تخطي الحواجز الحزبية وعلى أن يحوّل الولايات الزرقاء والولايات الحمراء إلى ولاياتٍ أرجوانية مما سيُمكننا من تشكيل أغلبية مؤثرة في الكونجرس حيث سيُمكننا حلُّ بعض المشكلات.»<sup>15</sup>

من اللافت للانتباه أيضاً أنه بعد أن ارتدت ميشيل فستانها الأرجواني الذي يجمع بين ألوان الطيف السياسي بدأ الناس يقلدونها في ارتداء ثيابٍ أرجوانية.

فحسبما كتب إريك ويلسون في مقال نُشر في صحيفة «نيويورك تايمز» في آخر شهر يوليو فإن «قناة سي إن إن» قد لا تتفق أبداً حول: أي البرامج أفضل وأكثر اتزاناً؟ وأي ضيف من ضيوف البرامج يخضع لأية وجهة نظر؟ ... لكن فيما يتعلق بأمرٍ واحد مهم، تبني ضيوف البرامج الإعلامية الموقف نفسه على غير المتوقع. ألا وهو: اللون الأرجواني يجب أن يظهر على الشاشة.»<sup>16</sup>

كان ويلسون يتحدث عن ربطات العنق. كان جلياً أن المعلق السياسي كيث أولبرمان الذي يعمل بقناة «إم إس إن بي سي»، والمذيعين لستر هولت وبيبل أوريلي اللذين يعملان في قناة «إن بي سي»، وبيبل وكيلي رايت اللذين يعملان في قناة «فوكس»، وتشارلز جيبسون وجورج ستيفانولولوس اللذين يعملان في قناة «إيه بي سي»، والمذيع جاي لينو الذي يقدم برنامج «ذا تونايت شو» على قناة «إن بي سي» جميعهم ارتدوا ربطات عنق تتراوح ألوانها بين مختلف درجات اللون الأرجواني. كتب ويلسون يقول: «في هذه الانتخابات، كان حياء وسائل الإعلام الإخبارية محل نقاش ... ولذا بدلاً من أن يُعرض الإعلاميون أنفسهم لخطر أن يجعلهم ارتداء ملابس زرقاء أو حمراء يبدون متحيزين، اختاروا اللون الأرجواني».<sup>17</sup>

ويورد ويلسون في مقاله تعليقاً قاله تومي فازيو، المدير المسئول عن الموضة الرجالية بمتاجر بيرجودورف جودمان. فقد قال: «تدهشني رؤية هذا اللون على كل هذا العدد من الناس طوال هذا الموسم السياسي بأكمله. فهناك طرقٌ أخرى يستطيع بها الناس أن يعبروا عن عدم التحزب».<sup>18</sup> واستمر شيوع هذا المظهر طوال شهر نوفمبر حيث عُقدت الانتخابات؛ فوَقْتَمَا يفتح المرء التلفاز يجد ذلك اللون، يجد ضيفاً أو مذيِعاً يرتدي ربطة عنقٍ أرجوانية مبهرجة.

يبدو أن ميشيل هي مَنْ دشّن هذا التوجه بفستانها الأرجواني. قد لا نتوصل أبداً إلى معرفة هل اختيار ميشيل للون فستانها في تلك الليلة كان رمزياً متممداً أم إنه من قبيل المصادفة البحتة. لكن عندما ينظر المرء إلى رداؤها التالي الذي جذب إليها هذا الانتباه نفسه — إن لم يكن أكثر — يجد المرء هذا السؤال يُلح عليه. ففي ١٨ يونيو، عندما ظهرت ميشيل في البرنامج الحوارى «ذا فيو» الذي يُذاع على قناة «إيه بي سي»، كانت ترتدي فستاناً جاهزاً أسود اللون به وردٌ أبيض اشترته من متجر اسمه «وايت هاوس/بلاك ماركت» ولا أمزح في هذا.

إن كان الفستان الأرجواني الذي ارتدته ليلة أن فاز زوجها بالترشيح قد أثار جلبة كالتى أثارها حركة اليد المشهورة التى قاما بها، فإن الفستان ذا اللونين الأبيض والأسود الذى ارتدته فى برنامج «ذا فيو» أثار ضجةً واسعة لدرجة جعلت أحد الصحفيين يطلق عليها «جنون الفستان». فمنذ لحظة إذاعة البرنامج، بدأت مبيعات الفستان البالغ سعره ١٤٨ دولاراً أمريكياً تزداد بسرعة، وأعلن عددٌ من أفرع متاجر وايت هاوس/بلاك ماركت فى أنحاء البلاد أن مخزونها قد نَفد. وباعت دونا ريكو، مصممة الفستان كل ما لديها

من ملابس في غضون ساعة، وهي التي كانت تباع هذا الفستان في مقابل ٩٩ دولارًا أمريكيًا عبر موقعها على الإنترنت DonnaRicco.com، وعرض موقع المتجر - وهو WhiteHouseBlackMarket.com - صورةً للفستان في صفحته الرئيسية وأطلق عليه «فستان مستوحى من ملابس قبائل السامبورو»، ووضعت الصورة تحت عنوان «الطريق نحو أناقة البيت الأبيض».<sup>19</sup>

مثل الفستان الأرجواني، فإن الفستان الأسود ذا الورد الأبيض بلا أكمام، وهو بهذا يُبرز ذراعَي ميشيل الطويلتين جدًّا ذاتي العضلات القوية. ولأن سعره يبلغ ١٤٨ دولارًا أمريكيًا فإن تكلفته أقل كثيرًا من تكلفة معظم الفساتين التي تفضّلها زوجات السياسيين - وسعره بالتأكيد في متناول الناس أكثر من سعر الفستان الأرجواني الذي هو تجسيد لفكرة دمج الألوان الأساسية. وقد قالت متحدثة باسم سلسلة متاجر التجزئة هذه إن الفستان يبدو جيدًا على الجميع، لكنه رائع بصفة خاصة على قوام ميشيل الرشيق. أما عن السيدة دونا، مصممة الفستان، فقد ارتفعت الطلبات على تصميماتها بنسبة ٣٥٪. لكن قد يكون الأهم من هذا هو أنها محظوظة بعميلة شهيرة جدًا معجبة بها وقد تستطيع أن تمنحها فرصًا واعدة أكثر في المستقبل. (قالت السيدة دونا في ذلك الوقت إنها كانت تحلم بالفعل بيوم التنصيب الذي سيكون في يناير ٢٠٠٩ م.)<sup>20</sup>

وقد أثنت ميشيل ثناءً بالغًا على مصممة الفستان؛ إذ قالت: «ملابسها تجسد قوة المرأة وأناقتها»، وقد قيل إن ميشيل شاركت في برنامج «ذا فيو» حتى تُري أمريكا كيف يمكن أن تكون المرأة العصرية قويةً وأنيقةً في آنٍ واحد. وقد وجدت في الفستان ذي الورد خير تجسيد لهذا.<sup>21</sup>

إضافة إلى أن ميشيل نالت الاستحسان بفضل اختيار فستان جاهز يلائمها فإن المدح انهار عليها بفضل حوارها الواقعي في هذا البرنامج. فبعد أن حيّت المذيعات بحركة اليد التي اشتهرت بها، أجابت عن أسئلتهن بالصراحة المعهودة عنها، لكن لم تأت إجابةً واحدة من إجاباتها مثيرة للجدل، بل لم تكن بين إجاباتها إجابةً واحدة تستحق أن تُذكر في الصحف، حسبما قال أحد الصحفيين.

عندما سألت باربرا والترز ميشيل: هل هي فخورة ببلدها؟ أجابت: «أنا امرأة نشأت في حي بمدينة شيكاغو ينتمي سكانه للطبقة العاملة، ودعيني أخبرك أنني بالطبع فخورة ببلادي؛ فقستي لم تكن لتصبح ممكنة إلا في أمريكا.»<sup>22</sup>

عندما سُئِلت عن الطعام الذي تفضّل تناوله على الإفطار، اعترفت ميشيل بأنها من محبي لحم الخنزير المملّح. وعندما سُئِلت عن المكان الذي تستمتع فيه بالتسوق، قالت متاجر تارجيت (ووايت هاوس/بلاك ماركت). وعندما سُئِلت هل ترتدي جوارب طويلة تغطّي ساقَيْها كاملتين، ردّت أنها تكره الجوارب الطويلة وقد تخلّصت منها منذ سنوات.<sup>23</sup> (هل هذا بديل لفكرة إحراق حمالات الصدر — التي تعود لتظاهرة احتجاجية نسوية أُقيمت في الولايات المتحدة عام ١٩٦٨م ضد مسابقة ملكة الجمال — تقترحه امرأة تتمتع بالقوة والأناقة؟)

قيل إن ظهور ميشيل في البرنامج الحوارى «ذا فيو» وموضوع غلاف مجلة «يو إس ويكلي» الذي تلا هذا هما محاولتان لتعريف المشاهدين والقراء بالوجه الحقيقي لميشيل المختلف عن صورة المرأة العابسة التي تحدّق فيهم من على غلاف مجلة «ناشونال ريفيو»، وعن المرأة التي أعلنت أنها لأول مرة منذ أن صارت ناضجة تشعر بالفخر ببلاها. ولا شك في أن الورد المرسوم على فستانها ذي اللونين الأبيض والأسود أضفى بعداً جديداً أكثر أنوثة على مجموعة الألوان التي كانت تختارها فيما سبق، والتي كانت تتسم بأنها عملية وأنها لا تجمع بين لونين أبداً، وقد دعم هذا الانطباع مزاحها الودود مع المذيعات.<sup>24</sup> كتبت نيرا ليز سميت على صفحة ميشيل على موقع «فيسبوك»: «إنها مثال الجاذبية والأناقة والذكاء الخارق. لكن المبهر في الأمر هو أنها استطاعت أن تُظهر كل هذا بلا غرور ولا تحفّظ ولا استعلاء. ويقدر ما أحب جاكلين كينيدي أظن أن ميشيل أوباما أفضل منها كثيراً من حيث الأناقة.»<sup>25</sup> وفي مدوّنة «نيو ريبابليك» كتبت ميشيل كوتل تقول:

لقد شاهدت ميشيل أوباما في برنامج «ذا فيو» هذا الصباح ... لم تقل شيئاً أهلاً لأن يجذب اهتمام الإعلام، وكان أداؤها جيداً مع هاسلبيك [المذيعة المحافظة في برنامج «ذا فيو»] ... وكانت تذكر ابنتيها ساشا وماليا كلما سنحت الفرصة لهذا.»<sup>26</sup>

ردّت ميجان جاربر التي تعمل في مجلة «كولومبيا جورناليزم ريفيو» على تعليقات ميشيل كوتل قائلة: «أعيد كتابة رأيك وأقول إنها لم تقل شيئاً أهلاً لأن يجذب اهتمام الإعلام، «وكانت جميلة دون أن تكون مخيفة. لذا أقول إن أداءها كان جيداً. وهذا يعكس الكثير من الدلالات.»<sup>27</sup>

إن كانت هناك بالفعل محاولة «لتلميع» صورة ميشيل — وتعريف الناس بميشيل «الجميلة غير المخيفة» — فيبدو أن هذه المحاولة ناجحة. ففي استطلاع للرأي نشرته مجلة «نيوزويك» في ٢٣ يونيو — أي بعد خمسة أيام من ظهور ميشيل على قناة «إيه بي سي» — وُجد إن ٧١٪ من الناخبين يشعرون بأنهم استطاعوا تكوين رأي عن ميشيل، في حين قال نصف الناخبين الذين أُجري عليهم الاستطلاع إنهم لا يعرفون ما يكفي من المعلومات عن سيندي ماكين حتى يُدلووا برأيهم فيها. إضافة إلى هذا فإن الأشخاص الذين أُجرت عليهم مجلة «نيوزويك» الاستطلاع قالوا إنهم يرون أن ميشيل ستكون سيدة أولى أفضل من سيندي، وقد تبين أن ٣١٪ منهم يدعمون ميشيل و٢٥٪ منهم يدعمون سيندي ماكين.<sup>28</sup>

وعلى العكس من ميشيل التي شعر معظم الناخبين أنهم يعرفونها — إلى حد ما على الأقل — كانت سيندي يُنظر إليها على أنها لغز. وقد ورد في مجلة «نيوزويك» ما يأتي: «الكثيرون لا يعرفون عنها سوى أنها المرأة الشقراء التي تقف بجوار زوجها راسمة ابتسامة مصطنعة على شفَتَيْها، وعيناها اللبنيتان تعكسان سكينه وحباً، وغموضاً.»<sup>29</sup> (يجب القول إن سيندي دائماً ما ترتدي ملابس رائعةً غالية، ودائماً ما يكون شعرها مُصَفَّفاً بعناية شديدة، ويكون مظهرها شديد الأناقة. فيما عدا مرة واحدة، وذلك في اليوم نفسه الذي ظهرت فيه ميشيل في برنامج «ذا فيو». كانت سيندي في فيتنام في ذلك الحين مع جماعة «أوبريشن سمايل»، وهي جماعة تستعين بالأطباء الأمريكيين في مساعدة الأطفال المصابين بمرض الحنك المشقوق. وعندما ظهرت في لقاء تلفزيوني تحدثت فيه عما تعنيه لها زيارة الأطفال المحتاجين في البلد التي ظل زوجها سجيناً فيها لسنوات عديدة، كانت ترتدي قبعة من قبعات البيسبول وقميصاً أزرق غامقاً من القمصان التي تُلبس في المناسبات غير الرسمية. وكان شعرها مصففاً على هيئة تسريحة ذيل الحصان، وكان إلى حد ما أشعث، ولم تكن زينة وجهها في أفضل حال. وبدا أن عينيها اللبنيتين تنبضان بالحياة أكثر من ذي قبل وهي تتحدث عن الثمن النفسي الذي دفعته أسر رجال الجيش. ربما كانت حملة ماكين تقوم بمهمة «التلميع» الخاصة بها هي الأخرى.)<sup>30</sup>

وجاء استطلاع الرأي الذي أجرته مجلة «نيوزويك» يكشف ظهور تيار مناقض للتيار الذي كان سائداً في الانتخابات الرئاسية حتى ذلك الوقت؛ ففي الغالب كان يبدو أن الناخبين في مجموعة الانتخابات الأخيرة يفضلون السيدات الأول التقليديات (اللاتي غالباً ما ينتمين للحزب الجمهوري). ففي الانتخابات الرئاسية عام ١٩٩٦م، كان الناس

يفضلون إليزابيث دول عن هيلاري كلينتون بفارق ١٤ نقطة، وكانوا يفضلون لورا بوش عن تيريزا هاينز كيري بفارق ٢٠ نقطة. ربما كانت فساتين ميشيل (والرسائل التي ترسلها دون تعمد) تساعد على تغيير الأمور.<sup>31</sup>

فعلى أقل تقدير، فإن الضجة التي أثيرت حول الفساتين أدت إلى زيادة مبيعات عدد كبير من الصحف والمجلات. ومثلما ظلت النساء تصطف في طوابير في محاولة لشراء الفستان ذي اللونين الأبيض والأسود، أبت وسائل الإعلام أن تدع بريق حكاية ميشيل أوباما مع الموضة يخبو. وفي مقال نُشر في ٢٣ يونيو عن الفستان، اقتبست وينيدي دوناهو، الكاتبة المختصة بالموضة في صحيفة «شيكاغو تريبيون»، ما ورد في مجلة «سليت» التي تُنشر عبر الإنترنت وقالت: «سوف يتساءل ضيوف البرامج الإعلامية: هل هذه إشارة إلى وحدة الأسود والأبيض مشيرين إلى أن اسم المتجر — ألا وهو البيت الأبيض/السوق السوداء — يجعلنا نستحضر في الأذهان شارع بنسلفانيا أفينيو حيث يقع البيت الأبيض.»<sup>32</sup>

توم جوليان رئيس شركة «توم جوليان جروب»، وهي شركة تتخذ من نيويورك مقراً لها وتعمل في تقديم الاستشارات الخاصة بالعلامات التجارية، قال لصحيفة «وول ستريت جورنال»: «أضعها في مصاف المذيعة أوبرا وينفري من حيث الجاذبية.» وعندما كان توم يتحدث إلى مدونة «ديش راج»، وهي مدونة تنشرها صحيفة «لوس أنجلوس تايمز»، قال إن ميشيل «ستجعل الملابس الرياضية الأمريكية ذات السعر المعقول تحتل الصدارة»، وإن هذا لا بد وأن يكون «جذاباً جداً لمن ينتمون للطبقة الوسطى من الناخبين الأمريكيين.»<sup>33</sup>

وقد ورد في برنامج «توداي شو» الذي يُعرض على قناة «إن بي إس»، أن ميشيل بدأت نوبة «جنون بالستان»، وأن الصحف في البلاد الأجنبية كانت تكتب عن ميشيل أوباما التي أثارَت ضجة في عالم الموضة. وفي اليوم الذي تلا إذاعة برنامج «ذا فيو» نشرت جريدة «نيويورك تايمز» وغيرها من وسائل الإعلام موضوعاتٍ حول مجلة «فوج إيطاليا»، وهي النسخة الإيطالية من مجلة الموضة التي تُنشر في الولايات المتحدة، والتي استعانت بعارضات أزياء كلهن تقريباً من السود في عددها الصادر في شهر يوليو وركّزت على موضوعاتٍ متعلقة بالمرأة السوداء في الفنون ووسائل الترفيه. وقد قالت رئيسة تحرير المجلة فرانكا سوزاني إنها انبهرت بمعركة الانتخابات الرئاسية الأمريكية وانزعجت من غياب التنوع بين عارضات الأزياء. أيضاً في الطبعة التي صدرت من مجلة

«فوج» الأمريكية في شهر يوليو ورد مقالٌ عن نقص عارضات الأزياء السوداوات في عالم الموضة.<sup>34</sup>

لكن مع الضجة الإعلامية ونتائج آخر الاستطلاعات التي أُجريت عن السيدات الأول، فلم تنجح ميشيل في كسب ود الجميع. ففي عطلة نهاية الأسبوع التي تلت إذاعة برنامج «ذا فيو» مرت علينا صديقة لتزورنا. وعندما رأَت على رخام المطبخ نسخة من مجلة «يو إس ويكلي» تظهر على غلافها ميشيل وباراك أوباما أكدت أن والدتها تكره ميشيل كراهيةً شديدة، فسألْتُها «لم؟».

قالت صديقتي: «تكره رؤية ذراعيها العاريتين اللتين لا تغطيهما أبدًا». قلتُ لصديقتي: «حسنًا لو كانت لديّ ذراعان مثلها لما ارتديتُ ثيابًا لها أكمام أبدًا.» قالت صديقتي إن السبب الحقيقي وراء بُغض والدتها لميشيل هو أنها لا تزال حزينة لهزيمة هيلاري كلينتون، وإن لم تفصح عن هذا. فلأن والدتي صديقتي إحدى سكان نيويورك المتقدمين في السن، فقد كانت تتوق إلى رؤية عضو مجلس الشيوخ عن ولايتها تصبح أول رئيسة أنثى. وبعد أن خاب أملها في هذا صارت تأمل في أن تراها تصبح أول نائب رئيس أنثى على الأقل. لكن والدتها كانت ترى أنه ما دامت ميشيل تضع قدمها في البيت الأبيض فلن يُتاح لهيلاري كلينتون فرصة كبيرة في أن تجد لها مكانًا هناك. فلا يوجد في البيت الأبيض مكان لامرأتين شديتَي القوة. (لم أعرف أبدًا ما إذا كانت متفاجئة أم مسرورة عندما عينها الرئيس أوباما وزيرة للخارجية.)

وجاءت مفارقة؛ ففي صيف عام ١٩٩٢م كانت هيلاري في الموقف نفسه الذي وجدت ميشيل نفسها فيه في صيف عام ٢٠٠٨م. فبعد أن أدلت هيلاري ببعض التصريحات التي جعلت بعض الناخبين، إن لم يكن معظمهم، يرون أنها زوجة «مغرورة» — هذه هي الكلمة التي وظفها أحد الصحفيين في وصف الزوجات من أمثالها — وجدت أنها في حاجة إلى «تلميح» صورتها. ومثلما ظهر أوباما وزوجته على غلاف مجلة «يو إس ويكلي»، التُقِّطت لها هي وزوجها بيل وابنتها تشيلسي صورة لتُرفق بموضوع غلاف مجلة «بببول»، مما أظهر للعالم الجانب الأسري لحياة هيلاري وبيل، الزوجين المشتغلين بالسياسة.

كُتِبَت أليساندرا ستانلي في صحيفة «نيويورك تايمز»:

في البداية كانت السيدة ميشيل تُشَبَّه بجاكي كينيدي من حيث الشباب والأناقة، لكن بعد هذا صارت المرأة الأمريكية ذات الأصول الأفريقية القوية والواثقة من

نفسها العاملة في المجال العام تتعرض للسخرية نفسها المعادية للمرأة، التي تعرّضت لها السيدة هيلاري كلينتون في حملة عام ١٩٩٢م عندما زل لسانها وتحدّثت عن إعداد الحلوى.<sup>35</sup>

كتبت أليساندرا تقول إن ميشيل قامت بمحاولة لإبعاد نفسها «عن هذا النموذج عبر برنامج «ذا فيو»، إذ وصفت نفسها بأنها أم ولم تذكر اشتغالها بالمحاماة أو آراءها عن السياسة.» لكنها أيضاً تعمدت مدح المنافسة السابقة لزوجها على ترشيح الحزب الديمقراطي، واصفةً إياها بأنها «رائدة، ومؤكدة أن التحيز ضد المرأة كان من الأمور التي لاحت في الأجواء أثناء سعيها للفوز بالترشيح لمقعد الرئاسة، ومادحةً شجاعتها»، حسبما كتبت أليساندرا.<sup>36</sup>

ومن الأهمية بمكان أن ميشيل أيضاً أوفت هيلاري كلينتون حقها من الشكر على أنها حملت لواء الريادة وكانت قدوة لابنتيها. فقد قالت: «وهذا لن يحدث إلا عندما تتحمل النساء من أمثالها الهجوم، وهذا مؤلمٌ وجارحٌ لكنها تتحمّل هذا لكيلا تجد ابنتاي الأمر على مثل هذا السوء عندما تتصدّيان لهذا.»<sup>37</sup>

حسناً، لننظر فيما قلنا ... فستانٌ أرجواني يرمز إلى وحدة الولايات الزرقاء والحمراء، وفستان به اللونان الأبيض والأسود يمثل وحدة المواطنين البيض والسود. هل يمكن أن يكون لديها فستان — أو بذلة ربما — تمثل على نحو ما حزباً ديمقراطياً ملتئم الشمل مُداوى الجراح، حزباً يتعاون فيه الجميع في ظل احترام وإعجاب متبادلين بصرف النظر عن الجنس؟ هل الفستان الأخضر الذي ارتدته ليلة أن تحدّثت في المؤتمر يؤدي هذا الغرض؟ ترى ماذا سترتدي ميشيل يوم التنصيب؟ هذا سؤال لا يستطيع المرء أن يصرفه عن ذهنه.

## الفصل الثامن

# قضايا العرق والجنس والعمر

### وداعًا للمخاوف

ستبقى انتخابات عام ٢٠٠٨م خالدة في الأذهان باعتبارها انتخابات الأحداث الأول. ففي هذا العام قد تنتخب البلاد أول رئيس أمريكي ذي أصول أفريقية، أو أول امرأة لمنصب الرئيس، أو أكبر رئيس في التاريخ يُنتخب لأول فترة رئاسية له. وأياً كانت نتيجة الانتخابات، فإنها ستكون نتيجة تاريخية. وأياً كانت نتيجة الانتخابات، فإن قضايا العرق و/أو التحيز الجنسي و/أو التحيز ضد كبار السن ستُثار حتمًا.

انطلقت أولى صيحات الاعتراض على ما رأى الناس أنه تعصبٌ بعد أيام من رجحان فوز باراك أوباما بترشيح الحزب الديمقراطي. بل بعد أن ألقى هيلاري كلينتون خطاب قبول الهزيمة أمام باراك وحثت مؤيديها على أن يمنحوا ولاءهم ودعمهم لمنافسها الديمقراطي السابق، كان كثيرون من أشد مؤيدي هيلاري كلينتون ولاءً لا يزالون يرفضون هذا رفضًا قاطعًا.

وانضم مؤيدوها بعضهم إلى بعض مشكلين مجموعات؛ منها على سبيل المثال مجموعة المؤيدين التي أطلقت على نفسها اسم «بوماس» PUMAs اختصارًا لاسم Party Unity My Ass؛ وتعاون آخرون في تدشين موقع اسمه JustSayNoDeal.com ليكون ملتقىً للأشخاص الساخطين على الحزب الديمقراطي بسبب طريقة إدارة الانتخابات التمهيدية وما آلت إليه نتيجة هذه الانتخابات. كما كان هناك المشروع الذي أُطلق عليه «أوبيرشن دونيشن فاكيشن»، والذي كان في الأساس بمنزلة دعوة لإرسال شيكات للحزب الديمقراطي يكون المبلغ المكتوب عليها هو صفر دولار كشكل من أشكال الاحتجاج، هذا إلى جانب عددٍ كبير من المحاولات الأخرى التي كان الهدف منها معاقبة الحزب على ما يرى المؤيدون أنه ظلم للسيناتور هيلاري كلينتون.<sup>1</sup>

كان سيل الشكاوى المملة متنوعًا، لكن الأمر المشترك بين جميع الأشخاص الذين رفضوا أن ينضموا للصف ويقفوا وراء باراك أوباما هو الغضب من فشل الحزب الديمقراطي في مواجهة أشكال التحيز الجنسي التي تكرر ظهورها أثناء الحملة الانتخابية. وسواء اتفقت مع رأيهم أم اختلفت (فهناك كثيرون لا يتفقون مع ما سأقول، ولتنتظر كيف هاجم الناس المذبة كاتي كوريك التي تقدم برنامج «إيفنينج نيوز» على قناة «سي بي إس» بعد أن قالت: «شئنا أم أبنينا، إن أحد أهم الدروس المستفادة من تلك الحملة هو أن دور التحيز الجنسي في الحياة الأمريكية مستمر — ومسكوت عنه — وخاصة في وسائل الإعلام») فإن الدلائل على أن التحيز الجنسي كان ظاهرًا في انتخابات عام ٢٠٠٨ م يصعب جدًا إنكارها. ومن أمثلة هذا:

- في ٢٠ مارس عام ٢٠٠٧ م قال المذيع توكر كارلسون الذي يقدم برنامج «توكر» بقناة «إم إس إن بي سي»: «هناك شيء في [هيلاري كلينتون] يبدو وكأنه يسلب المرء رجولته، ويوحي بالطغيان، ويبعث على الخوف».<sup>2</sup>
- في السادس عشر من يوليو عام ٢٠٠٧ م قال توكر: «عندما تظهر [هيلاري] في التلفاز أجد نفسي أضع ساقًا على الأخرى تلقائيًا».<sup>3</sup>
- في التاسع من يناير عام ٢٠٠٨ م، قال كريس ماثيوز في برنامج «مورنينج جو»، الذي يُذاع على قناة «إم إس إن بي سي»: «أظن أن جاذبية هيلاري تكمن في أنها اجتمع لها التمتع بالقوة والتحلي بتعاطف الناس. ودعونا لا ننسى — ولعلي أكون قاسيًا حين أقول هذا — أن سبب توليها عضوية مجلس شيوخ الولايات المتحدة، والسبب الذي جعلها تصبح مرشحة للرئاسة، والسبب الذي قد يمنحها فرصة كبيرة في الفوز هو أن زوجها خانها. هذا هو ما جعلها تصبح عضوًا بمجلس الشيوخ عن نيويورك. لكننا دائمًا ما نَغْفَلُ عن هذا. إنها لم تَفُزْ لأنها تستحق الفوز». بل إن ماثيو تيمادى في هذا قائلاً: «لقد فازت لأن الجميع قالوا: «يا إلهي، هذه المرأة لم تحن ظهرها أمام ما تعرضت له من إهانة!» أليس كذلك؟»<sup>4</sup>
- قال مايك بارنيكل، أحد ضيوف قناة «إم إس إن بي سي»، إن السيناتورة هيلاري كلينتون بدت مثل «زوجة أولى تقف خارج محكمة التحق من صحة الوصايا».<sup>5</sup>
- وفي ٣٠ مايو عام ٢٠٠٨ م، تحدث جلين بيك، مقدم البرامج في قناة «هيدلاين نيوز» التابعة لقناة «سي إن إن»، عن تجربة الاستماع للسيناتور هيلاري، وذلك في برنامج «جود مورنينج أمريكا» الذي يُذاع على قناة «إيه بي سي»، قال: «كنا نشاهد

واحدًا من لقاءاتها، أو خطبها، أو أيًا كان هذا الذي كانت تفعله، وكانت تتحدث بنبرة الصوت هذه التي تبدو مثل [هنا، يضع يديه على أذنيه] ... لا أطيق سماعها لأنها تشبه صوتَ زوجتي وهي تقول لي: «فلتأخذ القمامة للخارج».<sup>6</sup>

- ومن يستطيع أن ينسى السؤال الشهير الذي طرحه روش ليمباو في السابع عشر من ديسمبر عام ٢٠٠٧م؛ إذ قال: «هل يرغب الأمريكيون في مشاهدة امرأة تشيخ أمام أعينهم يومًا بعد يوم؟»<sup>7</sup> (أفترض أن دلالة هذا السؤال هي أن رؤية رجل يشيخ أهون على العين من رؤية امرأة تشيخ، أليس كذلك؟)

خصّصت المنظمة الوطنية للمرأة مساحةً على موقعها الإلكتروني تحت عنوان «قائمة العار لوسائل الإعلام في انتخابات ٢٠٠٨م» لتسرد فيها ما ترى أنه أبشع ما تجلّى في وسائل الإعلام من صور التحيز ضد المرأة أثناء الانتخابات (العديد من التصريحات التي اقتبسناها في الأعلى واردة على الموقع). وبدءًا من مستهل شهر أغسطس سجّل هذا الموقع تسعًا وعشرين إساءةً من هذا النوع، كان ثلاثٌ وعشرون منها متعلّقةً بهيلاري كلينتون تحديدًا، والبقية كلها تقريبًا متعلّقة بميشيل أوباما. هذه الإساءات من بينها: الشريط الذي وُصفت فيه ميشيل بأنها «صاحبة باراك»، والنقد اللاذع الذي وجّهه الصحفي كال توماس لـ «النساء السوداوات الغاضبات» (وسأتناول هذا بالتفصيل فيما بعد)، والمقارنة التي عقدها جاري لانجر بين السيدتين الأوليين المرتقبتين — ميشيل أوباما وسيندي ماكين — على قناة «إيه بي سي»، وتصريح أدلى به لارس لارسون في برنامج «فيرديكت ويز دان أبرامز» الذي يُذاع على قناة «إم إس إن بي سي» وأشار فيه إلى أن ميشيل أوباما «مُنحت تعليمها الجامعي على طبقٍ من فضّة». وقال أيضًا إن الوظيفة التي تشغلها في المستشفى لا تتطلب منها أداء أية مهام.<sup>8</sup>

وحين كانت كيم جاندي، رئيس المنظمة، تتحدث عن الموقع قالت إن أعين الأعضاء بالمنظمة لن تغفل عن أية وقائع خاصة بالإساءة إلى النساء في الإعلام، وإن كانت هيلاري كلينتون قد خرجت من السباق. قالت كيم: «سنظل نراقب الوضع لأننا نعتقد أن ميشيل أوباما ستعرض للهجمات نفسها التي تعرضت لها هيلاري».<sup>9</sup> (وبحلول منتصف شهر أكتوبر كان اسم سارا بالين أيضًا قد ظهر على القائمة أكثر من مرة.)

وفي أعقاب خطاب اعتراف السيناتور هيلاري بالهزيمة أمام أوباما، دعا هوارد دين، رئيس الحزب الديمقراطي، إلى عقد نقاشٍ وطني حول التحيز ضد المرأة، وربما تكون هذه الدعوة قد جاءت نتيجة لردود الأفعال الساخطة التي أظهرها مؤيدو هيلاري.<sup>10</sup> وفي

حوار أجرته معه جريدة «نيويورك تايمز» أقرَّ بأن الإعلام تبنيَّ توجهًا شديد التحيز ضد حملة السيناتور هيلاري. بل إنه وصف هذا التوجُّه بأنه «مثير جدًّا للفرع» مشيرًا إلى أن السيدة هيلاري لقيت المعاملة نفسها التي لاقتها الكثير من النساء على مر حياتهن. أيضًا أقر السيد هوارد بأن رد فعله تجاه ما حدث من تحيز جاء بطبيئًا وذلك لأنه ليس ممن يديمون متابعة التلفزيون الكابلي.

وحسبما أشارت جريدة «تايمز» في مقال نُشر في ١٣ يونيو ٢٠٠٨م تحت عنوان «وسائل الإعلام متهمة بالتحيز الجنسي فيما يخص هيلاري كلينتون»، فإن هيلاري كلينتون نفسها قد تكون هي مَنْ بدأ الحوار حول التحيز الجنسي في خطاب الاعتراف بالهزيمة أمام باراك الذي ألقته إذ قالت: «المرأة تستحق أن تحظى باحترامٍ مماثل للذي يحظى به الرجل، وتستحق أن تتقاضى راتبًا مساويًا للراتب الذي يتقاضاه الرجل» وأضافت أنه ليست هناك صورٌ مقبولة للتحيز في أمريكا في القرن الحادي والعشرين. ومن الجدير بالذكر أن جريدة «تايمز» استشفت من قول هيلاري «ليست هناك صور مقبولة للتحيز» أنها كانت تشير إلى المبدأ الذي ساد أثناء الحملة الانتخابية، والذي كان مقتضاه أن البلاد ستتسامح مع التحيز الجنسي لكنها لن تتسامح مع العنصرية.<sup>11</sup>

وهذا يقودنا إلى القضية الثانية، وهي قضية الأعراق والعنصرية أثناء انتخابات ٢٠٠٨م. صحيح أن المبدأ الذي ساد أثناء الانتخابات ربما يتمثل في أنه لن يُتسامح مع العنصرية، لكن مثلما يسهل إيراد سيل من الأمثلة على حدوث التحيز الجنسي، فإن عددًا كبيرًا من الملاحظات والصور والتلميحات العنصرية ظهر أثناء الانتخابات الرئاسية عام ٢٠٠٨م.

ودعونا نبدأ بأمثلة التحيز الجنسي التي تدور حول ميشيل أوباما ووردت على موقع المنظمة الوطنية للمرأة. لنأخذ تعبير «الأم الصغيرة لأوباما» مثالًا. لقد قلنا بالفعل إن تعبير «الأم الصغيرة» هو تعبيرٌ عامي عادةً ما يشير إلى امرأةٍ غير متزوجة أنجبت دون زواجٍ رسمي من والد ابنها. تقول موسوعة «ويكيديا» إن المصطلح نشأ في جامايكا وإنه يستخدم بصورة عامة في أوساط الأمريكيين من أصولٍ أفريقية، مع أن الفيلم الذي أنتج في صيف ٢٠٠٨م بعنوان «الأم الصغيرة» (بيبي ماما) كان يحكي قصة امرأةٍ بيضاء وأمٍ بديلة بيضاء.<sup>12</sup>

وقد ذكر فنان الهيب هوب ناصر جونز الشهير باسم «ناز» هذه الواقعة عندما انضم إلى MoveOn.org وإلى موقعٍ آخر هو ColorOfChange.org في محاولة للحصول على

٦٢٠ ألفاً من التوقيعات التي تُرسل إلى قناة «فوكس نيوز» مطالبةً إياها بإنهاء سلسلة الهجمات العنصرية التي تقوم بها ضد الأمريكيين السود. وكتب ناز أغنيةً جديدة بعنوان «الثعلب الماكر» (سلاي فوكس) تدعو كلماتها الناس إلى إعادة النظر فيما يشاهدونه من قنواتٍ مسمومة.<sup>13</sup>

ومن الجدير بالذكر أن القناة قالت إن محرراً استند إلى «رأي غير صائب» في وصفه ميشيل بأنها «أمٌ صغيرة»؛ ولذا ربما يكون من الممكن القول إن هذه الإساءة لم يتم التساهل معها في النهاية. ومع هذا فقد سُمح بعرض هذا الشريط على التلفزيون القومي، وعلى قناة «فوكس» التي تتخذ من كلمتي «العدل والتوازن» شعاراً لها. والمثال الثاني الذي أوردته موقع المنظمة الوطنية للمرأة هو مقارنة عُقدت بين السيدتين الأوليين المرتقتبتين ميشيل أوباما وسيندي ماكين. وتُعد العنصرية أقل وضوحاً في هذا المثال.

ونقصد بهذا ما قاله لارس لارسون على قناة «إم إس إن بي سي». وإليكم ما قاله في سياق حديثه عن الوظيفة التي تشغلها ميشيل في مستشفيات جامعة شيكاغو، والتي لا تقوم فيها بأداء أي عمل: قال لارسون إن ميشيل «لديها الكثير لتقوله عن بلدٍ منحها تعليمًا فائق التميز في إحدى جامعات رابطة «أيفي ليج» ... هل تستحقه حقاً؟! أم إنها وصلت إليه عن طريق برامج رعاية المحتاجين وسياسة السعي لتحقيق التنوع؟ أمرٌ قذر». يبدو هذا شبيهاً ببعض الشيء بالآراء التي كانت ميشيل وبعض زملائها الأمريكيين ذوي الأصول الأفريقية يلاحظون أن زملاءهم البيض يتبنونها في كلية الحقوق وفي الجامعة، مثل الرأي القائل بأن سياسة التمييز الإيجابي ربما تكون قد أعطت الطلاب المنتمين للأقليات ميزة على حساب طلاب آخرين مؤهلين أكثر منهم لكنهم ليسوا من الأقليات.<sup>14</sup> وأخيراً نأتى إلى النقد اللاذع الذي وجَّهه كال توماس للنساء السوداوات الغاضبات. وإليكم سياق هذا: في الرابع عشر من يونيو؛ أي قبل أن يفوز زوج ميشيل بالترشيح بأحد عشر يوماً، أذيع مقطع الفيديو الخاص بما قالته ميشيل عن فخرها ببلادها في إحدى فقرات برنامج يُذاع على قناة «فوكس نيوز». وقد أطلع المذيع جون سكوت ضيفه — وهو الكاتب الصحفي كال توماس الذي ينشر كتاباته في عدد من الصحف — على غلاف مجلة «ناشونال ريفيو» الذي جاء بعنوان «السيدة الشكَّاءة» (الذي تظهر فيه ميشيل أوباما عابسة)، قائلاً إنه يبدو أن بعض الشخصيات القوية جداً في الإعلام كوَّنت رأياً عن ميشيل أوباما بالفعل قبل بدء الانتخابات العامة.<sup>15</sup>

ولا شك في أن ضيف سكوت هو واحد من الشخصيات الإعلامية التي أشار إليها، وذلك لأن رده جاء كما يأتي: «في هذه الحملة يُطلب منا أن نقبل ثلاثة أمور في آن واحد: أول امرأة تتمتع بفرصة قوية في أن تصبح رئيسة، وأول أمريكي من أصول أفريقية يتمتع بفرصة في أن يصبح رئيسًا، والسيدة الأولى السوداء الغاضبة ميشيل أوباما، أيًا كان اللقب الذي ستحصل عليه. هذا أكثر مما يُحتمل.»

لكن الكاتب توماس بدلاً من أن يكف عن هذا، تهادى فيه أكثر، وتحدّث عما وصفه بأنه الصورة الشائعة للمرأة السوداء الغاضبة على شاشة التلفاز. فقد قال: «على الصعيد السياسي نجد النائبة الليبرالية ماكسين ووترز التي تنتمي إلى الحزب الديمقراطي وتشغل عضوية مجلس النواب، وهي تبدو غاضبة كلما أطلت علينا من التلفاز. وسيندي مكيني هي امرأة سوداء غاضبة أخرى. ومنهن النساء السوداوات اللاتي يراهن المرء في برامج الأخبار المحلية ليلاً في المدن في جميع أنحاء البلاد؟ إنهن غالباً ما يُكنَّ غاضباتٍ من أمر ما. فهن إما يُكنَّ قد فقدن ابناً أطلق عليه شخصُ الرصاص من سيارة وهو يمر بجواره، أو يكن غاضباتٍ من بوش. وبهذا لا يجد المرء في ذهنه صورة لامرأة سوداء غير غاضبة.»<sup>16</sup> حقا؟ لا تجد البتة؟ ألا يجد المرء في ذهنه صورة واحدة لامرأة سوداء غير غاضبة؟ إن كانت هناك امرأة لم تغضب حتى هذه اللحظة فإن هذه العبارات قد تُثير سخطها. وهناك عددٌ كبير من الأمثلة الأخرى لم ترد على الموقع، ومنها:

- الادعاءات حول الشريط الخاص بعبارة «الحثالة البيض» الذي لم يظهر له أثر. فقد زعم الخبير السياسي روجر ستون في حوار أجري معه في قناة «فوكس نيوز» أثناء الانتخابات التمهيدية ببورتوريكو أن هناك شريطاً تظهر فيه ميشيل وهي تنطق بهذه العبارة. فبدأت الشائعات تنتشر عبر الإنترنت، لكن ستون أقرّ بعد هذا بأنه لم يقابل أحداً شاهد هذا الشريط. وحسبما نعرف، فإن الشريط لم يظهر إلى الوجود قط، وقد أنكرت حملة أوباما أن تكون ميشيل قد نطقت بهذه الكلمة أو أن يكون للشريط وجود.<sup>17</sup>
- والضجة التي ثارت حول حركة اليد. «هل هي حركة يد؟ أم ضربة قوية؟ أم لكمة إرهابية؟ يبدو أن لكل شخص رؤيته المختلفة لهذه الحركة.» هذه هي العبارة التي قدّمت بها إديث هيل المذيعة بقناة «فوكس»، فقرة عن لغة الجسد بعد قيام أوباما وزوجته بحركة اليد السيئة السمعة هذه.<sup>18</sup>

- ثم تأتي العبارة المستفزة التي نطق بها مذيعة قناة «فوكس» بيل أوريلي بعد أن علم بأمر ما قالته ميشيل عن فخرها ببلادها. فقد قال في عبارة مشهودة: «لا أريد أن أنضم لمن يريدون التنكيل بميشيل أوباما إلا عندما تظهر أدلة وحقائق دامغة تكشف عن أن هذه هي مشاعرها الحقيقية.» اعتذر أوريلي بعد هذا عما قاله، فهل هذا الاعتذار علامة على أنه لن يتم التساهل مع العنصرية؟<sup>19</sup> هذه واقعة أخرى من الوقائع التي أوردها مغني الراب ناز وغيره في حيثيات قرارهم بالانضمام إلى الاحتجاج على «فوكس». وحسبما يقول جيمس راكر المدير التنفيذي لموقع ColorOfChange.org: «عندما تتحدث قناة «فوكس» عن التنكيل بالمرأة التي قد تصبح عما قريب السيدة الأولى ثم تشير إلى هذه الزوجة والأم بأنها «الأم الصغيرة» لأوباما، فإنها تكون بهذا لا تُسيء إلى أوباما وزوجته فحسب، بل إلى جميع النساء والرجال السود في جميع أنحاء هذا البلد.»<sup>20</sup>
- الادعاء، الذي رُوِّج له بهمة عالية من قبل رجل الأعمال (الذي سيتحول قريباً إلى سياسي) دونالد جيه ترامب، بأن السيد أوباما لم يكن مواطناً أمريكياً.

من المثير هنا أن نتذكر أنه في بداية الحملة الانتخابية مرّت مدةٌ وجيزة كانت ميشيل أوباما تتمتع فيها بحب الإعلام لها. ولنتذكّر المدح الذي أُعِدق عليها بعد حوارها الأول في برنامج «لاري كينج لايف» وأدائها في برنامج «ذا كولبرت ريبورت»، هذا إضافة إلى الطريقة التي كانت وسائل الإعلام تتحدث بها عن قدرتها على التواصل مع الناخبين والأشخاص الذين من المحتمل أن يتبرعوا للحملة.

لكن فور أن بدأت حملة زوجها توتّي ثمارها، أدلت ميشيل بالتصريح الذي قالت فيه إنها تشعر بأنها فخورة ببلادها لأول مرة منذ أن صارت ناضجة، وقالت إن أمريكا أحياناً تكون «خسيصة جداً»، وقالت: «على مدار حياتي رأيت أن حياة المواطن العادي ظلت تسير من السيئ إلى الأسوأ.»<sup>21</sup>

للهولة الأولى يشعر الكثيرون أن هذه العبارات ليست شديدة السوء (خاصة عندما ننظر إليها في سياق ما كانت ترمي إليه، وعندما ننظر إلى ما كان يتعيّن عليها أن تقوله بشأن حال الاقتصاد بعد أن صارت لدينا فرصة تقييم الموقف بعد التطورات التي طرأت على الاقتصاد.) ومع هذا، فور أن نطقت بهذه الكلمات بدأ الحديث الذي كان دائراً حولها يشهد تغيراً، وفجأة أصبحت النصف المر لأوباما والسيدة الشكّاءة. لماذا؟

في مقال رأي نُشر في ٢٣ يونيو بجريدة «ساكرامنتو بي» أعملَ روبين نافاريتي فكره في هذا السؤال وفي سخافته. فقد كتب يقول: «صارت ميشيل أوباما تُقدّم للناس على أنها سيدةٌ سوداءٌ غاضبة. ويا لهذا من تشويهٍ سخيف. هذا إلى جانب كونه مضللاً. ففي أثناء نشأة ميشيل أوباما في المنطقة الجنوبية من شيكاغو كانت على الأرجح تُتهم بأنها «تتصرف كالبيض» لأنها تفوقت دراسياً والتحقّت بجامعتين من الجامعات التابعة لرابطة «آيفي ليغ». لكنها الآن صارت — فجأةً — واحدةً من أعضاء جماعة النور السود».<sup>22</sup> قد كتب روبين هذا قبل أن يظهر غلاف مجلة «نيويورك» في أكشاك الجرائد وفي صناديق البريد الإلكترونية بنحو شهر.

في المقال الذي كتبه روبين تحت عنوان «ميشيل أوباما تحت اللهب ولكن الأسباب ليست وجيهة» طرح السؤال الأزلي: كيف تُضخّم الأمور؟ إذ تساءل: «كيف يؤدي بنا قولُ امرأةٍ إنها صارت أخيراً تشعر بالفخر ببلادها إلى افتراض أنها تُكرِّ ضغينة للبيض وتنطق بكلمات مثل «الحتالة البيض»؟»

تُرى ما الإجابة التي طرحها؟ «هذه لا تؤدي إلى تلك. هذا ما لم تُدخل الانحياز والخوف في الأمر. وبالفعل هذا معهود في السياسة الأمريكية. لكنه يؤدي إلى طريقٍ مسدود من الحكمة أن نتجنّب.»<sup>23</sup>

لم يكن روبين الوحيد الذي طرح هذا السؤال وتوصّل إلى الإجابة نفسها. ففي الخامس والعشرين من يونيو: أي بعد نشر نتائج الاستطلاع الذي قامت به جريدة «واشنطن بوست» وقناة «إيه بي سي نيوز» كاشفة عن أن ثلاثة من كل عشرة أمريكيين يُقرُّون بأنهم «تراودهم بعض مشاعر التحيز العرقي، على أقل تقدير»، قدّمت ميشيل مارتين فقرة في برنامج «تل مي» الذي يُبث على الإذاعة العامة الوطنية الأمريكية حول الصورة التي تُقدّم بها المرأة الأمريكية ذات الأصول الأفريقية في الإعلام، وتحديداً الصورة التي قدّمت بها ميشيل أوباما حديثاً. وأشارت إلى أن ميشيل وُصفت بأنها «مغرورة وغير وطنية وساخطة»، وسألت ضيفتها من مجلتي «إيبوني» و«إسنس»: «هل سبق ورأيتما شخصاً أمريكياً ذا أصولٍ أفريقية أثارت صورته مثل ردود الفعل هذه مع أنه ليس اللاعب الأساسي على الساحة، فهي ليست المرشحة؟»<sup>24</sup>

أجابت بالنفي القاطع كلٌّ من هاربيت كول، مديرة الإبداع الفني في مجلة «إيبوني»، وتاتشا روبرتسون المحررة الإخبارية بمجلة «إسنس».<sup>25</sup>

قالت السيدة هاربيت: «قطعاً لا، أظن أن ما يحدث الآن هو أن أمريكا — وربما العالم أيضاً — في حالة صدمة بسبب وجود مرشح أمريكي ذي أصول أفريقية عن الحزب الديمقراطي تُرافقه زوجة أبعد ما تكون عن نموذج الزوجة الخانعة. فهي امرأة قوية تتمتع بالذكاء وجِدَّةِ الذهن وتتحدى بالشجاعة وتتسم بتنوع المواهب»<sup>26</sup> وأفقتها السيدة تاتشا على هذا الرأي. فقد قالت: «أرى أن ثمّة شيئاً مثيراً جداً يحدث. فمعارضو باراك أوباما لم يفلحوا في أن يجعلوا انتقاداتهم له تبقى راسخة. أعني أنهم أثاروا مسألة القس رايت، ثم أثاروا مسألة الشارة التي على شكل علم أمريكا، لكن كل هذا كان دخاناً ذهب مع الريح.» وبهذا، حسبما تقول السيدة تاتشا، شعر المعارضون أنهم في حاجة إلى أن يلجئوا خلف خيارٍ ثانٍ، وكان هذا الخيار هو زوجته.<sup>27</sup> ومسألة الأعراق — خاصة حسبما تتجسد في ميشيل — قد تكون من الأمور التي جعلت منها هدفاً لهم، حسبما تقول السيدة تاتشا. فباراك أوباما استطاع إلى حدٍّ ما أن يخرج من الإطارات العرقية المحدودة، هذا ليس ممكناً تماماً بالطبع، لكن مسألة الانتماءات العرقية ليست مسألة ضخمة ... وأعتقد أن تركيز المعارضين منصباً الآن على ميشيل أوباما.»<sup>28</sup>

سألت ميشيل مارتين: «لم؟»

فأجابت السيدة هاربيت: «لأن الغاية تبرر الوسيلة.»<sup>29</sup> تبني آخرون مثل هذا الرأي وساروا به إلى أبعد من هذا؛ إذ كتب إرنست هاريس في موقع «هافينجتون بوست» في الثاني من يوليو يقول: «إن متابعة الأخبار التي ظلت تُبث منذ أن صار من المرجح أن يصبح السيناتور أوباما مرشح الحزب الديمقراطي تجعل المرء يظن أن الذي ينافس جون ماكين من أفراد أسرة أوباما هو: ميشيل.»<sup>30</sup> قال هاريس إنه يؤمن أن من العدل أن نتابع عن كُتِّب شركاء حياة الأشخاص الذين من المرجح أن يصبحوا مرشحين، خاصة إذا كان هؤلاء الشركاء يقومون بدورٍ فعّال في الحملات الانتخابية؛ لأنهم يُعدون «مؤشراً جيداً على طريقة تفكير المرشح» وقد يمثلون البلاد في يومٍ من الأيام «ولو على نحوٍ غير رسمي». لكن «لم تثير [ميشيل] هذا العداء الشديد في الأشخاص المنتمين لليمين المتطرف؟» فالعبارات التي جاءت على شاكله «الأم الصغيرة» أوباما و«امرأة سوداء غاضبة» تتخطى كثيراً حدود اللياقة والعدل في الخطاب السياسي، وإن كان في الحالة التي هو عليها الآن.<sup>31</sup>

إلامَ ترجع مشاعر الكراهية؟ يقول هاريس إن العنصرية أحد الأسباب، إن لم تكن السبب الوحيد. ويضيف قائلاً: «أظن أن جزءاً من التركيز على ميشيل أوباما يرجع إلى أنها تحمل في أعين البعض صفتين متناقضتين. فهي تتميز بالذكاء والقوة، وهي في الوقت نفسه أمريكية من أصول أفريقية، وأعتقد أن البعض يجدون صعوبة في تقبل ذلك.»<sup>32</sup> هل تتذكرون كلمات كال توماس: «هذا أكثر مما يُحتمل؟»

حلّ مقال نُشر في المِجلة البريطانية «ذي إيكونوميست» قضية العرق وعلاقتها برؤية الناس لكل من المرشح الرئاسي وزوجته. ففي المقال الذي جاء بعنوان: هل زوجة باراك سَكَنهُ أم نصفه المر؟ وصفت المِجلة أسرة باراك بأنها «غريبة»؛ إذ رحل والده الأفريقي عندما كان باراك في الثانية من عمره ونشأ هو متنقلاً بين جزيرة هاواي وإندونيسيا. أما أسرة ميشيل فحكايته أمريكية تقليدية. فقد ورد في المقال أن أسرتها كانت «في عوزٍ شديد لكنها خرجت من هذه المحنة سالمة، والدم الذي يجري في عروقه دمٌ أسودٌ خالص، وجميعهم أمريكيون ضاربون بجذورهم في المنطقة الجنوبية من شيكاغو.»<sup>33</sup>

وأضافت المِجلة إن هذا عاد ببعض النفع على المرشح باراك أوباما. أولاً، كانت ميشيل تتمتع بعلاقاتٍ قوية داخل المجتمع الأفروأمريكي في شيكاغو مما ساعد زوجها على تحقيق طموحاته السياسية. وهنا تشير المِجلة إلى علاقتها بصديقة طفولتها سانتيتا جاكسون ابنة القس جيسي جاكسون.<sup>34</sup>

أيضاً تقول المِجلة إن المرأة التي تزوجها باراك ساعدته على مواجهة النظرة التي ارتسمت في بعض الأذهان بأنه ليس أفريقيًا أمريكيًا أصيلاً.

ورد في مِجلة «ذي إيكونوميست»: «عندما كان باراك يخطو أولى خطواته في عالم السياسة رفضه منافسوه على أساس أنه ليس أمريكيًا أفريقيًا أصيلاً، وأنه «رجلٌ أبيض ذو وجهٍ أسود»، لكن وجود ميشيل بجانبه ساعد على أن يبيث في قلوب السود المتشككين الاطمئنان إلى أنه واحدٌ منهم بالفعل. بل إن درجة لون بشرتها الشديدة السواد ربما تكون قد ساعدته في الانتخابات.»<sup>35</sup>

ومن شرائح السكان التي من المحتمل أن تكون ميشيل قد ساعدت باراك في كسبها مساعدةً كبيرةً شريحة النساء السوداوات، حسبما تقول مِجلة الأخبار البريطانية. فقد ورد فيها أن «الرجال السود المشاهير غالباً ما يختارون زوجاتٍ بيضاوات أو ذوات بشرة سمراء، وبعض النساء السوداوات يكرهن هذا.» وحقبة أن «ميشيل شديدة السواد ربما تكون قد أسهمت في زيادة جاذبية باراك لدى الناخبات السوداوات اللاتي كن من الممكن أن يعطين أصواتهن إلى هيلاري كلينتون في غير هذه الحالة.»<sup>36</sup>

قد يكون من المثير الإشارة إلى أن ميشيل نفسها رفضت الإجابة على السؤال التالي: هل زوجها الذي ينتمي لعرقين مختلفين «أسود بما يكفي» ليكسب في صفه الناخبين الأمريكيين ذوي الأصول الأفريقية؟ ووصفت ميشيل هذا السؤال بأنه «سخيف».<sup>37</sup> أيضاً أدلت صحيفة بريطانية أخرى بدلوها في هذه المسألة؛ ففي مقال رأي دار حول ما أطلق عليه محاولة «تلميع» ميشيل أوباما (وهي محاولة لتحسين صورة ميشيل أوباما أنكرت حملة أوباما القيام بها لكنها ذُكرت في عددٍ من وسائل الإعلام في شهر يونيو)، حاول روبرت كورنويل تحليل الأسباب التي جعلت ميشيل تتحول على نحو مفاجئ من «سيدة الأناقة» في عالم الموضة والشخص المفضل لدى وسائل الإعلام إلى سيدة شكاءة يخلع عليها الإعلامُ ثوبَ الشياطين.<sup>38</sup>

ففي المقال الذي نُشر في جريدة «ني إنديبندنت» في الثاني والعشرين من شهر يونيو عام ٢٠٠٨م أرجع كورنويل الاهتمام الإعلامي بميشيل الذي كان معظمه سلبياً، والذي يكاد يصل لحد الهوس إلى ... إلام؟ حسناً، أرجعه إلى الملل. أو — على أقل تقدير — إلى حالة السكون التي شهدتها دوائر الأخبار الانتخابية التقليدية.<sup>39</sup> إذ كتب يقول: «فالأخبار كالطبيعة تكره الفراغ.» وبحلول نهاية شهر يونيو وجدت الولايات المتحدة نفسها في فترة غريبة «بين موسم الانتخابات التمهيدية المليء بالاثارة وحدثٍ جَلَّ قادم عندما يعلن المرشَّحان نائبيهما.» إذن ما الذي يتحدثون عنه في هذه الفترة؟

يقول كورنويل إن الخيار كان سهلاً: «سُلِّطَت الأضواء المتعطشة إلى الإثارة على ميشيل أوباما، وكان الدافع إلى هذا قوياً جداً. فميشيل قد تكون العامل الفارق بين خسارة زوجها وفوزه.»<sup>40</sup>

ويستعرض كورنويل سيلاً من التفسيرات حول سبب اعتقاده أن ميشيل هي القول الفصل في مصير زوجها، وكان من بين هذه الأسباب: «سخريتها، ولوعها بأن تُنزل زوجها إلى أرض الواقع.» لكن هذا ليس كل شيء؛ فحسبما كتب كورنويل «ثم إنها، بالطبع، سوداء.» فكورنويل يصف العرق بأنه «عنصر لا يمكن التنبؤ بأثره؛ فهو المجهول الأعظم في هذه الانتخابات.»

ويتفق كورنويل مع مَنْ سبقوه في التأكيد على أن باراك أوباما نفسه «يعلو فوق حدود الأعراق» ويشبَّهه بلاعب الجولف تايجر وودز وب «كولين باول، لكن بدرجة أقل.»<sup>41</sup>

ويصف كورنويل باراك بأنه «مرشَّح ما بعد العرقية؛ فهو ليس أسود بل هو أمريكي أفريقي بالمعنى الحرفي للكلمة، والمعنى الذي أقصده ليس المعنى المستخدم في السياسة. وهو ابنُ أبٍ كيني وأمٍّ أمريكية بيضاء؛ فهو لم ينحدر من صُلب العبيد ولم يكن الكفاح من أجل الحصول على الحقوق المدنية عاملاً من العوامل التي شكَّلت شخصيته.»

بل إن كورنويل يواصل حديثه مُخَمِّناً أن باراك أوباما لو كان قد تزوّج امرأة بيضاء «مثلما فعل وودز»، لما كانت مسألة انتمائه العرقي قد أثّرت قط. (أحقاً؟) ويتابع قائلاً: «لكنه لم يفعل هذا. وإنما تزوّج ميشيل لافون روبنسون، ابنة المنطقة الجنوبية من شيكاغو التي طالما كانت أرض السود، التي كان والدها يعمل في محطة تنقية المياه بالمدينة، وكان أجداده عبيداً، وجذور أسرتها ممتدة في أعماق الجنوب في ساوث كارولينا.»<sup>42</sup>

وفي مقال نُشر في ٢٥ يونيو ٢٠٠٨م في مدوّنة «بوليتيكال بوزيشنز» التابعة للإذاعة الوطنية العامة (إن آر بي)، درس الرئيس المنتخب للمؤتمر القومي لعلماء السياسة السود هذا الوضع مشيراً إلى الاختلافات بين خلفية باراك أوباما المتنوعة عرقياً والحكاية الأفروأمريكية الأكثر تقليدية التي تتبناها زوجته عن نفسها. وفي النهاية يخلص الكاتب جيمس لانس تيلور إلى أن السبب الذي جعل ميشيل مستهدفةً وجعلها عرضةً للنقد، رغم أنها ليست واحدةً من اللاعبين المسجّلين في هذه المباراة، يسهّل إرجاعه إلى العرق وتحديداً إلى تاريخ الأمريكيين ذوي الأصول الأفريقية في الولايات المتحدة.<sup>43</sup>

وفي مقال بعنوان «الأمريكيون غير الأمريكيين: أو لماذا تُعد ميشيل أوباما صيداً سهلاً»،<sup>44</sup> كتب السيد تيلور — أستاذ العلوم السياسية بجامعة سان فرانسيسكو — يقول: «مثل معظم الأمريكيين واجه أوباما صعوبات أثناء نشأته «بلا عرق» ولا أبٍ ولا إحساسٍ بالانتماء للمجتمع، حسبما يقول. لكن مهما كان الاغتراب الذي شعر به وهو ينشأ في حال لا هو أفريقيٌّ خالص ولا هو أمريكيٌّ خالص، ينشأ شبه مهجور من والده الأفريقي، وقد أمضى جزءاً من حياته على جزيرة هاواي وجزءاً آخر في ولاية كنساس، فإن أحداً من أجداده لم يخضع قط لحكم المحكمة العليا الذي صدر في قضية دريد سكوت، والذي يقضي بأنه لا حق للعبيد في المواطنة أو العتق مثلما حدث مع جميع السود الذين عاشوا في الولايات المتحدة، ولم يُطبَّق على أيٍّ من أجداده قوانين الفصل والتمييز العنصري المعروفة بـ «قوانين جيم كرو»، ولم يَعرش أيٌّ منهم في حي من الأحياء المخصّصة للأقليات بأمريكا.»

أما حكاية زوجته فمختلفة تمامًا. يكتب تيلور قائلًا: «أما ميشيل أوباما فستكون أول أمريكية تسكن البيت الأبيض وهي تحمل في عروقتها تاريخ العبودية، إن نحنًا جانبًا الرؤساء الذين كان أجدادهم من مالكي العبيد. واستغلال المدونات المضللة وبرامج الأخبار ووسائل الإعلام المطبوعة قولها «لأول مرة، منذ أن صرّت ناضجة، أشعر حقًا بأنني فخورة ببلادي» في إثارة الشكوك حول وطنيتها مع أن المفعول المطلق «حقًا» يعكس أن هذا الشعور بالفخر ببلادها كان يُداخلها من قبل، أقول إن هذا التصرف صار ممكنًا لأن وطنية الأمريكيين السود في هذا البلد توضع موضع الشك لا لشيء إلا لسواد بشرتهم.»<sup>45</sup> ويخلص تيلور من هذا إلى أن «ميشيل أوباما تمثل بعض جوانب أمريكا السوداء على نحو لا يتسنى لأوباما، وهذه هي خطيئتها السياسية. إن كان من الممكن للناس أن يقبلوا نصف أوباما الأسود، فلا يمكنهم أن يقبلوا نصفه الحلو: ميشيل.»<sup>46</sup>

وصلت قضية الأعراق، والخلاف حول ما يمكن نقده في عالم السياسة وما لا يمكن، إلى ذروتيهما في منتصف شهر يوليو عندما نشرت مجلة «نيويورك» على غلافها صورة أصبحت سيئة السمعة الآن. في هذه الصورة تظهر ميشيل مرتديّة زيًا عسكريًا وتحمل بندقية من طراز إيه كيه ٤٧ وشعرها مصفّف على الطريقة الأفريقية بحيث يكون قصيرًا مجعدًا أشعث (وبهذا تبدو مثل أنجيلا ديفيز المتطرفة التي برز اسمها في ستينيات القرن العشرين). ويظهر أوباما في الصورة مرتديًا زي المسلمين التقليدي (عمامة وجلبابًا وخفًا). كان الزوجان واقفين في حجرة خالية (ترى هل تشير الحجرة إلى المكتب البيضاوي؟) ويؤديان حركة اليد التي اشتهر بها. وفي المدفأة الموجودة بالحجرة علم أمريكي يحترق، وفوقها صورة لأسامة بن لادن.

لا شك في أن هذا الرسم الكاريكاتوري الذي وُضع له عنوان «سياسة الخوف» كان مقصودًا منه الاستهزاء بالتحيزات السياسية والدينية والعرقية، لكن هذا لم يُثر ضحك الكثير من الناس.

ديفيد ريمينك رئيس تحرير مجلة «نيويورك» — وهي مجلة ثقافية وأدبية معروفٌ عنها أنها تميل إلى الليبرالية (وقد نشرت في الواقع عددًا من المقالات الإيجابية عن حملة أوباما كان من بينها نبذة عن حياة ميشيل وشخصيتها نُشرت في مارس ٢٠٠٨م) — قال إن هذه الصورة التي رسمها الفنان باري بليت «تجمع الكثير من المعلومات المشوهة عن أوباما وزوجته والأكاذيب والأفكار الخاطئة التي ثارت عنهما وتسلط عليها الضوء حتى تكشف حقيقتها.»<sup>47</sup>

وقد قال الرسام الكاريكاتوري بليت في رسالة بعثها إلى موقع «هافينجتون بوست» بالبريد الإلكتروني إن الغرض من الغلاف كان الكشف عن مدى سخافة بعض الأفكار الخاطئة التي من بينها أن أوباما وزوجته ليسا وطنيين، وأنه مسلم، وأن حركة اليد التي قاما بها قد تكون «لكمة إرهابية». وقال: «بدا لي أن تجسيد هذه الأفكار في رسم سيكشف عن أنها سخافة الغرض منها التأثير على سلوك الناس بإثارة الخوف في قلوبهم، وهذه هي حقيقتها.»<sup>48</sup>

لماذا إذن لم يستطع الناس أن يروا السخافة التي تكشف عنها الصورة؟ أحد الأسباب وراء ذلك أن هذه الصورة نُشرت في أعقاب استطلاع للرأي أجرته مجلة «نيوزويك» وتبين عن طريقه أن ١٢٪ من الذين أُجري عليهم الاستطلاع لا يزالون يؤمنون بأن باراك أوباما يعتنق الإسلام ويمارس شعائره، وأن ١٢٪ منهم يعتقدون أنه وضع يده على القرآن وليس على الإنجيل وهو يقسم يمين عضوية مجلس شيوخ الولايات المتحدة. (وكلا الأمرين ليس بالصحيح، حسبما أوضح موقع حملة أوباما FightTheSmears.com بلهجة قاطعة.)

ومع أن أوباما نفسه لم يكن لديه أي تعليق عندما سُئل في بادئ الأمر عن غلاف المجلة فإن حملته وحملة ماكين اعترضتا على هذه السخرية على الفور تقريباً. وقال أحد المتحدثين باسم حملة أوباما إنها «مهيبة ولا ذوق فيها» ووصفها السيناتور ماكين بأنها «غير لائقة على الإطلاق».

لكن لم يحدث أن سارع الجميع بشراء نسخة من هذا العدد. بل إن مارك ألن كتب في إحدى مدونات صحيفة «شيكاغو تريبيون» يقول: «لن أشتري مجلة «نيويورك» أو أقرأها ثانية أبداً!! فأنا أرى أن الغلاف الحالي الذي يدور حول أوباما وزوجته مهين جداً وجارح وعنصري، ولا تستحق المجلة أن أكافئها بمواصلة شراء ما تُصدره.»<sup>49</sup> أيضاً كتب أحد زوّار مدونة «ذا توب أوف نا تيكيث» التابعة لصحيفة «لوس أنجلوس تايمز» تعليقا يحلف فيه ألا يزور نيويورك أبداً فضلاً عن العيش فيها.<sup>50</sup>

بل إن موقع قناة «الجزيرة» نفسه أدلى بدلوه في هذا الموضوع وذلك على الصفحات الإنجليزية من الموقع الناطق بالعربية. إذ أوردت وكالة الأنباء القطرية هذه الواقعة في مقال بعنوان «كاريكاتير أوباما «إهانة للمسلمين»» اقتبس فيه ما قاله السيناتور أوباما أثناء ظهوره في برنامج «لاري كينج لايف» الذي يُذاع على قناة «سي إن إن».<sup>51</sup>

فقد قال: «أتعلمون، يوجد أمريكيون مسلمون رائعون في جميع أنحاء أمريكا وهم يقومون بأعمال رائعة، واستغلال معتقداتهم الدينية في الإساءة إليهم أو إثارة الشكوك حولهم أمرٌ سخيف في رأيي.»<sup>52</sup>

ومع هذا، فقد دافع عن حق مجلة «نيويورك» في نشر هذه الصورة — وهو أستاذ القانون الدستوري — إذ قال: «كان هذا رأي رئيس التحرير، وكما قلتُ هو في النهاية مجرد رسم كاريكاتوري.»<sup>53</sup>

أيضاً أقرَّ أوباما بأنه ربما لم يكن قوياً بما يكفي في حربه للأفكار المغلوطة التي ثارت حول معتقداتهم الدينية، وأنه ربما يكون على الحملة أن توجه اهتماماً عدداً أكبر من الناس إلى موقع FightTheSmears.com. أيضاً كان موقع MichelleObamaWatch.com يتابع الأخبار المتعلقة بـ«غلاف نيويورك» فجينا ماكولي التي دشنت موقع WhatAboutOurDaughters.com، وإحدى المسئولين عن موقع MichelleObamaWatch.com، قالت إن الرسم الكاريكاتوري الساخر الذي نُشر في مجلة «نيويورك» يذكّرنا بصورة أخرى لميشيل أوباما ظهرت قبل هذا على موقع DailKos.com. فالصورة التي نشرها الموقع رُكِّبت باستخدام الحاسوب وتظهر فيها ميشيل أوباما وهي تتعرض للتعذيب على يد أحد أفراد منظمة «الكلو كلوكس كلان» العنصرية. وكان الغرض من هذه الصورة انتقاد الهجمات العنصرية وسياسة المتاجرة بالخوف، كما هي الحال في صورة غلاف مجلة «نيويورك». ومثلما هي الحال مع صورة بليت، رأى الكثيرون أن هذه الصورة منافية للذوق، وفي النهاية حُذفت.<sup>54</sup>

وبدا أن البعض اندهش من أن الناس لم يفهموا الدعابة التي كانت مجلة «نيويورك» ترمي إليها، خاصة هؤلاء الذين كانوا يكتبون تعليقات غاضبة عن المدونات الليبرالية التي تؤيد أوباما. فقد قال آرت سبيجلمان، وهو رسام كاريكاتوري وأحد العاملين بمجلة «نيويورك»، لمجلة «سان فرانسيسكو كرونكل». «بيدون نُخبوين جداً؛ فحوى ما يقولونه هو: «نحن نفهم معنى الرسم لكننا لا نثق بأن هؤلاء الناس الذين يقطنون ولاية كنساس سيفهمونه.»<sup>55</sup>

لذا فأتساءل هذا، تعرضت حملة أوباما ومَن أعربوا عن اعتراضهم على الرسم الكاريكاتوري لانتقاد قوي استناداً إلى أنهم يفتقدون حس الدعابة. ففي مقال كتبه مورين دود تحت عنوان «هل يمكن أن نسخر يا باراك» ونُشر في جريدة «نيويورك تايمز» في ١٦ يوليو تشير الكاتبة إلى مقال نُشر في جريدها ذلك اليوم كتبه بيل كارتر

بعنوان «تريد الضحك على أوباما؟ اكتب عنه نكتة أولاً». ويبدو أن مُعدي البرامج المسائية التي تُذاع على شاشة التلفاز بعد الساعة الحادية عشرة مساءً يواجهون بعض المتاعب عند البحث عن أمور ينكتون حولها بشأن مرشح الحزب الديمقراطي. فحسبما قال أحد المؤلفين الذين يكتبون النكات السياسية لهذه الحلقات فإن «المشكلة تكمن في أنه ليس به أي شيء يثير الضحك».<sup>56</sup>

وفي عمود نُشر في صحيفة «لوس أنجلوس تايمز»، قال جيمس ريني، عندما سُئل عن غلاف مجلة «نيويوركر»، إن أوباما كان يجب أن يلجأ هو نفسه إلى المزاح «بدلاً من قوله المقتضب «لا تعليق» كان عليه أن يستغل إحدى كبرى مميزاته — ألا وهي سعة صدره — ويرد بعبارة مثل: «حسنًا، أرى أن ميشيل تبدو رائعة في هذا الزي التنكرى».<sup>57</sup>

(قد تكون سعة الصدر هي الميزة التي يتمتع بها أوباما، لكن زوجته هي من يتمتع بالقدرة على إلقاء التعليقات القصيرة الذكية. وإن كان الناس يبحثون عن المزاح فإنه لمن المؤسف أن أحدًا لم يسأل ميشيل عن رأيها في غلاف مجلة «نيويوركر». فلا شك أن هذه المرأة التي «دائمًا ما تنطق بالحق» وهي في الوقت نفسه مصدر الضحك في البيت كانت ستنطق بتعليقٍ حاذق ومضحك.)

إن هل ما دار يثير الضحك أم لا؟ هل هو فعلٌ تنويري أم لا؟ هل يفيد الخطاب السياسي أم لا؟ يجب ألا يتوقع المرء أن يُبَيَّن في القضايا المتعلقة بالأعراق، وبتحديد ما يليق وما لا يليق عما قريب. فحسبما تقول جينا صاحبة موقع WhatAboutOurDaughters.com: «نحن نواجه وضعًا جديدًا إذ نتعامل مع اثنتين أمريكيتين من أصول أفريقية يسعيان خلف البيت الأبيض. وهذا سيضع الليبراليين البيض في اختباراتٍ لم يمرُّوا بها من قبل. وسيضع الأمريكيين ذوي الأصول الأفريقية في اختباراتٍ كذلك. ولا بد لهذا البلد أن يجتاز هذه المرحلة».<sup>58</sup>

وحقيقة أن قضية الأعراق أثرت أثناء الانتخابات لم تدهش المرشح الديمقراطي وزوجته. ففي آخر شهر يونيو قال باراك أوباما لمؤيديه في فلوريدا إنه يتوقع بدرجة كبيرة أن يوظف منافسوه قضية الأعراق في إثارة مخاوف الناس.<sup>59</sup>

قال: «سيحاولون أن يثيروا خوفكم مني. وسيقولون إنني صغير بلا خبرة، وإنني أحمل اسمًا مضحكًا، وسيقولون إنني أسود».<sup>60</sup>

وقال السيناتور إنه مستعد لمواجهة الهجوم الذي قد تتعرض له زوجته أيضًا. فقد قال: «نعرف هذه السياسة؛ لأنهم كشفوا عن أوراقهم بالفعل. وفي نهاية المطاف، أعتقد

أن الشعب الأمريكي يدرك أن هذه الموروثات القديمة لم تَسر بنا إلى الأمام، وأنها أهدت بيننا انقسامًا.<sup>61</sup>

أيضًا كان التفاؤل سمة توقعات ميشيل. فقد قالت في حوار أجري في مايو عام ٢٠٠٧م في برنامج «جود مورنينج أمريكا» الذي يُذاع على قناة «إيه بي سي»: «كما قلنا جميعًا نحن أعضاء مجتمع السود، لا يُظهر الإعلام كل ملامحنا، وإنما يعرض للناس لمحات خاطفة من مجتمعنا وصورًا مشوهة له. [هل كانت تتنبأ بما قيل عن «النساء السوداوات الغاضبات»؟] لذا فإن العالم لديه فكرة عن أنني أنا وبارك مختلفان على نحو ما، وأنا فريدان من نوعنا، لكننا لسنا كذلك. كل ما هنالك أن عين العالم لم تَرنا من قبل.»<sup>62</sup>

بعد إذاعة هذا التصريح على شاشة التلفاز، نُشر في مقال على موقع «إيه بي سي نيوز» على الإنترنت تحت عنوان «ميشيل أوباما تقول: أنا جريئة». وقد كان من المناسب اختيار هذا العنوان لحوار مع امرأة علمها والداها أن تفصح عن آرائها، ويقول زوجها إنها دائمًا ما تنطق بالحق، وتتلقى ابنتها تشجيعًا على أن تُعبر عن رأييها أيضًا. وإليك اقتباسًا آخر من هذا الحوار:

لا أريد أن أرسّم لكم صورةً غير واقعية عنا حتى إذا سقط القناع وكنا قد خيبتنا هذه التوقعات غير الواقعية، فسيشعر الناس أننا خذلناهم بطريقة ما. إليكم حقيقتنا: أنا جريئة، وأستفز زوجي، وهو بالغ الذكاء، ويتمتع بقدرٍ خارقة على التعامل مع النساء القويات، وهذا أحد العوامل التي تؤهله لأن يصبح رئيسًا؛ فيكفيه أنه قادر على أن يتعامل معي.<sup>63</sup>

ربما نجد في قول ميشيل كشفًا عن السبب الذي جعل زوجها لا يُبدي رد فعل قويًا عندما سُئل عن غلاف مجلة «نيويورك»، وهو أنه من الصعب استفزازه (الأرجح أن هذه ليست سمة سيئة فيمن يمكن أن يشغل منصب القائد الأعلى للقوات المسلحة، إن أمعنا التفكير في الأمر). ويبدو أن الفضل في هذا — أو على الأقل جزء منه — يعود إلى زوجته المستفزة.

لكن دعونا نطرح فكرة على كُتاب الكوميديا المكتئبين: إن كان مذبغو البرامج المسائية يتحرّقون شوقًا إلى مادة يهاجمون بها أوباما — على سبيل المزاح بالطبع — فقد يجدون بغيتهم في استشارة زوجته. (أو ربما ابنتي اللتين أظهرتا قدرة لا تقل عن قدرتها في التهكّم عليه حين مازحته بشأن ذوقه — أو بالأحرى انعدام ذوقه — في الحلوى، واللبن،

والملابس؛ في الحوار الذي أُجري في برنامج «أكسيس هوليوود» في الرابع من يوليو. فربما توحيان لهم ببعض طرائف تُعجبهم، أليس كذلك؟)

أو ربما يكون الحل هو انتظار ظهور شخصٍ آخر على الساحة؛ فمايك سويني، المشرف على فريق الكُتاب الذي أعد حلقات برنامج «آخر الليل» (ليت نايت) الذي قدمه كونان أوبراين صرَّح لصحيفة «نيويورك تايمز» في شهر يوليو: «نأمل حقًا أن يقع اختياره على شخصٍ أحمق يكون نائبًا له».<sup>64</sup>

وبالفعل، مثَّل لهم السيناتور بايدن مخرجًا عندما انضم إلى لائحة أوباما، لكن ظهور نائبة ماكين على الساحة بعد أسابيع قليلة وضع هذه البرامج على بداية الطريق الذي أرادته حقًا. فقد وضعت سارا بالين منجم ذهب بين يدي برامج التلفاز المسائية يتلخص في كلمتين هما: تينا فاي. وعندما ظهرت حاكمة ولاية ألاسكا نفسها في البرنامج نفسه عاد هذا بمزيد من الخير على البرنامج؛ إذ شاهده ١٤ مليون شخص ليتابعوا أداءها، وهذه أعلى نسبة متابعة حظي بها البرنامج منذ عام ١٩٩٤م.<sup>65</sup>

صرَّح لورن مايكل، المنتج المنفذ لهذا البرنامج الذي يُذاع على قناة «إن بي سي»، لصحيفة «نيويورك تايمز»: «لقد ضحكت لنا الأقدار عندما انضمت السيدة سارا بالين للمعركة الانتخابية. فاختيار هذه السيدة لا يختلف كثيرًا عن اختيار ميت رومني بكل زلات لسانه، وأرى أن الموقف سيشهد تطورًا كبيرًا».<sup>66</sup> وقد شهد البرنامج ارتفاعًا في شعبيته بين المشاهدين بلغت نسبته ٥٠٪ أثناء موسم الانتخابات.

ولم تواجه البرامج المسائية مشكلات في العثور على نكاتٍ قائمة على القضية الثالثة التي أثرت في انتخابات عام ٢٠٠٨م، وهي قضية التحيز ضد كبار السن. بالطبع مقارنة بقضايا الأعراق والجنس تبدو قضية التحيز ضد كبار السن أخفَّ حدة، وربما كان هذا هو السبب الذي جعل القائمين على هذه البرامج لا يشعرون بأي تحفُّظ في استغلال هذا إلى أقصى حد.

بل إن جون ماكين — الذي سيكون عمره في يوم التنصيب ٧٢ عامًا مما يجعله أكبر رئيس يتقلد هذا المنصب في فترته الأولى، سَجِر هو نفسه من كبر سنه النسبي واصفًا نفسه بأنه طاعن في السن وبأن عدد الندبات التي به أكبر من عدد ندبات فرانكشتاين. وعندما ظهر السيناتور ماكين في برنامج «ساترداي نايت لايف» في شهر مايو أعطى مذيعي الفقرات المسائية مادةً دسمة للحوار.

فقد قال: «سأطرح عليكم سؤالاً: ما الصفات التي نبحث عنها في رئيسنا التالي؟ بالتأكيد أن يكون طاعناً جداً جداً في السن.»<sup>67</sup>  
وفي إحدى فقراته الكوميديّة في البرنامج نفسه ظهر في إعلانٍ انتخابي زائف تقوم فكرة الطرفة فيه على تقدّم سنه أيضاً.

إن كان يقول في هذا الإعلان الهزلي: «إن ترشيد الإنفاق الحكومي لا يتوقف على الجمهوريين أو الديمقراطيين وحسب، بل على قدرة المرء على ألا يخجل أو يخاف من أبنائه، أو في حالتي من أبنائي، وأحفادي، وأحفاد أحفادي، وأحفاد أحفاد أحفادي، الذين أوشك أصغرهم على التقاعد.»<sup>68</sup>

لكنه لم يتوقف عند هذا. بل أضاف: «وأنا أتمتع بما يلزم لهذا من شجاعة وحكمة وخبرة وكبر سن، وهذا هو الأهم. ذلك الكبر اللازم لحماية أمريكا وتشريفها وحبها وتدليلها كما يجب.»<sup>69</sup>

أثناء الحملة الانتخابية استمتعت وسائل الإعلام بالإشارة إلى كل الأشياء التي لم يكن لها وجود عام ١٩٣٦م عندما وُلد جون ماكين. نُشر في «أسوشيتد برس» مقال يبدأ بـ «إن كم عمر جون ماكين؟ لقد ظهرت بعد أن ولد جون ماكين كلٌّ من عبوات البيرة المحتوية على ست زجاجات وتُباع وحدة واحدة، وناقِل الحركة الأوتوماتيكية في السيارات، وبطاقات الائتمان التي تصدرها مؤسسة «أمريكان إكسبرس»، فضلاً عن الحاسوب الذي أقرّ بأنه لا يستخدمه.»<sup>70</sup>

أثناء السباق على نيل ترشيح الحزب الجمهوري للانتخابات الرئاسية، طُرح على ماكين ومنافسيه على الترشح داخل الحزب سؤال شهير وهو: هل يستخدمون الحواسيب الشخصية أم الحواسيب من طراز ماكنتوش؟ وعندما حان دور ماكين، جاءت إجابته: «لا هذا ولا ذاك. فأنا أميُّ أعتمد على زوجتي في الحصول على أية مساعدةٍ ممكنة.»<sup>71</sup> هذه التعليقات وغيرها يُسلط عليها الضوء في موقع ThingsYoungerThanMcCain.com الذي دشنه مصمم الجرافيك جو كوينت، يقول جو في مقدمة موقعه: «هل أنا منحاظ ضد كبار السن؟ ربما نعم. وربما لا. عالمنا على درجةٍ كبيرة من التعقيد الآن ولا أظن أن هذا هو الوقت المناسب لاختيار أكبر رئيس على الإطلاق، ولتقاضوني إن شئتم.»<sup>72</sup>

وهنا يجب أن نذكر أنه بالإضافة إلى سيندي فإن ابنة ماكين ماهرة هي الأخرى في استخدام الحاسوب. بل إنها في الواقع ماهرة جداً لدرجة أنها أثناء الحملة كانت تُدير مدوّنة McCainBlogette.com وهي مدوّنة تحمل عنوان «تأملات حول جولات الدعاية الانتخابية وما بها من ثقافة شعبية».

معظم النكات والتعليقات المتعلقة بقضية السن تتبنى توجهاً مرحاً، لكن الواقع هو أن كبر سن ماكين النسبي وافتقار أوباما النسبي إلى هذه الصفة كان عنصراً مهماً من عناصر النقاش الذي دار أثناء الانتخابات، تماماً مثل العرق والجنس.

فقد كشف استطلاع للرأي أجراه موقع «ياهو نيوز» بالاشتراك مع وكالة «أسوشيتد برس» أن ٢٠٪ من الناخبين الذين أُجريت عليهم الاستطلاع قالوا إن «بالغ الكبر» هي «خير» وصف للسيّناتور ماكين، في حين يؤمن ١٤٪ منهم أن أوباما «بالغ الصغر».<sup>73</sup> فبعد عمر ماكين البالغ الثانية والسبعين يكون أكبر رئيسٍ جديد يتولى هذا المنصب، فقد أتم رونالد ريجان السبعين بعد أن حلف يمين فترته الرئاسية الأولى بمدة وجيزة، لكنه كان تقريباً في الرابعة والسبعين عندما بدأ الفترة الثانية. أما أوباما فقد أتم السابعة والأربعين في أغسطس ٢٠٠٨م، مما يجعله أكبر من أصغر الرؤساء على الإطلاق — ألا وهو جون إف كينيدي — بنحو أربع سنوات.

وإليكم مجموعةً من بعض أهم النقاشات التي أثّرت حول مسألة السن أثناء الانتخابات:

- في مقال بعنوان «ما مدى ذكاء الجد؟ ما الذي يمكن توقُّعه من عقل في السبعينيات من عمره؟» قالت الكاتبة ميشيل تساي إن إجابة هذين السؤالين تتوقف على الشخص المعني. لكن المهارات البصرية المكانية تتدهور «قبل سن الأربعين عادة»، وبعدها تتدهور القدرة على تعلُّم أمورٍ جديدة (وتخزينها في الذاكرة القصيرة المدى والمتوسطة المدى). وأضافت الكاتبة أنه عادةً ما «يفقد الناس نحو خمس سعة الذاكرة العاملة فيما بين سن الأربعين والسبعين»، لكن هذه النسبة تختلف من شخص لآخر. وبعد أن تبدأ الذاكرة «في التدهور يفقد المرء تدريجياً القدرة على اتخاذ قراراتٍ سديدة ووفقاً لمعلوماتٍ جديدة». لكنها، مع هذا، تُضيف قائلة: «لكن الأشخاص الذين وصلوا إلى السبعينيات من عمرهم وهم يتمتعون بوظيفةٍ إدراكية متميزة يكونون أقلَّ عرضة لتدهور المهارات العقلية مع تقدُّم العمر، وربما يكون ماكين واحداً من هؤلاء».<sup>74</sup>

- الدكتور ويليام توماس، اختصاصي أمراض الشيخوخة والأستاذ بكلية إريكسون لدراسات الشيخوخة بجامعة ماريلاند في مقاطعة بالتيمور كتب في مقال نُشر في «أسوشيتد برس» في الخامس عشر من يوليو يقول: إن «هناك جلبةً كبيرةً

أثيرت في الحملة الانتخابية حول دور تقدم السن، وكثيرٌ من هذه الجلبة مبني على معلومات خاطئة. فسن الإنسان ليست عائقًا أمام الإبداع.»<sup>75</sup>

• في هذا المقال نفسه، قال الدكتور ديفيد روبن، رئيس قسم أمراض الشيخوخة بكلية ديفيد جيفين للطب التابعة لجامعة كاليفورنيا بلوس أنجلوس، إن ماكين يبدو في حالةٍ صحية جيدة. «بصفتي طبيبًا، عندما أفحص كبار السن أنظر في قوتهم الجسدية، هل هي على ما يُرام؟ وأنظر إلى الجُمَل التي ينطقون بها، هل هي متسقة؟ وإلى أفكارهم، هل هي مترابطة منطقيًا؟ وإلى قدرتهم على التركيز، هل يسهل تشتيتُها؟ وماكين يبدو على ما يُرام.»<sup>76</sup>

وفي حين بدأ أن الناس أجمعوا بصفةٍ عامة على أن السن — سواء أكانت كبيرة جدًا أم صغيرة جدًا — لا تشكل عقبة في الانتخابات، فإن حقيقة أن الناس رحّبوا جدًا بنقاش قضية السن تكشف أنه كان حاضرًا في أذهانهم، على أقل تقدير.

ويرى الكثيرون أن النكات التي دارت حول تقدم سن ماكين لم تُعد مضحكة بعد أن بدأ الناس يشيرون إلى أن النائبة التي اختارها — والتي ستحل محله إن مات — لا تتمتع بخبرةٍ كبيرة في الاقتصاد، ولا تعرف البلاد كما ينبغي، وليست لها أية خبرة بالسياسة الخارجية على الإطلاق.

قال الممثل مات دامون في مهرجان تورنتو السينمائي: «إذا عملنا جدولًا لتوقع الوفيات في سنٍّ معيَّنة، فسنجد أن هناك احتمالًا بنسبة واحد إلى ثلاثة، إن لم يكن أكثر، ألا يعيش ماكين حتى يُنهي الفترة الرئاسية الأولى وبهذا تصبح سارا بالين هي الرئيس. أنا لا أفهم لم لا يتحدث الناس عن سخافة هذا الوضع؟! هذا احتمالٌ مفرع حقًا.»<sup>77</sup>

إلّا يقودنا هذا؟ كيف سننظر بعد سنوات لانتخابات ٢٠٠٨م؟ بالطبع كانت مدة الانتخابات زاخرةً بدلائل وجود التحيز الجنسي، والعنصرية، والتحيز ضد كبار السن، إضافة إلى ضراوة التنافس التي بلغت حدًا لا يُنسى، والتي لم تتخللها اللحظات السعيدة إلا نادرًا. ومع هذا، فإن الشخصيات الأساسية الثلاث — باراك أوباما، وجون ماكين، وهيلاري كلينتون — بقصصهم الخاصة (أول أمريكي من أصولٍ أفريقية، وأكبر رئيس، وأول امرأة) ألبسوا هذه الانتخابات ثوبًا جديدًا تمامًا. وظهور سارا بالين على الساحة — الذي جاء مواكبًا تقريبًا لانهايار الأسواق المالية — زاد من إحساسنا بأننا مقبلون على وضعٍ جديد تمامًا. إذن ماذا نتوقع بعد هذا؟

مرةً أخرى، قد نجد أفضل إجابة لدى ميشيل أوباما. أثناء لقائها بالصحفيين والناخبين في مدينة بيتسبرج في أبريل ٢٠٠٨م، تحدّثت عن الخلاف الذي ثار بعد إذاعة المواعظ الشائنة التي ألقاها القس جيريميا وإلقاء زوجها الخطبة التي تُعرف الآن بـ «خطاب عن الأعراق».

وصفّت ميشيل كلمات زوجها بأنها «صادقة ومؤثّرة»، وقالت: «ما فعله باراك أوباما في خطبته هو أنه عبّر عن جميع المشاعر التي تعتمل بداخلي». ولما كانت ميشيل تتمتع بنفاذ البصيرة بقدر ما تتمتع بالصدق فقد قالت إننا نستطيع أن نتوقع أن نعيش مزيداً من هذه اللحظات التي تمسّ شغافَ قلوبنا.

قالت ميشيل: «هذا لا يأتي من فراغ. إذ يتعين أن نجتهد، وسنبكي في بعض الأحيان. فالتغيير سيكون صعباً. إذ يتطلب منا أن نخرج من شرانقنا، ونتجاوز خلافاتنا. ينبغي أن نتخلّص من مخاوفنا»<sup>78</sup>

وقرب نهاية المعركة الانتخابية، قبل الانتخابات العامة بأسابيع قليلة، طرحت ميشيل على الناس ما رأت أنه دليل على أن هناك تغييراً حقيقياً يحدث. فعندما سُئلت في حوارٍ أجرته معها مجلة «جود هاوسكينج» هل ترى أن الحملة غيّرت نظرة الناس للأعراق في أمريكا، أجابت: «أعتقد هذا. نحن نتحدث عن قضايا لم نكن نتحدث عنها علانيةً قط. ونتحدث في كافة الأمور سواء ما يستحق الإشادة أو ما يستحق النقد».

«أظن أن رؤية احتمالاتٍ مختلفة لما قد يحدث أمرٌ مهم، على الأقل للأطفال الذين أعرفهم، ولا أقصد بهذا الأطفال الأمريكيين من أصولٍ أفريقية فقط. فالكثير من الأطفال لا يرون من يمثلهم في هذا العالم بسبب العرق الذي ينتمون إليه، أو ظروفهم الاقتصادية، أو المكان الذي يعيشون فيه. وعندما لا يرى الأطفال من يمثلهم، لا يرون الفرص المتاحة أمامهم. وعندما يرى الشباب هيلاري كلينتون وباراك أوباما يعاملان باعتبارهما مرشحيين قويين وقادريين على تحقيق النجاح — باعتبارهما شخصين من الممكن أن يصبح أيٌّ منهما رئيساً للولايات المتحدة — فإن هذا يغيّر كل شيء»<sup>79</sup>

ولسبب ما فإن كلمات ميشيل عن التغيير، والخروج عن المألوف والتحرر من الخوف ذكّرني بقصيدة «الفرّدوس المفقود» التي كتبها جون ميلتون. ففي نهاية الملحمة الشعرية الرائعة التي كتبها ميلتون في القرن السابع عشر عن آدم وحواء وطردهما من الجنة نجد الزوجين الشابين يهيمن على وجهيهما مواجهين مستقبلهما المجهول. ونجد إحساساً بالتشاؤم يسود الأجواء وأبوانا يستعدان لحمل أعباء البشرية جمعاء. (في أمريكا

عام ٢٠٠٨م، تتمثل هذه الأعباء في انهيار الاقتصاد، ووقوع المواطنين في أسر الخوف، والدخول في حروب على جبهاتٍ متعددة. ومع هذا فهناك إحساس بالتفاؤل أيضًا؛ إذ إن آدم وحواء يسيران معًا إلى الأمام، يدًا في يد، ليواجها التحديات التي تنتظرهما بما تحمله من انتصارات وهزائم على هذه الأرض البعيدة عن الكمال:

كان العالم كله أمامهما

حيث اختارا مكان إقامتهما وطريق رشدهما.

سارا متشابكي اليدين بخطى بطيئة متخبطة

ومن جنة عدن خرجا لطريقهما الموحش.

وفي النهاية بصرف النظر عن سيكون الفائز في انتخابات الرابع من نوفمبر، وبصرف النظر عن سيحلف اليمين في ٢٠ يناير ٢٠٠٩م، أحرزت البلاد تقدمًا، وذلك بفضل جون ماكين وزوجته سيندي، وبيل كلينتون وزوجته هيلاري، وباراك أوباما وزوجته ميشيل (وبالطبع سارا بالين وجو بايدن). الخطوات التي قطعتها البلاد قد تكون خطواتٍ متخبطةً وبطيئةً (وأحياناً يصاحبها حديثٌ مرير بذيء و/أو صورٌ مهينة قادرة على إثارة الغضب) لكن لا شك في أن هناك تغيراتٍ قد حدثت، وأن الناس خرجوا من شرانقهم، ولو لدرجةٍ طفيفة على أقل تقدير. بل ربما يكونون قد قطعوا شوطاً كبيراً في تجاوز الانقسامات التي بينهم، وفي التحرر من مخاوفهم، ويبقى الحكم في هذا للتاريخ.



## الفصل التاسع

# مشهد جديد

لاعبون جدد، وأدوات مستحدثة، وحوارات جديدة

ربما يكون تشبيه ما يجري بحال آدم وحواء في ملحمة جون ميلتون الشعرية «الفردوس المفقود» مبالغاً فيه بعض الشيء، لكن الواقع هو أن انتخابات عام ٢٠٠٨م فتحت الستار على مشهد جديد تماماً؛ مشهد يشبه العالم الذي وجد آدم وحواء نفسيهما فيه بعد طردهما من جنة عدن.

طرأت على الساحة التغيرات الجلية التي ذكرناها من قبل، ألا وهي: للمرة الأولى نجد اسم امرأة واسم رجلٍ أسود من بين الخيارات الثلاث الأولى المطروحة في هذا البلد ليقوم واحداً منها بقيادة هذا الشعب في المرحلة التالية من تاريخه التي تتسم بأنها شائكة جداً. مع دخولنا حربين خارج البلاد، وقيامنا بشن حربٍ ثالثة ضد الإرهاب، ووجود اقتصادنا على شفا كارثة، فإن اختيار مَنْ يكون القائد التالي — والأفضل — أمرٌ حاسم جداً. ومن الجدير بالاهتمام أيضاً أن اثنين من الثلاثة الذين وصلوا للمرحلة النهائية من الانتخابات ينتميان لفئاتٍ تسعى وراء مصالح محددة، ولم يسبق لها أن حظيت بتمثيلٍ واسع على الساحة الوطنية.

أيضاً هناك تغيراتٌ قد تكون أقل وضوحاً لكنها تتمتع بالقدرة على تغيير المستقبل تماماً مثل السمات الجديدة التي تميز الرؤساء المرتقبين.

من هذه التغيرات ما حققته حملة أوباما من جذب المؤيدين والتواصل معهم وتنظيمهم (وجمعها لمبالغ طائلة من النقود). إن كان فضل اتخاذ خطوة استخدام الإنترنت في الحملات السياسية يرجع إلى هوارد دين، فإن الفضل يعود لأوباما في استخدام الإنترنت بحيث يؤدي إلى تغيير الحملات الانتخابية تغييراً جذرياً. ولنقتبس هنا ما قاله جو تريبي، خبير الإنترنت الذي كان مسئولاً عن حملة دين الانتخابية عام ٢٠٠٤م:

«كنا كالأخوين رايت». وأضاف أن حملة أوباما «فاقت رواد البعثات الفضائية الثلاث الأولى: بوينج، وميركوري، وجميني، وصارت كفريق أبولو ١١ الذي هبط على القمر بعد أربع سنوات وحسب»<sup>1</sup>.

فطريقة توظيف هذه الحملة للإنترنت غيرت تمامًا من طريقة إدارة الانتخابات، وستُغيرها بدرجة أكبر في المستقبل بلا شك، وذلك من حيث اتخاذها سبلاً مبتكرة لتحقيق التواصل الاجتماعي فتُمكّن مؤيديها من تحقيق التنظيم والتواصل، وأيضًا استخدامها لوسائل جديدة لجمع الأموال فتُمكّن من جمع مبالغ طائلة من مجموعة متنوعة من الأشخاص، هذه المجموعة تضم آلافًا من صغار المتبرعين الذين كانت هذه أول مرة يتبرعون فيها لحملة سياسية.

ولأن اسمي مدرج في القائمة البريدية لموقع My.BarackObama.com وصلّتني رسالة إلكترونية من الحملة في منتصف يوليو كان مما جاء فيها ما يلي:

### إليزابيث

لدينا أخبار رائعة نطلعك عليها.

بفضل كرمك والتزامك سنُخبر الصحافة اليوم أن حملتنا في موقفٍ مالي قوي جدًا.

في شهر يونيو ساعدنا مؤيدونا — من أمثالك — على جمع ٥٢ مليون دولار أمريكي.

لكن المبهز أكثر من هذا الرقم هو طريقة وصولنا له. فقد أسهم مئات الآلاف من الأشخاص العاديين في بناء الحملة التي نقودها من أجل التغيير. وكثيرٌ منهم كانوا يتبرعون بأموالهم لأول مرة ويُعطون ما تسمح به إمكانياتهم، وكان متوسط ما يتبرع به الفرد ٦٨ دولارًا أمريكيًا.

جمعوا ٥٢ مليون دولار من متبرعين متوسط ما يمنحونه إياهم من أموال لا يتجاوز ٦٨ دولارًا أمريكيًا، هذا مبهز! كيف تم هذا؟ إن أردت أن تعرف فواصل القراءة ...

كما هو متوقع، جاء مع الأخبار الرائعة بشأن الـ ٥٢ مليون دولار أمريكي رسالة ثانية تتخذ صورة رسالة بها معلومات وفي آخرها زر مكتوب عليه «اسأل». هذه الرسالة بعث بها مدير حملة أوباما ديفيد بلوف، وتدور حول الإمكانيات الهائلة التي يتمتع

بها جون ماكين والأموال التي تحصل عليها اللجنة القومية للحزب الجمهوري. وتدعى الرسالة أن كلاً من حملة أوباما واللجنة القومية للحزب الديمقراطي لا يقبلان تبرعات من جماعات الضغط في واشنطن، ولا من لجان العمل السياسية، وأن جون ماكين واللجنة القومية للحزب الجمهوري، في المقابل، لا يلتزمان بهذا المبدأ.

ثم تصل الرسالة إلى بيت القصيد فيأتي فيها: «أعرف أن هذه ليست المرة الأولى التي نطلب فيها أموالاً، ولن تكون الأخيرة. أرجوك تبرّعي بـ ٢٥٠ دولاراً أمريكياً الآن ... لا حيلة لنا بدونك.»

وكالعادة يظهر الزرّ الجذّاب ذو اللون الأحمر الزاهي الذي يبدو وكأنه يصرخ «تبرّعوا!»<sup>2</sup> ويمكن القيام بكافة خطوات هذه العملية عبر الإنترنت في أمان تام، وذلك عن طريق الضغط على الفأرة مراتٍ قليلة وكتابة رقم البطاقة الائتمانية.)

وكما هي الحال بالنسبة إلى أية رسالة تسويقية جيدة، فإن هذه الرسالة الإلكترونية أُعدت بحيث تشمل رسالة شخصية (تتمثل في مقولة «عزيزتي إليزابيث») وجاء المبلغ المطلوب ملائماً لوضعي (وأنا واثقة من أنهم طلبوا مبالغ أكبر كثيراً من آخرين)، فضلاً عن المداهنة التي تتمثل في أنني، بصفتي واحدة منهم، اطّلعْتُ على هذه المعلومة قبل الصحافة، أو على الأقل ليس بعدها.

ولا شك في أن أعداداً غفيرةً من الأشخاص الذين وصلتهم رسائلٌ مماثلة تجاوبوا مع هذه الرسائل على النحو الذي تتناها الحملة.

كيف حدث هذا؟ كيف استطاع باراك أوباما أن يستغل بمهارةٍ شديدة الموارد التي أتاحتها له الإنترنت؟

أحد أسباب هذا هو أنه، بصفته رجلاً في منتصف الأربعينيات، عاش ثورة الإنترنت، ويعرف كيف يمكن استخدامه. في هذا الصدد يُعد صغرُ سنه النسبي ميزة بلا شك، خاصةً عندما نفكر في الإجابة التي طرحها جون ماكين حين سُئل هل يستخدم حاسوباً شخصياً أم يستخدم حاسوباً من طراز ماكينتوش، فقد بدت إجابته وكأنها صادرة من أحد عمال عصرٍ ما قبل التصنيع. هل تتذكّرونها؟ كانت إجابته: «لا هذا ولا ذاك، فأنا أُمِّي أعتد على زوجتي ...» ربما بدت إجابة ماكين ظريفة وصادقة، لكن حملته ستُضيع فرصة جيدة إذا لم تعرف كيف يمكنها الاستفادة من مزايا التواصل الاجتماعي وجمع الأموال التي يوفرها عالم الإنترنت.

وكان من حسن حظ أوباما أيضاً أن رسالته لاقت قبُولاً لدى مؤيديه من الشباب ومن البارعين في استخدام الإنترنت. كان من هؤلاء كريس هيوز، وهو واحد من الأربعة

الذي أسسوا موقع «فيسبوك»، وبلغ تأييده لأوباما درجةً جعلته يترك وظيفته في الشركة حتى يساعد حملة أوباما فيما تقوم به من حملاتٍ إعلامية جديدة.<sup>3</sup>

وبحلول منتصف الصيف، كان هيوز وفريقه قد ساعدا حملة أوباما على جمع تبرعاتٍ بلغت نحو مليوني دولار أمريكي، كان متوسط ما أسهم به الفرد من تبرع يقل عن ٢٠٠ دولار أمريكي. أيضاً ساعد الفريق على تنظيم المؤيدين بحيث يتمكنون من التواصل، ومن حضور المؤتمرات الانتخابية (هل تتذكرون الرسالة الإلكترونية التي أرسلتها الحملة بشأن المؤتمر الانتخابي الذي عُقد في هارتفورد؟)، ومن الاطلاع على المعلومات وإطلاع الآخرين عليها (هل تتذكرون الرسالة الإلكترونية التي أرسلتها ميشيل بشأن مقطع الفيديو الذي أعده will.i.am؟)، ومن أجل تجنيد الآخرين ليدعموا القضية. وبحلول منتصف يوليو، كان نحو مليون شخصٍ قد انضموا لموقع My.BarackObama.com وصاروا أعضاءً فيه.<sup>4</sup>

وربما يكون الأكثر إثارةً من هذا، أن كريس هيوز أعلن على مدوّنته الموجودة على موقع أوباما أن أكثر من مليون مؤيد انضموا لصفحة باراك أوباما على «فيسبوك». حسبما يقول هيوز في مدوّنته: «عدد المؤيدين المنضمين لصفحة أوباما يتجاوز كثيراً عدد مؤيدي أصحاب الصفحات الأخرى — سواء أكانوا سياسيين أم مشاهير أم فرقاً موسيقية — على «فيسبوك» كافة.<sup>5</sup> وتتساءل: لِمَ استقطب أوباما كل هذه الأصوات الشابة؟

تُعد الأدوات التي وضعها السيد هيوز وغيره بين يدي أوباما «عاملاً مهماً» من العوامل التي مكّنت أوباما من أن يكسب تأييدٍ من الأصوات مكّنه من الفوز بترشيح الحزب الديمقراطي، هذا ما قاله المرشّح أوباما بنفسه.<sup>6</sup>

من المبادئ التي جلبها هيوز معه والتي استمدها من «فيسبوك» مبدأ «الحفاظ على الواقعية والبساطة»، هذا المبدأ يتماشى مع أفكار أوباما إذ قال لصحيفة «نيويورك تايمز»: «من المبادئ الأساسية التي أؤمنُ بها منذ أن كنتُ منظمًا للمجتمع الأهلي هو أن التغيير الحقيقي يبدأ من القاعدة الشعبية، وأنه لا أداة أكثر فاعلية من الإنترنت في تنظيم تلك القاعدة.»<sup>7</sup> (هنا ترد في خاطري صورة رودي جوليانى وهو يستهزئ بالأيام التي قضاها أوباما في العمل منظمًا للمجتمع الأهلي، وبسخرية سارا بالين من هذا أيضاً.)

أحدث الإنترنت أيضاً تغييراً جذرياً في طريقة انتشار ونقل المعلومات الخاصة بالحملة الانتخابية. أندرو راسيغ، الذي أسهم في تأسيس موقع TechPresident.com ويتولى إدارته، قال لصحيفة «سان فرانسيسكو كرونكل» إنه يعتقد أن انتخابات عام

٢٠٠٨م ستمثل «نقطة تحول في ثورة الإنترنت»، وأرجع أحد العوامل المؤدية لهذا إلى قدرة الأشخاص العاديين على الوصول إلى كميات هائلة من المعلومات السياسية عبر الإنترنت. وأحد العوامل الأخرى هو أن العاملين بالإعلام يستطيعون استخدام الإنترنت في تغطية الحملات الانتخابية.<sup>8</sup>

فعلى حد قول راسيخ فإن «عدداً كبيراً جداً من الموضوعات الواردة حول الحملات الانتخابية في وسائل الإعلام المطبوعة، وفي التلفاز والمذياع، مصدرها الإنترنت. إضافة إلى هذا فإن عام ٢٠٠٨م يشهد بالفعل تطوراً، فسيصبح العام الذي تقوم فيه المواد الإعلامية — التي يكون مصدرها الناخبون والتي تُبث بصفة أساسية عبر مقاطع الفيديو — بالدور الأكبر في عملية إحداث التغيير في الحملات الانتخابية، وفي إضعاف محاولات المرشحين للسيطرة على الرسائل التي يبعثون بها.»<sup>9</sup>

وأثناء الحملة رأينا المخاطر الكامنة في عالم الإنترنت الجديد هذا، فقد حاربت حملة أوباما من أجل التعامل مع أمور مثل الإعلانات التي بثها الحزب الجمهوري عبر «يوتيوب» والتي شككت في وطنية ميشيل، وكذلك الشائعات التي انتشرت عبر الإنترنت وكانت تدور حول ادعاء أن ميشيل انتقدت بشدة «الحتالة البيض» و/أو أن باراك مسلم. أيضاً رأينا كيف استطاعت الحملة أن تستخدم الإنترنت في شن هجومها المضاد ضد بعض الشائعات الفتاكة التي هدّدت بأن تهدد قوى الحملة تماماً، كما فعلت جماعة «سويف بوت فيتيرانز فور تروث» بجون كيري في الانتخابات الرئاسية عام ٢٠٠٤م. على الرغم من صعوبة مراقبة نجاح شيء مثل موقع FightTheSmears.com مقارنة بموقع يهدف إلى تحقيق أهداف قابلة للقياس مثل جمع التبرعات أو أعداد العضوية، إلا أن الحملة تمكّنت على الأقل من مكافحة حرب الشائعات عبر الإنترنت ببعض الأسلحة الإلكترونية الخاصة بها.

كان هناك شيء واحد واضح: حملة أوباما قدّرت الفارق الذي يمكن أن يحدثه العالم عبر الإنترنت. لدرجة أنه، في حال انتخابه، قال باراك أوباما إنه سيوظف رئيساً للموظفين التقنيين.<sup>10</sup>

من التغيرات الأساسية الأخرى التي حدثت؛ النقاشات التي دارت حول الأعراف، بل إن مجرد طرح هذه المسألة للنقاش، وأحياناً كان هذا الطرح جريئاً جداً بعد أن كانت هذه المسألة تواجه تعميماً عليها، تغيير كبير. هل تتذكرون ما قالته هيلاري كلينتون في خطاب الاعتراف بهزيمتها أمام أوباما الذي ألقته حول أن المرأة تستحق أن تحظى باحترام كالذي يحظى به الرجل، وتستحق الحصول على راتبٍ مساوٍ لذلك الذي يحصل

عليه، وأن كافة صور التحيز غير مقبولة في القرن الحادي والعشرين؟ وهل تتذكرون أن «نيويورك تايمز» فهمت من هذا أن هيلاري تريد أن تقول إن بعض الناس لا يزالون يؤمنون بأنه لا عيب في أن يكون المرء متحيزاً ضد المرأة، لكن العيب كل العيب أن يكون عنصرياً؟

مثلما سلطت هيلاري الضوء على قضية التحيز ضد المرأة، بدا أن حملة أوباما أثارت نقاشاً جديداً حول العنصرية والتعصب، سواء عن قصد أم عن غير قصد. أحد أمثلة هذا هو الرسم النقدي الساخر الذي نُشر في مجلة «نيويورك» عن باراك أوباما وزوجته ميشيل. ففي يوم الأحد الذي تلا نشر هذا الغلاف الساخر نُشر في أولى صفحات القسم الخاص بمقالات الرأي بصحيفة «هارتفورد كورانت» مقالان يتبنيان وجهتي نظر مختلفتين عن المقال. أولهما كتبه جينا باريكا، أستاذة اللغة الإنجليزية ونظرية النسوية بجامعة كونيتيكت، تحت عنوان «عمل طفولي لا يأتي سوى بالصدمة والإهانة»، والثاني كتبه إيريني بابوليس، أستاذة المقال بترينيتي كوليدج، تحت عنوان «غلاف يجعلنا نتلوى أُلماً، لكنه يُجبرنا على الحوار.»

معظم الذين تحدثت معهم نظروا للموضوع نظرة السيدة جينا نفسها، مع أنني لم أقابل أحداً وظف التشبيه نفسه الذي وظفته في مقالها. فعلى حد قولها: «غلاف مجلة «نيويورك» الذي يظهر فيه أوباما في هيئة مسلم وتظهر زوجته في هيئة أحد الانفصاليين السود المسلحين ليس فيه من الإبداع إلا بقدر ما في الرسوم البذيئة من إبداع ... فهو بكل المقاييس سطحي جداً.»<sup>11</sup>

غير أن السيدة إيريني وصلت إلى فهم عميق لهذا الرسم. قالت إيريني إنها عندما رأت الغلاف للمرة الأولى انتابها الغضب على الفور. ثم تحدثت عن تجربة مشاهدة ضيوف البرامج التلفزيونية وهم يتحدثون عن الجوانب الإيجابية في هذا العمل الفني، أو عن افتقاره للمساة الفنية، وكان أغلب الناس يتبنون الرأي الثاني. وقالت إنها صُعقت عندما وصف أحد ضيوف الحلقات التلفزيونية — وهو شخص لم تتذكر اسمه — هذا الرسم بأنه «رسمٌ ساخر رائع جداً». فقد صرخت «ماذااااااااا؟» على حد قولها.

قالت: «وانتقده المذيع وباقي الضيوف. كيف يمكنه أن يقع في هذا الخطأ؟!» وحكت أنها مضت بعد هذا تمارس أنشطتها اليومية لكن رأي الضيف لم يفارق ذاكرتها. وبعد أن فكرت في الموضوع مراراً وتكراراً، توصلت للرأي التالي: «لكن ماذا لو أن الغلاف يحقق الهدف الذي رُسم من أجله؛ إذ إنه يثير هذا النوع من النقاش؟ ماذا لو أنه يجبر

الناس، أغبياءً كانوا أم أذكاء، على مواجهة مواقفهم — ومواقفنا — غير المعلنة تجاه أوباما وزوجته؟ هل ينظر إليهما بعضنا على أنهم «آخرون مختلفون عنا»؟ إن كان هذا صحيحًا، فما هي نظرتنا لهما على وجه التحديد؟»

وتواصل حديثها قائلة إن الغلاف «يكاد يُجبرك على أن تتحدث عنه مع الآخرين، وما يُثار بين الناس من حوار قد يجعلهم يغيرون نظراتهم. فالنقد الذي يمثله الغلاف يدعونا نحن أهل هذه البلاد إلى مواجهة عنصريتنا الخفية وإلى طرحها للنقاش». وتضيف أن الفن يمكن أن «يؤدي أفضل مهامه عندما يستفز مشاعرنا على نحو يحفز على التفكير ويُجبرنا على بدء النقاشات». <sup>12</sup> ولا شك في أن غلاف مجلة «نيويوركر» يؤدي إلى هذه النتيجة. وأستطيع أن أقول إن وجود أوباما وزوجته في هذه الانتخابات يؤدي إلى هذه النتيجة نفسها أيضًا.

لكن هذا لا يعني أن مشكلة العنصرية قد انتهت. ففي استطلاع للرأي قامت به «سي بي إس» و«نيويورك تايمز» ونُشر في ١٦ يوليو عام ٢٠٠٨م اتضح أن الأمريكيين لا يزالون «منقسمين انقسامًا كبيرًا بسبب الأعراق» في الوقت الذي تسير فيه البلاد نحو الانتخابات. (بعد عشر سنوات، تزداد الحاجة إلى إنجاز هذا العمل إلحاحًا). فوفقًا لهذا الاستطلاع فإن ٦٠٪ من السود الذين أُجريَ عليهم الاستطلاع قالوا إن العلاقات بين ذوي الأعراق المختلفة سيئة بصفة عامة، في مقابل ٣٤٪ من البيض قالوا بهذا الرأي. إضافة إلى هذا فإن كل أربعة من بين عشرة سود قالوا: «لم تشهد السنوات الأخيرة تقدمًا على صعيد القضاء على التمييز العرقي»، في حين أيد هذا الرأي عددٌ «أقل من اثنين من بين كل عشرة بيض». <sup>13</sup>

ومع هذا، ففي الوقت نفسه، كانت قناة «سي إن إن» تبث برنامجًا بعنوان «السود في أمريكا» في الذكرى الأربعين لاغتيال القس الدكتور مارتن لوثر كينج التي جاءت في نفس العام الذي شهد صعود نجم رجل أمريكي من أصل أفريقي ليكون مرشحًا للرئاسة. سوليداد أوبرين مذبة «سي إن إن» التي تقدم حلقات البرنامج والتي تنتمي لكلتا العرقتين (إن وإذها أبيض ووالدها سوداء) قالت: «أظن أن الناس مهتمون جدًا بالحوارات التي تدور حول الأعراق، وأحد أسباب هذا يعود إلى باراك أوباما والسبب الآخر يعود إلى [إعصار] كاترينا. وهذا الاهتمام موجود بالأخص بين الشباب السود الذين أجرينا لقاءات معهم والذين يعتبرون أنفسهم قادة، إذ قالوا إن الوقت قد حان لأن يمسكوا بزمام الأمور، ويختاروا طريقهم». <sup>14</sup>

كانت حلقات البرامج هذه وليدة رغبة في عرض رؤية أكثر شمولاً عن موضوع الأعراق في أمريكا. مارك نلسون، نائب رئيس وحدة إنتاج البرامج الوثائقية في قناة «سي إن إن»، ورئيس المنتجين المنفذين بها قال لجريدة «نيويورك تايمز»: «هل توجد في أمريكا قضية أكثر تعقيداً من قضية الأعراق؟»<sup>15</sup>

وبالفعل كُشِفَتْ واحدة من أكثر النقاط تعقيداً في قضية العرق عن غير قصد في لحظة سهو أُذيعت مصادفة على التلفاز. ففي استراحة أثناء لقاء مع قناة «فوكس نيوز»، أدلى المرشح السابق للرئاسة القس جيسي جاكسون بتعليقه، الذي صار الآن شهيراً، والذي أعرب فيه عن رغبته في أن يسلم جلد [أوباما]. هذا التعليق نبه أمريكا إلى ما رأى البعض أنه انقسامٌ بين الحرس الجديد والحرس القديم من القيادات الأفروأمريكية. القس جاكسون، الذي أدلى بهذا التصريح حين كان يظن أن مكبر الصوت قد أُغلق، كان يعبر عن قلقه من أن باراك أوباما صار يتحدث إلى السود «بتعالٍ». كان جاكسون، الذي ترشح للرئاسة عامي ١٩٨٤ م و١٩٨٨ م، يعترض أساساً على تصريحاتِ قالها السيناتور أوباما في خطبة ألقاها يوم عيد الأب قال فيها إن الرجال السود في حاجة إلى أن يتحمّلوا مسؤولية أبنائهم، وقال إن مبادرات المؤسسات الدينية قادرة على مواجهة انهيار المدارس وارتفاع مستوى البطالة.<sup>16</sup> افترض البعض أن جاكسون يريد بانتقاده أن يسأل: أين هي مسؤولية الحكومة في المساعدة على مواجهة مختلف أشكال عدم المساواة؟

من المهم أن نتذكر أن باراك أوباما وجيسي جاكسون كليهما من أبناء البيئة السياسية نفسها التي سادت شيكاغو، وأن ابن هذا القس، جيسي جاكسون الابن، من المسؤولين عن حملة أوباما على مستوى الولايات المتحدة بأسرها. وميشيل أوباما وسانتيتا جاكسون — ابنة القس جاكسون — صديقتان منذ الطفولة. ومرة أخرى نقول إن سانتيتا هي أم ماليا أوباما بالعماد.

عندما أدرك القس أن كلماته سُجِلَتْ اعتذر سراً وجهراً لأوباما وقال إنه ملتزم بأن يقدم كافة أشكال الدعم لحملة أوباما. وفي غضون هذا أدلى جاكسون الابن بتصريح قال فيه إنه يشعر «بعضيم الغضب والإحباط بسبب التصريحات الطائشة التي أدلى بها القس جاكسون»، وقال: «القس جاكسون والدي وسأظل أحبه أبداً، وهو يجب أن يعرف كم تعبت في السنة والنصف الأخيرة [من أجل أوباما] ... لذا فإنني أرفض تماماً حديثه القبيح وأتبرأ منه.» أرجع الكثيرون تعليقات جاكسون الابن وكل ما يلاحظ من انقسام بين الحرس الجديد والقديم إلى الفجوة بين الأجيال، لكن جاكسون نفسه قال إن هذا

الادعاء لا أساس له من الصحة. إذ قال ل واشنطن بوست: «هذه ليست مواجهة بين الكبار والصغار، هذا تعليلٌ سخيّف.»<sup>17</sup> شيريل كاشين، أستاذة القانون بجامعة جورج تاون والكاتبة في مجال الأعراق، قالت لكيفين ميريدا الذي يعمل في صحيفة «واشنطن بوست» إن تصريحات جاكسون جعلتها تتساءل: هل جاكسون يشعر بالغيرة من أوباما؟ وأضافت: «من الصعب على جيل الرجال السود، الذي نشأ في عصر لم يكن فيه أي شيء سهلاً، أن يرى نجم هذا الشاب يصعد دون عناء تقريباً.»<sup>18</sup>

لكنّ هناك آخرين أشاروا إلى أن أوباما لم يكن ليحقق ما وصل إليه دون نفوذ جاكسون وكثيرٍ غيره من القادة الأفروأمريكيين الذين تبعوه في مسيرة الكفاح من أجل الحقوق المدنية. فحسبما قال جاكسون نفسه — بعد أن ذكر الإنجازات الرائعة من أمثال الحصول على الحكم بإلغاء الفصل العنصري في المدارس، واستصدار القانون الخاص بحقوق التصويت، وبعد أن أعرب مجدداً عن فخره وسعاده — فإن السيناتور أوباما «يتسابق في الجولة الأخيرة من سباق ظل الأمريكيون من أصولٍ أفريقية يسلمون رأيه فيه بعضهم لبعض طوال أربعة وخمسين عاماً.»<sup>19</sup>

وقال أيضاً: «وإنه لمن دواعي سروري يا إخواني أن أرى هذا يحدث بأم عيني وأنا حي ... فالمرء عندما يكون عضواً في فريق ويحقق عضوٌ من أعضاء هذا الفريق إنجازاً، فإن النجاح يكمل الفريق كله، أيّاً كان الشخص الذي حقق الإنجاز.»<sup>20</sup>

دونا برازيل التي كانت عام ١٩٨٤م مستوّلة عن الأبحاث الميدانية التي تجرّيها حملة جاكسون، ثم أصبحت مديرة حملة آل جور الانتخابية بعد هذا، أشارت هي أيضاً إلى أن القس جاكسون هو عضو لا ينفصل عن جسم هذا الفريق سواء أدلى بتعليقات طائشة أم لا. قالت: «فهو لم يمكّن السود من أن يتمتعوا بما أتيح لهم من مكانة وحسب، بل أن ينتزعوا أية مكانة يريدون، إنه لي في مجال السياسة بمنزلة الأب الرّوحي.»<sup>21</sup>

وإضافة إلى النقاش الذي دار أثناء الانتخابات حول الأعراق و«الزعماء السياسيين» فإن الناس كانوا يتحدثون أيضاً عن ميشيل أوباما وموقعها في تاريخ النساء الأمريكيات من أصلٍ أفريقي.

ففي مقال بعنوان «الهجوم على إنجازات النساء السوداوات» نُشر في جريدة «واشنطن بوست» كتبت صوفيا نيلسون: لا شيء جديد في الكاريكاتير الذي نشرته مجلة «نيويورك» والذي يظهر ميشيل أوباما في صورة متطرفة تحمل السلاح. إن تشويه صورة ميشيل أوباما «أسخطنا جميعاً»، لكنّها لم تكن مفاجأة «فهذا هو عالمنا»، هذا ما كتبتّه صوفيا

عن الغلاف الذي نُشر عندما كانت هي وصديقاتها مجتمعات في واشنطن للاحتفال بمئوية النادي النسائي «ألفا كابا ألفا»، وهو أول نادٍ نسائي يتخذ من اليونانية اسمًا له تؤسسه نساءً أمريكيات من أصلٍ أفريقي، وصوفيا تعمل محاميةً في إحدى المؤسّسات وترأس منظمة IASK, Inc، وهي منظمة للنساء العاملات من الأمريكيات ذوات الأصول الأفريقية.<sup>22</sup>

«تابعنا بمزيج من الفخر والقلق كيف تحملت زوجة أول مرشحٍ رئاسي أمريكي ذي أصولٍ أفريقية جادّ الصعاب التي واجهتها أثناء الحملة الانتخابية. فقد اتهمها البعض بأنها تفقد الولاء للوطن بسبب مقولة عفوية نطقت بها، ووصفت بأنها متطرفة بسبب بحث كتبتّه منذ ما يربو على ٢٠ عامًا، ورُسمت لها في الأذهان صورةً مشوهةً ألا وهي أنها «امرأة سوداء ساخطة». ثم اضطرت بحكم الضرورة السياسية إلى أن تخضع لـ «عملية تجميل» بهدف تلميع صورتها وجعلها على هيئة يقبلها معظم الأمريكيين».<sup>23</sup>

لكن ما مرّت به ميشيل أوباما ليس جديدًا على «النساء العاملات من الأمريكيات ذوات الأصول الأفريقية؛ فنحن نتعرض لهذا النوع من التشويه طوال الوقت». وتحكي عن بعض الصورة المشوهة التي تُرسم في أذهان الناس عن النساء الأمريكيات ذوات الأصول الأفريقية؛ فهن يُقدّمن للناس على أنهن «خادماٌ حمقاواتٌ مغروراتٌ مثل شخصية بريسي في رواية «ذهب مع الريح»، أو على أنهن «مديراتٌ منزل لا تحبو الابتسامة من على وجوههن ويتمتعن بالقدرة على الاجتهاد في العمل دون كلل أو تعب، مثل شخصية العمّة جيمينا الشهيرة». إضافةً إلى هذا فإنهن يُقدّمن للناس في صورة نساء «شرساتٍ عنيفاتٍ غالبًا ما يكنّ بديناً جدًّا» كما هو الحال في بعض الأفلام من أمثال فيلم «نوربيت» وفيلم «منزل بيج ماما».<sup>24</sup>

وتتحدث الكاتبة عن الإنجازات التي حققتها النساء السوداوات العاملات، وعن أن الأ نظار لا توجّه إليهن رغم هذا. وتُورد إحصاءاتٍ تكشف عن أن ٧٠٪ من النساء العاملات السوداوات غير متزوجات، وأن النساء السوداوات أكثر عرضة من النساء البيض لأن يبلغوا الأربعين دون زواج بخمس مرات.

وجُل أمل الكاتبة أن تنجح ميشيل أوباما في «مواجهة الصور المشوهة الشائعة» عن النساء السوداوات، وأن تثبت للعالم أن وجود نساءٍ سوداواتٍ عاملات قويات ليس مستحيلًا. وتختم صوفيا مقالها باقتباس مقولة لصديقة تقول عنها إنها أمٌ عاملة متزوجة لها ثلاثة أبناء. فقد كتبت لها صديقتها حديثًا تقول: «أظن أن أحد أكثر الأمور إثارة

بشأن ميشيل أوباما هو أن ما تفعله هي وزوجها هذه الأيام ثوريٌّ جدًّا، وأنا لا أعني بهذا الترُّشُّح للرئاسة. فأنَّ يتمتع رجلٌ أسود وامرأةٌ سوداء بزواج سعيد في الولايات المتحدة ويكون لهما أبناء ويعملان معًا كالشركاء لبناء حياة — فضلًا عن أن هذه الحياة التي يبنيانها تُصَبُّ في نفع الآخرين — وفي الوقت نفسه يشتركان معًا في تربية ابنتيهما؛ فإن هذا ثوريٌّ تمامًا.»<sup>25</sup>

فحسبما تقول السيدة صوفيا: «إننا نأمل أن تُهَبَّ علينا رياح التغيير بعد طول انتظار إن أصبحت ميشيل أوباما السيدة الأولى.»<sup>26</sup>

ما رأيناه من حديث عن وجود شقاق، حقيقي أو مزعوم، في صفوف القادة السياسيين الأمريكيين ذوي الأصول الأفريقية، وحديث عن واقع أن تكون المرأة امرأة عاملة أمريكية ذات أصول أفريقية، وعن الحاجة إلى التغيير، وما رأيناه من برنامج يُذاع على قناة «سي إن إن» ويصُبُّ اهتمامه على مغبة أن يكون المرء «أسود في أمريكا»؛ كل هذه النقاشات العلنية الصريحة هي واقعٌ جديد. وحسبما تقول شيريل كاشين، أستاذة القانون بجامعة جورج تاون، ما على المجتمع الأفروأمريكي إلا أن يحافظ على استمرار هذه النقاشات.

إذ قالت: «إن مجتمع السود هو أحوج الآن من أي وقتٍ مضى إلى تأمُّل الذات، إلى منابر نتحدث عليها بجديّة عن مسؤولياتنا وأبنائنا، والقيم التي نريد أن ينشأ أبنائنا عليها. ليس لدينا منابرٌ كافية نتحدّث عليها بصراحةٍ تامة عن أسلوب تربيّتنا للأبناء وعن انخفاض نسبة الزواج بيننا.»<sup>27</sup>

هل هذه التغيُّرات الظاهرة في مجتمع السود تعني أن هناك تغيّراتٍ ستطرأ على المجتمع الأمريكي بأسره؟

ورد بخاطري الآن الحوار الهاتفي الذي أجرَيْته مع زوجة شقيق جارتِي لويز أمبلر أوسبورن التي كانت في دفعة ميشيل نفسها في جامعة برينستون، والتي لم تكن تعرفُها رغم هذا، وحالها في هذا هو حال جميع الزملاء البيض الذين تحدّثت معهم.

قالت لويز: «أرى أن أبنائي في حال أفضل بكل تأكيد؛ فهم بلا شك أكثر تفتحًا ومروا بتجارب أثناء نشأتهم تفوق كثيرًا التجارب التي مررتُ بها طوال حياتي. وأكثر ما نطمح إليه أن يكون الجيل الصاعد أفضل حالًا وأكثر وعيًا.»<sup>28</sup>

تجوُّل في خاطري الآن صورة تلك الفتاة الصغيرة التي تحدّثت عنها ميشيل أوباما أثناء الخطابات التي ألقَتْها في الانتخابات التمهيدية، تلك الفتاة الصغيرة التي كانت في مركز تجميل بولاية ساوث كارولينا والتي قالت لميشيل إنه إن انتُخب زوجها رئيسًا فإنها ستستطيع أن تُطلق العنان لأحلامها.

فأنا لديّ قصةٌ شبيهة بهذه.

بينما كنتُ في حِصَمِ كتابة هذا الكتاب كان عليّ أن أُعَدَّ حقائقِي، وأضع فيها المسوِّدة المبدئية التي كتبْتُها، في إحدى عطلات نهاية الأسبوع وأستقل السيارة مع ابنتي ذات الخمسة عشر عاماً إلى دوريِّ كرة قدم يستمر ليومين في ولايةٍ أخرى. كان هذا الدوريُّ في الأساس حدثاً تنظمه الجامعات حتى تعطيَ لمدربيها فرصة التعرف على المواهب الواعدة. ومثلما نفعل حينما نكون مقبلين على هذه المباريات التي تُقام بعيداً جداً عن بيتنا فقد اتفقتُ مع والدة لاعبةٍ أخرى أن أوصل البنّتين ذهاباً وتوصلاًهما هي إياباً. وكما هو حال بارك أوباما، كان والد هذه الفتاة أسود ووالدتها بيضاء. وكانت أسرتها هي الأخرى تتابع الانتخابات عن كُتُب، واكتشفنا أنها كانت قد حضرت مثلنا المؤتمر الانتخابي الذي عقده أوباما في هارتفورد في شهر يناير.

بسبب اقتراب الموعد النهائي بسرعة، كان آل أوباما يشغلون بالي كثيراً خلال البطولة. وقبل إحدى المباريات الأولى للفتاتين مباشرة، قالت ابنتي وصديقتها إنهما بحاجة إلى الاستماع إلى بعض «الموسيقا الحماسية»، وعندما فشلتُ إذاعة شمال ولاية نيويورك في توفير أي أغانٍ مناسبة، اقترحتُ أن أقرأ فقرة من المخطوطة التي كانت أمامي بانتظار التحرير. كان هناك اقتباسٌ لميشيل أوباما اعتقدتُ أنه قد يكون له تأثير الموسيقا الصاخبة ذات الإيقاع القوي نفسه.

فتحتُ المخطوطة قرب نهاية الفصل الأول؛ حيث تتحدث ميشيل عما أصبحنا نسميه في منزلنا «اقتباس الطاولة». تعلمون، ذلك الاقتباس حول تجاهل المتشائمين والمُضي قُدماً ببساطة.

سأقرأ هنا كلامها، محاولاً محاكاة أسلوبها البلاغي القوي: «نواجه في كل مكان أناساً يتشككون في إمكانية تحقيق النجاح. هم أناس يقولون لنا إننا لن نستطيع تحقيق أي شيء. يقولون إننا لسنا مؤهلين. ويقولون إننا لسنا أكفاء بما يكفي. ويقولون إننا لا نتمتع بالذكاء الكافي. ويقولون إننا أطول قامَةً مما يجب.

كل واحدٍ منكم هنا سمع وشعر بتلك الحواجز، شخص يدفعك إلى الأسفل، يحدّد حدودك، من أنت؟ أنت تعلم جيداً ما أنت قادر على فعله...» سأتابع القراءة محاولاً زيادة الصوت والإيقاع للوصول إلى ذروة معينة نحو النهاية.

«هذه الانتخابات تتعلق بذلك بقدر ما تتعلق بالتغيير؛ لأن الحقيقة هي أن هناك ملايين من الأضواء الساطعة مثلي تماماً في جميع أنحاء البلاد. أطفال يعيشون في الظل،

تُخبرهم مجتمعاتهم بما يمكنهم وما لا يمكنهم فعله. هذه فرصة لنا جميعاً لإرسال رسالةٍ مختلفة لتلك الأضواء الساطعة.

كما تعلمون، في كل مرة أخبرني فيها أحدهم: «لا، لا يمكنك فعل ذلك»، تجاوزتُ تشكيكهم واتخذتُ مكاني على الطاولة!»

زفرتُ، ووضعتُ المخطوطة، ونظرتُ إلى الفتاتين، متلهفةً لرؤية وجهيهما الملهمين، متأكدةً من أن الاقتباس سيعمل تماماً مثل أي أغنية حماسية قديمة. ابنتي، التي كطفلةٍ ثانية خرجتُ من الرحم مستعدةً لمواجهة أخيها الأكبر، إن لم يكن العالم بأسره، فهمتُ الأمر تماماً. خرجتُ طفلي، المليئة بالروح القتالية بطبيعتها إن لم يكن بترتيب الميلاد، من السيارة مستعدةً لإسقاط المدافع التالي الذي يعترض طريقها. (لقبها والد إحدى اللاعبات في الفريق بـ «المدمّرة» خلال البطولة.)

صديقة ابنتي، وهي طفلةٌ وحيدة ولاعبةُ كرة قدم رائعة الجمال (فضلاً عن كونها فتاةً جميلة)، بدت منزعجة تماماً. قالت وصوتها يرتجف: «هذا جعلني متوترة. إنه لأمرٌ يبعث على القلق الشديد». قبل المباراة التالية، طلبتُ مني ألا أقرأه مرةً أخرى.

في ذلك الوقت، كنتُ محتارةً لماذا وجدتُ كلمات ميشيل شديدةً للغاية. بالنسبة لي، كان أفضل حديثٍ تحفيزي على الإطلاق. ولكن بعد ذلك فكرتُ فيما يمكن أن تعنيه تلك الكلمات لفتاةٍ صغيرة من أصولٍ أفريقية أمريكية، الفتاة الوحيدة من أصولٍ أفريقية أمريكية في فريق كرة القدم، واحدة من القلائل في البطولة، أقليةً في بلدها في ولاية كونيتيكت. «نواجه في كل مكان أناساً يتشككون في إمكانية تحقيق النجاح. هم أناس يقولون لنا إننا لن نستطيع تحقيق أي شيء. يقولون إننا لسنا مؤهلين. ويقولون إننا لسنا أكفاء بما يكفي. ويقولون إننا لا نتمتع بالذكاء الكافي. ويقولون إننا أطول قامَةً مما يجب. كل واحد منكم هنا سمع وشعر بتلك الحواجز، شخص يدفعك إلى الأسفل، يحدّد حدودك، من أنت؟»

بدأتُ أفهم الأمر. ماذا لو كنتَ قد سمعتَ تلك الأشياء حقاً — أو ربما ظننتَ أنك تسمع تلك الأشياء — طوال حياتك؟ ماذا لو لم يكن الأمر مجرد سياق كونك الأخت الصغرى لأخيك؟ ماذا لو كنتَ تعلم أنه حتى لو لم تكن متلقياً لتلك الرسائل بالذات بانتظام، فإن أشخاصاً مثلك تماماً، على مرّ التاريخ، كانوا كذلك؟ أي نوع من العبء سيكون هذا لتحمله؟

ذهبتُ الفتاتان إلى المباراة. انطلقتُ الصافرة وبدأ اللعب. كانت ابنتي وصديقتهُ تلعبان معاً في المقدمة. مررتنا الكرة، ركضتا بها، مررتنا مرةً أخرى، وسدّدتا بضع تسديدات

على المرمى. احتسب خطأ على صديقة ابنتي بعدما بدا لأولياء الأمور على خط التماس كتدخلٍ انزلاقي عادي، وتلقت تحذيرًا شفهيًا من الحكم. (عادة ما تكون ابنتي هي التي تتلقى التحذيرات.)

في بعض الأحيان، يحافظ التحذير على اللاعب، خاصة إذا كان أقل حزمًا من ابنتي، من محاولة الحركة مرةً أخرى. لم يحدث هذا مع صديقة ابنتي، ليس هذه المرة. لقد وجدتُ فرصةً أخرى لتدخل انزلاقي لا خطأ فيه، وركلت الكرة بعيدًا عن الخصم. لم يعتبر الحكم ذلك مخالفةً للعبة. سجلت فتياتنا هدفًا.

بدأ المدربون الحاملو لوحات الملاحظات بالظهور في الملعب. في هذه المباراة، ثم التالية، ثم التي تليها. سجلت صديقة ابنتي هدفًا وقدمت عدة تمريرات حاسمة. لقد لعبت ببراعةٍ مطلقة، كانت ضوءًا ساطعًا متألّفًا بكل معنى الكلمة.

عندما وصلنا إلى المنزل، علمنا أنها تلقت مكالماتٍ هاتفيةً أو رسائلَ بريدٍ إلكتروني من خمسة مدربين جامعيين على الأقل.

أتمنى لو أنني أستطيع أن أخبرها — وأن تصدقني عندما أفعل ذلك — أنها تستطيع حقًا أن تفعل أي شيء تختاره.

بدلًا من ذلك، وبرغم احتمالية أن أكون مبالغًا في الانفعال والتكرار، أقدم لها كلمات ميشيل أوباما:

«اتخذي مكانك على الطاولة!»

## أينما تنظر، تر ميشيل

نظرة على الانتخابات في بداية أغسطس ٢٠٠٨ م

مرَّ أسبوعٌ منذ أن سلَّمتُ المسوِّدة، لكن يبدو أن صورة ميشيل أوباما ستظل مصاحبة لي؛ فأنا أراها على شاشة التلفاز، وعلى صفحات الجرائد وأغلفة المجلات، وهي جزء من كل حوار يدور. فحسبما ورد في إحدى الكتابات السياسية التي نُشرت على إحدى المدونات: «دائمًا ميشيل أوباما، دائمًا في كل وقت.»<sup>1</sup> وبهذا يكون من الصعب أن أضغَّ اللمسات النهائية للكتاب.

في اليوم الذي سبق موعد تسليم المسوِّدة الأولى لمحرر الكتاب، وصلَّتني رسالة إلكترونية أخرى من ميشيل أوباما جاءت من البريد الإلكتروني التالي: info@baracko.bama.com

### إليزابيث

هناك قصة يُحب باراك أن يحكيها، وهي تدور حول ما حدث عندما كنا واقفين وراء الكواليس قبل الخطبة التي ألقاها في مؤتمر الحزب الديمقراطي عام ٢٠٠٤ م. هو يحكيها كالتالي: كان مشغولاً جدًّا في الأيام السابقة للمؤتمر إلى حدِّ لم يترك له مجالاً لأن يشعر بالضغط النفسي، لكن قبل الخطبة بنحو ساعة صار بوسعي أن أقول إنه يشعر بالتوتر.

حتى أضغَّ حدًّا لتوتره، ملتُّ عليه قبل أن يخرج إلى المنصة مباشرة وقلتُ له: «لا ترتكب مصيبة يا رجل!»

ضحكنا. وبالفعل عَجَّ المكان بتصفيق الناس له.<sup>2</sup>

وتواصل ميشيل رسالتها متحدثة عن حشدٍ أكبر من الحشد الذي حضر ذلك المؤتمر سيخطب فيه زوجها بعد أسابيع قليلة. إذ سيذهب نحو ٧٥٠٠٠ شخصٍ إلى مدينة دينفر ليشهدوا انعقاد مؤتمر الحزب الديمقراطي ويشاركوا في هذه اللحظة المهمة. ثم تبين ميشيل لقارئ الرسالة أن حضور هذا الحدث يمثل فرصةً كبيرةً له، وبالطبع تطلب منه تبرعاً، وتقول إن التبرع سيمنح المتبرع فرصةً أن يدخل في سحب ليكون واحداً من عشرة أشخاص سيختارون لينضموا إلى باراك في كواليس ما قبل المؤتمر.<sup>3</sup>

هذه طريقةٌ جذابة لجمع النقود، لكنها ليست ما جذبني في رسالة البريد الإلكتروني هذه. كان ما جذبني — مرةً أخرى — هو صوت ميشيل، ذلك الصوت الواقعي الفريد في صراحتها. «لا ترتكب مصيبة يا رجل!»

تقريباً في الوقت نفسه الذي وصلت فيه رسالة البريد الإلكتروني إلى صندوق رسائلي اصطحبت ابنتي وواحدةً من صديقاتها ووالدة صديقتها إلى تودز بليس وهو الملهى الليلي الواقع في مدينة نيوهافن الذي أحياء فيه الحفلات جميع الفنانين، بدءاً من فرقة رولينج ستونز، ومروراً ببوب دايلان، ووصولاً إلى فرقة يو تو، وذلك حتى تستمع الفتاتان إلى ناصر جونز «ناز» فنان الهيب هوب. وحتى أكون صريحةً يجب أن أقول إن ابنتي عندما طرحت هذا الموضوع لأول مرة لم أكن أعرف من ناز هذا، وكنت أميل إلى رفض فكرة الذهاب للحفلة. لكن عندما قرأت عن مغني الراب، الذي صار يُعرف بناز، والذي انضم إلى احتجاج على قناة «فوكس نيوز» دفاعاً عن ميشيل أوباما. رأيت أن ابنتي يجب أن تحضر الحفلة وأن من سيصطحبها يجب ألا يكون شخصاً غريباً.

كما تبين، فإن ناز يتمتع بشعبية كبيرة جداً — مع أنني لم أسمع عنه قط — لدرجة أن جميع تذاكر هذه الحفلة نفذت ولم نستطع أن نشترى أية تذاكر من شباك التذاكر. ظللنا في الخارج لما بدا أنه ساعاتٌ طويلةٌ على أمل أن نتمكن من شراء تذكرة إن تغيب أحد رؤاد الحفل. لكن الحظ لم يُسعفنا. وكان طابور الجماهير ممتداً في خطٍ متعرج خارج الباب وحول المبنى. وكان المئات يصلون في جماعاتٍ تتدفق ببطء.

ومع هذا، ولأننا كنا قد أتينا من مكانٍ بعيد، فقد قررنا أن ننتظر على الرصيف مع جماعةٍ من المعجبين بناز وكلنا أملٌ أن نحقق الحلم البعيد المائل ونفوز بتصريحٍ من الفنان قبل أن يبدأ الحفل. انتظرنا طويلاً. وفي وقتٍ ما بعد منتصف الليل ظهر مغني الراب الشهير في حافلةٍ رائعةٍ ضخمةٍ مكتوبٍ اسمه على أحد جوانبها. حاولنا أن نجذب انتباهه قبل أن يدخل الملهى الليلي لكن حشداً من رجال الأمن ومن المعجبين أحاط به

ودخل هو إلى الملهى مباشرة. ولم نحصل على تصريح بشأن ميشيل أوباما أو بشأن قناة «فوكس». ولم نحصل منه على ثمرة لجهودنا.

ومع هذا فلم يكن ذلك المساء عقيماً تماماً. فأثناء انتظارنا لساعاتٍ مع الحشد الصبور الذي يضم أناساً ينتمون لمجموعاتٍ عرقية وعمرية متنوعة تحدثنا مع بعض الأشخاص. كان هناك رجلٌ أكبر منا سنّاً سألني أين كراستي وقلمي (إن أخبرته أنني أنتظر مقابلة ناز لأنني أولف كتاباً عن ميشيل أوباما). ثم تحدثنا عن الانتخابات. سألتُه: هل هو من المعجبين؟ لستُ واثقة إن كان قد فهم أنني أعني من المعجبين ببارك أوباما أم بناز، لكن هذا ليس مهماً في واقع الأمر. فقد جاءت إجابته: «الشخص الوحيد الذي قد أحاول الحصول على توقيعه هو نيلسون مانديلا».

وقابلنا شاباً يعمل في مجلة «وانسيلف». هذه المجلة تصدر في مدينة هارتفورد وتتخذ من الجملة التالية شعاراً لها: «عالم واحد، حياة واحدة، نفس واحدة». وتوردُ في منشورها الدعائي المقولة التالية: «عالم اليوم يشهد تغيراً. وما يحركه هو ثقافة الهيب هوب الراسخة، والناس الذين يتبنونها». هذا الشاب الذي قابلناه، والذي كان هناك ليحاول أن يلتقط صورة لناز، أخبرنا أنه يكتب الكثير من المقالات التي توجه الناس إلى طرقٍ يحسّنون بها أحوالهم بأنفسهم. وفقاً لموقع المجلة فإن موضوعاتها تتضمن مقالات مثل: «ابن نفسك»، «نصائح المليونيرات»، «كل واحد يعلم واحداً»، «رؤى محلية»، «المهارة المهنية»، «سوق الحجوزات».

الصديقتان اللتان ذهبنا معهما — وهما لاعبة كرة القدم التي كتبتُ عنها فيما سبق ووالدتها — هما من المولعين بناز والمتابعين لأخباره. وقد أخبرتنا عن الأغنية التي تفضّلانها من بين أغنيات ناز وعنوانها «أستطيع» (أي كان). كلمات هذه الأغنية موجهة لأطفال الأقليات، وهي تطلب من مستمعيها أن يجتهدوا في دراستهم وأن يبذلوا الجهد من أجل تغيير العالم. لكن المرء يستطيع أن يسمع فيها صدى صوت ميشيل أوباما. ذلك الصوت الفريد الذي يقول: «اتخذ مكانك على الطاولة!».

بعد أيامٍ قليلة سلمتُ المسوّدة الأولى (ولم يكن بها هذا الفصل ولا الفصل المتعلق بنتائج الانتخابات). وقد أراد القدر أن أوصل مقابلة أناس كانوا أصدقاء و/أو معارف ميشيل أوباما بعد موعد التسليم، أناس كانوا على استعدادٍ لأن يتحدثوا معي، لكن معظمهم كان يشترط ألا أنسب حديثه إليه إن نشرته. وإن استطعتُ أن ألخص كل تلك الحوارات في جملةٍ واحدة ستكون هذه الجملة هي: «ميشيل روبنسون أوباما أكثر امرأة صادقة وواقعية وذكية ومجتهدة ومرحة يقابلها المرء في حياته».

«لا ترتكب مصيبة يا رجل!» هذا هو صوتها الفريد.

في يوم الأحد الذي تلا تسليم المسوّدة فتحتُ جريدة «نيويورك تايمز» فوجدتُ فيها مقالاً للصحفية مورين دود بعنوان «السيد دارسي يأتي خاطباً الود». هذا العنوان قد لا يعني الكثير لعددٍ كبيرٍ من القراء، لكنني من المولعين برواية «كبرياء وهوى»، فأنا واحدة من هؤلاء النساء اللاتي يستطعن تسميع فقراتٍ كاملة من هذه الكوميديا الاجتماعية النقدية التي كتبتها جين أوستين، وجزء من الفضل في هذا يرجع إلى أنني قرأتها كثيراً، وجزء يعود إلى الفيلم الذي أنتجته قناة «بي بي سي»، فقد شاهدتُ هذا الفيلم الذي يستغرق عرضه خمس ساعاتٍ كاملة عشرين مرة على الأقل.

لذا فمن البديهي أنني شرعتُ على الفور في قراءة مقال مورين بحماسٍ شديد. إن كان ما توصلتُ إليه من فهم صحيحاً فإن مقال «السيد دارسي يأتي خاطباً الود» ينبني على فكرتين ورؤيتين. أولاً أن باراك أوباما هو فيتزويليام دارسي الجديد، ودارسي هذا هو بطل رواية «كبرياء وهوى» الخالدة. وثانياً أن إليزابيث بينيت، وهي البطلة الصريحة المفعمة بالحيوية التي يخطب دارسي ودها ويفوز به على مدار الرواية، تمثل أمريكا.

فيما يتعلق بالرأي الأول، فإنني أتفق مع السيدة مورين. بعد أن اقتبستُ مورين مقولةً من رواية جين أوستين قالت إن أوباما، مثل دارسي، «يستطيع أن يجذب انتباه الجميع بقوامه الطويل الرائع، وملامحه الوسيمة، وأخلاقه النبيلة». أحسنتُ، هذا وجه شبه موجود بينهما بالفعل.

وتواصل السيدة مورين حديثها مستعرضة وصف أوستين لدارسي في أول ليلة يقابله فيها القارئ. إذ قالت: «ظل الناس ينظرون إليه بإعجابٍ شديد طوال نحو نصف المساء، إلى أن ظهر في سلوكه ما غير مجرى شعبيته؛ إذ تبين للناس أنه مغرورٌ يستعلي على رفاقه ويصعبُ إرضاءه»، هذا ما كتبتُهُ السيدة مورين مقتبسةً مما كتبتُهُ جين أوستين.

ثم تمضي موضحةً ما تراه من أوجه شبه بينه وبين أوباما: «كان على صاحب ضيعة بيمبرلي أن يتعلم أن يكون في موقف المستهزأ به، وهذا كان يتسبب في بعض الأحيان في زيادة أمارات الاستعلاء المرتسمة على ملامحه.»<sup>4</sup>

كدليل على «استعلاء» أوباما تُشير السيدة مورين إلى التعليقات التي قالها أثناء المناظرات التي عُقدت في ولاية نيوهامبشير عندما قال لهيلاري كلينتون «أنت ظريفةٌ إلى حدٍّ مقبول يا هيلاري.» (أندكر هذه المقولة وأندكر أيضاً شكل فمه وهو ينطقُ بها، كان وكأنه يحارب كي لا يبدو ممن «يصعب إرضاءهم».) أيضاً تشير السيدة مورين إلى

الرسالة التي تركها السيناتور أوباما عند حائط البُراق ببيت المقدس، والتي قيل إنه كتب فيها دعاءً لله بأن يحميه من الكبرياء.

هل كان دارسي سيحذو حذو باراك في هذا؟ أقول لا، ليس قبل أن يقابل إليزابيث بينيت ويكسبَ ودها.

وبهذا أصل إلى ما أريد قوله. لا أظن أن الناخبين الأمريكيين يمثلون إليزابيث بينيت، تلك الشخصية المفعمّة بالحيوية التي تُعلّم دارسي أن يستهزئ بنفسه، والتي، في المقام الأول، تجعله يصبح واقعياً.

ففي رأيي إن كان هناك شخصٌ يمثل إليزابيث بينيت فإن هذا الشخص هو ميشيل أوباما بلا شك. عندما قابل دارسي إليزابيث في مستهل رواية جين أوستين المحبوبة لم يأبه بها في البداية، حتى بدأ يلاحظ أن وجهها تبدو عليه أمارات نكاهٍ غير عادي بفضل ذلك التعبير الجميل المرتسم في عينيها السوداوين. (هل تتذكرون ما قاله الشاب الذي نهب يتدرّب في سيدلي آند أوستن صيفاً عن عيني مدرّبه؟)

وسلوك إليزابيث أيضاً يجذب دارسي، وسلوكها ليس كسلوك من ينتمون إلى الطبقة الراقية لكنه وقع في أسر مرحها التلقائي. (وهل يوجد من هو أكثر مرحاً من ميشيل؟ هل تتذكرون ما قالته عن جواربه؟ وهل تتذكرون اللقاء الذي أجراه برنامج «أكسيس هوليوود»؟ وهل تتذكرون ردّ فعل أوباما؛ إذ ضحك وهزأ من نفسه بلا تكلف؟) ورغم الفرق الاجتماعي بين دارسي وإليزابيث — إذ إن دارسي هو مالك ضيعة بيمبرلي الغني في حين أن إليزابيث هي واحدة من خمس بناتٍ هم ذرية رجلٍ ينتمي لإحدى العائلات المحترمة بالريف لكن ملكيته موقوفة لمصلحة ورثته من أقربائه الذكور — فإن دارسي يمضي معظم الرواية في محاولة كسب ود فتاة أحلامه. في غضون هذا يتعلم كلُّ منهما بعض الدروس؛ إذ يتعلم دارسي دروساً في التواضع، وتتعلم إليزابيث ألا تصدر أحكاماً مسبقةً على الناس.

دون أن نخوض في الكوميديا الاجتماعية بكل ما فيها من تطورات وتغيرات وحكايات فرعية وشخصيات غير أساسية، أقول إننا إذا أردنا أن نشير إلى أي أوجه شبه فإننا يجب أن نقول إن باراك أوباما هو دارسي بعد أن فاز بهوى إليزابيث، وإن ميشيل أوباما هي إليزابيث بعد أن وقعت في هوى دارسي.

في نهاية الرواية عندما كانت إليزابيث على وشك الزواج من دارسي قالت له: «الآن، لتكن صادقاً معي، هل تُحبني بسبب أنني جريئة؟»

أجاب خطيبها: «بل، لاتقاد ذهنك وقعتُ في أسر هواك..» هل تتذكرون ما يأتي: «حتى أضع حدًا للتوتر، ملتُ عليه قبل أن يخرج إلى المنصة مباشرة وقلتُ له «لا ترتكب مصيبة يا رجل!» ضحكنا. وبالفعل، عج المكان بتصفيق الناس له.»

وردت تعليقات كثيرة جدًا على مقال السيدة مورين عبر الإنترنت لدرجة أن الجريدة رفضت نشر أية تعليقات بعد هذا (وقد شعر عدد من الأصدقاء وأفراد الأسرة أنهم مضطرون لأن يرسلوا هذه التعليقات عن طريقي). وفي الصباح نفسه الذي فتحتُ فيه صحيفة «تايمز» لأجد مقال السيدة مورين زهبتُ بخمسة عشر رطلًا من القهوة إلى رفاقي كنتُ قد تناولتُ العشاء معهم في الليلة الماضية.

كان بعض جيراني قد دعوني إلى الانضمام لمجموعة من الأصدقاء قادمين من نيويورك. كان من بين من تناولوا العشاء معنا في تلك الليلة عددٌ ممن يؤيدون أوباما تأييدًا جارفًا. أثناء العشاء أخبرتهم عن خلطة قهوة تُنتجها إحدى المزارع في كونيتيكت بمناسبة الانتخابات.

وحكيْتُ لهم أنني علمتُ بأمر القهوة أثناء المسيرة الصغيرة التي قمنا بها في عيد الاستقلال. حينها قام أشخاص من مزرعة أشلوان فارم يرفعون شعاراتٍ ويرتدون زيًا تنكريًا بإلقاء الحلوى على الحضور ومعها بعض عبواتٍ صغيرة فضية لامعة. العبوة التي طارت نحونا كانت وعاءً صغيرًا به قهوة. كان مكتوبًا على ملصق الوعاء ما يلي: «خلطة أوباما. خلطة محلاة من البن المحمص الفاتح والداكن جلبناها من جزيرة جاوة، ومن كينيا والأمريكتين. إذا أردت أن تشعر بالتغيير فجرّبها.» كان على الملصق صورة لباراك أوباما تظهره في حالة تأمل وخلفه خلفية من الألوان الزرقاء والبيضاء والحمراء.

نتج المزرعة أيضًا قهوة اسمها أمريكيان هيو كوفي. الملصق الموجود على عبوة هذه الخلطة تظهر عليه صورة جون ماكين منافس أوباما في الانتخابات الرئاسية، ومكتوب عليه ما يلي: «هذا البن محمص تحميصًا بسيطًا، وبه نسبة عالية من الكافيين. هذه الحبوب الفريدة القوية التي ستجدونها جديرة بثقتكم تُزرع على تلال فيتنام.»

طلب مني ضيوف العشاء أن أحضر لهم خمس عشرة عبوة على الأقل من عبوات خلطة أوباما لذا كان واجبًا عليّ أن أذهب وأحضرها. استيقظتُ كارول ذلك التي تحمص البن في مزرعة أسرته الرائعة حتى تعبى البن. قالت لي كارول إنهم ابتدعوا فكرة خلطة أوباما لأنه «بدا أن تاريخه وخلفيته يجعلان المرء يفكر على الفور في خلطة القهوة.»

وقالت إنه حتى الآن تزيد مبيعات خلطة أوباما على مبيعات أمريكيان هيو كوفي بكثير. وقالت كذلك: «إن كان هذا استطلاعاً للرأي فإن [أوباما] يفوز بنسبة ٩٠٪. (إن أردت معرفة المزيد عن هذه القهوة فزر موقع FarmCoffee.com).

في منزل صديقي؛ حيث اجتمع عددٌ من الضيوف في صباح ذلك الأحد، أحضرتُ لهم قهوة خليط أوباما وقاموا بإعدادها. قالوا إن لها مذاقاً حلواً لكنها قوية جداً. واحدةٌ من الضيوف كانت امرأة أمريكية من أصلٍ أفريقي في الثمانين من عمرها عندما علمتُ بأمر الكتاب الذي كدتُ أن أنتهي من كتابته قالت: «آه من ذلك الاهتمام بالزوجات»، مضت ترتشف قهوتها ببطء. ودار بيننا حوار عن حياتها كامرأة أمريكية عاملة من أصلٍ أفريقي تربّي ابنها وابنتها في نيويورك. حدثتني عنهما وقد صارا شابّين في قمة النجاح، وقالت إن ابنها أخبرها منذ وقتٍ قريب أنه وصل إلى ما وصل إليه بفضلها هي. قالت: «لم أستطع أن أصدق ما قال. بفضلني أنا؟ كل ما فعلته هو أنني كنت دائماً ما أخبرهما أنهما يستطيعان أن يفعلوا ما يشاءان.»

هذا يرّد صدى صوت ميشيل أوباما الفريد: «اتخذوا مكانكم على الطاولة.»

في الأسبوع التالي بدا أن صورة ميشيل أوباما لن تفارق أعيننا حقاً، وليس بالمعنى المجازي للكلمة وحسب. إذ أجرت روبين روبرتس لقاءً معها في برنامج «جود مورنينج أمريكا» الذي يُذاع على قناة «إيه بي سي»، ثم ظهرت بعد هذا في برنامج «نايت لاین». وإضافة إلى أنها ظهرت في عدد سبتمبر من مجلة الموضة «هاربرز بازار»، وذلك بأن جسدت شخصيتها عارضة الأزياء المرموقة تيرا بانكس، فقد علمنا أنه من المزمع أن تظهر هي بنفسها على أغلفة مجلات «إيبوني»، و«إسنس»، و«ليديز هوم جورنال» (من المقرر أن تظهر مع زوجها في المجلة الأخيرة).

ويظهر عرضٌ للمقال الذي نشرته مجلة «ليديز هوم جورنال» في مدونة بعنوان «ميشيل أوباما: فتاة الغلاف، فتاة الغلاف، فتاة الغلاف».

في هذا المقال قال باراك أوباما مجيباً عن سؤال عمّا تخطط ميشيل لفعله إذا أصبح رئيساً: «ميشيل واحدةٌ من أذكى الأشخاص الذين عرفتهم (هل تتذكرون إعجاب دارسي باتقاد ذهن إليزابيث؟) هي مستشارتي الأولى وناصحتي الأمينة. وأنا لن أتخذ أي قراراتٍ مصيرية دون أن أرجع لرأيها.»<sup>5</sup>

ثم يواصل هذا الرجل — الذي كان لا يزال حينها رئيساً مرتقباً — حديثه قائلاً: «أرى أنها — ودعونا نسمع رأيها فيما سأقول — ستكون على الأرجح مهتمة أكثر بأن

تكون لها مجموعة من المشروعات تشبع اهتماماتها ورغباتها بدلاً من أن أُوكَل إليها بعض المسئوليات وأقول لها: «إليك هذه المسئوليات، قومي بها».<sup>6</sup>

وافقته زوجته الرأي. قالت: «هناك عددٌ كبير جداً من القضايا تثير اهتمامي بقوة، لكن فكرة الجلوس على مائدة مع مجموعة من مستشاري السياسات تجعلني أتثاءب، وأنا لا أقصد الإساءة لأحد»، هذا ما قالته بصراحتها المعهودة.

أضافت: «أحب الإبداع. وسيُسعدني أن أعمل مع الشباب. سيُسعدني أن أدخل في عددٍ أكبر من الحوارات مع زوجات العسكريين. وقد تعلمتُ ألا أسمح للناس بأن يدفعوا بي للقيام بأمر لا تلائمني».<sup>7</sup>

في الحوار الذي أجرته روبين روبرتس في برنامج «جود مورنينج أمريكا» على قناة «إيه بي سي» في السابع من أغسطس أثارت ميشيل عدداً كبيراً من الموضوعات بدءاً من الحياة تحت سمع وبصر المجتمع الذي لا يغفل ووصولاً إلى الأمور التي تستهويها. وينتهي اللقاء بمقولة تشبه المقولات التي اعتدنا سماعها من ميشيل.

قالت روبين روبرتس: «رغم الأجواء العصبية التي خيمت على الحملة وما تبع هذا من إثارة إعلامية فإن قدميها لا تزالان راسختين في الأرض».

وردت عليها ميشيل، محاولة التعبير عن نفسها: «أنا ميشيل أوباما، أعيش في شيكاغو. وأنا متزوجة من هذا الشاب باراك. هذا كل ما هنالك. وهذه هي نظرتي لنفسني».<sup>8</sup>

إن الأمر بهذه البساطة. ميشيل لم تُؤد وفي فمها ملقعة من ذهب، هي واقعية، وذكية، وصريحة، وفريدة من نوعها.

## الفصل الحادي عشر

# نهاية السباق

### نحو خط النهاية

جاءت نهاية شهر أغسطس وبداية شهر سبتمبر حاملتين معهما المؤتمرات، ولوهلة بدا كما لو أن أمريكا قد بدأت تسير في الطريق الأمثل إذ كان كلا الحزبين يبذلان كل طاقتهم لدعم مرشحين يُعدان بتغيير الوضع الراهن الشديد السواد. بل إن مجرد وجود اسم باراك أوباما في قمة لائحة مرشحي الحزب الديمقراطي هو تجسيد للتغيير؛ فحسبما كتب روجر كوهين في مقال نُشر في صفحة الرأي بجريدة «نيويورك تايمز» تحت عنوان «قصص أمريكية»، فإن «هوية أوباما في حد ذاتها تمثل لوناً من ألوان التصالح»، وفي الوقت نفسه أثبت جون ماكين صحة ما جاء عنه في الإعلان بأنه مجددٌ باتخاذ خطوة لم يتوقع إلا قليلون أن تتخذها المؤسسة المحافظة في وقتٍ قريب؛ إذ إنه دعا امرأة لتكون نائبةً له.<sup>1</sup>

وكانت ميشيل أوباما هي من حدّدت طبيعة أجواء مؤتمر الحزب الديمقراطي؛ إذ ألقت خطبة في الفترة المسائية التي تحظى بأعلى نسبة مشاهدة، وتابعت هذه الخطبة نحو سبعة عشر مليون مشاهد، في هذه الخطبة أوضحت ميشيل كيف أنها «واحدةٌ منا»، على حد تعبير أعضاء الحملة. وقد نطقت بالكثير من العبارات التي لا تُنسى في هذه الخطبة التي لم تستغرق سوى عشرين دقيقة، لكن الأهم هو أنها نطقت بالرسالة التي أرادت إيصالها للناس بلهجة قاطعة، هذه الرسالة هي: «لهذا أحب هذه البلاد.»

كانت ميشيل متألمة في تلك الليلة؛ إذ كانت لبقةً وودودة، وبدت أنيقةً في فستانها الأخضر الضيق، وهي تتحدث عن والدَيْها وأخيها وعن أنها وزوجها يُعدان تجسيداً للحلم الأمريكي، وعن الرجال والنساء الذين مهّدوا طريق وصول زوجها للبيت الأبيض وعن «الرابط الذي يجمع بين قلوبنا»، ولم يكن في حديثها أدنى أثر للمرارة.

وقُرب نهاية خطبتها تحدّثت عن نفسها وعن باراك ودورها كأبٍ وأم، وأوضحت أن الآمال والأحلام التي يعقدانها على ابنتيهما تعكس الآمال والأحلام التي يعقدها كل الآباء على أبنائهم. في الليل، حين تغطي ابنتيها وهما في فراشهما تفكر «كيف أنهما في يوم من الأيام ستكون لهما أسرهما المستقلة، وفي يوم من الأيام ستحكيان هما وأبناؤكم وبناتكم لأبنائهم عما فعلناه معاً في هذه الانتخابات. سيخبرونهم كيف أننا في هذه المرة أصغينا السمع لآمالنا بدلاً من أن نُصغيه لمخاوفنا. وكيف أننا هذه المرة قرّرنا أن نكف عن الشك ونبدأ الحلم، كيف أننا هذه المرة ألزمتنا أنفسنا بأن نبني العالم ليصبح على ما يجب أن يكون عليه، وأن هذا حدث بالفعل في هذا البلد العظيم الذي استطاعت فيه فتاة قادمة من المنطقة الجنوبية من شيكاغو أن تلتحق بالجامعة وبكلية الحقوق، وابنٌ من أمّ عزباء من هاواي يمكن أن يشق طريقه إلى البيت الأبيض؛ التزمنا ببناء العالم على النحو الذي ينبغي أن يكونه.»<sup>2</sup>

وانهال عليها المدح. وحسبما قال ديفيد أكسلرود كبير المخططين لحملة أوباما فإن «موقف الناس تغير فور أن أُتيح لها منبر تتمكن من تقديم نفسها عليه.»<sup>3</sup> وجوان ويليامز الذي كان ينتقد أوباما وزوجته وصف خطبة ميشيل على قناة «فوكس نيوز» بأنها «مبهرة» وعلى قناة «سي إن إن» قال ديفيد جيرجين: إن ميشيل «أنقذت الموقف؛ يجب أن يشعر الديمقراطيون بامتنانٍ كبير لها.» وماذا كان رأي أريانا هافينجتون مؤسّسة موقع «هافينجتون بوست»؟ «أحسنت للغاية ... بالخطبة مشاعر مرهفة وعميقة وصداقة جداً.»

أما بايرون يورك مراسل مجلة «ناشونال ريفيو» المحافظة لدى البيت الأبيض فقد بدا أقل اقتناعاً بصدق رسالتها، مع أنه بدا مقتنعاً بأن ميشيل أدت مهنتها على ما يُرام. فقد كتب يقول: «لدى السيدة ميشيل مهمة تقوم بها هنا في دنفر. وهذه المهمة ليست قاصرةً على تعريف الأمريكيين بأسرة أوباما، أو كشف جانبٍ جديد من جوانب شخصية زوجها. بل تتمثل هذه المهمة في أن تستردّ سمعتها الطيبة بأن تمحو أثر الغضب والاستياء من خطبها العامة، وتظهر للناس في صورة شخصٍ حكيمٍ محب لبلده يعيش الحلم الأمريكي، كان هذا هو الغرض من الخطبة التي ألقته في المؤتمر.»<sup>4</sup>

لم تأت ميشيل بأفكارٍ مختلفة في هذه الخطبة؛ فرسالتها دائماً ما تدور حول الحلم الأمريكي وما يمكن للأمريكيين أن يحققوه عن طريق التعاون والاجتهاد؛ كل ما حدث هو أنها حسّنت من طريقة تعبيرها عن هذه الرسالة. رجعتُ بذكرتي إلى ما كانت قد

## نهاية السباق

قالته في برنامج «ذا فيو» حين كانت تستقي بعض الدروس من السيدة الأولى لورا بوش؛ إذ قالت إن الناس يحبونها لأنها ليست من هواة سكب البنزين على النار. بالطبع تبع هذا الكثير من الخطب التي لا تُنسى بما في ذلك الأداء الرائع لكلينتون وزوجته، ولجو بايدن المرشح لمنصب نائب الرئيس، والخطبة التي ألقاها السيناتور أوباما نفسه أمام حشد بلغ عدده ٧٥٠٠٠ شخص في تاريخٍ موافق لتاريخ اليوم التالي لإلقاء القس الدكتور مارتن لوثر كينج خطبته الشهيرة «عندي حلم» قبل خمسة وأربعين عامًا. بعد هذا، وفي اليوم الذي تلا ختام مؤتمر الحزب الديمقراطي، قدّم السيناتور ماكين للعالم نائبته، وكان اختياره مفاجئًا للجميع؛ فنائبته هي سارا بالين الحاكم السابق لولاية ألاسكا التي لم يسمع عنها الناس كثيرًا. هذه المرأة التي وصفت نفسها بأنها أم تصطحب أبناءها من مباريات الهوكي وإليها، أضافت لمسة جديدة تمامًا للساحة السياسية. وذهبت الأعمدة المبنية على الطراز اليوناني والخطب الرنانة مع الريح، وبدأنا نسمع حديثًا عن العاملين الكادحين الذين يصدقون دائمًا تصريحات الحكومة، وعن الفقراء، وعن الكلاب، وأحمر الشفاه. وسمعنا عباراتٍ ساخرة عن منظمي المجتمع الأهلي، وعباراتٍ أشد سوءًا عن الأشخاص الذين «يصادقون الإرهابيين»، وعباراتٍ أخرى أكثر بذاعة يعفُّ اللسان عن ذكرها.

وعندما بدأ الاقتصاد يتدهور صارت الخطب أكثر انفعالًا واثقَدت مشاعر الحشود الذين يحضرون المؤتمرات السياسية أكثر، فكانت تصدر صيحات مثل «إرهابي» و«اقطعوا عنقه» و«اقتلوه!»، وفجأة احتدمت الخلافات احتدامًا شديدًا وكاد الوضع أن ينفجر. وزادت المناظرات من قوة الإحساس بأن الأمور أوشكت على أن تصل إلى ذروتها، وخاصة المناظرة التي عُقدت بجامعة بيلمونت بولاية تينيسي في بداية شهر أكتوبر؛ إذ بدا أن السيناتور ماكين فقد القدرة على أن يتقبل منافسه، وبدا راغبًا عن أن ينظر في عينيه أو يتحدث إليه مباشرة، وأشار إليه بعبارة: «هذا الشخص».

عندما انتهت المناظرة لحقت الزوجتان بزوجهما على المنصة. أخذ أوباما وزوجته يتجولان ويصافحان الحضور ويتحدثان معهم؛ أما ماكين وزوجته فقد غادرا فجأة بعد أن صافح السيناتور ماكين عددًا قليلًا من الحضور (وكانت زوجته واقفة خلفه تضع يدها خلف ظهرها).

إنجريد جاكسون، إحدى من حضروا المؤتمر من المستقلين، قالت لصحيفة «نيويورك تايمز»: «صدمني جدًّا رحيل ماكين مباشرة، بل إن بعض أشد المولعين بماكين من بيننا

اندهشوا جداً من أن ماكين فعل هذا. أظن أنه تبين في النهاية أن أوباما وزوجته أكثر إنسانية.<sup>5</sup>

في غضون هذا كان القائمون على الحملات يصرون إعلاناتٍ سلبية جداً، وكانت البورصة تشهد تذبذباً شديداً لم ينته رغم موافقة الحكومة على أكبر خطة إنقاذٍ مالي في التاريخ، وبدا الجو العام مشحوناً جداً.

عندما تابعتُ برنامج «توك أوف ذا نيشن» على الإذاعة الوطنية العامة «إن بي آر» وسمعتُ فتاة اسمها سوزي تتصل وتقول إنها انزعجتُ جداً من التوجهات السلبية التي سادت الحملات، ومن اللهجة التي لاحظتُ وجودها في الخطاب التي أُلقيت في المؤتمرات السياسية، وفي جميع النقاشات التي دارت حولها تقريباً. قالت: «نحتاج لأن نتعلم كيف نحسن سلوكنا»<sup>6</sup>

ربما لو كان كلا الطرفين قد تعاملتا بالدرجة نفسها من الحدة لخرجت الأمور عن السيطرة، لكن طوال الحملة ظل السيناتور أوباما رابط الجأش. فحسبما يقول ديفيد بروكس الكاتب المحافظ بصحيفة «نيويورك تايمز»: «ظللنا نتابع باراك أوباما لمدة عامين حتى الآن، وطوال هذا الوقت لم يفقد السيطرة على نفسه أمام الناس قط. ساد هذه المدة الاضطراب والصراع والإجهاد والأزمات. ومع هذا فلم تمض لحظة واحدة أظهر فيها غضباً أو استياءً أو قلقاً أو مرارة، ولم ينجرف مرةً واحدة خلف مشاعره، ولم يسكب الدمع، أو يرثي لحاله، أو يندفع في تصرفه»<sup>7</sup>

يمكن القول إن هذا ينطبق على زوجته أيضاً. ميشيل أوباما التي تعرضت لانتقادات من قبل لأنها كانت «لاذعة» ولأنها تبدو «ساخطة»، كانت هي الأخرى رابطة الجأش طوال مدة هذه المعركة المحمومة، وإن كانت تُواجه أشخاصاً يُطلقون صيحات تهديد لزوجها. أثناء اللقاء الذي أجراه برنامج «لاري كينج لايف» سُئلت هل شعرت بالإهانة عندما نادى السيناتور ماكين زوجها بـ «هذا الشخص»، قالت: «كلا».

قالت: «الناس لا يهتمون بالمناورات التي تتم بين المرشحين. فهم يريدون حلولاً واقعية لإصلاح الاقتصاد، ولزيادة الاستفادة من خدمات الرعاية الصحية.» (وأنا أستمع إليها تذكرُ النقد الذي وُجه لها منذ شهور عندما قالت إن حياة الأشخاص العاديين ظلت تسير من السيئ للأسوأ طوال حياتها. فهذه العبارة لم تُعد تبدو لاذعة جداً في المدة التي سبقت الانتخابات بنحو شهر. وإن كان هذا التعليق يدل على شيء، فهو يدل على نفاذ البصيرة وصحة الرأي، خاصة عندما يُقارن بما قاله آخرون عن أن الاقتصاد «لا يزال قوياً جداً».)

وعندما سألتها كينج هل جُن جنونها عندما رأت مقطع الفيديو الذي تظهر فيه حاكمة ولاية الأسكا، بالين، وهي تتحدث عن زوجها قائلة إنه «يصادق الإرهابيين الذين يستهدفون بلادهم.» قالت: «أنا لا أشاهد هذا المقطع.»

وعندما سُئِلت ما رأيها فيما فعلته السيدة بالين من ترشح لمنصب نائب الرئيس رغم مسؤولياتها الأسرية، رفضت مرةً أخرى أن تهاجمها. وإنما مدحت حاكمة ولاية الأسكا لأنها أقدمت على هذه الخطوة التي ستتطلب منها القيام بمهمتين شديدي الصعوبة في آن واحد، وقالت إن أحد الأسباب الرئيسية التي دفعتها هي وزوجها لأن يُقدِّم على خطوة الاشتراك في هذا السباق هو أن تتمكن جميع النساء من أن يتخذن مثل هذه القرارات التي اتخذتها هي وسارا بالين.<sup>8</sup>

غير أن هناك آخرين لم يكونوا بهذه السماحة. فمدونات الليبراليين كانت زاخرة بتعليقات قاسية حول ما رأى الكثيرون أنه نفاق متأصل في قبول الجمهوريين لبعض القرارات عندما يتخذها واحد منهم. وفي تحقيقٍ موسَّع نشرته صحيفه «يو إس إيه توداي»، عبّرت امرأة، قالت إن اسمها كينثيا، عن هذه الانتقادات بطريقة أقل حدة من بعض المدونات؛ إذ قالت: «كل ما هناك أنني أتساءل كيف كان الناس سيعاملون أوباما لو كان لديه ابنة مراهقة وصارت هذه الابنة حاملاً؟ وكيف كان الناس سيعاملون ميشيل إن كان لها [ابن] من ذوي الاحتياجات الخاصة وتركته مع مربية أطفال حتى تتمكن من القيام بجولات الدعاية الانتخابية؟ ... أظن أن الناس يكيلون بمكيالين وأنهم لم يطرحوا هذه الأسئلة.»<sup>9</sup>

لحسن الحظ أن المزاح دائماً ما يمثل مخرجاً، وفي الأيام الأخيرة لم يغيب الضحك عن الساحة، لا هو ولا الضغائن. ففي الليلة نفسها التي ظهرت فيها ميشيل في برنامج «لاري كينج لايف»، ظهرت في برنامج «ذا ديلي شو» الذي يقدمه جون ستيوارت. أعادت ميشيل بعض التعليقات التي قالتها للسيد كينج، مثل قولها إنها لا تشاهد المؤتمرات السياسية التي يعقدها الحزب الجمهوري، والتي بدأ الحضور فيها ينعتون زوجها بالقب قاسية. وقالت لستيوارت إنها كفت عن «قراءة ومشاهدة الكثير من الكتابات والبرامج»، مما دفعه لأن يطرح سؤالاً ذكياً: «إذن أنت تُشبهين سارا بالين كثيراً؟» أجابت ميشيل والجمهور يضحك: «ربما.»

أيضاً أقرت بأن هذه الحملة الانتخابية كانت حملةً طويلة مرهقة (فطوال الأسابيع الأخيرة من الانتخابات لم تكف عن السفر في أنحاء البلاد؛ إذ زارت في الأساس الولايات

المحايدة التي لا ينتمي معظم ساكنيها لأحد الحزبين، وشاركت بدورٍ رئيسي في عددٍ كبير من الأمسيات، كثيرٌ منها مع أسر العسكريين)، وقالت إنها أحياناً كانت ترحّب بأن تأخذ قسطاً من الراحة في بعض الليالي حتى تتمكن من متابعة المسلسل الكوميدي «عرض ديك فان دايك»<sup>10</sup> وحسب. قالت مشيرة إلى خدها: «استغرق هذا عشرين شهرًا، هذا كفيلاً بأن يجعل الدموع تنهمر.»<sup>11</sup>

طبعاً كانت هناك لحظات مرحٍ أخرى قرب النهاية. فمن يستطيع أن ينسى سيل الدعابات المرحية التي ألقاها كلٌّ من السيناتور أوباما والسيناتور ماكين أثناء العشاء الذي نظّمته جمعية «آل سميث» الخيرية، أو سيل الفقرات الكوميديّة الرائعة التي أُذيعت على برنامج «ساترداي نايت»؟ من ينسى مايا رادولف وفريد أرمازن وهما يقومان بدور باراك أوباما وزوجته ويغنيان: «قيادتنا قوية، قوية كباراك»؟ ومن ينسى جون ماكين حين ظهر مع تينا فاي وهي تجسّد شخصية سارا بالين وهما يبيعان تذكاراتٍ خاصة بالحملة الانتخابية على قناة «كيو في سي» الخاصة بالتسوق عبر شاشة التلفاز (وكانت زوجته سيندي من ضيوف البرنامج إذ قامت بالترويج لـ «ماكين فاين جولد»؟) ومن ينسى سارا بالين وهي تظهر بشخصها ووصفها مع تينا فاي وهي تمثل أنها هي الأخرى سارا بالين وذلك في فقرة كوميديّة مع أليك بالدوين؟ ومن ينساها وهي تحرك ذراعها لأعلى وأسفل في الهواء وأمّي بوهلر تقول في برنامج «ساترداي نايت»: «على جميع من في المنزل من متمردين أن يرفعوا أيديهم»؟ ربما لا تكون حاكمة ولاية ألاسكا السيدة سارا بالين قد فازت بأية نقاطٍ في الخلاف الذي دار حول ما إذا كانت مؤهلة لتولي منصب نائب الرئيس أم لا، لكن معظم من شاهدوها في برنامج «ساترداي نايت لايف» في تلك الليلة (وكان عددهم نحو ١٤ مليون شخص) اتفقوا على أن نائبة ماكين مسلية بقدر ما هي شجاعة. فحسبما قالت أليساندرا ستانلي، المحررة في «نيويورك تايمز»، فإن: «الأمر الذي يستطيع الجميع أن يتفقوا عليه هو أن الحاكمة سارا بالين مؤهلة لأن تكون مذيعة برنامجٍ خاص بها في يوم من الأيام.»<sup>12</sup>

في غضون هذا كان التصويت قد بدأ، وكان عدد الحشود المصطفة خارج حجرات التصويت في جميع أنحاء البلاد غير مسبوق. سمعتُ امرأة في لوس أنجلوس تصف لإذاعة إن بي آر كيف أنها اضطرت لأن تنتظر في الصف طوال ست ساعات قبل أن تتمكن من التصويت، وأنها كانت سعيدة بهذا. ولنعد إلى شهر فبراير حين ألقّت ميشيل بالتحريكات الشهيرة عن أنها تشعر بالفخر بأمريكا لأول مرة، لقد أوضحت ميشيل ما

كانت تعني قوله قائلة إنها شعرت بالسعادة لضخامة عدد الأمريكيين الذين اشتركوا في العملية السياسية. عندما شاهدنا الطوابير المصطفة خارج مراكز الاقتراع فهمناها. بصفتي أمريكية — وبصرف النظر عن انتماءاتي السياسية — كان صعباً عليّ أن أتابع هذا المشهد دون أن تتأثر مشاعري بفكرة أن كلاً منا له رأي وأن الكثيرين منا اختاروا استغلاله هذه المرة.

وإضافة إلى المرح، والضعينة، والأنشطة الانتخابية التي لا تتوقف، والاقتراع، والتصويت المبكر، والقلق بشأن الاقتصاد، فإن الأيام الأخيرة من الحملة جلبت معها أيضاً موجات التأييد. ففي اليوم الذي تلا ظهور حاكمة ولاية ألاسكا سارا بالين لأول مرة في برنامج «ساترداي نايت لايف»، أعلن كولين باول وزير الخارجية السابق في برنامج «ميت ذا برس» الذي يُذاع على قناة «إن بي سي» أنه ينوي أن يمنح دعمه للسياتور أوباما. والجنرال كولين باول هو أمريكي ذو أصولٍ أفريقية ينتمي للحزب الجمهوري، وقد فكر ذات مرة في أن يرشّح نفسه للرئاسة، وكان قد تبرع لحملة جون ماكين من قبل، وقد أقر أنه كان صعباً عليه أن يخذل السيناتور ماكين على النحو الذي حدث ذلك الصباح.<sup>13</sup>

غير أن الجنرال المتقاعد قال إنه يعترض على بعض ممارسات حملة ماكين، خاصة عندما شبّهت الحملة السيناتور أوباما بالمتطرف ويليام أيرز. وأضاف أن السبب الرئيسي وراء ذلك القرار هو أنه انبهر بقوة شخصية السيناتور أوباما وبالذكاء الذي أظهره طوال الأسابيع والأشهر السابقة للانتخابات، ووصفه بأنه «شخصٌ قادر على إحداث التغيير». قال السيد كولين باول: «توصلتُ إلى أنه يمتلك كل المقومات لأن يصبح رئيساً ناجحاً، بل رئيساً رائعاً، وذلك لما يتمتع به من قدرة على إلهاب حماس الناس، ولما تمتعت به حملته الانتخابية من قدرة على احتضان الجميع، ولأنه يتواصل مع الناس في جميع أنحاء البلاد، ولطبيعة خلفيته ومواهبه البلاغية». وقد تنبأ أن فوز أوباما «لن ينعش رُوح بلادنا وحسب، بل رُوح العالم أجمع».<sup>14</sup>

في ٢٠ أكتوبر كشفت صحيفة «لوس أنجلوس تايمز» عن دعمها لأوباما؛ إذ ورد فيها: «في يوم من الأيام قد نعود بنظرنا إلى هذه الحملة الانتخابية ونتعجب. قد نتعجب من أن نقاد أوباما وصفوه بأنه نُخبوي، وكأن تلقّي المرء تعليمه في إحدى جامعات رابطة «آيفي ليج» أمرٌ مسبّب للإحراج، ونتعجب من أنهم انتقصوا من قدر بلاغته، وكأن تمتع المرء بموهبة خطابية صار فجأةً نقيصة. الحقيقة هي أن أوباما شخصٌ بليغ تلقى تعليمًا

جيدًا، وهو يتمتع بالنضج والشجاعة والحكمة والقدرة على إثارة إعجاب الآخرين. إنه يمثل هذه الأمة كما هي، وكما تأمل أن تكون.»

وفي الأول من نوفمبر أعلنت تيرا بانكس — التي كانت عارضة أزياء لامعة وصارت نجمة تلفزيونية — تأييدها لأوباما، وهذه ليست مفاجأة كبرى إذ إنها اختارت أن تقوم بدور ميشيل في الصورة التي عرضتها مجلة «هاربرز»، لكن التأييد استمر يتدفق من جهات لم تخطر على بال.

فلأول مرة في تاريخ صحيفة «شيكاغو تريبيون» الذي يبلغ ١٦١ عامًا، تقوم هذه الجريدة بتأييد شخص ينتمي للحزب الديمقراطي في ترشحه لرئاسة الولايات المتحدة. ورد في الصحيفة: «إنه لمن دواعي فخرنا أن نضم اسم باراك أوباما إلى اسم لينكولن في قائمة الأشخاص الذين دعمتهم صحيفتنا. ربما بدا أن أوباما قد أفرط في الجرأة عندما بدأ حملته من مدينة سبرينجفيلد، مما أعاد إلى الأذهان صورة الرئيس الأمريكي الأسبق أبراهام لينكولن. نرى أنه أثبت في نهاية المطاف أن فعله هذا لم يكن فيه إفراط في الجرأة؛ إذ إنه أُتيحت له فرصة تولي أرفع مناصب هذه الأمة.»<sup>15</sup>

ثم جاء دور المجلة الأسبوعية البريطانية «ني إيكونوميست». فبعد ظهر أحد أواخر أيام شهر أكتوبر ذهبتُ أحضر رسائلني من صندوق البريد، وأبهرني الغلاف الجريء المعبر الذي اصطدمت به عيناى. تظهر في الغلاف صورة لباراك أوباما وهو يسير مطأطأً رأسه مرتديًا بذلة سوداء وربطة عنق حمراء وخلفه خلفية بيضاء غير مزخرفة، وكان عنوان الغلاف: «آن الأوان».

وإضافة إلى معركة الانتخابات الرئاسية القاسية بما فيها من تغيرات وتطورات، كان على أوباما وزوجته أن يواجها تقلبات الحياة العادية التي كانا يعيشانها قبل الانتخابات. فقبل الانتخابات بعشرة أيام أعلنت حملة أوباما أن المرشح سيحصل على إجازة لأيام قليلة حتى يتمكن من السفر إلى هاواى ليزور جدته المريضة مرضًا شديدًا. وأخبر روبرت جيبس المتحدث باسم أوباما الصحفيين أن جدّة أوباما مادلين دونهام البالغة من العمر ستة وثمانين عامًا «مرضت، وفي الأسابيع الأخيرة تدهورت صحتها لدرجة أن حالتها صارت خطيرة جدًا.»<sup>16</sup>

وشكك البعض في حكمة أن يأخذ باراك إجازة من الحملة الانتخابية في تلك المرحلة الحرجة، وقال آخرون إن هذا أمرًا لا يحتاج إلى تفكير، فعندما يمرض شخص تحبه فإنك تذهب لتطمئن عليه. كان السيناتور أوباما قد اتخذ قرارًا مختلفًا عندما توفيت والدته

## نهاية السباق

ستانلي آن دونهام إثر إصابتها بسرطان المبيض عام ١٩٩٥م، وقد ندم ندمًا أليماً على القرار الذي اتخذته. ويبدو أنه لم يكن مستعداً لأن يعرّض نفسه من جديد لشعور الندم هذا.

ولحسن حظ الرئيس المرتقب، كان لديه بديلٌ كفاء يثق به تماماً. أعلنت الحملة أنه في غيابه ستحلُّ ميشيلُ أوباما محله في المؤتمرات التي من المزمع عقدها في ولاية أوهايو المحايدة المهمة.

بعد أسبوعٍ سمح أوباما وزوجته لنفسيهما بأن يعيشا حياتهما العادية؛ ففي ٣١ أكتوبر عاد السيناتور أوباما بالطائرة إلى شيكاغو حتى يتمكن من مشاركة ابنتيه في احتفال عيد القديسين. ومرةً أخرى، قال البعض إن ترك جولات الدعاية الانتخابية ولو لمدة قصيرة يُعدّ مجازفة، لكنه تجاهل هؤلاء المعارضين وشارك ابنتيه هذه العطلة. لكن كان هناك أناسٌ ليسوا على استعداد لأن يتركوا أسرة أوباما تحتفل كأية أسرة طبيعية. فحسبما كتبت ميشيل في موقع Blogger.com، ذهب باراك إلى إحدى حفلات عيد القديسين مع ساشا وهي مرتدية زياً خاصاً بهذه المناسبة (كانت متنكرة في زي العروس الجثة، وكانت ماليا متنكرة في زي الجنية الشريرة، بدأت مجموعة كبيرة من المصورين تلتقط لهم الصور. طلب منهم أوباما أن يبتعدوا، وعندما رفضوا جرى هو وساشا بأقصى سرعتيهما على الرصيف بعيداً عنهم، وخلفهما ركض رجال الأمن تاركين المصورين يتحدثون بغضبٍ عن سرعة انفعاله غير المعهودة عنه.<sup>17</sup>

اجتمعت الأسرة في عطلة نهاية الأسبوع، ولحقت الفتاتان بوالديهما على المنصة في مدينة كليفلاند بولاية أوهايو ليعقدوا مؤتمراً انتخابياً سيشارك فيه بروس سبرينجستين. وقبل أن يبدأ غناء رائعته «ذا رايزينج»، ألقى بروس الملقب بـ «ذا بوس» (أي: الزعيم) كلمة افتتاحية قال فيها إن أمريكا لا تزال «مكمن آمال الناس وأحلامهم»، وحثَّ فيها الجمهور على التصويت في يوم الانتخابات.

فجأةً بدأت الأمطار تنهمر بغزارة. لكنَّ الطبيعة الأم نفسها لم تتن من عزم أوباما وزوجته مثلما لم يتن المتشائمون والمعارضون من عزمه؛ فقد أصرَّ المرشح على أن «الشمس في سبيلها إلى الشروق. فتلك السحب لن تخيم على البلاد إلا قليلاً».

لكن للأسف جاء اليوم التالي — الذي كان عشية الانتخابات — وقد امتلأت سماء أوباما بغيومٍ كثيفة. إذ علم أن جدته الحبيبة خسرت معركتها مع السرطان وفاضت رُوحها.

وفي آخر ظهور لميشيل في الحملة الانتخابية طلبت، والدموع تنهمر على وجنتيها، من الحشد المجتمع في ضاحية ليتل تاون بولاية كولورادو أن يدعوا بالخير لجدّة باراك التي كان يدلّلها باسم «توت». وقالت: «احمدوا لها صنيعةًها في تربية باراك. أعتقد أنها قامت بهذه المهمة على نحوٍ مبهّر».<sup>18</sup>

أيضاً قاوم السيناتور أوباما دموعه وهو يتحدث إلى الحشد المجتمع في مدينة تشارلوت بولاية نورث كارولينا حاكياً لهم كيف كانت جدّته مصدر إلهام له بما قامت به من عملٍ شاقٍ وتضحيات. قال: «لم يبقَ إلا يومٌ واحد وتُتاح لنا فرصة تكريم كل هؤلاء الأبطال المجهولين الموجودين في جميع أنحاء أمريكا. نستطيع أن نُحدث تغييراً في أمريكا بحيث نضمن أن جهودهم وتضحياتهم نالا ما يستحقان من تعظيم. هذا هو ما نحارب من أجله».<sup>19</sup>

الفصل الثاني عشر

## اجتياز خط النهاية

انتصار الأمل؛ الرابع من نوفمبر عام ٢٠٠٨ م

رغم الأخبار الحزينة التي جاءت قبل يوم الانتخابات، فإن ذلك اليوم بدأ بدايةً مبشرة لأوباما وزوجته، ففي مدينة ديكسفيل بولاية نيوهامبشير أدلى الواحد والعشرون ناخبًا المسجلون بأصواتهم معًا بعد منتصف الليل بقليل. وأعلنت النتيجة بعد دقائق قليلة، وكانت كالتالي: هذه المدينة الصغيرة الواقعة في نيو إنجلاند — التي لم تؤيد الحزب الديمقراطي منذ عام ١٩٥٨ م — أعطت ستة عشر صوتًا لبارك أوباما وجو بايدن في مقابل خمسة أصوات لماكين وسارا بالين.

وسار بقية اليوم على المنوال نفسه. كان عدد من شاركوا في عملية التصويت مرتفعًا، ومع طول الصفوف التي ظل الناس منتظرين فيها لساعات أمام مراكز الاقتراع في أنحاء البلاد، كانت هناك إثارة شديدة تسود الأجواء، بما في ذلك أجواء المدرسة الواقعة في حي هايد بارك بمدينة شيكاغو حيث أدلى أفراد أسرة أوباما بأصواتهم. بعد أن أدلى أوباما بصوته وماليا مبتسمة بجواره، صاح في الناخبين المنتظرين: «أدليتُ بصوتي.» فصاح الحشد فرحًا وحماسًا.

استمرت أجواء الترقب في الزيادة عندما بدأت مراكز الاقتراع تغلق أبوابها، وعندما دقت الساعة الحادية عشرة مساءً وصار واضحًا أن السيناتور باراك أوباما انتُخب ليكون الرئيس الرابع والأربعين للولايات المتحدة غمرت البهجة العالم. فرقص الناس في شوارع حي هارلم، والعاصمة الأمريكية واشنطن، ومدينة كيسومو بكينيا مسقط رأس جدّة أوباما. وانطلقت الصيحات والهتافات من البيوت في جميع أنحاء البلاد، بما في ذلك بيتنا. ولن أنسى أبدًا منظر جيسي جاكسون الأب وهو واقف بين الحشد المجتمع في حديقة جرانت بارك بشيكاغو والدموع تغمر وجهه، وهو يضع طرف إصبعه في فمه ويشاهد

أول أسرة لرئيس أمريكي من أصل أفريقي وهي تعطي المنصة، وأول رئيس أمريكي من أصل أفريقي منتخب يوجه خطاباً لأمته.

ولن أنسى أبداً الحب الذي أعلن عنه الرئيس المنتخب بلا حرج إذ قال لأسرته الجميلة والعالم كله يشاهده: «لم أكن لأقف هنا من دون الدعم المستمر الذي ظلت ميشيل أوباما أفضل أصدقائي، وسكن أسرتي، وحُب حياتي، والسيدة الأولى القادمة لهذه البلاد؛ تمنحني إياه طوال الستة عشر عاماً الأخيرة.»

وواصل حديثه قائلاً: «ساشا وماليا، أحبكما حباً جماً. وقد فزتما بكلّ جديد سيأتي معنا إلى البيت الأبيض.»

ولن أنسى أبداً الحزن الذي اعتلى وجهه وهو يقول: «إن كان بيننا شخص لا يزال يشك في أن أمريكا هي الأرض التي يمكن تحقيق أي حلم عليها، شخص يتساءل: هل أحلام أجدادنا لا تزال تحيا بيننا اليوم؟ وهل الديمقراطية التي نتمتع بها فعالة؟ فما حدث الليلة كفيل بالإجابة عليه.»

فكرتُ في الفتاة الصغيرة التي وصفتها ميشيل منذ أشهر، الفتاة ذات العشر السنوات التي قابلتها في صالون التجميل، والتي قالت لها إذا انتُخب زوجها رئيساً فإن هذا يعني أنها تستطيع أن تطلق العنان لأحلامها. وفكرتُ في صديقة ابنتي التي تلعب الكرة، وفي الرسالة التي سبعتُ بها نصر أوباما إليها، الرسالة التي تقول إن من حقوقها البديهيّة أن تنتزع المكانة التي تستحقها. ففكرتُ في ميشيل روبنسون ذات العشرين عاماً التي تساءلتُ في بحث قدمته بالكلية هل ستظل تشعر دائماً بأنها غريبة. ففكرتُ في ميشيل أوباما التي قالت في فبراير الماضي إنها لأول مرة في حياتها تشعر حقاً بالفخر ببلادها لأن الأمل بدا أنه يستعيد عافيته.

المستقبل مليء بالتحديات. أو — حسبما قال الرئيس المنتخب في ليلة الانتخابات — «الطريق أمامنا سيكون طويلاً. ورحلتنا ستكون شاقة. قد لا نصل إلى بغيتنا في سنة، بل قد لا نصل إليها في مدة رئاسية واحدة. لكن، يا أمريكا، إنني لم أكن قط أكثر أملاً مني اليوم في أننا سنصل، وأعدك بأننا، نحن الشعب، سنصل.»

في شهر يناير، عندما كانت الانتخابات التمهيديّة في أوجها، وصلّنتي رسالة بالبريد الإلكتروني من مدير مدرستي الثانوية، وهو الرجل الذي صار بعد هذا مدير مدرسة أبنائي الإعدادية ثم انتقل للعمل بمدرسةٍ أخرى. كتب المدير في رسالته إنه يشعر بإثارة لم يشعر بها منذ وقتٍ طويل بفضل باراك أوباما وما يبعثه في النفوس من أمل.

وفي شهر سبتمبر اتصل بي فجأة. كان قد تقاعد ويقضي معظم وقته في التطوع لحملة أوباما. وبعد أن تحدّثنا أرسل لي رسالةً بالبريد الإلكتروني بها رابط أغنية. كان عنوان الرسالة يقول «طالعي أغنية «صلاتي الأمريكية» (ماي أمريكان براير) وإن لم تكوني متدينة». وجاء في رسالته: «في أي وقتٍ أشعر فيه بحاجة إلى بصيص من الأمل والإلهام أشغلّها على جهاز أي ماك الخاص بي.»<sup>1</sup>

نقرتُ على الرابط فوجدتُ مقدمة للأغنية يقول فيها المغني وكاتب الأغاني داف ستيوارت إنه ألف هو وبونو عضو فرقة «يو تو» النسخة الأصلية من هذه الأغنية عام ٢٠٠٢م. وأثناء تسجيل نسخةٍ جديدةٍ منها هذا العام بدا أن كلماتها «يتردّد فيها صدّي جديد تمامًا».

أوضح ستيوارت هذا قائلاً: «هذه الأغنية تضم الفقرات المفضّلة لديّ من خطبة الدكتور كينج التي ألقاها إلقاءً أسراً الليلة السابقة لاغتياله.» في هذه الخطبة الأخيرة قال الدكتور كينج عبارته الشهيرة: «مثل الجميع، أود أن أحيا حياةً طويلة. فلطول العمر مكانته في القلوب. لكن هذا لم يعد يهمّني الآن. فكل ما أريده هو أن أفعل ما يحبّني الله أن أفعله. وقد سمح لي الله بأن أصعد الجبل. وقد نظرتُ من فوقه. ورأيتُ أرض الميعاد. ربما لا أصل إليها معكم. لكنني أريدكم أن تعلموا الليلة أننا، نحن الشعب، سنصل إلى أرض الميعاد.»

(مرة أخرى، قال باراك أوباما ليلة الانتخابات: «رحلتنا ستكون شاقة. قد لا نصل إلى بغيتنا في سنة. بل قد لا نصل إليها في مدة رئاسية واحدة. لكن، يا أمريكا، إنني لم أكن قط أكثر أملاً مني اليوم في أننا سنصل. وأعدكم بأننا، نحن الشعب، سنصل.»)

كتب ستيوارت يقول إنه عندما شرع في إعداد فيديو للنسخة الجديدة، لم يفعل هذا بدافع دعم باراك أوباما بقدر ما كان دافعه هو الاحتفال بالشعب الذي قطع خطوةً جديدة في طريق التعاون من أجل التغيير. قال: «أردتُ أن أكرم هؤلاء الملايين من الناس، خاصة الشباب الذي يشعرون لأول مرة بأنهم قد مُكنوا من التعبير عن آرائهم.»

ومثل الفيديو الذي أعده will.i.am الذي أطلعتني ميشيل أوباما عليه في رسالتها الإلكترونية، فإن تصوير أغنية «صلاتي الأمريكية» (ماي أمريكان براير) ظهرت فيه مجموعة كبيرة من ضيوف الشرف؛ ففيها شخصيات مثل فورست ويتاكر، وماسي جراي، وسيندي لوبر، وباري مانيلو، وجوان بايز، وسيرجيو مينديز، وهيبري هانكوك.

وهي تضم مجموعةً متنوعة من الصور الأمريكية، بدءاً من صورة المهاجرين الأوائل إلى أمريكا حين وصلوا إلى إيليس أيلاند، وصورة لأوباما، ومشاهد من نيو أورليانز في

أعقاب إعصار كاترينا. وينتهي برسمٍ بسيطٍ وثلاثة أحرف، الرسم هو رسم لوجه باراك أدناه كلمة Hope (أمل).

في الرابع من نوفمبر عام ٢٠٠٨م، لم يستردَّ الأمل عافيته وحسب، بل تُوجُّج بإكليل النصر، والأرجح أن الأمل، ومعه الاجتهاد، سيحملاننا إلى الفصل التالي.

## إنجازات السيدة الأولى

ثمانى سنوات كأى وقائءة لبيتنا الكبير

فى أواخر عام ٢٠٠٨م، وبينما كان زوجها يستعد لتولى منصب القائد العام، أثارت ميشيل أوباما دهشة البعض عندما وصفت دورها الرئيسى القادم، متطلعة إلى مستقبلها كسيدة أولى، قالت إن دورها كأى هو الأساس. فى ذلك الوقت، افترض العديد من المراقبين أن الوصف الذى وصفت به دورها يعنى، أنها بصفتها السيدة الأولى، ستخطط لقضاء معظم وقتها فى مساعدة بناتها على إدارة حياتهن فى العاصمة، تاركة المبادرات العامة للآخرين. ففي خطابها الذى لاقى إشادة واسعة فى المؤتمر الوطنى الديمقراطى لعام ٢٠٠٨م، وصفت نفسها بأنها «أمٌ أعتبر بناتى فى صميم قلبى ومحور عالمى؛ هن أول ما أفكر فيه عندما أستيقظ صباحًا، وآخر ما أفكر فيه عندما أنام ليلاً».<sup>1</sup>

وخبب هذا الدور الذى رسمته لنفسها آمال بعض المراقبين، الذين كانوا يأملون أن يزوا هذه المحامية، خريجة جامعتى برينستون وهارفارد، تستخدم مهاراتها وخبراتها وتعليمها الثرى للتأثير على السياسات والدعوة إلى الصالح العام. لم يكن ثمة داع للقلق. ففي النهاية، كانت الجملة التالية فى خطابها فى المؤتمر: «مستقبلهن [أى ماليا وساشا] — ومستقبل جميع أطفالنا — هو رهانى فى هذه الانتخابات».<sup>2</sup>

فكيف كان رهانها فى الانتخابات؟ بصفتها أمًا، ركزت ميشيل فى البداية على استقرار ماليا وساشا. ساعدتهما فى الانتقال إلى البيت الأبيض وسمحت لهما بتزيين غرفتهما الجديدتين. سجلتهما فى مدرستهما الجديدة، «أصدقاء سيدويل»، ودعت ميشيل أوباما صديقاتهما لقضاء ليلة فى البيت الأبيض. فاجأت هى ووالدهم الفتاتين بمبنى ألعاب جديد، وهو أول مبنى ألعاب فى البيت الأبيض على الإطلاق، يضم مجموعة من الأراجيح،

وجدار تسلُّق، وحصناً، وحبال تسلُّق. وبمساعدة السيناتور تيد كينيدي، حرصت أيضاً على حصول ابنتيها، كما وعدت، على كلب البيت الأبيض، الذي يحمل اسم «بو».<sup>3</sup> ولكن حتى مع تركيزها على تسكين ابنتيها، بدأت أيضاً العمل نيابةً عن جميع الأطفال. ففي ٢٠ مارس ٢٠٠٩م، أول أيام الربيع، وبعد شهرين فقط من انتقالها هي وعائلتها إلى منزلهم الجديد، رحبت بثلاثة وعشرين طالباً من الصف الخامس الابتدائي من مدرسة بانكروفت الابتدائية في واشنطن العاصمة، للانضمام إليها في الحديقة الجنوبية للبيت الأبيض. واستخدمت السيدة الأولى والطلاب معاً المجارف والمذراة وعربات اليد لبدء العمل فيما سيصبح لاحقاً حديقة مطبخ البيت الأبيض.

ورغم أن للحديقة غرضاً عملياً، وهو توفير منتجات طازجة لسكان البيت الأبيض وزواره، فقد كان لها غرضٌ آخر. وكتبت ميشيل في كتابها «أمريكا الزراعية: قصة حديقة مطبخ البيت الأبيض والحدائق في جميع أنحاء أمريكا»: «بصفتي أمّاً وسيدةً أولى، شعرتُ بالقلق إزاء التقارير التي تفيد بارتفاع معدّلات السمّنة لدى الأطفال والعواقب الوخيمة لذلك على صحة أطفالنا. وكنتُ أمل أن تُسهم هذه الحديقة في بدء حوارٍ حول هذه القضية؛ حوارٍ حول الطعام الذي نتناوله، والحياة التي نعيشها، وكيف يؤثر كل ذلك على أطفالنا».<sup>4</sup>

في الواقع، بدأت فكرة الحديقة تتبلور قبل أشهر، قبل الانتخابات بوقتٍ طويل، بينما كانت ميشيل تجلس في مطبخها بشيكاغو، تتأمل مع سام كاس، طاهي عائلتها، حول دورها المحتمل في حال انتخاب زوجها رئيساً. تحوّل حديثهما إلى مشكلة السمّنة المتفاقمة لدى الأطفال، وبدأت ميشيل تتخيل حديقةً وكيف يمكن أن تنبثق منها حركة.<sup>5</sup>

عاد طلاب الصف الخامس الذين انضموا إليها لحفر الحديقة في مارس لزراعتها في أبريل، وهم يتحدثون طوال الوقت عن الطعام الصحي وقيمة تناول الفواكه والخضراوات الطازجة. وهكذا ولدت أول مبادرة رئيسية لميشيل أوباما، «هيا نتحرك!». انطلقت رسمياً في ٩ فبراير ٢٠١٠م، بهدف مُعلن هو القضاء على السمّنة لدى الأطفال خلال جيلٍ واحد، «هيا نتحرك!» شجعت الحملة الأطفال على زيادة نشاطهم البدني، وعائلاتهم على أن يكونوا أكثر درايةً بالتغذية. وفي الوقت نفسه، دعت الحملة الشركات إلى تسويق أغذية صحية، والمدارس إلى توفير خياراتٍ صحية للطلاب.<sup>6</sup>

أصبح سام كاس، الذي انتقل إلى واشنطن للعمل كمساعد طاهٍ في البيت الأبيض، المدير التنفيذي لحملة «هيا نتحرك!»، والمستشار السياسي الأول للرئيس لشئون التغذية.

أدت حملة «هيا نتحرك!» إلى إنشاء فريق عمل الرئيس أوباما المعني بسمنة الأطفال؛ حيث أعلن زوجها عن دور السيدة الأولى في قيادة الوعي العام، وهي مهمة أخذتها على محمل الجد (وعلى الهواء). من سينسى أبدًا بعضَ مرات ظهورها القصيرة لجذب الانتباه إلى حملة «هيا نتحرك!»؟ أُقيمت مسابقة رقص «أبتاون فانك» مع إيلين ديجينيريس وفريق «سو يو ثينك يو كان دانس» للاحتفال بالذكرى السنوية الخامسة لمبادرة «هيا نتحرك!». كما أُقيمت مجموعة تركيز «هيا نتحرك!» التي أدارتها مع مجموعة من الأطفال والممثل الكوميدي ويل فيريل، وقدمت مشاهد رقص «تطور الأم» المضحكة للغاية مع جيمي فالون بهدف الترويج لممارسة الرياضة. كما ظهرت في برامج مثل «شارع سمس»؛ حيث انضمت إلى «بيج بيرد» لمناقشة أهمية تناول طعامٍ صحي، بالإضافة إلى الإعلان الخدمي العام مع أعضاء فريق ميامي هيت، بطل دوري كرة السلة الأمريكي للمحترفين، لمناقشة التغذية.<sup>7</sup>

ومن بين إنجازات المبادرة سنُّ قانون «أطفال أصحاء غير جائعين»، الذي حدّد معايير التغذية المدرسية وزاد عدد الأطفال الذين يمكنهم الحصول على وجباتٍ مدرسية بتكلفةٍ مخفّضة أو مجاناً؛ وتحديث ملصق المعلومات الغذائية لإدارة الغذاء والدواء للأغذية المعبأة؛ وزيادة إمكانية الحصول على الفواكه والخضراوات من خلال «أرفف السلّطة» في المدارس. كما بذلت جهوداً لزيادة فرص ممارسة النشاط البدني من خلال برامج مثل «هيا نتحرك! المدارس النشيطة»، التي زوّدت المدارس بخُططٍ لخلق بيئاتٍ تعليمية نشطة؛ وشراكة مع اللجنة الأولمبية الأمريكية لتقديم برامج رياضية مجانية أو منخفضة التكلفة؛ وتحديث لاختبار اللياقة البدنية للشباب «تحدي الرئيس» لتعزيز أنماط الحياة الصحية والنشيطة بدلاً من التركيز على الأداء الرياضي والمنافسة. أُطلقت مبادرة «هيا نتحرك! في الهواء الطلق» لتشجيع العائلات على الاستفادة من موارد بلادنا الخارجية والأراضي المدارة اتحادياً. ولدعم أنماط الحياة الصحية، تضمّنت المبادرة ٢٢٥ التزاماً وشراكةً من الشركات، مع السيدة الأولى بصفتها رئيسة منظمة ميشيل أوباما «شراكة من أجل أمريكا أكثر صحة» غير الربحية. أُطلقت الحملة حملاتٍ تسويقية تُشجع الأمريكيين على استهلاك المزيد من الفاكهة والخضراوات وشرب المزيد من الماء، ووسّعت نطاقها من خلال تشجيع مراكز رعاية الأطفال على الالتزام بتحسين الجودة الغذائية للوجبات الخفيفة والوجبات الرئيسية، وزيادة فرص ممارسة النشاط البدني، والحد من وقت استخدام الشاشات. وشجّعت الحملة أيضاً الطهاة الناشئين على ابتكار وصفاتٍ أصلية وصحية وبأسعارٍ

معقولة، ثم إعداد الطعام وتقديمه في «حفلات عشاء الدولة» المخصّصة للأطفال في البيت الأبيض.<sup>8</sup>

خلال الافتتاح الرسمي لحديقة مطبخ البيت الأبيض في ٥ أكتوبر ٢٠١٦م، استشهدت السيدة ميشيل ببعض الإحصائيات المثيرة للإعجاب. وقالت: «اليوم، استيقظ ٨١ مليون أمريكي في مدن وبلدات ومقاطعات «هيا نتحرك!».» حصل خمسون مليون طفل على وجبات متكاملة ووجبات خفيفة صحية في المدرسة؛ وحضر ١١ مليون طفل برنامج «هيا نتحرك!» للأنشطة المدرسية؛ حيث يمكنهم ممارسة ٦٠ دقيقة من النشاط البدني يومياً؛ وحضر ١,٦ مليون طفل برنامج «هيا نتحرك!» لرعاية الأطفال؛ حيث تناولوا ٢٢٥ مليون وجبة متكاملة ووجبة خفيفة صحية سنوياً؛ وحصل ٨,١ مليون شخص في المناطق المحرومة على مكان لشراء طعام صحي.<sup>9</sup>

وبالطبع، يبقى أن نرى مدى صمود هذه الإحصائيات في مواجهة إدارة جديدة ذات أولويات مختلفة تماماً. دارت بالفعل نقاشات حول التراجع عن أجزاء رئيسية من المبادرة، مثل تخفيف قواعد التغذية في وجبات الغداء المدرسية التي وضعت في عهد أوباما (في بيان نُشر على موقع وزارة الزراعة الأمريكية، قال وزير الزراعة في عهد الرئيس ترامب، سوني بيردو، مقولته الشهيرة: «لا فائدة من تقديم وجبات مغذية إذا انتهت بها المطاف في سلة المهملات»)<sup>10</sup>. ولكن على الأقل، لا يزال عنصر واحد قائماً: حديقة مطبخ البيت الأبيض نفسها.

ربما يُعزى جزء من ذلك إلى بُعد نظر ميشيل أوباما. فخلال صيف عام ٢٠١٦م؛ أي قبل عام ونصف من اضطرارها هي وعائلتها إلى إخلاء منزلهم الذي عاشوا فيه ثماني سنوات، استعانت بفريق من كلية الهندسة المعمارية بجامعة فيرجينيا للمساعدة في تصميم مساحة تجمّع خارجية في حديقة مطبخ البيت الأبيض. وقد جسّد التصميم النهائي الديمومة، بعناصر حجرية وفولاذية، إلى جانب بعض الهياكل الخشبية الجميلة المثبتة بإحكام في الأرض. ولعل الأهم من ذلك هو أن الحديقة حصلت على تمويل من شركة ديليو أتلي بوربي للحدائق المنزلية ومؤسسة بوربي لتغطية تكاليف الصيانة لمدة سبعة عشر عاماً على الأقل. وقد أسهم التبرع البالغ ٢,٥ مليون دولار أمريكي في مؤسسة المتنزّهات الوطنية لهذا الغرض، مما يضمن، في الوقت الحالي على الأقل، بقاء الحديقة في مكانها — واستمرار نموها — دون الحاجة إلى استنزاف أموال دافعي الضرائب.<sup>11</sup>

أبدت السيدة الأولى الجديدة، ميلانيا ترامب، استعداداً مبدئياً لمواصلة مبادرة الحديقة، على الرغم من تفضيل زوجها الموثق جيداً للوجبات السريعة. وخلال خريفها الأول في

البيت الأبيض، ارتدت قميصاً من الفلانيل المنقوش وقفازات بستنة حمراء، ودعت الطلاب المحليين للانضمام إليها أثناء حصادهم المحصول من الحديقة. قالت للطلاب: «أنا أومن بشدة بالتغذية الصحية؛ لأنها تنعكس على عقلك وجسدك. أشجّعكم على الاستمرار في تناول الكثير من الخضراوات والفواكه، حتى تنموا بصحة جيدة وتعتنوا بأنفسكم.»<sup>12</sup> في أكتوبر ٢٠١٦م، خلال الافتتاح الرسمي لحديقة مطبخ البيت الأبيض، وقفت السيدة ميشيل تحت السقيفة الجديدة، المصنوعة من خشب مصدره ممتلكات توماس جيفرسون، وجيمس ماديسون، وجيمس مونرو، ومن مسقط رأس مارتن لوثر كينج الابن.<sup>13</sup>

بعد أن شكرت كل من انضم إليها في جهود إنشاء الحديقة وكل ما تبعها، قالت السيدة الأولى إن الدروس التي تعلموها خالدة:

لقد علمتُنا هذه الحديقة أنه إذا كانت لدينا الشجاعة لزرع بذرة، فلنكن شجعاناً بما يكفي لزراعتها، ثم نرعاها، ونرويها، ونعتني بها، وندعو الأصدقاء لمساعدتنا في رعايتها، ونواجه العواصف التي تأتي لا محالة، إذا كانت لدينا الشجاعة للقيام بذلك، فلن نعرف أبداً ما قد ينمو.<sup>14</sup>

الحديقة — ومبادرة «ها نتحرك!» التي كانت الحديقة مصدر إلهامها — مجرد باكورة مشاريع عديدة أطلقتها هذه السيدة الأولى النشيطة خلال سنواتها الثماني في البيت الأبيض، لكنها في الواقع تجسد كل ما تلاها. ازرعوا تلك البذور، واعتنوا بها، وادعوا الآخرين للانضمام، وتجاوزوا الصعاب، وشاهدوا الجمال ينمو. ومن المشاريع الرئيسية الأخرى التي أطلقتها ودافعت عنها السيدة الأولى ما يلي:

- حملة «توحيد القوى»، التي أطلقتها السيدة الأولى عام ٢٠١١م والدكتورة جيل بايدن، زوجة نائب الرئيس جو بايدن، لدعم أفراد الخدمة العسكرية والمحاربين القدامى وعائلاتهم. وقد أشركت حملة «توحيد القوى» كلاً من القطاعين العام والخاص لتوفير التعليم والرعاية الصحية وفرص العمل لأفراد الخدمة العسكرية والمحاربين القدامى وعائلاتهم.
- مبادرة «الوصول إلى أعلى»، التي أطلقت عام ٢٠١٤م، والتي شجعت الشباب على مواصلة تعليمهم بعد المرحلة الثانوية، سواء من خلال برامج التدريب المهني، أو الكليات المجتمعية، أو المؤسسات التعليمية التي تمتد لأربع سنوات.

• مبادرة «دعوا الفتيات يتعلمن»، التي أطلقتها السيدة الأولى مع الرئيس أوباما عام ٢٠١٥م لمساعدة الفتيات حول العالم على الالتحاق بالمدرسة والبقاء فيها. وفي إطار هذا الجهد، دعت جميع الدول إلى المساعدة في تعليم الشابات وتمكينهن، وشاركت قصصاً عن معاناة هؤلاء الشابات، على أمل إلهام الطلاب في الولايات المتحدة للالتزام بتعليمهم.<sup>15</sup>

وجدت السيدة ميشيل أيضاً طرقاً أخرى لمساعدة الأطفال على التعلم والنمو. فخلال عامها الأول كسيدة أولى، أطلقت برنامجاً للقيادة والتوجيه للفتيات؛ حيث جمعت عشرين فتاة من المدارس الثانوية في منطقة واشنطن العاصمة مع مسئولين إداريين. كانت الفتيات يأتين شهرياً إلى البيت الأبيض، للقاء مرشداتهن والتعرف على عملهن. وقالت: «أردت أن تختبر [الطالبات] هذه الفكرة القائلة بأنه إذا استطعتِ الدخول [عبر] أبواب البيت الأبيض مرةً واحدة شهرياً والجلوس مع السيدة الأولى ورئيس موظفيها وبعض كبار المسئولين الآخرين، والتحدث معك والتعود على سماع صوتك في المكان، فلن يصبح الأمر مشكلةً كبيرة.»<sup>16</sup>

استغلت السيدة ميشيل بعض علاقاتها في مجتمع الفنون لمبادرة رئيسية أخرى. برنامج «ذا تيرن آرون آرستس» الذي تأسس عام ٢٠١١م، يستغل قوة الفنون لتعزيز التحصيل الدراسي وإشراك الطلاب في المدارس المتعثرة بشكل أفضل. تعمل شركة «تيرن آرون آرستس» في مواقع مختلفة في جميع أنحاء البلاد، حيث تقدم أرقى أنواع الموسيقى والفنون البصرية والرقص والمسرح للمدارس ذات الأداء الضعيف، وتشارك عشرات الفنانين — من ديف ماثيوز إلى سموكي روبنسون، ومن يو ما إلى باولا عبدول، ومن كيري واشنطن إلى تيم روبنز — للتطوع إلى جانب الطلاب والمعلمين. البرنامج من تأسيس لجنة الرئيس للفنون والعلوم الإنسانية، ويدار الآن من قبل مركز كينيدي للفنون الأدائية؛ لذا، وكما هي الحال مع الحديقة، ستستمر هذه المبادرة في الوجود حتى لو فشلت الإدارات الأخرى في جعلها أولوية.<sup>17</sup>

بالإضافة إلى هذه التجهيزات وغيرها، أدلت السيدة ميشيل بدلؤها (أو ربما بادرت بالتدخل ثم بدأت بالتدخل) في بعض من أكثر القضايا الشائكة آنذاك، لا سيما في أواخر سنواتها كمقيمة في البيت الأبيض. بعد أن أدركت خلال الحملة الانتخابية الأولى أنها قد تحتاج إلى تخفيف حدة بعض تعليقاتها، خشية أن تُوصف بأنها «امرأة سوداء غاضبة» أو «حادة الطبع» مرةً أخرى، كانت هناك أوقات غاب فيها صوتها بشكل ملحوظ عن

بعض النقاشات. على سبيل المثال، عندما ألقى زوجها خطابه الجميل والمُفجع في وقفة عزاء ضحايا مذبحه ساندي هوك في ١٦ ديسمبر ٢٠١٢م، لم تكن السيدة الأولى حاضرة. تساءل البعض، لماذا لم تكن بجانبه؟

قد نحتاج إلى انتظار كتاب «وأصبحتُ»، مذكراتها التي طال انتظارها، لمعرفة إجابة هذا السؤال، ولكن لا يسع المرء إلا أن يتخيل أن المشاعر ربما كانت عميقة للغاية بعد مقتل ٢٦ شخصًا، معظمهم في السادسة من العمر، بالرصاص في مدرسة ابتدائية بولاية كونيتيكت. ورغم عدم حضورها شخصيًا في وقفة العزاء، فإنها كتبت رسالة إلى عائلات ساندي هوك شاركت فيها حزنها وقدّمت تعازيها في خسارتهم الفادحة. كما لمّحت إلى أمرٍ ربما لم تستطع التعبير عنه بصوت عالٍ في ذلك الوقت. «وأريدكم أن تعلموا أن هذه مجرد البداية»، هكذا كتبت في الرسالة التي نُشرت في صحيفة «هارتفورد كورانت» بعد أربعة أيام من وقفة العزاء. «كما قال زوجي، سيستخدم خلال الأسابيع المقبلة جميع صلاحيات منصبه لإشراك المواطنين من جميع أنحاء البلاد في إيجاد سبل لمنع وقوع مآسٍ كهذه».<sup>18</sup>

وتدخلت في نقاش عنف السلاح بشكلٍ أكثر وضوحًا في العام التالي، وتحديدًا في أبريل ٢٠١٣م، عندما أَلقت خطابًا خلال فعالية لجمع التبرعات لمبادرة جديدة بين القطاعين العام والخاص بقيمة ٥٠ مليون دولار أمريكي لمكافحة عنف الشباب في شيكاغو. وأشارت إلى أن زوجها كان آنذاك يعمل بجد «لإقرار إصلاحاتٍ منطقية لحماية أطفالنا من عنف السلاح»، وأعربت عن دعمها القوي لهذه الجهود، قائلةً بشكلٍ قاطع: «هذه الإصلاحات تستحق التصويت في الكونجرس».

صرّحت السيدة ميشيل بأنها شعرت برغبةٍ مُلحة في الانضمام إلى هذا النقاش بعد حضورها جنازة هادية بندلتون، مغنية أوبرا ماجوريت، البالغة من العمر خمسة عشر عامًا، التي شاركت في حفل تنصيب زوجها الثاني، وقتلت بالرصاص بعد أيامٍ قليلة في حديقة عامة بالقرب من منزلها في شيكاغو، على مقربة من مسقط رأس السيدة ميشيل. وقالت السيدة ميشيل في خطابها: «كانت هادية بندلتون أنا، وكنت أنا هادية بندلتون»، موضحةً أن هادية، مثل السيدة الأولى، كانت طالبةً متفوقة من جنوب شيكاغو. لكنني كبرتُ وذهبتُ إلى كلية الحقوق في برينستون وهارفارد، وحصلتُ على وظيفة وعائلة، وحياةٍ أسعد مما يمكن تخيُّله. أما هادية، فنحن نعرف قصتها.

وأضافت: «لا يمكننا إيقاف كل العنف في العالم. ولكن إذا كان هناك شيء واحد يمكننا فعله، ولو خطوة واحدة يُمكننا اتخاذها لإنقاذ طفل آخر أو والدٍ آخر من الحزن الذي حلَّ بعائلاتٍ مثل عائلة هادية ألا يجب علينا المحاولة؟»<sup>19</sup>

ربما كان هذا السؤال بمثابة مقدمة للغة أكثر واقعية استخدمتها في تغريدة بتاريخ ٢١ فبراير ٢٠١٨م، بعد عام وشهر من تخليها عن لقب السيدة الأولى. ودعمًا منها لطلاب مدرسة مارجوري ستونمان دوغلاس الثانوية في باركلاند، فلوريدا، الذين قادوا حملة واسعة النطاق لإصلاح قانون الأسلحة بعد خسارتهم سبعة عشر من زملائهم عقب حادثة إطلاق نارٍ مروعة أخرى في مدرسة، كتبت: «أعجب بالطلاب الاستثنائيين في فلوريدا. وكما هي الحال مع كل حركة تقدمية في تاريخنا، يتطلب إصلاح قانون الأسلحة شجاعةً وصمودًا لا يلين. لكنني، أنا وباراك أوباما، نؤمن بكم، ونفخر بكم، وندعمكم في كل خطوة على الطريق.»

لاحقًا، عبّرت هي والرئيس أوباما عن المشاعر نفسها في رسالة مكتوبة بخط اليد وجَّهاها إلى طلاب باركلاند. وفي رسالة مؤرّخة في ١٠ مارس ٢٠١٨م، أشادت الرسالة بالطلاب لمساهمتهم في «إيقاف ضمير الأمة»، وحثت في الوقت نفسه «صانعي القرار على جعل سلامة أطفالنا أولوية قصوى للبلاد». وأضاف الرئيس السابق والسيدة الأولى أنه على مرّ التاريخ، «قاد شبابٌ مثلكم الطريق نحو تحسين أمريكا. قد تكون هناك انتكاسات؛ قد تشعرون أحيانًا بأن التقدم بطيءٌ للغاية. لكن ليس لدينا أدنى شك في أنكم ستُحدثون فرقًا هائلًا في الأيام والسنوات القادمة، وسنكون إلى جانبكم». وقَّعت ببساطة باسم «باراك أوباما» و«ميشيل أوباما».<sup>20</sup>

من القضايا الأخرى التي ازدادت حدةً مع اقتراب انتخابات عام ٢٠١٦م، قضية المساواة بين الجنسين وكيفية تعاملنا مع نساءنا وفتياتنا. ركّزت العديد من مبادراتها، مثل «دعوا الفتيات يتعلمن» وبرنامج الإرشاد، على منح الشابات مقعدًا على طاولة النقاش، حيث لم يكن، تقليديًا، موضع ترحيب. مع اقتراب السباق بين هيلاري كلينتون ودونالد ترامب من دورته الأخيرة، ومع انتشار خبر فيديو «أكسيس هوليوود» الذي صُوّر فيه دونالد ترامب وهو يُدلي بتعليقاتٍ مسيئة عن النساء، بدأت السيدة أوباما أيضًا بالحديث عن ضرورة احترام النساء والفتيات في تصرّفاتنا وحديثنا. في خطابٍ ناري ألقته أمام ناخبي نيوهامبشير في أكتوبر، أعربت عن مشاعرها بوضوح تام، وإن لم تُسمّ دونالد ترامب بالاسم. وقالت: «في هذه الانتخابات، لدينا مرشّح لرئاسة الولايات المتحدة، قال

طوال حياته وخلال هذه الحملة الانتخابية أشياء عن النساء صادمة ومُهينة للغاية، لدرجة أنني ببساطة لن أكرر أي شيء هنا اليوم. وفي الأسبوع الماضي، رأينا هذا المرشح يتفاخر بالاعتداء الجنسي على النساء.»

وتابعت قائلة: «هذا أمر لا يمكننا تجاهله»، مُخبرة الناخبين أنهم، بانتخاب هيلاري كلينتون، يُمكنهم رفض ليس فقط تلك اللغة، بل أيضاً فكرة أن أي فرد من أفراد بلدنا أقل قيمة من غيره. «في الثامن من نوفمبر، يُمكننا أن نُظهر لأطفالنا أن هذا البلد كبير بما يكفي ليتسع لنا جميعاً — رجالاً ونساءً، من جميع الخلفيات ومناحي الحياة — وأن كل واحد منا جزءٌ ثمين من هذه القصة الأمريكية العظيمة.»<sup>21</sup>

بالطبع، نعلم جميعاً أن هيلاري كلينتون، في النهاية، لم تُفز بالانتخابات. ولكن في مرحلة ما — وخاصةً مع ورود أنباء عن إساءة شخصيات بارزة أخرى معاملة النساء — اكتسبت حركة «أنا أيضاً» (مي تو) زخمًا. بدأتها الناشطة الاجتماعية تارانا بيرك قبل أكثر من عقد من الزمان، وانتشرت فجأة في كل مكان؛ حيث تحدثت النساء (وبعض الرجال) في جميع أنحاء البلاد ووقفوا والمخالفون يتنحون عن مناصبهم.

ومن القضايا الأخرى التي بدا أن السيدة ميشيل أصبحت أكثر تعبيراً عنها بمرور الوقت، وخاصةً خلال فترة ولاية زوجها الثانية، قضية العرق. في البداية، بدت وكأنها تتجنب النقاشات العامة حول العرق والعنصرية، تاركةً لزوجها التعامل مع بعض النقاشات الأكثر حساسية، مثل الاحتجاجات التي أعقبت اعتقال هنري لويس جيتس، الأستاذ بجامعة هارفارد، في يوليو ٢٠٠٩م أثناء محاولته دخول منزله، وقول الرئيس إن الشرطة «تصرّفت بغباء». هل تذكرون قمة البيرة التي حضرها الرئيس أوباما؟<sup>22</sup>

ولكن مع اقتراب نهاية إقامتهما في البيت الأبيض — ومع تنامي حركة «حياة السود مهمة» ردًا على حوادث إطلاق النار على المواطنين السود، التي نفذها كثيرون، منهم ضباط شرطة — بدأت السيدة الأولى بالحديث عن العنصرية وتأثيرها على الأمريكيين. خلال خطابها في حفل التخرج بجامعة توسكيجي، وهي جامعة تاريخية للسود في ألاباما، في مايو ٢٠١٥م، تحدثت إلى الخريجين عن العزيمة والمرونة اللتين سمحتا للأجيال السابقة من طلاب توسكيجي «بالتحليق عاليًا متجاوزين العقبات والفضائح، ومتجاوزين خطر الإعدام خارج نطاق القانون في الريف، ومتجاوزين إنزال جيم كرو، ومتجاوزين اضطرابات حقبة الحقوق المدنية». في الوقت نفسه، أقرت بأن العنصرية لا تزال موجودة، وأنها، في بعض الأحيان، تشعر هي الأخرى بلسعها.

متذكراً غلاف مجلة «نيويورك» الذي صُوِّرت فيها ببندقية هجومية وشعر أفرقي طويل، قالت: «نعم، كان ذلك سخريّة، ولكن لأكون صريحة حقاً، فقد صدمني قليلاً». وبالمثل، أزعجها تعليق «ضربة قبضة إرهابية» مثلما أزعجها لقب «أم أوباما». وجدت نفسها قلقة بشأن ما ستفكر فيه ابنتها إذا سمعتا ما يقوله الناس، لكنها في النهاية اختارت ألا تُركز على الأمر. قالت: «أدركتُ أنه إذا أردتُ الحفاظ على رباطة جأشي وعدم السماح للآخرين بتعريفي، فهناك شيءٌ واحد فقط يمكنني فعله؛ وهو الإيمان بتدبير الله لي. كان عليّ تجاهل كل هذا الضجيج وأن أكون صادقةً مع نفسي.»<sup>23</sup>

بعد عام، وفي حفل تخرج بجامعة جاكسون ستيت، وهي جامعة تاريخية للسود في ولاية ميسيسبي، أعادت النظر في الموضوع. متذكراً كم كان صعباً تجاوز الصعاب أحياناً وسط الدعوات المتكررة لزوجها لإبراز شهادة ميلاده، أخبرت الخريجين أنها تتفهم مدى صعوبة العيش في ظل العنصرية المترسخة. وتحدّثت عن مشكلة «قيادة السيارة وأنت أسود»، وأن العديد من المدارس «لا تزال منفصلة وتفتقر إلى المساواة»، وأن نظام العدالة الجنائية «لا يوفر عدالةً متكافئةً حقاً للكثيرين». ومع ذلك، حثت جمهورها على التحلي بالتفاؤل، حتى وإن كان الشعور بالإحباط أو الغضب مغرياً. وقالت: «السؤال ليس ما إذا كنت ستواجه هذه القضايا وجهاً لوجه؛ بل كيف ستستجيب عند مواجهتها. هل ستستسلمون وتعلنون أن التقدم لن يتحقق أبداً؟ هل ستغضبون أو تثورون؟ هل ستنحنون وتستسلمون لليأس والإحباط؟ أم ستأخذون نفساً عميقاً، وترفعون رءوسكم، وتفعلون ما فعله باراك أوباما دائماً؛ كما يقول: «عندما يهبطون، أرتفع أنا». والأهم من ذلك كله، أخبرت جمهورها الشاب، ومعظمهم من الأمريكيين الأفارقة، أن هناك طريقةً رئيسيةً واحدة لحماية حقوقكم؛ التسجيل، والتوجه إلى صناديق الاقتراع، والتصويت.»<sup>24</sup>

في خطابها أمام الطلاب المتخرجين في كلية سيتي بنيويورك في يونيو، طرحت السيدة الأولى منظوراً آخر للنقاش حول العرق. تحدّثت عن تنوع الهيئة الطلابية، وكيف أنهم بصفتهم بوتقة تنصهر فيها مختلف شرائح المجتمع وجميع الجنسيات، «أنتم الدليل الحي على أن الحلم الأمريكي لا يزال قائماً في عصرنا». ثم تحدّثت عن كونها وعائلتها جزءاً من هذا السرد، ذلك الدليل على الحلم الأمريكي. إنها القصة التي أشهدها كل يوم عندما أستيظ في منزل بناه العبيد، وأشهد ابنتي — شابتين سوداوين جميلتين — تتجهان إلى المدرسة، وهما تلوحان وداعاً لوالدهما، رئيس الولايات المتحدة، ابن رجلٍ من كينيا جاء

إلى أمريكا للسبب نفسه الذي دفع الكثيرين منكم إلى ذلك؛ للحصول على التعليم وتحسين فرصه في الحياة».<sup>25</sup>

وقد نقلت السيدة ميشيل الصورة نفسها — «المنزل الذي بناه العبيد» — إلى جمهورٍ أوسع بكثير خلال المؤتمر الوطني الديمقراطي لعام ٢٠١٦م. قالت: «هذه هي قصة هذا البلد، القصة التي أوصلتني إلى هذه المرحلة الليلة، قصة أجيال من الناس الذين شعروا بجلد العبودية، وعار العبودية، ووخزة الفصل العنصري، لكنهم استمروا في الكفاح والأمل والقيام بما يجب القيام به حتى أستيقظ اليوم كل صباح في منزل بناه العبيد، وأشهد ابنتي — شابتين سوداوين جميلتين وذكيّتين — تلعبان مع كلابهما في حديقة البيت الأبيض».<sup>26</sup>

بمقارنة تلك الكلمات القليلة الجريئة والصادقة — «منزل بناه العبيد»، و«جلد العبودية»، و«عار العبودية»، و«وخزة الفصل العنصري» — مع صورة للعائلة الأولى السوداء التي تعيش داخل البيت الأبيض، كشفت السيدة الأولى عن تاريخ بلدنا العنصري، بينما تمكنت أيضاً من الاحتفال بالتقدم الذي تم إحرازه. وصفت ميشيل أوباما الأمر بأنه «سردٌ مستمر»، كما تركت مجالاً لمزيد من التقدم. وقد لاقى قرارها بتضمين هذه اللغة في خطابها إشادة من جهات عديدة، وإدانة من جهات أخرى؛ حيث اتهمها البعض بـ «التحريض العنصري». لكن المؤكّد أنها أثارت نقاشاً واسعاً.

إلى جانب المبادرات التي قادتها والقضايا التي ركزت عليها، هناك أيضاً الإنجازات الشخصية التي حققتها خلال سنواتها في البيت الأبيض، ولن تكتمل أي قصة عن السيدة الأولى ميشيل أوباما دون ذكر اثنين من تلك الإنجازات.

الأول، بالطبع، هو زواج أوباما. يبدو جلياً أن ميشيل وباراك أوباما تربطهما شراكة حقيقية، زواجٌ قائم على الإعجاب والاحترام المتبادلين. على عكس الأخبار الشنيعة التي نسمعها عن شخصيات عامة أخرى، لم يثر زواج عائلة أوباما أي حديث يُذكر، سوى لمحاتٍ عابرة من المودة والمرح. هل تذكرون وصف السيناتور أوباما آنذاك وهو يُمازح زوجته في إحدى مباريات كرة القدم للفتيات، ثم تُبعده عنها مازحة؟ هل تذكرون رقص الزوجين على أنغام أغنية «أخيراً» (آت لاس) لإيتا جيمس، التي غنّتها بيونسيه، خلال حفل تنصيب الرئيس الأول؟ وماذا عن رسالة الفيديو التي نشرها الرئيس في ٣ أكتوبر ٢٠١٧م، الذكرى الخامسة والعشرين لزواجهما؟

لإحياء ذكرى تلك المناسبة، سجّل السيد أوباما رسالة لزوجته، التي كانت خارج المدينة لحضور مؤتمر بنسلفانيا النسائي في فيلادلفيا. ولأنهما لم يكونا معاً، أرسل تحية

لَتُدَاعَ على الحاضرين في المؤتمر، بمن فيهم زوجته. وقال في الفيديو: «إن فكرة تحمُّك لي لمدة ربع قرن هي شهادة رائعة على مدى قدسيّتك وروعتك وصبرك. لم تكوني شريكًا استثنائيًا فحسب، بل كنتِ أيضًا صديقًا رائعًا، شخصًا يُضحكني دائمًا، شخصًا يحرص دائمًا على اتباعي فيما أعتقد أنه الصواب، بل كنتِ أيضًا قدوة لابنتينا وللبلد بأكمله. قوتك، ولطفك، وعزيمتك، وصدقك، وحقيقة أنك تبدين رائعةً وأنتِ تقومين بكل هذا، والطريقة التي تحمّلتِ بها دائمًا مسؤولية أفعالك ورعايتكِ لمن حولك، كل ذلك رائع. لا عَجَبُ أنه عندما تعرّف عليك الناس بالطريقة التي تعرّفْتُ عليكِ بها، وقَعوا في حبك، وكان حقًا أفضلَ قرار اتخذته على الإطلاق أن أكون مثابراً بما يكفي لدعوتك في موعدٍ غرامي، حتى وافقتِ أخيراً.»<sup>27</sup>

التفتت إلى شوندا رايمز، التي كانت تُجري معها المقابلة، وقالت: «من الأفضل أن أعود إلى المنزل!»<sup>28</sup>

ثم هناك الأطفال. إذا كان الدليل، كما يُقال، يكمن في الحلوى، فإن ميشيل أوباما كانت أمًا مثالية لعائلتها الصغيرة؛ إذ ربّت ابنتين واثقتين، ذكيتين، وقادرتين على التكيف. منذ تلك المقابلة التي أُجريت في ٤ يوليو ٢٠٠٨م مع برنامج «أكسيس هوليوود»، اقتصرت آراؤنا عن ماليا وساشا أوباما على ظهورهما في المناسبات العامة، مع صورٍ عشوائيةٍ للعائلة في العطلات أو الفتاتين وسط الناس. لا نعرف الكثير عن حياتهما الشخصية، وهذا أمرٌ طبيعي. مع ذلك، نعلم أنهما شابتان قويتان وناجحتان، وأن ماليا بعد سنةٍ فاصلة تطوّعت فيها خارج البلاد، ثم عملت في مجال السينما في مدينة نيويورك، التحقت بجامعة هارفارد، وهو إنجاز ليس بالهين. تقرب ساشا من عامها الأخير في سيدويل فريندز، ويُقال إنها كانت تزور الجامعات برفقة والدتها. مثل أختها الكبرى، نسمع أنها طالبةٌ ملتزمة؛ ملتزمةٌ جدًّا، في الواقع، لدرجة أنها فاتتها كلمة وداع والدها في شيكاغو لتتمكّن من الدراسة لامتحانٍ مهم في اليوم التالي.<sup>29</sup>

في إحدى أكثر اللحظات المؤثرة في خطاب الوداع، بعد أن شكر زوجته على توليها «دورًا لم تطلبه» وجعلته خاصًا بها برشاقة وعزيمة وأناقة وروح دعابة، أشاد الرئيس أوباما بابنتيه. قال: «ماليا وساشا، في ظل أغرب الظروف، أصبحتما شابتين رائعتين، ذكيتين وجميلتين، والأهم من ذلك، لطيفتين وعميقتي التفكير ومفعمتين بالشغف. لقد تحملتما عبء سنوات من الشهرة بسهولة. من بين كل ما فعلته في حياتي، أنا فخورٌ جدًّا بكوني والدكما.»<sup>30</sup>

أما بالنسبة للأمم القائدة، فما هو المبدأ الذي استرشدت به في شئونها الداخلية؟ في المؤتمر الوطني الديمقراطي عام ٢٠١٢م، أخبرت جمهورها أنها وزوجها تعلمان التربية الصالحة منذ الصغر. وقالت: «لقد نشأنا أنا وباراك في كنف عائلاتٍ لم تكن تملك الكثير من المال أو الممتلكات المادية، لكنها منحتنا شيئاً أثمن بكثير؛ حبهم غير المشروط، وتضحياتهم التي لا تلين، وفرصة الوصول إلى آفاقٍ لم يتخيلوها لأنفسهم قط.»<sup>31</sup> ثم بعد أربع سنوات، خلال خطابها في المؤتمر الوطني الديمقراطي لعام ٢٠١٦م، تحدّثت عن أهمية أن نكون قدوةً حسنة:

مع كل كلمةٍ ننطقها، وكل فعلٍ نقوم به، نعلم أن أطفالنا يراقبوننا. نحن، كأباء، نمثّل قدوتهم الأهم. ودعوني أخبركم، أنا وباراك نتبع النهج نفسه في عملنا بصفته الرئيس وبعفتي السيدة الأولى؛ لأننا نعلم أن أقوالنا وأفعالنا مهمة، ليس فقط لابنتينا، بل للأطفال في جميع أنحاء هذا البلد.<sup>32</sup>

كما أشاد آخرون بالمثال القوي الذي قدّمه الوالدان أوباما، ليس فقط لطفليهما، بل للأطفال في جميع أنحاء العالم. في مقال كتبتُه لمجلة «تي»، وهي مجلة «نيويورك تايمز ستايل»، قبيل مغادرة عائلة أوباما البيت الأبيض، لخصت جلوريا ستاينم، أيقونة الحركة النسوية، مساهمات السيدة الأولى المتعددة بهذه الطريقة:

مع أنني كبيرة بما يكفي لأتذكر إيلانور وفرانكلين د. روزفلت في البيت الأبيض — وجميع الأزواج والعائلات منذ ذلك الحين — إلا أنني لم أشهد قط مثل هذا التوازن والمساواة في التربية، وهذا الحب والاحترام والتبادلية والمتعة في صحبة بعضنا بعضاً ... ربما غيرت ميشيل أوباما التاريخ بأقوى طريقة؛ بالقدوة.<sup>33</sup>

شكراً للأمم (والأب) القائدين.



## الفصل الرابع عشر

# إرث ميشيل أوباما

كيف أثرت في مشاعرنا؟

لقد تعلمتُ أن الناس سينسَوْنَ ما قتلته، وسينسَوْنَ ما فعلته، لكنهم لن ينسُوا  
أبدًا ما جعلتهم يشعرون به.

مايا أنجيلو

عندما تنظر إلى شخصٍ ما وتحاول تقييم مساهماته في العالم، فإنك عادةً ما تفكر في قائمة من الإنجازات الملموسة. بالتأكيد، لدى السيدة الأولى ميشيل أوباما قائمتها الطويلة جدًا. لكنَّ جزءًا لا يقل أهمية من إرث الشخص هو الإرث المعنوي. كيف جعلنا نشعر؟ هذا سؤالٌ معقد، لا سيما في بلدٍ مستقطبٍ للغاية، ولا شك أن الإجابة ستختلف اختلافًا كبيرًا من شخصٍ لآخر. ولكن بشكلٍ عام، من الصحيح القول إن معظمنا شعر بشعورٍ جيد تجاه ميشيل أوباما في ختام سنواتها الثماني كسيدةٍ أولى. نعرف ذلك لأن لدينا أداةً مصمَّمة لقياس هذه الأمور: ما يُسمى بالتقييمات الإيجابية.

عندما غادرت ميشيل أوباما البيت الأبيض في أوائل عام ٢٠١٧م، بلغت نسبة التأييد لها ٦٨٪، وفقًا لمؤسسة جالوب، ما يعني أن ما يقرب من ٧٠٪ من السكان ينظرون إليها بإيجابية. وكانت نسبة التأييد للسيدة الأولى أعلى بعشر نقاطٍ كاملة من نسبة التأييد لزوجها البالغة ٥٨٪، وذلك أثناء استعداده لمغادرة منصبه. بالنسبة للسيدات الأول، لم يكن التقييم النهائي لميشيل الأعلى في التاريخ الحديث، بل كان من نصيب لورا بوش، التي غادرت البيت الأبيض بنسبة ٧٦٪ (مقارنةً بنسبة ٤٠٪ لزوجها في ذلك الوقت)، لكنها (ميشيل) كانت أعلى بعشر نقاط من نسبة ٥٦٪ التي حصلت عليها هيلاري كلينتون عندما غادرت البيت الأبيض عام ٢٠٠٠م. وظلت تقييمات ميشيل إيجابية باستمرار طوال

سنوات زوجها الثماني في المنصب. المرة الوحيدة التي انخفضت فيها النسبة إلى أقل من ٥٠٪ كانت في مايو ٢٠٠٨م، قبل أشهر من انتخاب زوجها رئيسًا لأول مرة، عندما لم يكن الناس يعرفون من هي حقًا.<sup>1</sup>

بصرف النظر عن التقييمات، ربما كانت البيانات الأكثر دلالة حول ما أثرت فيه ميشيل على مشاعرنا قد جاءت من مصادر أخرى. في صباح اليوم التالي لفوز دونالد ترامب غير المتوقع، وبينما كان العالم يتأثر بخبر فوزه، وليس هيلاري كلينتون كما كان متوقعًا على نطاق واسع، ضجّت وسائل التواصل الاجتماعي بظاهرة جديدة. كان هاشتاغ #Michelle2020م رائجًا.

جاء في إحدى التغريدات: «عزيزتي ميشيل أوباما MichelleObama،<sup>2</sup> أعلم أنك أردت إنهاء علاقتك بالبيت الأبيض، لكننا سنحتاجك للترشح للرئاسة بعد ٤ سنوات.» وجاء في تغريدة أخرى: «ميشيل، إذا ترشحت للرئاسة عام ٢٠٢٠م، فسأكل كل خضراواتي وأتفوق دراسيًا، من فضلك يا FLOTUS.»<sup>3,4</sup>

ابحثي في جوجل عن Michelle Obama ٢٠٢٠م، فستظهر لك مجموعات «فيسبوك» متنوعة مخصصة لهذه القضية، ومجموعة كبيرة من قصص Michelle ٢٠٢٠م للاختيار من بينها. (أحصيت ما لا يقل عن ٢٥ رواية مختلفة.)

في الأسابيع والأشهر التي تلت انتخابات عام ٢٠١٦م، ازداد النقاش حدةً لدرجة أن السيدة ميشيل تدخلت في النهاية. خلال جلسة أسئلة وأجوبة في المؤتمر السنوي للمعهد الأمريكي للمهندسين المعماريين في أورلاندو في أبريل ٢٠١٧م، سُئلت عما إذا كانت ستفكر في الترشح لمنصب عام. أجابت بالنفي، مضيفةً أنها «لن تطلب من طفلتيها تكرار ذلك».<sup>5</sup> في الحقيقة، طُرح الموضوع علنًا حتى قبل انتقالها هي وزوجها من البيت الأبيض، عندما طرحت مقدمة البرامج الحوارية أوبرا وينفري، خلال مقابلةٍ وداعيةٍ في ديسمبر ٢٠١٦م، السؤال الذي كان يدور في أذهان الجميع. هل ستترشح لمنصب عام؟ كان جواب ميشيل: لا، وللأسبب نفسه: لن تُعرض عائلتها لذلك. كما أخبرت أوبرا أنها تعتقد أن من يريدون ترشحها متفائلون فحسب. ثم أضافت: «الأمل جميل»، وهو تعليقٌ ربما ألهم بعض متابعي #michelle2020م مواصلة التفاوض.<sup>6</sup>

فما الذي جعل ميشيل أوباما محبوبية لدى الكثيرين، لدرجة أنهم تمنوا بشدة أن تترشح للرئاسة؟ (بالتأكيد، كان لديها أيضًا منتقدها الذين كانوا سعداء للغاية برحيلها عن البيت الأبيض؛ هل تذكرون نسبة الـ ٣٢٪ غير المؤيدين؟ سنتحدث عنهم لاحقًا.)

لعل أعظم أداة كانت تتمتع بها السيدة ميشيل هي قدرتها المذهلة على التواصل مع الناس، سواء من خلال خطابٍ من على منصةٍ وطنيةٍ موجهٍ إلى الجماهير أو خلال لقاءٍ شخصيٍ مع جمهورٍ من شخصٍ واحد. صوتها الفريد والأصيل تمامًا، وإلقاؤها الماهر، ورسالتها الشمولية، ودفؤها الصادق، أثّر في الناس وجعلهم يشعرون أنها تراهم وتسمعهم حقًا. أو كما قالت فاليري جاريت، كبيرة مستشاري زوجها وصديقتها المقربة، قُبيل مغادرة السيدة الأولى البيت الأبيض: «لديها قدرةٌ استثنائيةٌ على مقابلة الناس أينما كانوا. وأعتقد أن ذلك صعبٌ من فوق منبر البيت الأبيض. لكنها لم تصعد إلى هذا المقام قط!»<sup>7</sup>

تُرجم ذلك الدفاء وتلك القدرة على «التواصل مع الناس أينما كانوا» إلى أفعالٍ في البيت الأبيض في عهد أوباما. كان من أوائل ما فعله الرئيس والسيدة الأولى عند انتقالهما إلى منزلهما الجديد أنهما فتحا أبوابه للجمهور. أطلقا على منزلهما اسم «بيت الشعب»، واستقبلت العائلة الأولى أكثر من ٦٠٠ ألف زائرٍ في ذلك العام الأول وحده، وهو أكبر عددٍ في عامٍ واحد منذ هجمات ١١ سبتمبر. في بعض الأحيان، كان الرئيس والسيدة الأولى — برفقة كلب البيت الأبيض، بو — يفاجئان زوار البيت الأبيض دون سابق إنذار خلال جولاتهم، وهي عادة استمرت طوال سنوات إقامتهما الثماني.<sup>8</sup>

ومن خلال برنامجها الإرشادي للفتيات، دعت السيدة الأولى الشابات إلى البيت الأبيض شهرياً كي يتمكنَّ من التعاون مع زميلاتهن والتعلم منهن، وليمكنَّ أيضاً من التدريب على دخول البيت الأبيض حرفياً، وهو عملٌ قد يكسر الحواجز الرمزية أمام هؤلاء الشابات في السنوات القادمة. كما دعت الأطفال للعمل معها في حديقة مطبخ البيت الأبيض، ولإعداد مآدب عشاء رسمية، ولحضور فعالياتٍ موسيقيةٍ ومسرحيةٍ.

بالنسبة لميشيل، كان المنزل الذي سكنته هي وعائلتها لمدة ثماني سنوات ملكاً للبلد بأكمله. ها هي في رسالةٍ ترحيبيةٍ عندما كشفت عن جولة افتراضيةٍ جديدةٍ في القاعات العامة بالبيت الأبيض: «البيت الأبيض ليس مجرد موطن لعائلات الرؤساء أو مساحةٍ لاجتماع قادة العالم. إنه يُعرف أيضاً باسم «بيت الشعب»، وهو مكانٌ يجب أن يكون مفتوحاً للجميع؛ لذا، تفضلوا، انظروا حولكم، واستمتعوا بتاريخ وجمال القاعات. لأنه، في النهاية، هذا بيتكم أيضاً.»<sup>9</sup>

الدفاء والانفتاح اللذان أبدتهما السيدة ميشيل جعلتا الآخرين يشعرون بالدفاء تجاهها أيضاً. هل تذكرون فيديو لقاء السيدة الأولى بملكة إنجلترا؟ أُصيبت وسائل

الإعلام، وخاصة الصحافة البريطانية، بصدمةٍ بالغة عندما شاهدوا لقطات الملكة إليزابيث الثانية وهي تضع ذراعها حول خصر ميشيل أوباما، ورد السيدة الأولى عليها بالمثل. اعتبر العديد من المراقبين أن تصرف السيدة الأولى؛ أي لمس الملكة، يُعد خرقاً للبروتوكول. لكن ما أثار انزعاج تشارلز موسلي، مراقب الشؤون الملكية البريطانية ومؤلف كتاب «الدم الملكي»، لم يكن تصرف السيدة أوباما، بل ما فعلته ملكته المعروفة بعزلتها. وفي حديثه لبرنامج «أمريكان مورنينج» على قناة «سي إن إن»، قال موسلي:

المثير للدهشة هو صورة الملكة وهي تضع ذراعها حول ميشيل أوباما، وذراع ميشيل أوباما حول الملكة أيضاً. لكن الملكة هي من بادرت بالخطوة الأولى. وهذا هو الأمر الأكثر إثارة للدهشة؛ لأن الملكة ليست معروفة بحساسيتها المفرطة. في الواقع، اشتكى ابنها، الأمير تشارلز، في إحدى المرات من أنه لم يُمنح ما يكفي من الحنان عندما كان طفلاً ... إنها لفتة بالغة الأهمية ... على حد علمي، هذا خرقٌ لبروتوكول البيت الأبيض.<sup>10</sup>

حتى إن السيدة ميشيل كانت مرحّبة في الأوقات التي ربما كانت تفضل ألا تكون كذلك. ربما لم يُعبّر أي شيء عن هذا الكرم بقدر ما عبّر عنه وصول الرئيس المنتخب ترامب وزوجته إلى البيت الأبيض يوم التنصيب عام ٢٠١٧م لتحية الزوجين الأولين والتقاط الصور التذكارية قبل الحفل الرسمي في مبنى الكابيتول الأمريكي. وعندما وصل موكب عائلة ترامب أمام البيت الأبيض، ترجّل الرئيس المرتقب من السيارة وبدأ يصعد الدرج منتظراً زوجته للانضمام إليه، وهو سهوٌ أثار ضجةً إعلامية. نشرت مجلة «تاو أند كانتري» مقالاً بعنوان «دونالد ترامب هو الرئيس الوحيد الذي لم يرافق زوجته إلى البيت الأبيض»، وقد جمعت مقاطع فيديو لرؤساء سابقين منتخبتين وهم يصلون إلى البيت الأبيض يوم التنصيب. انتظر الجميع زوجاتهم قبل أن يصعدوا معاً، متشابكي الأذرع، درجات البيت الأبيض للقاء الرئيس المنتهية ولايته والسيدة الأولى السابقة.<sup>11</sup>

كما انتقدت صحيفة «ديلي ميل» طريقة تعامل ترامب مع دخوله البيت الأبيض بعد التقاط الصورة مع عائلة أوباما. وذكرت الصحيفة البريطانية أن الرئيس المنتخب «اندفع عبر الباب الأمامي، تاركاً ميلانيا برفقة الرئيس السابق والسيدة الأولى».<sup>12</sup>

لكن الرئيس أوباما والسيدة ميشيل لم يترددا لحظة؛ إذ تقدما ليمسكا بذراع السيدة الأولى المرتقبة، بينما لم يفعل زوجها ذلك. وعندما بسطت السيدة ترامب يدها لمصافحة

السيدة أوباما، انحنّت السيدة الأولى المنتهية ولايتها لاحتضان السيدة القادمة، وقبّلتها على خديها. هذا اللطف يبرز أكثر عندما نأخذ في الاعتبار أن دونالد ترامب كان من أكبر مروّجي شائعة أن الرئيس أوباما لم يُولد في أمريكا، وهو مجرد واحدٍ من عدة إجراءات كان من الممكن أن يعترض عليها الرئيس المنتهية ولايته والسيدة الأولى. ولكن كما قالت السيدة ميشيل مرارًا وتكرارًا — وأظهرت ذلك مرارًا وتكرارًا — «عندما ينحدرون، نرتفع». تُلقِي رؤية السيدتين الأولى، القادمة والمغادرة، ميلانيا ترامب بفستانها الأزرق الباهت مع قفازات زرقاء باهتة متناسقة، وميشيل أوباما بفستانها الأحمر ذي الحزام من تصميم جيسون وو، وهما تقفان جنبًا إلى جنب، وذراع كلٍّ منهما حول خصر الأخرى لالتقاط صورة «التسليم» الضوء على طريقةٍ أخرى لتواصل السيدة أوباما مع الناس. فرغم بساطة الأمر، إلا أن الملابس والإكسسوارات وتسريحات الشعر جذبت الناس إليها، وفي كثيرٍ من الأحيان جعلتهم يرغبون في تقليدها. وكما كتبت ليا بورن في مقالها «7 طرق لا جدال فيها غيّرت بها ميشيل أوباما طريقة لباسك»، المنشور في مجلة «جلامور»، «ما جعل أوباما رمزًا قويًا للأناقة خلال فترة وجودها في البيت الأبيض هو التلميح الذي وجّهته ملابسها للنساء في كل مكان: أنت أيضًا يمكنك أن تكوني بهذه الروعة».<sup>13</sup>

بالنسبة للشركات التي صمّمت ووزعت الملابس التي اختارت السيدة ميشيل ارتداؤها، فإن هذا «التلميح» قد يُعد ثروة. في دراسةٍ لمجلة «هارفارد بيزنس ريفيو»، قام ديفيد يرمك، أستاذ المالية في كلية ستيرن للأعمال بجامعة نيويورك، بفحص ١٨٩ زياً ارتدتها السيدة ميشيل بين نوفمبر ٢٠٠٨م وديسمبر ٢٠٠٩م. وفي الوقت نفسه، تتبّع يرمك أداء أسهم الشركات المصنّعة لتلك الأزياء، وكانت نتائجه مذهلةً للغاية. قال يرمك: «كان من اللافت للنظر حقًا مدى تأثير السيدة ميشيل على صناعة الموضة أكثر من أي شخصية مشهورة أخرى تقريبًا في سياقٍ تجاري مماثل». وأضاف: «سيكون هذا أمرًا دائمًا. لن تنخفض أسعار الأسهم في اليوم التالي. لذا، بالنسبة لشركة عادية في مناسبة عادية، فإن ارتداء السيدة ميشيل لملابسها سيترجم لقيمة سوقية تقدّر بحوالي ٢٨ مليون دولار أمريكي».<sup>14</sup> أدى ذوق السيدة ميشيل في الأناقة — ورجبة الناس في تقليده — إلى عوائد تجاريةٍ أخرى أيضًا. خلال سنواتها في البيت الأبيض، أسهمت في بيع عددٍ لا يُحصى من المجلات التي اختارت وضع صورتها على أغلفتها، وكان ذوقها في الموضة موضوعًا لأربعة كتب على الأقل: «أيقونة يومية: ميشيل أوباما وقوة الأناقة» لكيت بيتس؛ «ميشيل أوباما: السيدة الأولى للموضة والأناقة» لسوزان سويمر؛ «قائدة في الأناقة: دليل كل امرأة لإدارة أناقتها كالسيدة الأولى» لميكي تيلور؛ «السيدة أو: وجه ديمقراطية الموضة» لماري بيون.

قد يُثير تغيير تسريحة الشعر ضجةً في صالونات تصفيف الشعر في جميع أنحاء البلاد، كما حدث عندما ظهرت السيدة الأولى في حفل تنصيب زوجها الثاني متأقّة بما عُرف سريعاً باسم «غرة أوباما». وبالمثل، أشعلت، بمفردها تقريباً، نهضةً في فساتين الـ «شيت» بدون أكمام، وأعدت صيحة سترات الكارديجان، وجعلت من «إطالة الحزام» رائجة. غالباً ما كانت تختار الأحذية المسطحة على الأحذية ذات الكعب العالي، وكانت تُفضل «المجوهرات اللافتة»، مثل سلسلة من الخرز الكبير تُبرز فستاناً أحادي اللون (مع العلم أنها لم تكن تُبدع في النقوش أيضاً). ولعل الأهم من ذلك كله، أنها دعت النساء إلى تقبل أجسادهن والعناية بها، مُقدمةً قدوةً حسنة بالاستيقاظ باكراً كل صباح، أحياناً في الساعة ٤:٣٠ أو ٥:٠٠، لممارسة الرياضة قبل مساعدة بناتها على الاستعداد للمدرسة. وقد اقتدت النساء في جميع أنحاء البلاد بالتزامها باللياقة البدنية وروتينها الرياضي؛ حيث رغبن، مرةً أخرى، في أن يُشبهن السيدة الأولى. (كانت زراعاها المشدودتان، كما نعلم، صفةً مرغوبةً جداً، ويمكنك العثور على عددٍ كبيرٍ من تمارين ميشيل أوباما على الإنترنت.) كانت النساء اللواتي سَعين إلى تقليدها من جميع الأشكال والأحجام والأعمار والأعراق والمعتقدات.

ومن المفارقات إذن أن مظهر السيدة الأولى — وليس ما فعلته — هو ما أثار غضب منتقديها. على الرغم من أن السيدة الأولى جاكلين كينيدي ارتدت عدداً كبيراً من الفساتين الضيقة بدون أكمام خلال سنوات وجودها في البيت الأبيض، إلا أن قيام ميشيل أوباما بالشيء نفسه بعد ٤٠ عاماً أثار غضباً واسعاً. لاحظت تانيشا سي فورد في مقالها «هي تقتل»، أحد مقالات كتاب «جوهر ميشيل: ١٦ كاتبةً عن السيدة الأولى الأيقونية وكيف تُلهم رحلتها رحلتنا»، أن «وسائل الإعلام المحافظة جُنّت، وكتبت قصصاً عن زراعي السيدة الأولى». وُصفت زراعاها بأنهما «كثيرتا العضلات وذكوريتان للغاية»، و«انزعج المنتقدون من رؤية أوباما، المهتمة بصحتها، وهي تؤدي تمارين الضغط علناً للترويج لحملتها لمكافحة سممة الأطفال، «هيا نتحرك!»». ووفقاً لفورد، فإن قوة السيدة ميشيل وطولها جعلها تبدو «قوية ومسيطرة بشكلٍ مفرط، بل تكاد تكون مخيفة»، وإن التركيز على زراعيها فتح الباب أمام نقاشات «حول جسدها بالكامل وكيف يبدو في غير مكانه في البيت الأبيض».<sup>15</sup>

وكانت هناك العديد من الإهانات الأخرى المتعلقة بالمظهر. في إحداها التي لا تُنسى، وصفت بامبلا تيلور، مديرة منظمة غير ربحية في كلاي بفيرجينيا الغربية، السيدة ميشيل

بأنها: «قردة ترتدي حذاءً بكعبٍ عالٍ» وذلك على «فيسبوك». في النهاية، طُرِدَت المرأة، بامبلا تيلور، من وظيفتها، ولكن فقط بعد أن علَّقت عمدة المدينة قائلة: إنها «أسعدت يومي» بهذا المنشور. في النهاية، استقالت العمدة، بيفرلي ويلينج.<sup>16</sup> وصفها مُقدِّم البرامج الحوارية المحافظ راش ليمبو بـ «ميشيل، مؤخرتي»، وشبَّهها آخرون بشخصية من فيلم «كوكب القرد»، و«ووكي» من «حرب النجوم»، وبالغوريلا أيضاً، وهي إهانةٌ عنصرية ذات تاريخٍ طويل وقبيح، كما كتب بيتر سليفين في صحيفة «واشنطن بوست».<sup>17</sup>

وبالطبع، لم يكن مظهرها فقط هو ما جعلها هدفاً. فعندما أدلت السيدة ميشيل بتعليقاتها حول العرق أمام طلاب جامعة توسكيجي، رأت لورا إنجراهام، مقدمة البرامج الحوارية، المحافظة، «سلسلة من الانتقادات اللاذعة»، كما كتب سليفين. «امتلأت منديتات التعليقات الإعلامية بالحديث عن «خطابات لاذعة» و«كارهة لأمريكا» و«امرأة غاضبة لا تُقدَّر النعم الكثيرة التي منحها إياها بلدنا». وكتب أحدهم: «هل يُمكن لها أو لزوجها أن يكونا أمريكيين فقط؟ لماذا يُركزان دائماً على لون بشرتهما؟ أمرٌ مقزز».<sup>18</sup> عندما سألتها صديقتها أوبرا وينفري خلال مقابلةٍ صيفيةٍ قبل مغادرتها البيت الأبيض عن كيفية تعاملها مع «الكارهين»، أجابت ميشيل بأنها لا تُبالي. بل إنها تُركز على قائمة مهامها الخاصة:

عندما وصلتُ إلى هذا الدور، قلتُ ببساطة: دعيني أكن السيدة الأولى. دعيني أستيقظ كل يوم وأعمل بجد لأفعل شيئاً ذا قيمة، وأن أتقنه، وأن أفعل شيئاً ذا تأثير، شيئاً أهتم به، ثم أترك كل ذلك يتحدث عن نفسه. هذا من شأنه أن يُسكت الكارهين؛ لأنني سأمتلك قائمةً طويلةً من الأعمال التي تُعرِّفني؛ لأن هذا ما فعلته، وليس ما تتعوتوني به.

قالت السيدة ميشيل: «العمل الجيد هو أفضل انتقام. لست مضطرة لقول أي شيء للكارهين. لست مضطرة للاعتراف بهم على الإطلاق. ما عليك سوى الاستيقاظ كل صباح وإظهار أفضل ما لديك، وهذا يُسكتهم».<sup>19</sup> وإلحياً ذكرى انتهاء فترة ولايتها كسيدة أولى، طلبت مجلة «تي» التابعة لصحيفة «نيويورك تايمز» من أربعة كُتَّاب و/أو شخصيات عامة كتابة رسائل شكر للسيدة أوباما، التي أمضت السنوات الثماني الماضية بهدوء وثقة تُغير مجرى التاريخ الأمريكي». فكما

رأينا في الفصل السابق، كتبت جلوريا ستاينم عن الطريقة التي جسدت بها السيدة الأولى زوجها الحب والاحترام والشراكة. وكتبت الكاتبة شيماماندا نجوزي أديتشي عن كيف أن السيدة ميشيل «قالت عن نفسها إنها أم في المقام الأول، مُتخفية تحت هذا اللقب غير المُهدد، وفعلت ما تُحب»، في حين جعلت لقب السيدة الأولى «يعني شخصاً ودوداً، شخصاً طبيعياً وملهماً، شخصاً يتمتع بدرجاتٍ مُتفاوتة من الهدوء». كتب المؤرخ الرئاسي جون ميتشام عن كيفية نجاح السيدة الأولى ليس فقط في «الصمود أمام التدقيق»، بل في «التغلب» عليه. وقال إنها فعلت ذلك «بإيجادها ذلك الشيء الأكثر مراوغة: التوازن»، و«رعاية حديقته الخاصة»، و«تركها البيت الأبيض وهي شخصية قوية وشعبية تتمتع بعمر من حسن النية وثروة هائلة تعتمد عليها في كتابة فصول حياتها القادمة هي وزوجها».

وأخيراً، كتبت الممثلة والكاتبة رشيدة جونز أن ميشيل أوباما تخاطب النساء في كل مكان وتحدث إليهن:

إذا كان هدف النسوية هو تكافؤ الفرص والخيارات، فإن ميشيل تجعلني أشعر بأن كل خيار متاح. يمكنكِ الدراسة في برينستون وهارفارد، وغناء الراب مع ميسي إليوت، وأن تكوني أمًا ومحاميةً وخطيبةً بارعة. يمكنكِ دعم قانون ليلي ليدبيتر للأجور العادلة، مع الاهتمام بالموضة في الوقت نفسه. يمكنكِ الرقص مع إيلين، وتذكير الناس، على الهواء مباشرة، بحقيقة وضعكِ ... يمكنكِ أن تكوني شريكة زوجكِ وداعمته، وأن تستخدمِي رصيدكِ الثقافي والسياسي في حملة هيلاري كلينتون، مواجهةً بثباتٍ خصمها المتسلط الذي يُكثر من الكلام في غرف تبديل الملابس، بصرخة «كفى!» — مُعبرةً ببلاغةٍ عما كان يشعر به الكثيرون، وأنا منهم.

قالت جونز إن ميشيل أوباما «سيكون لها إرثها الخاص، منفصلاً عن إرث زوجها»، وإن هذا الإرث سيكون «كونها أول سيدة أولى تُظهر للنساء أنهن لسن مضطراتٍ للاختيار، وأنه لا بأس أن يكنَّ كل شيء».

وهذا مثالٌ أخير، غير تقليدي، على ما جعلتنا نشعر به ميشيل أوباما، السيدة الأولى. في أواخر مارس ٢٠١٨م، بدأت صورة من إنستجرام بالانتشار على الإنترنت. تُظهر الصورة جانب رأس رجل وقد نُقش وجهٌ عليه. اتضح أن صاحب الرأس، نولان بيك، وهو

مصممٌ بصري في كليفلاند، قد ذهب إلى نيك كاستيلانوس، مصفف شعر ليبرون جيمس، وطلب منه أن تُنقش صورته المفضلة لميشيل أوباما على رأسه.

وقال لـمَجلة «ماري كلير»: «اخترتُ ميشيل لأنها من أكثر الشخصيات أناقةً ورُقياً في نظر الجمهور». إنها قوية، وذكية، ومرحة، وملهمة. وأضاف بيك أنه لطالما كان من معجبي عائلة أوباما، مُعجباً بـ «هدوئهم ومرونتهم» لأنهم «يتعاملون مع كل شيء برشاقة ورُوح دعابة ... صفتان أحاول تقليدهما كل يوم». كما قال مازحاً، إن الصورة التي اختارها، والطريقة التي طبَّقها بها كاستيلانوس على رأسه، «تبدو وكأنها تهمس في أذني.»

على الرغم من أنه، على عكس ظاهرة «غرة أوباما»، من المُرجح أننا لن نرى الكثير من تسريحات الشعر المُستوحاة من ميشيل أوباما مثل تسريحة السيد بيك، إلا أننا نتخيل أنه ليس الوحيد الذي يأمل أن تُواصل السيدة الأولى السابقة الهمس في أذنه.



## الفصل الخامس عشر

# ماذا بعد؟

### الدور الأهم

ربما بدا همس السيدة ميشيل خافتاً بعض الشيء خلال تلك السنة الأولى بعد مغادرة البيت الأبيض. فمن المعتاد أن يختفي الرؤساء والسيدات الأوائل المغادرون عن الأضواء لفترة، مانحين خلفاءهم الوقت والمساحة للتكيف مع واقعهم الجديد. كما أنها فرصة للزوجين الأولين المغادرين لأخذ إجازةٍ مستحقةٍ من الحياة تحت المجهر، فضلاً عن مسؤولياتهما الجسيمة التي لا هواده فيها.

كنا نعلم، الأمور ستكون هادئة لأن السيدة ميشيل أخبرتنا بذلك. الساعة ١٣:٥ مساءً في يوم التنصيب، وبينما كان آل ترامب يستعدون لحفل التنصيب، غرّدت michelleobama @ قائلة: «بعد ثماني سنواتٍ استثنائيةٍ، سأخذ استراحةً قصيرة. سأعود قبل أن تشعروا بذلك للعمل معكم في القضايا التي تهمننا.»<sup>1</sup> ثم انطلقت السيدة الأولى السابقة مع زوجها، الرئيس السابق، في سلسلة من المغامرات حول العالم، بدأت ببضعة أيام في بالم سبرنجز، كاليفورنيا، تلتها زيارة إلى جزر فيرجن البريطانية.

وعلى مدار الأشهر القليلة التالية، شوهد آل أوباما في مجموعة من الجزر حول العالم، من إندونيسيا إلى بولينيزيا الفرنسية إلى هاواي، وغيرها من المواقع الغريبة، وكان يتخلل رحلاتهم قضاء وقت في منزلهم الجديد في حي كالوراما بواشنطن العاصمة. تابعت مغامراتهم بشكلٍ رئيسي من خلال الصور ومقاطع الفيديو؛ على سبيل المثال، عرضت علينا محطة تلفزيونية في تاهيتي لمحة عن ميشيل أوباما وهي تمارس رياضة التجديف في بولينيزيا الفرنسية،<sup>2</sup> بينما انتشرت مقاطع فيديو وصور لزوجها وهو يمارس رياضة ركوب الأمواج الشراعية في جزر فيرجن البريطانية انتشاراً واسعاً.<sup>3</sup>

من حين لآخر، كان صوت السيدة الأولى السابقة يصل إلينا أيضًا، عادةً عندما تعود إلى منصة في الولايات المتحدة — على حد تعبيرها — «للعمل معكم في القضايا التي تهمننا». كان هناك خطابها في المؤتمر السنوي للمعهد الأمريكي للهندسة المعمارية في أبريل ٢٠١٧م، تلاه ظهورها في قمة الشراكة من أجل أمريكا أكثر صحة في مايو، واحتفال مؤسسة المرأة في كولورادو بالذكرى الستين لتأسيسها في يوليو، ومؤتمر بنسلفانيا للمرأة في أكتوبر، وقمة مؤسسة أوباما في نوفمبر.

عادت أيضًا إلى «تويتر»، مُقدمةً لنا لمحاتٍ دوريةً وموجزةً عن أنشطتها. كانت التغريدة الأولى، التي نُشرت في ١٤ فبراير، مصحوبةً بصورةً لقدمين — يُفترض أنهما قدما السيدة الأولى والرئيس السابق — على شاطئٍ رملي، مع الرسالة التالية: «عيد حب سعيد لحب حياتي ورفيق جزيرتي المفضل، @barackobama. #valentines».<sup>4</sup> بعد بضعة أسابيع، واحتفالًا بشهر التاريخ الأسود، نشرت صورةً لها تحت لافتةٍ كُتِب عليها «ملون» تتحدث إلى شابةٍ تحت لافتةٍ كُتِب عليها «أبيض». غرّدت قائلةً: «أتذكر أولئك الذين جعلوا أعلام اليوم ممكنة». لن أنسى أبدًا. لن أتوقف أبدًا عن تكريم إرثهم. #شهر\_التاريخ\_الأسود #BlackHistoryMonth».<sup>5</sup> بعد خمسة أيام، قامت السيدة الأولى السابقة بزيارة مفاجئة إلى فصلٍ دراسي في واشنطن العاصمة، وغرّدت قائلةً: «أستمع دائمًا بزيارة مدارس العاصمة. شكرًا لكم على استضافتي اليوم @BallouSTAY. قصص الطلاب الذين يسعون إلى تحقيق أهدافهم لا تزال تُلهمني».<sup>6</sup>

إذا فتتكم رؤية السيدة الأولى السابقة أو سماع أخبارها كثيرًا أو بانتظام، فأنت لست وحدك. حتى قبل تنصيب ترامب، نشرت صحيفة «جارديان» افتتاحية بعنوان «نظرة الجارديان إلى ميشيل أوباما: أفتقدها بالفعل».<sup>7</sup> نشر موقع Scarymommy.com، وهو موقع شهير متخصص في شؤون الأبوة والأمومة، مقالًا بعنوان «٩ أسباب تجعلني أفتقد ميشيل أوباما بالفعل»<sup>8</sup>، وبعد عام واحد بالضبط من مغادرتها هي وزوجها البيت الأبيض، نشرت مجلة «إسنس» مقالًا بعنوان «نفتقد ميشيل أوباما: إليكم جميع المرات التي رأينا فيها السيدة الأولى السابقة في عام ٢٠١٧م».<sup>9</sup>

ولكن حتى مع افتقادنا لرؤية ميشيل أوباما يوميًا، نكّرنا بأنها ستعود. وتماشياً مع تنصيبها، في تغريدة لها يوم ١١ مايو، قطعت وعدًا في قمة الشراكة من أجل أمريكا أكثر صحة: «لم نرحل؛ نحن فقط نتنفس. علينا أن نبني حياتنا الجديدة».<sup>10</sup> بالنظر إلى ما تعلمناه عن ميشيل أوباما على مرّ السنين، كان ينبغي أن ندرك أن «التنفس فقط» و«البدء بحياتنا الجديدة» ربما كانا يعنيان أكثر من مجرد الاسترخاء على

الشاطيء في سلسلة من الجزر النائبة، والعودة دورياً للاطمئنان على أحوال الوطن. فمن ناحية، كان على كلٍّ من الرئيس السابق والسيدة الأولى مهمةً رئيسيةً في قائمة مهامهما خلال عطلتهم الرعوية في الجزر (التي لا بد أنها لم تكن فارغة قط): كتابة مذكراتهما.

كما علمنا في مارس ٢٠١٧م، وقّع آل أوباما اتفاقية لكتابة مذكراتهما مع دار نشر كراون، التابعة لدار نشر بنجوين راندوم هاوس. وفقاً لصحيفة «فاينانشال تايمز»، بلغ العرض الفائز بالمذكرات المشتركة ٦٥ مليون دولار أمريكي، مع أن مصادر أخرى قدرت المبلغ بعشرات الملايين من الدولارات. على أي حال، إنه مبلغٌ ضخم؛ إذ يراهن الناشر على أن القراء في جميع أنحاء العالم يتوقون لسماع القصة الكاملة مباشرةً من مصدرها.<sup>11</sup>

بعد مرور عام تقريباً، وربما بعد أن فرغت من الكتابة، أعلنت ميشيل أوباما عبر «تويتر» عن قرب صدور كتابها «وأصبحت»، مذكراتها، الذي كان من المنتظر وصوله إلى المكتبات في نوفمبر ٢٠١٨م. غردت السيدة الأولى السابقة في ٢٥ فبراير قائلةً: تأليف «وأصبحت» تجربة شخصية عميقة. أتحدث عن جذوري وكيف وجدت فتاة من الجانب الجنوبي صوتها. أمل أن تلهم رحلتي القراء ليجدوا الشجاعة اللازمة لتحقيق ما يطمحون إليه. أتطلع بشوق لمشاركة قصتي.<sup>12</sup>

يبدو أن العالم لا يطيق الانتظار أيضاً؛ فحتى منتصف أبريل، أُعيد نشر تغريدتها «وأصبحت» ٢٧٤٥٧ مرة على «تويتر»، وحاز ما يقرب من ١٥٠ ألف إعجاب. التوقعات عالية بأنه، دون قيود لقب السيدة الأولى، ستتمكن السيدة ميشيل من التحدث أكثر، بصوتها الفريد، عن كلٍّ من النجاحات والإخفاقات التي شهدتها سنواتها الثماني في البيت الأبيض. كيف كان شعورها وهي تتكلم على قضايا كانت تهتم بها بشدة، لكنها كانت «مثيرة للخلاف» لدرجة تمنعها من مناقشتها علناً؟ كيف كان شعورها وزوجها حقاً في ٢٠ يناير ٢٠١٧م، عندما اضطرراً إلى تسليم البيت الأبيض — والبلاد وإنجازاتهم التي تحققت بشقِّ الأنفس — لخلفائهما؟

يُقال إن عائلة أوباما تخطط للتبرع ببعض عائدات كتاب «وأصبحت» وأياً كان الاسم الذي سيطلقه الرئيس السابق على مذكراته، التي ستصدر لاحقاً، لمنظمات غير ربحية. وفقاً لمجلة «فانيتي فير»، سيتم التبرع بمليون نسخة من كتاب «وأصبحت» لمؤسسة «فيرست بوك»، وهي منظمة تعليمية غير ربحية تدعم توفير مواد القراءة للأسر ذات الدخل المحدود. ومن المتوقع أيضاً أن يتبرع آل أوباما بـ «جزء كبير» من عائدات مذكرات

ميشيل وأوباما لمؤسسة أوباما، التي تأسست عام ٢٠١٤م برسالة تُشبه رسالة أوباما تمامًا: «إلهام الناس وتمكينهم من تغيير عالمهم».<sup>13</sup>

بالإضافة إلى الكتابة عن رحلاتهم الشخصية، يجد آل أوباما طرقًا لاستخدام وسائل الإعلام الجديدة لإيصال أصوات الآخرين. ففي مايو ٢٠١٨م، أعلن الرئيس السابق أوباما عن إنشاء شركة «هاير جراوند برودكشنز»، وهي اتفاقية إنتاج متعددة السنوات مع نتفليكس، ستسمح للزوجين السابقين بإنتاج برامج تلفزيونية وأفلام تُبث عبر الإنترنت.<sup>14</sup> قال إريك شولتز، كبير مستشاري الرئيس السابق: «لطالما آمن الرئيس أوباما والسيدة ميشيل بقوة سرد القصص في الإلهام». طوال حياتهما، أسهما في نشر قصص أشخاص أحدثت جهودهم فرقًا جيدًا في هذا العالم. وبينما يُفكران في خططهما المستقبلية، يواصلان استكشاف طرق جديدة لمساعدة الآخرين على سرد قصصهم ومشاركتها.<sup>15</sup>

مع حوالي ١١٨ مليون مشترك حول العالم، ستوفّر نتفليكس منصةً عالميةً للرئيس السابق والسيدة الأولى لمواصلة الدفاع عن الأفكار والقضايا التي يؤلونها اهتمامًا بالغًا. كما يُمكن أن تُتيح فرصةً للتصديّ لبعض المعلومات المُضلّلة التي أتاحها تقديم الأخبار في عصر الإنترنت.<sup>16</sup>

في بيان صدر عند الإعلان عن صفقة نتفليكس، قال الرئيس السابق إن إحدى «متع الحياة البسيطة» في الخدمة العامة هي فرصة سماع قصص الناس. وقال: «لهذا السبب، أنا وميشيل متحمسان للغاية للشراكة مع نتفليكس». نأمل في رعاية الأصوات الموهوبة والملهمة والمبدعة القادرة على تعزيز التعاطف والتفاهم بين الشعوب، ومساعدتهم على مشاركة قصصهم مع العالم أجمع.<sup>17</sup>

كما سيواصل آل أوباما ترسيخ حضورهم من خلال عمل مؤسسة أوباما. وتقول مؤسسة أوباما على موقعها الإلكتروني: «من القادة الذين يُحدثون بالفعل تأثيرًا إلى الأشخاص المهتمين بمزيد من المشاركة، ولكنهم لا يعرفون من أين يبدأون، هدفتنا هو جعل برامجنا في متناول الجميع، في أي مكان. سنزود المبتكرين المدنيين، والقادة الشباب، والمواطنين العاديين بالمهارات والأدوات التي يحتاجون إليها لإحداث تغيير في مجتمعاتهم».<sup>18</sup>

في يوم مغادرتها البيت الأبيض، نشر الرئيس المنتهية ولايته والسيدة الأولى فيديو وداعيًا شكروا فيه المواطنين على «منحنا هذا الشرف العظيم لخدمة البلد الذي نحبه». كما دَعُوا إخوانهم الأمريكيين للانضمام إليهم في عملهم مع مؤسسة أوباما، طالبين منهم

إرسال «أفكاركم وآمالكم ومعتقداتكم حول ما يمكننا القيام به معًا». وقال الرئيس السابق: «إن العمل على إتقان اتحادنا لن ينتهي أبدًا، ونتطلع إلى الانضمام إليكم في هذا الجهد كمواطنين».<sup>19</sup>

في ٣١ أكتوبر و١ نوفمبر ٢٠١٧م، استضاف آل أوباما أول قمة لمؤسسة أوباما؛ إذ استقبلوا ٥٠٠ من قادة المجتمع المدني من جميع أنحاء العالم في شيكاغو؛ حيث يجري بناء مركز أوباما الرئاسي في الجانب الجنوبي، موطن ميشيل. استفاد المشاركون من الأفكار التي شاركها الآخرون، واستغلوا القمة لمناقشة مجموعة من المواضيع، بدءًا من كيفية إلهام الشباب للمشاركة المدنية، ووصولًا إلى سبل استخدام التكنولوجيا لبناء مجتمعاتٍ عادلة وشاملة. كما استغلوا المناسبة لإعادة إحياء الأمل، بحفلٍ ختامي افتتحته أندرا داي بأغنيتها الحماسية «رايز أب»، تلتها نخبة من النجوم، منهم تشانس ذا رابر، وكومون، ولين مانويل ميراندا، وبراندي كارليل، وجلوريا إستيفان، وناس، وغيرهم، مما دفع أحد الحضور إلى كتابة ما يلي: «في وقتٍ يبدو فيه الأمل والمنطق والطف في تضائل، شعرنا جميعًا بالتفاؤل الليلة الماضية ... لقد أثبتت القمة وجود أشخاص وبرامج ومجتمعاتٍ طيبة تعمل معًا من أجل مستقبلنا. من أجل مستقبل أطفالنا. أريد أن أكون جزءًا من ذلك».<sup>20</sup>

هذه كانت الفكرة. في مؤتمرٍ لمنظمة يابانية غير ربحية عُقد في طوكيو بعد خمسة أشهر، تحدّث الرئيس السابق عمّا تعلّمه منذ مغادرته البيت الأبيض؛ حيث عمل جنبًا إلى جنبٍ مع زوجته على تأسيس مؤسسة أوباما. وقال: «بعد مغادرتي لمنصبي، أدركتُ أن مؤسسة أوباما قادرةٌ على إنشاء مناصبٍ للقادة الشباب الواعدين، سواء في الولايات المتحدة أو في جميع أنحاء العالم، للالتقاء معًا، وإنشاء مناصبٍ رقميةٍ حيث يمكنهم تبادل المعلومات.» لو استطعتُ فعل ذلك بفعالية، لصنعتُ مائة، أو ألفًا، أو مليون شابٍّ مثل باراك أوباما أو ميشيل أوباما.<sup>21</sup>

كما تصادف عقد مؤتمر طوكيو في ٢٥ مارس، بعد يومٍ واحدٍ من إلهام الحركة الشبابية ضد العنف المسلح لأكثر من مليون شخص – وربما ثلاثة ملايين – للمشاركة في مسيرة من أجل حياتنا في واشنطن العاصمة، أو فعالياتها المماثلة في جميع أنحاء العالم.<sup>22</sup>

وقدّم أوباما تحيةً لطلاب مدرسة مارجوري ستونمان دوجلاس الثانوية الذين قادوا الحركة، ولن ساروا على نهجهم. وقال: «كل هذا بفضل شجاعة وجهد حفنةٍ من الشباب

الذين تتراوح أعمارهم بين ١٥ و ١٦ عامًا، الذين تحملوا المسؤولية التي غالبًا ما يغفل عنها الكبار في محاولة إيجاد حل.» أعتقد أن هذا دليل على ما يحدث عندما تُمنح الفرص للشباب، وأعتقد أن على جميع المؤسسات أن تفكر في كيفية استغلال هذا الإبداع وتلك الطاقة وذلك الدافع.<sup>23</sup>

خلال مسيرات «من أجل حياتنا» المتنوعة، كان بإمكانك تحيّل قادة الطلاب والمتحدثين والحضور وهم يجسدون ميشيل أوباما. عندما صعدت إيما جونزاليس، الطالبة في السنة الأخيرة في مدرسة مارجوري ستونمان دوجلاس، إلى المنصة بشجاعة في تجمّع واشنطن العاصمة، قرأت أسماء زملائها ومعلميها السبعة عشر الذين فقدوا أرواحهم في المذبحة التي وقعت في مدرستها، ثم وقفت صامتة، والدموع تنهمر على وجهها، لمدة أربع دقائق و٢٦ ثانية مؤلمة؛ وهي المدة التي استغرقتها المسلح لإزهاق تلك الأرواح في هجومه العنيف. تخيلوا الشجاعة والتصميم اللذين استجمعتهما. كم كان من الأسهل عليها أن تستلقي في وضعية الجنين. هل تذكرن كلمات ميشيل أوباما الأخيرة قبل مغادرة البيت الأبيض؟ «لذا لا تخافوا. هل تسمعونني أيها الشباب؟ لا تخافوا. احتفظوا بتركيزكم الدائم. كونوا عازمين. كونوا متفائلين. كونوا قادرين. مكّنوا أنفسكم بتعليم جيد. ثم انطلقوا، واستخدموا هذا التعليم لبناء بلدٍ جدير بوعودكم اللامحدودة. كونوا قدوة بالأمل. لا تخافوا.»

في واحدة من ثمانمائة فعالية تابعة لـ «مسيرة من أجل حياتنا»، التي أقيمت بالقرب من مسقط رأسى في كونيتيكت، كانت صديقة شابة شجاعة واحدة من المتحدثين الشباب الأربعة المميزين. كانت آخر من تحدث، وأصغرهم، في التاسعة من عمرها. صعدت على المنصة — أو بالأحرى، المنصة المؤقتة للحدث، طاولة زهرة خشبية — بينما كانت مجموعة صغيرة من المتظاهرين على الجانب الآخر من الشارع يستخدمون مكبر صوت ليهتفوا «ابنوا هذا الجدار» و«ترامب»، أخبرت هذه الشخصية القوية التي يبلغ طولها أربعة أقدام جمهورها أنها تريد التحدث عن ثلاثة أمور: كيف كان النشاط الطلابي «دائمًا جزءًا من كل حركة اجتماعية رئيسية وداعمًا للمساواة» في بلدنا؛ وكيف، وهي في الصف الرابع، لا تتذكر وقتًا لم تكن فيه تُجري تدريبات السلامة وعمليات الإغلاق في المدرسة؛ وكيف أن «السود والملونين أكثر عرضة لخطر القتل في عنفٍ مسلح على يد أشخاص يُفترض أنهم يحموننا».<sup>24</sup>

ضربت صديقتي، وهي سوداء، مثال روبي بريدجز، التي «كانت في السادسة من عمرها فقط عندما التحقت بمدرسة عنصرية للبيض بالكامل من أجل دمجها». قالت إنه

في السادسة من عمرها، «أصبحت روبي ناشطةً طلابية. كان الجميع في العالم يراقبها». ثم وصفت كيف أخرج آباء الطلاب البيض أطفالهم من المدرسة لأنهم لم يريدوا أن «يتعلموا مع فتاة سوداء صغيرة — فتاة سوداء صغيرة مثلي». وتحدثت عن مثابرة روبي، وكيف قاد أطفالٌ آخرون من السود الطريق بمرور الوقت في النضال من أجل العدالة العرقية والاجتماعية، في أماكن مثل فيرجسون وبالتيمور وهيوستن.

تابعت قائلة: «للأسف، لم يتعرف الناس على أصوات جميع الطلاب بالتساوي، والكبار لا ينتبهون دائمًا لما لا يريدون سماعه». ثم توقفت صديقتي الصغيرة، ولكنها القوية، واستدارت قليلًا على مقعدها على طاولة النزهة، وأشارت إلى الناس في الجهة المقابلة من الشارع، مما أثار هتافًا من جمهورها ودفعهم للصرخ بصوت عالٍ: «ابنوا هذا الجدار!» من الجانب الآخر من الطريق.

لم تتردد لحظة، وواصلت كلامها، متحدثت عن وفيات الأطفال والبالغين السود بسبب العنف المسلح، غالبًا على أيدي الشرطة، واختتمت حديثها بدعوة جمهورها، الذي يكاد يكون حصريًا من البيض، للانضمام إليها من خلال الالتزام بدعم الأطفال السود وغيرهم من الأطفال الملونين. سألت: «بعد اليوم، هل ستتذكرون أن الأطفال السود ليسوا بالغين؟» «هل ستناضلون من أجل السود والملونين أيضًا؟ هل ستخذون إجراءً مباشرًا حتى ينشأ الأطفال السود مثلي أحرارًا؟»

«نعم!» ردَّ جمهورها بصوت عالٍ، وطغى تصفيقهم وهتافهم على هتاف «ترامب». وأنت تشاهد هذه الطفلة ذات السنوات التسع وهي تنطق بالحقيقة، حتى في وجه معارضة مسلحة بمكبرات الصوت، كيف لك ألا تتذكر ميشيل أوباما ورحلتها؟ هل تذكرون الخطاب الذي ألقته قبل ١٠ سنواتٍ كاملة، في كلية بنديكت بولاية ساوث كارولينا، عندما حثت جمهورها، الذي كان أغلبه من السود، على الطموح والمغامرة؟ الخطاب الذي بدأ بعبارة: «نواجه في كل مكان أناسًا يتشككون في إمكانية تحقيق النجاح»، وانتهى بعبارة: «كما تعلمون، في كل مرة أخبرني فيها أحدهم: «لا، لا يمكنك فعل ذلك»، تجاوزت تشكيكهم واتخذت مكاني على الطاولة». أليست صديقتي الصغيرة، الواقفة على طاولة النزهة في فعالية «مسيرة من أجل حياتنا» في إيست هادام، كونيتيكت، هي من الذين كانت تتحدث ميشيل أوباما عنهم؟

في خطابه في طوكيو، في اليوم التالي لمسيرة «من أجل حياتنا»، أدلى الرئيس السابق بتصريحٍ بسيطٍ للغاية، ولكنه عميق جدًا. بعد أن شغل منصب «قائد العالم الحر» لثماني

سنوات، قال أوباما: «إن الدور الأهم الذي يمكنني الاضطلاع به هو المساعدة في تنمية الجيل القادم.»<sup>25</sup>

«الدور الأهم». بدأ باراك أوباما، القائد الأعلى السابق، يُشبهه إلى حدٍ كبيرٍ زوجته، ميشيل أوباما، الأم القائدة، التي كانت تُصرِّح بذلك منذ عَقد من الزمن. مرةً أخرى، كلماتها من الافتتاح الرسمي لحديقة البيت الأبيض في أكتوبر ٢٠١٦م:

لقد علَّمتنا هذه الحديقة أنه إذا امتلكننا الشجاعة لغرس بذرة، فلنكنَّ شجعاناً بما يكفي لزراعتها، ثم نرعاها، ونسقيها، ونهتَم بها، وندعو الأصدقاء لمساعدتنا في رعايتها، ونواجه العواصف التي تأتي لا محالة. إذا امتلكننا الشجاعة للقيام بذلك، فلن نعرف أبداً ما قد ينمو.<sup>26</sup>

حديقتك تنمو يا ميشيل أوباما. همساتك مسموعة.

# ملاحظات

## تمهيد

(1) Michelle Obama, interview by Larry King, Larry King Live, CNN, Feb. 11, 2008.

(2) E-mail from Michelle Obama at info@barackobama.com, Feb. 6, 2008.

(3) E-mail from Michelle Obama at info@barackobama.com, Feb. 6, 2008.

(4) Jessica Curry, "Looking Up to Mrs. Obama," New York Times, Mar. 12, 2018.

(5) Hanna Kozlowska, "Michelle Obama Brought Herself and Everyone Around Her to Tears with Her Final Speech as First Lady," Quartz, Jan. 6, 2017.

## مقدمة

(1) Michelle Obama, interview by Larry King, Larry King Live, CNN, Feb. 11, 2008.

(2) Paul Begala, interview by Larry King, Larry King Live, CNN, Feb. 11, 2008.

(3) Jamal Simmons, interview by Larry King, Larry King Live, CNN, Feb. 11, 2008.

(4) Michael Medved, interview by Larry King, Larry King Live, CNN, Feb. 11, 2008.

(5) Tim Hutchinson, interview by Larry King, Larry King Live, CNN, Feb. 11, 2008.

(6) warking27, comment posted after watching YouTube video of Feb. 11, 2008, Larry King Live interview with Michelle Obama. Available at [YouTube.com/watch?v=pyBc33UjvDU](http://YouTube.com/watch?v=pyBc33UjvDU).

(7) 12totok, comment posted after watching YouTube video of Feb. 11, 2008, Larry King Live interview with Michelle Obama. Available at [YouTube.com/watch?v=pyBc33UjvDU](http://YouTube.com/watch?v=pyBc33UjvDU).

(8) Michelle Robinson, "Princeton-Educated Blacks and the Black Community" (thesis, Princeton University, 1985, 2).

(9) Michael Powell, "Following Months of Criticism, Obama Quits His Church," New York Times, June 1, 2008.

(10) Christopher Hitchens, "Are We Getting Two for One?" Slate, May 5, 2008, [www.slate.com/id/2190589](http://www.slate.com/id/2190589).

(11) Barack Obama, interview by Robin Roberts, Good Morning America, ABC, May 19, 2008.

(12) Kate Harding, "Michelle Obama Watch," Broadsheet, Salon, June 13, 2008, [www.salon.com/mwt/broadsheet/2008/06/13/michelle\\_obama/index.html](http://www.salon.com/mwt/broadsheet/2008/06/13/michelle_obama/index.html).

(13) Andy Sullivan, "Laura Bush Defends Michelle Obama," Tales from the Trail blog, June 9, 2008, <http://blogs.reuters.com/trail08/2008/06/09/laura-bush-defends-michelle-obama>.

(14) John McCain, interview by Dana Bash, CNN, June 13, 2008. 18\_417-Lightfoot.indb 211 7/27/18 7:01 AM

(15) Roland S. Martin, "The Shameful Sliming of Michelle Obama," Creators Syndicate, June 13, 2008, [www.creators.com/opinion/roland-martin/the-shameful-sliming-of-michelle-obama.html](http://www.creators.com/opinion/roland-martin/the-shameful-sliming-of-michelle-obama.html).

(16) "Barack Obama and America's Moment," Times (London), June 4, 2008.

(17) "Obama's Victory Stirs Hope from Abroad," USA Today, June 6, 2008.

(18) Ibid.

(19) Frank Rich, "How Obama Became Acting President," New York Times, July 27, 2008.

(20) Michelle Obama, interview by Larry King, Larry King Live, CNN, Feb. 11, 2008.

(21) Christi Parsons, Bruce Jasper, Bob Sexter, "Barack's Rock: Michelle Obama," Chicago Tribune, Apr. 22, 2007.

(22) Richard Wolffe, "Barack's Rock," Newsweek, Feb. 25, 2008.

### الفصل الأول: انتزاع المكانة المستحقة

(1) The Colbert Report, Comedy Central, Apr. 15, 2008.

(2) Ibid.

(3) Jay Newton-Small, "Michelle Obama Finds Her Voice Too," Time, Jan. 24, 2008.

(4) David Mendell, Obama: From Promise to Power (New York: Amistad, 2007), 65.

(5) Barack Obama, The Audacity of Hope (New York: Three Rivers Press, 2006), 331.

(6) Linda Lowen, "Profile of Michelle Obama," About.com: Women's Issues, <http://womensissues.about.com/od/influentialwomen/p/MichelleObama.htm>.

(7) Peter Slevin, "Her Heart's in the Race," Washington Post, Nov. 28, 2007.

(8) Ibid.

(9) Ibid.

(10) Susan Saulny, "Michelle Obama Thrives in Campaign Trenches," New York Times, Feb. 14, 2008.

(11) Rosalind Rossi, "The Woman Behind Obama," Chicago Sun-Times, Jan. 20, 2007.

(12) Lauren Collins, "The Other Obama: Michelle Obama and the Politics of Candor," New Yorker, Mar. 10, 2008.

(13) Karen Springen, "First Lady in Waiting," Chicago Magazine, Oct. 2004.

(14) Rossi, "The Woman Behind Obama."

(15) Judy Keen, "Michelle Obama: Campaigning Her Way," USA Today, May 11, 2007.

(16) Saulny, "Michelle Obama Thrives."

(17) Rossi, "The Woman Behind Obama."

(18) Whitney M. Young Magnet High School, "About WMYHS," [www.wyoming.org/about\\_wymhs.jsp?rn=3760502](http://www.wyoming.org/about_wymhs.jsp?rn=3760502).

(19) Collins, "The Other Obama."

(20) Rossi, "The Woman Behind Obama."

(21) [www.wyoming.org](http://www.wyoming.org), "About WYMHS."

(22) Collins, "The Other Obama."

(23) Rossi, "The Woman Behind Obama."

(24) Whitney Young High School Press Release, "Whitney Young Celebrates 30 Years of Academic Excellence," Aug. 16, 2005. 18\_417-Lightfoot.indb 212 7/27/18 7:01 AM

(25) Richard Wolffe, "Barack's Rock," Newsweek, Feb. 25, 2008.

(26) Mendell, Obama, 96.

- (27) Wolffe, "Barack's Rock."
- (28) Newton-Small, "Michelle Obama Finds Her Voice."
- (29) Saulny, "Michelle Obama Thrives."
- (30) Slevin, "Her Heart's in the Race."
- (31) Associated Press, "Michelle Obama Vows First Job as First Lady Is Mother to Her Daughters," Aug. 5, 2008.
- (32) Obama, *The Audacity of Hope*, 330.
- (33) *Ibid.*, 350.
- (34) Michelle Obama, interview by Suzanne Malveaux, *Anderson Cooper 360*, CNN, Apr. 30, 2008.
- (35) Obama, *Audacity of Hope*, 331.
- (36) Leslie Bennetts, "First Lady in Waiting," *Vanity Fair*, Dec. 27, 2007.
- (37) *Ibid.*, 332.
- (38) *Colbert Report*, Apr. 15, 2008.

### الفصل الثاني: سنوات الجامعة

- (1) Evan Thomas, "Alienated in the U.S.A.," *Newsweek*, Mar. 13, 2008.
- (2) Sally Jacobs, "Learning to Be Michelle Obama," *Boston Globe*, June 15, 2008.
- (3) *Ibid.*
- (4) Princeton University, "Princeton Establishes New Center for African American Studies," news release, Sept. 18, 2006, [www.princeton.edu/main/news/archive/S15/85/91C70/index.xml?section=topstories](http://www.princeton.edu/main/news/archive/S15/85/91C70/index.xml?section=topstories).
- (5) Kelly Lack, "First African-American Alumni Remember Journey to Integration," *Daily Princetonian*, Feb. 18, 2008.
- (6) Massachusetts Foundation for the Humanities, "First African American Graduate of Harvard Born, Jan. 30, 1844," *Mass Moments*, [www.massmoments.org/index.cfm?mid=35](http://www.massmoments.org/index.cfm?mid=35).

(7) "At Yale, a Multicultural Society of Friends," College Digest, [www.collegedigest.com/The%20colleges/yale.html](http://www.collegedigest.com/The%20colleges/yale.html).

(8) Lisa Birnbach, *The Official Preppy Handbook* (New York: Workman Publishing, 1980), 85.

(9) F. Scott Fitzgerald, *This Side of Paradise* (New York: Scribner, 1920), 37.

(10) *Ibid.*, 43.

(11) Sarah Brown, "Obama '85 Masters Balancing Act," *Daily Princetonian*, Dec. 7, 2005.

(12) Jacobs, "Learning to Be Michelle Obama."

(13) Lauren Collins, "The Other Obama: Michelle Obama and the Politics of Candor," *New Yorker*, Mar. 10, 2008.

(14) Lisa Robinson, interview with author, July 24, 2008.

(15) Rebecca Johnson, "Michelle Obama Interview: I'm Nothing Special," *Telegraph*, July 26, 2008. 18\_417-Lightfoot.indb 213 7/27/18 7:01 AM

(16) Jacobs, "Learning to Be Michelle Obama."

(17) Michelle Obama Interview, "Michelle Obama's Passions: Wife, Mother, Intellectual, American Woman," *ABC News*, July 7, 2008.

(18) Brown, "Obama '85 Masters Balancing Act."

(19) Collins, "The Other Obama."

(20) *Ibid.*

(21) Richard Wolffe, "Barack's Rock," *Newsweek*, Feb. 25, 2008.

(22) Brian Feagans, "Georgian Recalls Rooming with Michelle Obama," *Atlanta Journal-Constitution*, Apr. 13, 2008.

(23) *Ibid.*

(24) *Ibid.*

(25) *Ibid.*

(26) *Ibid.*

- (27) Jacobs, "Learning to Be Michelle Obama."
- (28) Ibid.
- (29) Feagans, "Georgian Recalls Rooming with Michelle Obama."
- (30) Wolffe, "Barack's Rock."
- (31) Ibid.
- (32) Michelle Robinson, "Princeton-Educated Blacks and the Black Community" (thesis, Princeton University, 1985), iv.
- (33) Collins, "The Other Obama."
- (34) Robinson, "Princeton-Educated Blacks," 26.
- (35) Ibid., 2-3.
- (36) Ibid., 2-3.
- (37) Ben Macintyre, interview with author, July 13, 2008.
- (38) Lisa Robinson, interview with author, July 24, 2008.
- (39) Ibid.
- (40) Ibid.
- (41) Louise Ambler Osborn, interview with author, July 18, 2008.
- (42) Ibid.
- (43) Lauren Robinson-Brown, interview with author, July 31, 2008.
- (44) Michael Juel-Larsen and Josh Oppenheimer, "Professors Vote for Obama with Wallets," Daily Princetonian, Jan. 21, 2008.
- (45) Lauren Robinson-Brown, interview with author, July 31, 2008.
- (46) 1985 Princeton University yearbook.
- (47) Lauren Robinson-Brown, interview with author, July 31, 2008.
- (48) Juel-Larsen and Oppenheimer, "Professors Vote for Obama with Wallets."
- (49) Princeton: Defining Diversity (Princeton: Office of Communication, Princeton University, 2007), 44.
- (50) Ibid., 18.
- (51) Admissions office information session, July 25, 2008.

- (52) Princeton University, "Princeton Establishes New Center."  
(53) Ibid. 18\_417-Lightfoot.indb 214 7/27/18 7:01 AM  
(54) Robinson, "Princeton-Educated Blacks," 58.  
(55) Princeton University, "Princeton Establishes New Center."  
(56) Princeton: Defining Diversity, 24-25.  
(57) Robinson, "Princeton-Educated Blacks," 1-2.  
(58) Robinson, "Princeton-Educated Blacks," 64.  
(59) Louise Ambler Osborn, interview with author, July 18, 2008.  
(60) Barack Obama, Dreams from My Father (New York: Three Rivers Press, 1995).  
(61) Jacobs, "Learning to Be Michelle Obama."  
(62) Ibid.  
(63) Wolffe, "Barack's Rock."  
(64) Rosalind Rossi, "The Woman Behind Obama," Chicago Sun-Times, Jan. 20, 2007.  
(65) Susan Saulny, "Michelle Obama Thrives in Campaign Trenches," New York Times, Feb. 14, 2008.  
(66) Chris Szabla, "One Month to Go, Obama's Profs Rally for Victory," Harvard Law Record, Oct. 9, 2008.  
(67) Wolffe, "Barack's Rock."  
(68) Charlayne Hunter-Gault, book jacket, Dreams from My Father by Barack Obama.

### الفصل الثالث: العمل من أجل أن يصبح العالم على ما يجب أن يكون عليه

- (1) Rebecca Johnson, "Michelle Obama Interview: I'm Nothing Special," Telegraph, July 26, 2008.  
(2) Dan Slater, "Campaign '08: Michelle Obama's Sidley Austin Years," Wall Street Journal Law Blog, June 23, 2008, <http://blogs.wsj.com/law/2008/06/23/campaign-08-michelle-obamas-sidley-austin-years>.

- (3) Ibid.
- (4) Peter Slevin, "Her Heart's in the Race," Washington Post, Nov. 28, 2007.
- (5) Ibid.
- (6) Johnson, "Michelle Obama Interview."
- (7) Slevin, "Her Heart's in the Race."
- (8) Michelle Robinson, "Princeton-Educated Blacks and the Black Community" (thesis, Princeton University, 1985), 10.
- (9) Johnson, "Michelle Obama Interview."
- (10) Ibid.
- (11) Ibid.
- (12) Don Terry, "In the Path of Lightning," Chicago Tribune, July 27, 2008.
- (13) Ibid.
- (14) Ibid.
- (15) Rosalind Rossi, "The Woman Behind Obama," Chicago Sun-Times, Jan. 20, 2007.
- (16) Slater, "Campaign '08."
- (17) Ed Hornick, "Obama Highlights Plan for National Service," [www.CNN.com/2008/POLITICS/07/02/obama.service](http://www.CNN.com/2008/POLITICS/07/02/obama.service)], July 2, 2008.
- (18) Ibid.
- (19) Ibid. 18\_417-Lightfoot.indb 215 7/27/18 7:01 AM
- (20) Jill Lawrence, "'Community Organizer' Slams Attract Support for Obama," USA Today, Sept. 4, 2008.
- (21) "Experts Praise Barack Obama's National Service Plan," in Obama's News and Speeches, BarackObama.com, Dec. 5, 2007.
- (22) Ibid.
- (23) Ibid.
- (24) Ibid.

(25) Slevin, "Her Heart's in the Race."

(26) Rossi, "The Woman Behind Obama."

(27) Slevin, "Her Heart's in the Race."

(28) Rossi, "The Woman Behind Obama."

(29) Ibid.

(30) Ibid.

(31) Slevin, "Her Heart's in the Race."

(32) Rossi, "The Woman Behind Obama."

(33) Ibid.

(34) University of Chicago Hospitals, "Michelle Obama Appointed Vice President for Community and External Affairs at the University of Chicago Hospitals," news release, May 9, 2005, [www.uchospitals.edu/news/2005/20050509-obama.html](http://www.uchospitals.edu/news/2005/20050509-obama.html).

(35) Ibid.

(36) Johnson, "Michelle Obama Interview."

(37) Lynn Sweet, "Michelle Obama Quits Board of Wal-Mart Supplier," Chicago Sun-Times' The Scoop from Washington blog, May 22, 2007, [http://blogs.suntimes.com/sweet/2007/05/sweet\\_column\\_michelle\\_obama\\_qu.html](http://blogs.suntimes.com/sweet/2007/05/sweet_column_michelle_obama_qu.html).

(38) Associated Press, "No Ifs or Buts, Michelle Obama Anticipates Life as 'Mom-in-Chief,'" Aug. 4, 2008.

(39) Michelle Obama, interview by Katie Couric, "Michelle Obama on Love, Family & Politics," CBS Evening News, CBS, Feb. 15, 2008, [www.cbsnews.com/stories/2008/02/15/eveningnews/main3838884.shtml](http://www.cbsnews.com/stories/2008/02/15/eveningnews/main3838884.shtml).

(40) Ibid.

(41) Ibid.

(42) Ibid.

(43) John McCormick, "Michelle Obama, Alice Waters Talk Food," Chicago Tribune's Swamp blog, July 28, 2008, [www.swamppolitics.com/news/politics/blog/2008/07/lunch\\_and\\_with\\_michelle\\_obama.html](http://www.swamppolitics.com/news/politics/blog/2008/07/lunch_and_with_michelle_obama.html).

(44) Carrie Dann, "Michelle Obama Talks Fatherhood," MSNBC's First Read blog, July 10, 2008, <http://firstread.msnbc.msn.com/archive/2008/07/10/1193601.aspx>.

(45) Ibid.

(46) Suzette Hackney, "Michelle Obama Has Plans for America, Too," Detroit Free-Press, July 10, 2008.

(47) "Barack Obama's Plan to Support Working Women and Families," pamphlet.

(48) Hackney, "Michelle Obama Has Plans for America, Too."

(49) Ibid.

(50) Scott Helman, "Michelle Obama Revels in Family Role," Boston Globe, Oct. 28, 2007. 18\_417-Lightfoot.indb 216 7/27/18 7:01 AM

### الفصل الرابع: أنت وأنا (معاً نستطيع أن نواجه العالم)

(1) Barack Obama, *The Audacity of Hope* (New York: Three Rivers Press, 2006), 328.

(2) David Mendell, *Obama: From Promise to Power* (New York: Amistad, 2007), 93.

(3) Kevin O'Leary, "Why Barack Loves Her," *US Weekly*, June 30, 2008.

(4) Obama, *Audacity of Hope*, 328.

(5) Michelle Obama, interview by Katie Couric, "Michelle Obama on Love, Family & Politics," CBS Evening News, CBS, Feb. 15, 2008, [www.cbsnews.com/stories/2008/02/15/eveningnews/main3838884.shtml](http://www.cbsnews.com/stories/2008/02/15/eveningnews/main3838884.shtml).

(6) Obama, *Audacity of Hope*, 328.

(7) Ibid., 329.

- (8) Ibid., 329.
- (9) Michelle Obama, interview by Katie Couric, Feb. 15, 2008.
- (10) Obama, Audacity of Hope, 329.
- (11) Michelle Obama, interview by Katie Couric, Feb. 15, 2008.
- (12) Ibid.
- (13) Ibid.
- (14) Ibid.
- (15) Melinda Henneberger, "The Obama Marriage: How Does It Work for Michelle Obama?" Slate, Oct. 26, 2007, [www.slate.com/id/2176683](http://www.slate.com/id/2176683).
- (16) Ibid.
- (17) Mendell, Obama, 100.
- (18) Andy Katz, "Brown Coach Robinson Coaching Brother-in-Law Obama, Too," ESPN.com, Sept. 13, 2007, <http://sports.espn.go.com/espn/print?id=3009012&type=story>.
- (19) Ibid.
- (20) Ibid.
- (21) Ibid.
- (22) Ibid.
- (23) Scott Fornek, "15th Wedding Anniversary/Obamas Recall First Date, Proposal that 'Shut Up' Michelle," Chicago Sun-Times, Oct. 3, 2007.
- (24) Lauren Collins, "The Other Obama: Michelle Obama and the Politics of Candor," New Yorker, Mar. 10, 2008.
- (25) Obama, Audacity of Hope, 332.
- (26) Michelle Obama, interview by Katie Couric, Feb. 15, 2008.
- (27) Mendell, Obama, 94.
- (28) Fornek, "15th Wedding Anniversary."
- (29) Collins, "The Other Obama."
- (30) Ibid.
- (31) Fornek, "15th Wedding Anniversary."

(32) Ibid.

(33) Michelle Obama, interview by Rachael Ray, Rachael Ray Show, CBS, Apr. 29, 2008.

(34) Ibid.

(35) O’Leary, “Why Barack Loves Her.”

(36) Obama, Audacity of Hope, 336.

(37) Ibid., 340.

(38) Ibid., 340–41. 18\_417-Lightfoot.indb 217 7/27/18 7:01 AM

(39) Cassandra West, “Her Plan Went Awry, But Michelle Obama Doesn’t Mind,” Chicago Tribune, Sept. 1, 2004.

(40) Associated Press, “Michelle Obama: Barack’s Book Sales Paid Off Our Student Loans,” Apr. 9, 2008.

(41) Mendell, Obama, 144.

(42) Ibid., 99.

(43) Ibid., 151–52.

(44) Sandra Sobieraj Westfall, “The Obamas Get Personal,” People, Aug. 4, 2008.

(45) Ibid.

(46) Ibid.

(47) Obama, Audacity of Hope, 327.

(48) Michelle Obama, interview by Rachael Ray, Apr. 29, 2008.

(49) Peter Slevin, “Her Heart’s in the Race,” Washington Post, Nov. 28, 2007.

(50) Susan Saulny, “Michelle Obama Thrives in Campaign Trenches,” New York Times, Feb. 14, 2008.

(51) Associated Press, “Obama’s Wife Attends Rallies in Indiana,” Apr. 16, 2008.

(52) Joy Bennett Kinnon, “Michelle Obama: Not Just the Senator’s Wife,” Ebony, Mar. 2006.

- (53) Lynn Norment, "The Hottest Couple in America," *Ebony*, Feb. 2007.
- (54) Tonya Lewis Lee, "Your Next First Lady?" *Glamour*, Sept. 2007.
- (55) *Ibid.*
- (56) Michelle Obama, interview by Katie Couric, Feb. 15, 2008.
- (57) Carly Zakin, "Michelle Obama Plays Unique Role in Campaign," MSNBC, July 30, 2007, [www.msnbc.msn.com/id/20041755](http://www.msnbc.msn.com/id/20041755).
- (58) Maureen Dowd, "She's Not Buttering Him Up," *New York Times*, Apr. 25, 2007.
- (59) Ben Macintyre, interview with author, July 13, 2008.
- (60) Jill Lawrence, "Michelle's Homemaker Side," *Chicago Sun-Times*, July 1, 2008.
- (61) *Ibid.*
- (62) Lewis Lee, "Your Next First Lady?"
- (63) "Pool Report," *Wall Street Journal*, reported by Lynn Sweet, "Obama's Saturday in Chicago," *Chicago Sun-Times' The Scoop from Washington* blog, June 29, 2008, [http://blogs.suntimes.com/sweet/2008/06/obamas\\_saturday\\_in\\_chicago\\_hit.html](http://blogs.suntimes.com/sweet/2008/06/obamas_saturday_in_chicago_hit.html).
- (64) O'Leary, "Why Barack Loves Her."
- (65) Norment, "The Hottest Couple in America."
- (66) Ben Macintyre, interview with author, July 13, 2008.
- (67) Michelle Obama, interview by Katie Couric, Feb. 15, 2008.
- (68) Lewis Lee, "Your Next First Lady?"
- (69) Bennett Kinnon, "Michelle Obama."
- (70) Michael Wolff, "It's the Adultery, Stupid," *Vanity Fair*, June 2008.
- (71) *Ibid.*
- (72) Mendell, *Obama*, 259.
- (73) *Ibid.*
- (74) *Ibid.*

(75) Interview by Larry King, Larry King Live, CNN, Feb. 11, 2008.  
18\_417-Lightfoot.indb 218 7/27/18 7:01 AM

(76) Shaila Dewan, "Obama's Wife Evokes Dangers of Campaign," New York Times, Jan. 15, 2008.

(77) Christi Parsons, Bruce Japsen, and Bob Secter, "Barack's Rock: Michelle Obama," Chicago Tribune, Apr. 22, 2007.

(78) Barack Obama, interview by Ellen DeGeneres, The Ellen DeGeneres Show, Feb. 28, 2008.

(79) Obama, Audacity of Hope, 346.

(80) Liam Ford, "Obama's Church Sermon to Black Dads: Grow Up," Chicago Tribune, June 20, 2005.

(81) Jeff Long and Christi Parsons, "Obama in Father's Day Sermon Reminds Dads That Parenting Doesn't End at Conception," Chicago Tribune, June 15, 2008.

(82) Mendell, Obama, 382.

(83) Obama, Audacity of Hope, 226.

(84) "Ohio Gov. Strickland Declares Obama Next President at Senior Forum on Retirement Security in Columbus," ePluribus Media, Ohio News Bureau, June 15, 2008, <http://discuss.epluribusmedia.net/node/1889>.

(85) Lewis Lee, "Your Next First Lady?"

(86) Jeff Zeleny, "Q&A with Michelle Obama," Chicago Tribune, Dec. 24, 2005.

(87) Jennifer Loven, "Obama and Family Spend Fourth of July in Montana," Associated Press, July 5, 2008.

(88) Ibid.

(89) Michelle Obama, convention speech at the Democratic National Convention, transcript from National Public Radio, Aug. 26, 2008.

(90) Loven, "Obama and Family Spend Fourth of July in Montana."

(91) Ibid.

(92) Daryl Paranada, "Future First Lady: Cindy or Michelle," Huffington Post, June 10, 2008.

(93) Jenna and Laura Bush, interview by Ann Curry, Today Show, NBC, Apr. 22, 2008.

(94) Sheri and Bob Stritof, "Barack and Michelle Obama Marriage Profile," About.com, <http://marriage.about.com/od/celebritymarriage/p/barackobama>.

### الفصل الخامس: الأمومة والوظيفة الأولى للسيدة الأولى

(1) Monica Langley, "Michelle Obama Solidifies Her Role in the Election," Wall Street Journal, Feb. 11, 2008.

(2) Shipman, Rucci, and Yacus, "Michelle Obama's Passions."

(3) Sandra Sobieraj Westfall, "The Obamas at Home," People, Aug. 4, 2008.

(4) Ibid.

(5) Ibid.

(6) Ibid.

(7) "The Barack Obama Workout," Train Like a Warrior blog, <http://trainlikeawarrior.blogspot.com/2008/03/barack-obama-workout.html>.

(8) Jill Lawrence, "Michelle Obama Has Busy Summer Ahead," USA Today, June 29, 2008.

(9) Shipman, Ricci, and Yacus, "Michelle Obama's Passions." 18\_417-Lightfoot.indb 219 7/27/18 7:01 AM

(10) Kevin O'Leary, "Why Barack Loves Her," US Weekly, June 30, 2008.

(11) Tribune Wire Reports, "Maria Menounos, Obama Family Interview," Chicago Tribune, July 14, 2008.

(12) Malia Obama, interview by Maria Menounos, Access Hollywood, Fox, July 7, 2008.

(13) Barack Obama, interview by Rachael Ray, Rachael Ray Show, CBS, Apr. 29, 2008.

(14) Michelle and Barack Obama, interview by Maria Menounos, Access Hollywood, Fox, July 7, 2008.

(15) Tribune Wire Reports, "Maria Menounos, Obama Family Interview."

(16) Ibid.

(17) "Michelle Obama: Sarah Palin's Children are 'Absolutely' Off Limits," USMagazine.com, Sept. 4, 2008.

(18) Tim Harper, "Obama Regrets Kids' Television Appearance," Reuters, July 12, 2008.

(19) Westfall, "The Obamas at Home."

(20) Tribune Wire Reports, "Maria Menounos, Obama Family Interview."

(21) Andrew Sullivan, "The Hubris of Obama?" Atlantic's Daily Dish blog, July 10, 2008, [http://andrewsullivan.theatlantic.com/the\\_daily\\_dish/2008/07/the-hubris-of-o.html](http://andrewsullivan.theatlantic.com/the_daily_dish/2008/07/the-hubris-of-o.html).

(22) Ibid.

(23) Barack Obama, *The Audacity of Hope* (New York: Three Rivers Press, 2006), 341.

(24) Robin Abcarian, "Is There a Goldendoodle in the Obamas' Future?" Los Angeles Times' L.A. Unleashed blog, June 9, 2008, <http://latimesblogs.latimes.com/unleashed/2008/06/every-once-in-a.html>.

(25) Tony Barboza, "PETA to Obama: Wanting a Purebred Dog Is Elitist," Los Angeles Times' L.A. Unleashed blog, July 29, 2008, <http://latimesblogs.latimes.com/unleashed/2008/07/peta-to-obama-i.html>.

## الفصل السادس: قوية كالجبل

(1) Ted Koppel, Nightline, Mar. 26, 1992.

(2) "A Brief History of Hillary Clinton's Body Politic," New York's Daily Intel blog, Oct. 30, 2007, [http://nymag.com/daily/intel/2007/10/a\\_brief\\_history\\_of\\_hillary\\_cli.html](http://nymag.com/daily/intel/2007/10/a_brief_history_of_hillary_cli.html).

(3) Joan Vennochi, "Make Over Old Views, Not Political Wives," Boston Globe, June 29, 2008.

(4) "That Again? Washington Times Repeats False 'Scumbags' Rumor," Media Matters for America, Oct. 1, 2004, [http://mediamatters.org/items/200410010010?f=s\\_search](http://mediamatters.org/items/200410010010?f=s_search).

(5) David Paul Kuhn, "Mrs. Kerry to Reporter: 'Shove It,'" CBSNews.com, July 26, 2004.

(6) "Heinz Kerry Apologizes for Remark," CNN.com, Oct. 21, 2004, [www.cnn.com/2004/ALLPOLITICS/10/20/theresa.apologizes.laura/index.html](http://www.cnn.com/2004/ALLPOLITICS/10/20/theresa.apologizes.laura/index.html).

(7) Program description for Eleanor Roosevelt, American Experience, PBS, [www.pbs.org/wgbh/amex/eleanor/filmmore/description.html](http://www.pbs.org/wgbh/amex/eleanor/filmmore/description.html).

(8) Laura Bush, interview by Jonathan Karl, Good Morning America, ABC, June 9, 2008.

(9) Michelle Malkin, "Michelle Obama's America—And Mine," Town-hall.com, Feb. 20, 2008.

(10) Barack Obama, interview by Robin Roberts, Good Morning America, ABC, May 19, 2008. 18\_417-Lightfoot.indb 220 7/27/18 7:01 AM

(11) Mosheh Oinounou, "McCain Uncomfortable with TN GOP Anti-Obama Release," Fox Embeds blog, Feb. 27, 2008, <http://embeds.blogs.foxnews.com/2008/02/27/mccain-uncomfortable-with-tn-anti-obama-release>.

(12) Reuters, "Clinton Faces Kenyan Cattle Fine Over Obama Photo," Feb. 29, 2008.

(13) Carrie Budoff Brown, "Michelle Obama Becomes GOP Target," Politico.com, June 12, 2008.

(14) Reuters, "No Slack for Michelle Obama from Cindy McCain," June 19, 2008.

(15) Barack Obama, interview by Robin Roberts, May 19, 2008.

(16) Ibid.

(17) Michelle Obama, interview by Robin Roberts, Good Morning America, ABC, May 19, 2008.

(18) Michelle Obama, interview, The View, ABC, June 18, 2008.

(19) Lynn Sweet, "Obama Fights Smear: Michelle Obama and the 'Whitey' Rumor," Chicago Sun-Times' The Scoop from Washington blog, June 13, 2008, [http://blogs.suntimes.com/sweet/2008/06/obama\\_fights\\_smear\\_michelle\\_ob.html](http://blogs.suntimes.com/sweet/2008/06/obama_fights_smear_michelle_ob.html).

(20) Ibid.

(21) Margaret Talev blog, "Obama Launches Rumor Response website," "Hot Off the Trail," McClatchy Trusted Voices, June 12, 2008.

(22) "The Truth About Michelle," Fight the Smears, [my.barackobama.com](http://my.barackobama.com).

(23) Sweet, "Obama Fights Smear."

(24) Ibid.

(25) Michael Powell and Jodi Kantor, "Michelle Obama Looks for a New Introduction," New York Times, June 18, 2008.

(26) E. D. Hill, on America's Pulse, Fox News, June 6, 2008; "Fox Anchor Calls Obama Fist Pound a 'Terrorist Fist Jab,'" Huffington Post, June 9, 2008, [www.huffingtonpost.com/2008/06/09/fox-anchor-calls-obama-fi\\_n\\_106027.html](http://www.huffingtonpost.com/2008/06/09/fox-anchor-calls-obama-fi_n_106027.html); "'Terrorist Fist Jab' Anchor Gets Canceled," Chicago Tribune's Swamp blog, June 12, 2008, [www.swamppolitics.com/news/politics/blog/2008/06/ed\\_hill\\_apologies\\_loses\\_show.html](http://www.swamppolitics.com/news/politics/blog/2008/06/ed_hill_apologies_loses_show.html).

(27) "Palin Says Obama 'Palling Around with Terrorists,'" Associated Press, Oct. 5, 2008.

(28) Johanna Neuman, "Bush Does the Obama Power Fist Bump," Los Angeles Times' Countdown to Crawford blog, July 2, 2008, <http://latimesblogs.latimes.com/presidentbush/2008/07/bush-does-the-o.html>.

(29) M. J. Stephey, "A Brief History of the Fist Bump," Time, June 5, 2008.

(30) Barack Obama, interview by Brian Williams, NBC Nightly News, June 4, 2008.

(31) Don Frederick, "Fox News in Trouble Again Over Obama Smear: 'Baby Mama,'" Los Angeles Times' Top of the Ticket blog, June 12, 2008.

(32) Public Relations Problems and Cases blog, College of Communications at the Pennsylvania State University, <http://psucomm473.blogspot.com/2007/04/downfall-of-john-kerrys-2004.html>.

(33) "Kitty Dukakis," Wikipedia, [en.wikipedia.org/wiki/Kitty-Dukakis](http://en.wikipedia.org/wiki/Kitty-Dukakis) (accessed July 16, 2008).

(34) Holly Bailey, "In Search of the Real Cindy McCain," Newsweek, June 30, 2008.

(35) Ibid. 18\_417-Lightfoot.indb 221 7/27/18 7:01 AM

(36) Ibid.

(37) Nancy Collins, "Cindy McCain: Myth vs. Reality," Harper's Bazaar, July 2007.

(38) Bailey, "In Search of the Real Cindy McCain."

(39) Cindy McCain, interview, Today Show, NBC, May 8, 2008.

(40) Mark Hosenball and Michael Isikoff, "Obama: Can't 'Swift Boat' Me," Newsweek, Apr. 28, 2008.

(41) Powell and Kantor, "Michelle Obama Looks for a New Introduction."

(42) Carla Marinucci, "Candidates' Wives Under Media Microscope," San Francisco Chronicle, June 29, 2008.

(43) Ibid.

(44) Vennoch, "Make Over Old Views, Not Political Wives."

(45) Marinucci, "Candidates' Wives Under Media Microscope."

(46) Ann Althouse and Robin Givhan, [bloggingheads.tv/diavlogs/12201?in=00:18:32&out=00:27:17](http://bloggingheads.tv/diavlogs/12201?in=00:18:32&out=00:27:17).

(47) Jcdemtl, comment on "On The View, Michelle Obama Makes Pantyhose Confession," Chicago Sun-Times' The Scoop from Washington blog, comment posted June 18, 2008, [http://blogs.suntimes.com/sweet/2008/06/on\\_the\\_view\\_michelle\\_obama\\_mak.html](http://blogs.suntimes.com/sweet/2008/06/on_the_view_michelle_obama_mak.html).

(48) "Pool Report," Wall Street Journal, reported by Lynn Sweet, "Obama's Saturday in Chicago," Chicago Sun-Times' The Scoop from Washington blog, June 29, 2008, [http://blogs.suntimes.com/sweet/2008/06/obamas\\_saturday\\_in\\_chicago\\_hit.html](http://blogs.suntimes.com/sweet/2008/06/obamas_saturday_in_chicago_hit.html).

(49) Emma Cowing, "Although a Woman Won't Be in the Oval Office After the Presidential Election, There Will Be One Behind the Throne," Scotsman, June 9, 2008.

(50) Ibid.

(51) Ibid.

(52) "Michelle Obama Doesn't Need to Fight Bill Clinton—That's What You Are For," New York's Daily Intel blog, Jan. 24, 2008, [http://nymag.com/daily/intel/2008/01/michelle\\_obama\\_doesnt\\_need\\_to.html](http://nymag.com/daily/intel/2008/01/michelle_obama_doesnt_need_to.html).

(53) Karen Springen, "First Lady in Waiting," Chicago Magazine, Oct. 2004.

(54) Michelle Obama, interview by Katie Couric, "Michelle Obama on Love, Family & Politics," CBS Evening News, CBS, Feb. 15, 2008, [www.cbsnews.com/stories/2008/02/15/eveningnews/main3838884.shtml](http://www.cbsnews.com/stories/2008/02/15/eveningnews/main3838884.shtml).

(55) Springen, "First Lady in Waiting."

## الفصل السابع: اللون الأرجواني

(1) Amy Fine Collins, interview with author, Aug. 2, 2008.

(2) "Flash: It Girl Michelle Obama Lights Up the Campaign Trail, Proving That She Is a Fashion Force to Be Reckoned With," *Vogue*, Apr. 2008.

(3) Guy Trebay, "She Dresses to Win," *New York Times Style* section, June 9, 2008.

(4) *Ibid.*

(5) Jesse Oxfeld, "Fashion Fist Bump! Bazaar Tribute," *New York's Intelligencer* blog, Aug. 3, 2008, <http://nymag.com/news/intelligencer/48938>.

(6) Trebay, "She Dresses to Win."

(7) Jill Lawrence, "Michelle Obama Has Busy Summer Ahead," *USA Today*, June 29, 2008. 18\_417-Lightfoot.indb 222 7/27/18 7:01 AM.

(8) Ann Sanner, "Michelle Obama Describes Duty as Mother-in-Chief," *Associated Press*, Aug. 4, 2008.

(9) Kate Linthicum, "Michelle Obama Is Vanity Fair's 'Best-Dressed,'" *Los Angeles Times' Top of the Ticket* blog, July 29, 2008, <http://latimesblogs.latimes.com/washington/2008/07/michelle-obama.html>; Cynthia Nellis, "Definition of a Sheath Dress," *About.com: Women's Fashion*, <http://fashion.about.com/cs/glossary/g/bldefsheath.htm>.

(10) Amy Fine Collins, interview with author, Aug. 2, 2008.

(11) Ben Macintyre, interview with author, July 13, 2008.

(12) Robin Givhan, "Dressing to Impress Upon Memory," *Washington Post*, June 8, 2008, [www.washingtonpost.com/wp-dyn/content/article/2008/06/05/AR2008060502012.html](http://www.washingtonpost.com/wp-dyn/content/article/2008/06/05/AR2008060502012.html).

(13) "The Color Purple," *Wikipedia*, [http://en.wikipedia.org/wiki/The\\_Color\\_Purple](http://en.wikipedia.org/wiki/The_Color_Purple) (accessed Aug. 9, 2008).

(14) Pam Adams, "America Is Colored Purple," *Peoria Journal Star*, July 2, 2008.

(15) Michelle Obama, interview by Katie Couric, "Michelle Obama on Love, Family & Politics," CBS Evening News, CBS, Feb. 15, 2008, [www.cbsnews.com/stories/2008/02/15/eveningnews/main3838884.shtml](http://www.cbsnews.com/stories/2008/02/15/eveningnews/main3838884.shtml).

(16) Eric Wilson, "Across the Political Spectrum," New York Times, July 31, 2008.

(17) Ibid.

(18) Ibid.

(19) Tony Allen-Mills, "Michelle Obama Fuels Frock Fashion Frenzy," Sunday Times, June 29, 2008.

(20) Leonard Doyle, "Obama by Versace: Candidate Inspires Donatella's New Style," Independent (UK), June 24, 2008.

(21) Ibid.

(22) Michelle Obama, interviewed on The View, ABC, June 18, 2008.

(23) Ibid.

(24) Ibid.

(25) "America's New Jackie O Is Called Michelle, Supporters Say," Agence France-Press, June 19, 2008.

(26) Michelle Cottle, "The Softening Has Begun," New Republic's Plank blog, June 18, 2008, [http://blogs.tnr.com/tnr/blogs/the\\_plank/archive/2008/06/18/the-softening-has-begun.aspx](http://blogs.tnr.com/tnr/blogs/the_plank/archive/2008/06/18/the-softening-has-begun.aspx).

(27) Megan Garber, "The Sisterhood of the Traveling Pantyhose," Columbia Journalism Review's Campaign Desk blog, June 19, 2008, [http://archives.cjr.org/campaign\\_desk/the\\_sisterhood\\_of\\_the\\_travelin.php](http://archives.cjr.org/campaign_desk/the_sisterhood_of_the_travelin.php).

(28) Helen Kennedy, "While Michelle Obama Has Been Front and Center, Cindy McCain Is a Mystery," US News and World Report, June 23, 2008.

(29) Holly Bailey, "In Search of the Real Cindy McCain," Newsweek, June 30, 2008.

(30) Cindy McCain, interview by John King, "Spotlight on Cindy McCain," CNN, June 19, 2008.

(31) Kennedy, "While Michelle Obama Has Been Front and Center."

(32) Wendy Donahue, "That Obama Dress," Chicago Tribune, June 23, 2008.

(33) Cheryl Lu-Lien Tan, "Michelle Obama: Fashion's New Darling," Wall Street Journal, June 19, 2008. 18\_417-Lightfoot.indb 223 7/27/18 7:01 AM

(34) Cathy Horyn, "Conspicuous by Their Presence," New York Times, June 19, 2008.

(35) Alessandra Stanley, "Michelle Obama Shows Her Warmer Side on The View," New York Times, June 19, 2008.

(36) Ibid.

(37) Ibid.

### الفصل الثامن: قضايا العرق والجنس والعم

(1) Kevin Merida, "Hill, Yes! O., No!" Washington Post, June 27, 2008.

(2) "Tucker on Sen. Clinton ...," Media Matters for America, Mar. 20, 2007, <http://mediamatters.org/items/200703200013>.

(3) Katharine Q. Seelye and Julie Bosman, "Media Charged with Sexism in Clinton Coverage," New York Times, June 13, 2008.

(4) "After Vowing Not to Underestimate Clinton ...," Media Matters for America, Jan. 9, 2008, <http://mediamatters.org/items/200801090008>.

(5) Seelye and Bosman, "Media Charged with Sexism in Clinton Coverage."

(6) "Confronted on GMA ...," Media Matters for America, May 30, 2008, <http://mediamatters.org/items/200805300010>.

(7) "Does Our Looks-Obsessed Culture Want to Stare at an Aging Woman?" Rush Limbaugh, Rush Limbaugh Show, Dec. 17, 2007, [www.rushlimbaugh.com/home/daily/site\\_121707/content/01125114.guest.html](http://www.rushlimbaugh.com/home/daily/site_121707/content/01125114.guest.html).

(8) “Media Hall of Shame: 2008 Election Edition,” National Organization for Women, [www.now.org/issues/media/hall\\_of\\_shame/index.html](http://www.now.org/issues/media/hall_of_shame/index.html) (accessed Aug. 9, 2008).

(9) Seelye and Bosman, “Media Charged with Sexism in Clinton Coverage.”

(10) Ibid.

(11) Ibid.

(12) “Baby Mama,” Wikipedia, [http://en.wikipedia.org/wiki/Baby\\_mama](http://en.wikipedia.org/wiki/Baby_mama) (accessed Aug. 9, 2008).

(13) Gene Stout, “Hip-Hop Star Nas Protests Fox News ‘Obama Smears,’” Seattle Post-Intelligencer’s Big Blog, July 22, 2008, <http://blog.seattlepi.nwsourc.com/thebigblog/archives/144082.asp>.

(14) “Media Hall of Shame: 2008 Election Edition”; Lars Larson, on Verdict with Dan Abrams, MSNBC, June 18, 2008, [www.msnbc.msn.com/id/25264764](http://www.msnbc.msn.com/id/25264764).

(15) “Media Hall of Shame: 2008 Election Edition”; Cal Thomas, on Fox News Watch, Fox News, June 14, 2008, [www.foxnews.com/story/0,2933,367601,00.html](http://www.foxnews.com/story/0,2933,367601,00.html).

(16) Cal Thomas, on Fox News Watch.

(17) Roger Stone, interview by Geraldo Rivera, Geraldo at Large, Fox News, June 1, 2008.

(18) E. D. Hill, on America’s Pulse, Fox News, June 6, 2008; “Fox Anchor Calls Obama Fist Pound a ‘Terrorist Fist Jab,’” Huffington Post, June 9, 2008, [www.huffingtonpost.com/2008/06/09/fox-anchor-calls-obama-fi\\_n\\_106027.html](http://www.huffingtonpost.com/2008/06/09/fox-anchor-calls-obama-fi_n_106027.html); “‘Terrorist Fist Jab’ Anchor Gets Canceled,” Chicago Tribune’s Swamp blog, June 12, 2008, [www.swamppolitics.com/news/politics/blog/2008/06/ed\\_hill\\_apologies\\_loses\\_show.html](http://www.swamppolitics.com/news/politics/blog/2008/06/ed_hill_apologies_loses_show.html).

(19) “O’Reilly: ‘I Don’t Want to Go on a Lynching Party ...,’” Media Matters for America, Feb. 20, 2008, [http://mediamatters.org/items/200802200001.18\\_417-Lightfoot.indb 224 7/27/18 7:01 AM](http://mediamatters.org/items/200802200001.18_417-Lightfoot.indb%2024%207/27/18%207:01%20AM)

(20) “Hip Hop Artist Nas to Join Protest of Fox Race-Baiting and Obama Smears,” Colorofchange.org media advisory, July 23, 2008, <http://colorofchange.org/foxobama/delivery.html>.

(21) “Michelle Obama’s America,” The Economist, July 3, 2008.

(22) Ruben Navarrette, “Michelle Obama’s Under Fire, But for No Good Reason,” Sacramento Bee, June 23, 2008.

(23) Ibid.

(24) “Magazine Mavens Discuss Covering Michelle Obama,” Tell Me More, NPR, June 25, 2008.

(25) Ibid.

(26) Ibid.

(27) Ibid.

(28) Ibid.

(29) Ibid.

(30) Earnest Harris, “Cal Thomas’s Scary Angry Black Michelle,” Huffington Post’s Off the Bus blog, July 2, 2008, [www.huffingtonpost.com/earnest-harris/cal-thomass-scary-angry-b\\_b\\_110588.html](http://www.huffingtonpost.com/earnest-harris/cal-thomass-scary-angry-b_b_110588.html).

(31) Ibid.

(32) Ibid.

(33) “Is Barack Obama’s Wife His Rock or His Bitter Half?,” The Economist, July 3, 2008.

(34) Ibid.

(35) Ibid.

(36) Ibid.

(37) “Michelle Obama: Questions About Husband Being ‘Black Enough’ Silly,” Feb. 1, 2008, [CNN.com/2008/POLITICS/02/01/michelle.obama/index.html](http://CNN.com/2008/POLITICS/02/01/michelle.obama/index.html).

(38) Rupert Cornwell, “Out of America,” *The Independent*, June 22, 2008.

(39) *Ibid.*

(40) *Ibid.*

(41) *Ibid.*

(42) *Ibid.*

(43) James L. Taylor, “The UnAmerican Americans: Or, Why Michelle Obama Is ‘Fair Game’” *NPR Political Positions* blog, June 25, 2008, [www.npr.org/blogs/newsandviews/2008/06/the\\_unamerican\\_americans\\_or\\_wh.html](http://www.npr.org/blogs/newsandviews/2008/06/the_unamerican_americans_or_wh.html).

(44) *Ibid.*

(45) *Ibid.*

(46) *Ibid.*

(47) Clarence Page, “Why the Obama Cartoon Cover Bombed: Is It Funny? Is It True? Is the Target Worth It?” *Chicago Sun-Times*, July 16, 2008.

(48) Joe Garofoli, “New Yorker Editor Defends Obama Cover,” *San Francisco Chronicle*, July 15, 2008.

(49) Mark S. Allen, comment on “Come On, Laugh,” *Chicago Tribune’s Vox Pop* blog, comment posted July 15, 2008, [http://newsblogs.chicagotribune.com/vox\\_pop/2008/07/did-the-the-new.html](http://newsblogs.chicagotribune.com/vox_pop/2008/07/did-the-the-new.html). 18\_417-Lightfoot.indb 225 7/27/18 7:01 AM

(50) Chuck-in-Wichita, comment on “Is the New Yorker’s Muslim Obama Cover Incendiary or Satire?” *Los Angeles Times’ Top of the Ticket* blog, comment posted July 13, 2008, <http://latimesblogs.latimes.com/washington/2008/07/obama-muslim.html>; James Rainey, “Barack Obama

Magazine Flap Shows an Irony Deficiency,” Los Angeles Times, July 15, 2008.

(51) “Obama Cartoon Insult to Muslims,” AlJazeera.net, July 16, 2008.

(52) Barack Obama, interview by Larry King, Larry King Live, CNN, July 15, 2008.

(53) Ibid.

(54) Garofoli, “New Yorker Editor Defends Obama Cover.”

(55) Ibid.

(56) Bill Carter, “Want Obama in a Punch Line? First, Find a Joke,” New York Times, July 16, 2008.

(57) Rainey, “Barack Obama Magazine Flap.”

(58) Garofoli, “New Yorker Editor Defends Obama Cover.”

(59) Joe Murray, “Newsweek Poll Shows Obama Gains over McCain,” Bulletin, June 23, 2008.

(60) Ibid.

(61) Ibid.

(62) “Michelle Obama: I’ve Got a Loud Mouth,” Good Morning America, ABC News, May 22, 2007.

(63) Ibid.

(64) Carter, “Want Obama in a Punch Line? First, Find a Joke.”

(65) Alessandra Stanley, “On ‘SNL’ It’s the Real Sarah Palin, Looking Like a Real Entertainer,” New York Times, Oct. 20, 2008.

(66) Bill Carter, “An Election to Laugh About,” New York Times, Oct. 9, 2008.

(67) “McCain Cracks Age Jokes on SNL,” CNN’s Political Ticker blog, May 18, 2008, <http://politicalticker.blogs.cnn.com/2008/05/18/mccain-cracks-age-jokes-on-snl>.

(68) Ibid.

(69) Ibid.

(70) Associated Press, "So How Old Is John McCain?," June 13, 2008.

(71) Mike Allen, "John McCain Goes Online," Politico.com, July 13, 2008.

(72) Things Younger than McCain, www.thingsyoungerthanmccain.com.

(73) Ricardo Alonso-Zaldivar, "Born Before Computers, McCain Is 'Too Old' for Some," Associated Press, July 15, 2008.

(74) Michelle Tsai, "How Smart Is Grandpa? How Much Can You Expect from a Septuagenarian Brain," Slate, Apr. 26, 2007.

(75) Alonso-Zaldivar, "Born Before Computers."

(76) Ibid.

(77) "Sarah Palin Presidency Would be 'Really Terrifying Possibility,' Warns Matt Damon," Telegraph (UK), Sept. 11, 2008.

(78) Mackenzie Carpenter, "Michelle Obama Wows Them at CMU," Pittsburgh Post-Gazette, Apr. 3, 2008.

(79) "Cindy McCain, Michelle Obama Speak Out," Political Intelligence, Oct. 9, 2008. www.boston.com/news/politics/politicalintelligence/2008/10/cindy\_mccain-mi.html. 18\_417-Lightfoot.indb 226 7/27/18 7:01 AM.

## الفصل التاسع: مشهد جديد

(1) Brian Stelter, "The Facebooker Who Friendened Obama," New York Times, July 7, 2008.

(2) E-mail from David Plouffe at info@barackobama.com, July 17, 2008.

(3) Stelter, "The Facebooker Who Friendened Obama."

(4) Ibid.

(5) "Over One Million Supporters on Facebook," Post from Chris Hughes' Blog, mybarackobama.com, June 17, 2008.

(6) Stelter, "The Facebooker Who Friendened Obama."

(7) Ibid.

(8) Jessica Guynn, "Growing Internet Role in Election: Videos, Fund-raising Among Many Uses Candidates Employ," San Francisco Chronicle, June 4, 2007.

(9) Ibid.

(10) Stelter, "The Facebooker Who Friendened Obama."

(11) Gina Barreca, "A Childish Stunt That Only Shocks and Offends," Hartford Courant, July 20, 2008.

(12) Irene Papoulis, "Cover Makes Us Squirm, But It Forces a Discussion," Hartford Courant, July 20, 2008.

(13) Adam Nagourney and Megan Thee, "Poll Finds Obama Isn't Closing Divide on Race," New York Times, July 16, 2008.

(14) Felicia Lee, "CNN Trains Its Lens on Race," New York Times, July 23, 2008.

(15) Ibid.

(16) "Jesse Jackson Apologizes for Crude Obama Remarks," <http://elections.foxnews.com/2008/07/09/jesse-jackson-apologizes-for-Obama-remarks>, Fox News, July 9, 2008.

(17) Allison Samuels, "At Arm's Length," Newsweek, July 21, 2008.

(18) Kevin Merida, "Left on the Sidelines After a Pioneering Career," Washington Post, July 20, 2008.

(19) Ibid.

(20) Ibid.

(21) Ibid.

(22) Sophia Nelson, "Black. Female. Accomplished. Attacked." Washington Post, July 20, 2008.

(23) Ibid.

(24) Ibid.

(25) Ibid.

(26) Ibid.

(27) Merida, "Left on the Sidelines After a Pioneering Career."

(28) Louise Ambler Osborn, interview with author, July 18, 2008.

### الفصل العاشر: أينما ننظر، ترَ ميشيل

(1) Foon Rhee, "All Michelle Obama, All the Time," Boston Globe's Political Intelligence blog, Aug. 7, 2008, [www.boston.com/news/politics/politicalintelligence/2008/08/all\\_michelle\\_ob.html](http://www.boston.com/news/politics/politicalintelligence/2008/08/all_michelle_ob.html).

(2) E-mail from Michelle Obama at [info.barackobama.com](mailto:info.barackobama.com), July 29, 2008.

(3) Ibid. 18\_417-Lightfoot.indb 227 7/27/18 7:01 AM

(4) Maureen Dowd, "Mr. Darcy Comes Calling," New York Times, Aug. 4, 2008.

(5) Kate Linthicum, "Michelle Obama: Cover Girl Cover Girl Cover Girl," Los Angeles Times' Top of the Ticket blog, Aug. 7, 2008, <http://latimesblogs.latimes.com/washington/2008/08/obama---ladies.html>.

(6) Ibid.

(7) Ibid.

(8) Michelle Obama, interview by Robin Roberts, Good Morning America, ABC, Aug. 7, 2008.

### الفصل الحادي عشر: نهاية السباق

(1) Roger Cohen, "American Stories," New York Times, Oct. 30, 2008.

(2) Michelle Obama, convention speech at the Democratic National Convention, transcript from NPR, Aug. 26, 2008.

(3) Carrie Budoff Brown, "Michelle Obama Focuses on Military Spouses," CBSNews.com, Oct. 20, 2008.

(4) Byron York, "Michelle Obama's Two Americas," National Review online, Aug. 26, 2008.

(5) Patrick Healy, "Debate Audience Members Talk About the Candidates," The Caucus, New York Times, Oct. 8, 2008.

(6) Caller into Talk of the Nation, NPR, Oct. 14, 2008.

(7) David Brooks, "Thinking About Obama," New York Times, Oct. 17, 2008.

(8) Michelle Obama, interview with Larry King, Larry King Live, CNN, Oct. 8, 2008.

(9) Bonna Johnson, "Roundtable: Palin Heats Up Discussion," Tennessean, USA Today, Sept. 15, 2008.

(10) Katherine Q. Seelye, "Michelle Obama Dismisses Criticisms," The Caucus, New York Times, Oct. 9, 2008.

(11) "Michelle Obama Tells McCain to End Insults," Times online (UK), Oct. 9, 2008.

(12) Alessandra Stanley, "On 'SNL' It's the Real Sarah Palin, Looking Like a Real Entertainer," New York Times, Oct. 20, 2008.

(13) Jeff Zeleny, "Donation Record as Colin Powell Endorses Obama," New York Times, Oct. 20, 2008.

(14) Colin Powell, interview with Tom Brokaw, Meet the Press, NBC, Oct. 19, 2008.

(15) Chicago Tribune, Oct. 17, 2008.

(16) "Top of the Ticket," Los Angeles Times blogs, Oct. 20, 2008.

(17) "Obama Testy with Media on Halloween," Associated Press, Oct. 31, 2008.

(18) Kristin Wyatt, "Michelle Obama: Thank Barack Obama's Grandmother," Associated Press, Nov. 3, 2008.

(19) Nedra Pickler, "Bittersweet Election Eve for Obama," Associated Press, Nov. 3, 2008.

## الفصل الثاني عشر: اجتياز خط النهاية

(1) E-mail from Stephen Danenberg to Liz Lightfoot, Sept. 24, 2008.  
18\_417-Lightfoot.indb 228 7/27/18 7:01 AM

## الفصل الثالث عشر: إنجازات السيدة الأولى

(1) Michelle Obama, convention speech at the Democratic National Convention, transcript from NPR, Aug. 25, 2008.

(2) Michelle Obama, convention speech at the Democratic National Convention, transcript from NPR, Aug. 25, 2008.

(3) Meera Dolasia, "Malia and Sasha's First 100 Days in the White House," DOGOnews.com, Apr. 29, 2009.

(4) Michelle Obama, *American Grown* (New York: Crown Publishers, 2012), 9.

(5) Remarks by the First Lady at the White House Kitchen Garden Dedication, Office of the First Lady, The White House, Oct. 5, 2016.

(6) "America's Move to Raise a Healthier Generation of Kids," Let's Move, Obama Whitehouse Archives.

(7) Kelly Miterko, "In Review; First Lady Michelle Obama's Top 10 Let's Move! Moments," Obama White House Archives.

(8) "Achievements," Let's Move, Obama Whitehouse Archives.

(9) Remarks by the First Lady at the White House Kitchen Garden Dedication, Obama White House Archives, Oct. 5, 2016.

(10) "USDA Publishes School Meals Rule, Expands Options, Eases Challenges," US Department of Agriculture Press Release, Nov. 29, 2017.

(11) Scott Horsley, "Michelle Obama's Kitchen Garden Will Keep Blooming, Even After She Leaves," WNPR, Oct. 6, 2016.

(12) Helena Bottemiller Evich, "Melania Trump Embraces Michelle Obama's Vegetable Garden," Politico.com, Sept. 22, 2017.

(13) Helena Bottemiller Evich, "Michelle Obama Sets Her Garden in Stone," Politico.com, Oct. 6, 2016.

(14) Remarks by the First Lady at the White House Kitchen Garden Dedication, Obama White House Archives, Oct. 5, 2016.

(15) "Michelle Obama," About the White House, Whitehouse.gov.

(16) Colleen Curtis, "Michelle Obama Talks About Being a Mentor," Obama White House Archives, Feb. 2, 2012.

(17) Turnaround Arts, Kennedy Center website, kennedy-center.org.

(18) "Michelle Obama's Letter to Newtown: 'Holding You in Our Hearts,'" Hartford Courant, Dec. 20, 2012.

(19) Philip Rucker, "Michelle Obama on Gun Control: 'These Reforms Deserve a Vote,'" Washington Post, Apr. 10, 2013.

(20) Betsy Klein, "Obamas: Parkland Students 'Helped Awaken the Conscience' of US on Gun Violence," CNN Politics, March 21, 2018.

(21) Michelle Obama's Speech on Donald Trump's Alleged Treatment of Women, WNPR, Oct. 13, 2016.

(22) Helene Cooper and Abby Goodnough, "Over Beers, No Apologies, but Plans to Have Lunch," New York Times, July 30, 2009.

(23) Remarks by the First Lady at Tuskegee University Commencement Address, Obama White House Archives, May 9, 2015. 18\_417-Lightfoot.indb 229 7/27/18 7:01 AM

(24) Remarks by the First Lady at Jackson State University Commencement, Obama White House Archives, April 23, 2016.

(25) Remarks by First Lady at City College New York Commencement, Obama White House Archives, June 3, 2016.

(26) Michelle Obama's Prepared Remarks for Democratic National Convention, NPR, July 26, 2016.

(27) Barack Obama video, YouTube, Oct. 3, 2017.

(28) Tierney McAfee, “See Barack Obama Crash His Wife’s Conference with Gushy Anniversary Tribute That Made Her Gasp, ‘I Better Get Home!’” People, Oct. 30, 2017.

(29) Hilary Weaver, “Where Was Sasha Obama During the President’s Farewell Address?” Vanity Fair, Jan. 11, 2017.

(30) President Obama Farewell Speech—transcript, Time, Jan. 11, 2017.

(31) Michelle Obama Convention Speech, Transcript, NPR, Sept. 4, 2012.

(32) Michelle Obama, Convention Speech, Transcript, Washington Post, July 7, 2016.

(33) Chimamanda Ngozi Adichie, Gloria Steinem, Jon Meacham, Rashida Jones, “To the First Lady, With Love,” New York Times, Oct. 17, 2016.

### الفصل الرابع عشر: إرث ميشيل أوباما

(1) Justin McCarthy, “President Obama Leaves White House with 58% Favorable Rating,” Gallup, Jan. 16, 2017.

(2) Megan McCluskey, “The Internet Really, Really Wants Michelle Obama to Run for President in 2020,” Time, Nov. 9, 2016.

(3) Daniella Diaz and John Couwels, “Michelle Obama Says She Won’t Run for Office,” CNN, Apr. 27, 2017.

(4) “Does Michelle Obama Plan to Run for Office?” Oprah Special, Oprah Winfrey Network, Dec. 19, 2016.

(5) Jonathan Van Meter, “Michelle Obama: A Candid Conversation with America’s Champion and Mother in Chief,” Vogue, Nov. 11, 2016.

(6) “Michelle Obama, Bo Surprise Visitors,” Huffington Post, Jan. 20, 2010.

(7) “In Review: How the White House Has Engaged With the American People Online,” The Obama White House, Medium.com.

(8) First Lady's Surprising Hug from the Queen of England, CNN video, CNN video (YouTube.com), Mar. 26, 2012.

(9) Sam Dangremond, "Donald Trump Is the Only Recent President Who Didn't Escort His Wife into the White House," Town & Country, Jan. 25, 2017.

(10) Anna Hopkins, "First Ladies First: Why Didn't Trump Wait for Melania at Their Car When They Arrived at the White House to Meet the Obamas ... Unlike Barack, George and Bill Did with Their Wives?" Daily Mail, Jan. 27, 2017.

(11) Leah Bourne, "7 Indisputable Ways Michelle Obama Changed the Way You Dress," Glamour, Jan. 20, 2017.

(12) Karen Grigsby Bates, "Mrs. Obama Saves the Cardigan: 'The Obama Effect' in Fashion," NPR, May 14, 2016. 18\_417-Lightfoot.indb 230 7/27/18 7:01 AM

(13) Tanisha C. Ford, "She Slays," The Meaning of Michelle: 16 Writers on the Iconic First Lady and How Her Journey Inspires Our Own, edited by Veronica Chambers (Picador, New York), 124.

(14) Ian Simpson, "West Virginia Official Who Called Michelle Obama 'Ape in Heels' Fired," Reuters, Dec. 27, 2016.

(15) Peter Slevin, "How Michelle Obama Became a Singular American Voice," Washington Post, Dec, 12, 2016.

(16) Ibid.

(17) Video of Michelle Obama interview with Oprah Winfrey at the United States of Women Conference, Obama White House, June 20, 2016.

(18) Adichie, Steinem, Meacham, and Jones, "To the First Lady, With Love."

(19) Lindsay Robertson, "The Story of a Guy Who Got Michelle Obama's Face Shaved into His Head Last Night," Marie Claire, Mar. 29, 2018.

## الفصل الخامس عشر: ماذا بعد؟

- (1) @michelleobama, Twitter, Jan. 20, 2017.
- (2) "Michelle Obama a rejoint son mari au fenua," TNTV News, Apr. 9, 2017.
- (3) Rebecca Shabad, "Watch Obama Kitesurf with Richard Branson in the British Virgin Islands," CBS News, Feb. 7, 2017.
- (4) @michelleobama, Twitter, Feb. 14, 2017.
- (5) @michelleobama, Twitter, Feb. 23, 2017.
- (6) @michelleobama, Twitter, Feb. 28, 2017.
- (7) Editorial, "The Guardian View on Michelle Obama: Missing Her Already," The Guardian, Jan. 6, 2017.
- (8) Lisa Sadikman, "9 Reasons I'm Already Missing Michelle Obama," ScaryMommy.com.
- (9) Danielle Kwateng-Clark, "We Miss Michelle Obama: Here Are All The Times We Caught a Glimpse of the Former First Lady in 2017," Essence, Dec. 20, 2017.
- (10) Tierney McCafee, "Michelle Obama on Life with Barack Today and What's Next: 'We're Not Gone, We're Just Breathing, Y'all,'" People, May 12, 2017.
- (11) Krissah Thompson, "The Obamas Just Signed a Jumbo Book Deal: Here's Why a Publisher Is Betting Big on Them," Washington Post, Mar. 1, 2017.
- (12) @michelleobama, Twitter, Feb. 25, 2018.
- (13) Emma Stefansky, "Michelle Obama's Must-Read Memoir Hits Shelves This Fall," Vanity Fair, Feb. 25, 2018.
- (14) Michael D. Shear, "Coming to Netflix: The Obamas Sign Deal to Produce Shows," New York Times, May 21, 2018.
- (15) Michael D. Shear, Katie Benner, John Koblin, "Obama in Talks to Provide Shows for Netflix," New York Times, Mar. 8, 2018.

(16) Shear, Benner, Koblin, “Obama in Talks to Provide Shows for Netflix.”

(17) Shear, “Coming to Netflix: The Obamas Sign Deal to Produce Shows.”

(18) Obama Foundation website, [www.obama.org/mission](http://www.obama.org/mission). 18\_417-Lightfoot.indb 231 7/27/18 7:01 AM

(19) “What’s Next from Barack and Michelle Obama,” YouTube video, Obama Foundation, Jan. 20, 2017. [www.youtube.com/watch?v=ODVxuN6m6E8&list=LLArcv6aB35UQ7AVwqu6DBdQ](http://www.youtube.com/watch?v=ODVxuN6m6E8&list=LLArcv6aB35UQ7AVwqu6DBdQ).

(20) Katy [last name unknown], “I Got to Go the Obama Foundation Summit Concert and All I Got Was This Hope, Inspiration, and Gratitude,” I Got a Dumpster Family! blog, Nov. 2, 2017.

(21) Clare Foran, “Obama Hopes to Create ‘A Million Young Barack Obamas or Michelle Obamas,’” CNN, Mar. 26, 2018.

(22) Kanisha Bond, Erica Chenoweth, and Jeremy Pressman, “Did You Attend the March for Our Lives? Here’s What It Looked Like Nationwide,” Washington Post, Apr. 13, 2018.

(23) Paul Owen, “Obama Wants to ‘Create a Million Young Michelle and Barack Obamas,’” The Guardian, Mar. 25, 2018.

(24) Emerson Chontos, speaking at March for Our Lives at Two Wrasslin’ Cats, East Haddam, Connecticut, Mar. 24, 2018.

(25) Foran, “Obama Hopes to Create ‘A Million Young Barack Obamas or Michelle Obamas.’”

(26) Remarks by the First Lady at the White House Kitchen Garden Dedication, Obama White House Archives, Oct. 5, 2016.



